

روايات تاريخ الاسلام

لجورجي زيدان

دراسة ونقد

رسالة دكتوراه

إعداد

محمد الحسين عبد القادر

إشراف

الدكتور : عبد السلام سرحان

كلية اللغة العربية
جامعة الأزهر



بســـم اللـــه الرحمـــن الرحيـــم

" مقدمـــة "

١) موضوع البحث وبواعثـــــــه

٢) منهج البحث ومصـــــادره

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين ، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين وبعد :

فهذه مقدمة موجزة نتناول فيها بالتوضيح والبيان نقطتين هامتين هما :

١) موضوع البحث وبواعثه .

٢) منهج البحث ومصادره .

وسنخص كلا منهما ببحث ، وهاك حديثا عن البحثين :

اولا : موضوع البحث وبواعثه

لقد كنت مترددا في اختيار الموضوع الذى أتقدم به الى جامعتنا العريقة لنيل درجة " الدكتوراه " في الأدب العربي ، كما كنت توّاقا الى أن تكون الدراسة التي أتقدم بها ذات هدف سام بالإضافة إلى تحقيقها لما نصبو اليه من تمتع بما في الأدب من جمال الفكر وجلال الاسلوب المرتكز على موسيقى اللغة والأخيلة التي تمثل صورة من صور الطبيعة الجميلة أو عاطفة من العواطف الرقيقة .

لذا ظللت أبحث عن شاعر أو اتجاه شعرى يحقق ذلك الهدف الذى كنت أتطلع اليه ، وبينما أنا في غمرة البحث خطر بذهني موضوع الكتابة في الالوان الأدبية التي تحقق نوعا من الاتصال بالمثل العليا في الأخلاق والسلوك البشرى ، ذلك مثل شعر الزهاد والمتصوفة ، ومثل القصص ذوات المغزى الاجتماعي ثم الحكم والأمثال .

ومن ثم توجهت توا إلى مراجعة شعر المتصوفة والزهاد ، فوجدت أكثر شعرهم عذبا أنيقا ، والرمز فيه غاية في البراعة وحسن الإشارة ، ولكن سرعان ما تركت التفكير في أمر دراسة هذا الشعر إذ تبين لي أن دراسات كثيرة قد أعدت حوله في كتب عامة (١) وفي رسائل جامعية اكتمل بعضها ولم يكتمل البعض الآخر .

---

(١) من تلك الكتب ما يلي :
أ ــ ابن الفارض سلطان العاشقين ــ تأليف محمد مصطفى حلمي ــ القاهرة .
ب ــ عمر بن الفارض من خلال شعره ــ تأليف ــ ميشال غريب ــ بيروت .
جـ ــ شرح جواهر النصوص في حل كلمات الفصوص ــ تأليف عبد الغني النابلسي ــ القاهرة .
د ــ محي الدين بن عربي ــ تأليف ــ طه عبد الباقي سرور ــ القاهرة .
هـ ــ ابن الفارض والحب الالهي ــ تأليف محمد مصطفى حلمي ــ القاهرة .
و ــ التصوف الاسلامي في الادب والاخلاق ــ تأليف زكي مبارك ــ القاهرة .
ز ــ التصوف في الاسلام ــ تأليف عمر فروخ ــ بيروت .

تحولت بعد ذلك الى القصص والروايات ، فوقفت طويلا عند روايات بعض أدباء العصر الحديث مثل : محمد فريد ابوحديد ، وأحمد باكثير ، وعبد الحميد جودت السحار ، وجورجي زيدان لأن الاتجاه العام لهذه الروايات يوحي بذلك الاتصال الذى كنت أرنو اليه ، ومع ذلك كدت أنحي جانبا روايات جورجي زيدان ، لأنها تمثل مرحلة بدائية لرقي الرواية الفنية في الادب العربي ، ولأنها سلسلة طويلة مرتبطة بحقب زمنية تضاربت فيها الآراء والأخبار ، الا أنني سرعان ما عدت الى ايثار روايات جورجي زيدان بالدراسة . فما بواعث هذا الايثار ، وما دواعيه ؟؟

هناك عوامل كثيرة تآزرت وعملت على تقوية هذا الايثار والسير في طريقه بهمة ونشاط ، وأهم تلك العوامل ما يلي :

أ - ما وضح لي في أثناء قراءاتي القديمة والحديثة لتلك الروايات من أن معظم أحداثها التاريخية قد حرّفت وبنيت على أساس فاسد ، وما تبين لي من أن كاتبها باحث قدير ، ظل ينقّب وينقّر ويجهد نفسه في مزج الحق بالباطل وتقديمه في أسلوب براق جذاب معتمدا على فن أدبي ذى اثر بالغ في قطاعات مختلفة ، ذلك هو فن القصة أو الرواية وهو في تلك الروايات لم يكن حريصا على تحرى الحقائق التاريخية قدر حرصه على الحبكة القصصية وخلق الحوادث المثيرة خلقا ثم نثرها هنا وهناك ، وهذا أمر تؤكده عشرات الصفحات التي كان زيدان ينسجها من خياله حول حادث لا يتطلب سرده أكثر من بضعة أسطر ، وقد يكون الحادث نفسه من نسيج الخيال .

ولبيان هذا وذاك رأيت ضرورة قصوى لبحث الموضوع ودراسته .

ب - شهرة جورجي زيدان ، وشدة تأثر الناس به ، لسهولة اسلوبه ، وجمال تصويره ، وعمق سحره ، خاصة من الناشئة العربية التي تربت في ظلال الاستعمار الذى كان ولا يزال يعمل جاهدا على طمس التاريخ الاسلامي وتشويه معالمه بغية تنفير أبناء العرب والمسلمين من ماضي آبائهم المجيد ، والذى أعمل معاوله في هدم معالم الدين الاسلامي واستعباد أهله ، بيده تارة ، وبيد الحاقدين من أبناء العرب تارات ، ولهذا كان لا بد من دراسة جامعية تضع النقط فوق الحروف ، وتركز على الادلة والبراهين ، لعلها تساعد في تذكير الغافلين وايقاظ النائمين من أبناء المسلمين ، وترد كيد تلامذة المستشرقين في نحورهم .

جـ - ان روايات جورجي زيدان لم تحظ بالدراسة التي توضح سمتها وطابعها الفني ، أو تحدد مدى تمسك كاتبها بأصول هذا الفن وقوانينه ، ثم تميط اللثام وتزيل القناع عن الهدف

الذى كان يقصد اليه كاتب هذه الروايات ويعمل بكل جهوده من أجل تحققه •

لم يوجد أى نوع من الدراسة التي تنحو ذلك المنحى خلا المقالات القليلة التي كتبها أصحابها إبان ظهور تلك الروايات محاولين تهذيبها ومركزين على بعض الاحداث الواضحة الافتعال والتكلف ، وعدا الجهد الذى قام به بعض اساتذة التاريخ الاسلامي في الجامعة المصرية القديمة ، إلا أن جهدهم هذا قد تمثل في محاولة تنقية تلك الروايات مما كان يؤخذ عليها ، ولم يمل إلى جانب الدراسة أو النقد والتقويم ، ثم ظهر مؤخرا كتيب في سلسلة اعلام العرب للاستاذ محمد عبد الغني حسن الذى اكتفى بالثناء والإطراء ومحاولة إبراز الجوانب المشرقة من أعمال زيدان وكتاباته ، كما ظهرت دراسات سريعة في ثنايا بعض الكتب التي أرخت للرواية العربية وأطوارها واتجاهاتها المختلفة •

لتلك الأسباب مجتمعة رأيت ضرورة اختيار روايات تاريخ الاسلام لجورجي زيدان مجالا لدراستي ، وجعلها مادة لبحثي المشار اليه ، على أن يكون تناولي لها تناول الدارس الناقد ، حتى أتمكن من تبين مدى اكتمال الصورة الفنية الى جانب نظافة المضمون الفكري وسلامته ، أو أتثبت من عدم تحقق شيء من ذلك ، مع بيان العلل والاسباب اللائحة في هذا المجال والتي أدت إلى الابتعاد عن هذا الهدف وذاك التصوير •

ثانيا : منهج البحث ومصادره

لما كان هدفنا من دراسة روايات جورجي زيدان هو تبين مدى اكتمال الصورة الفنية والحبكة القصصية ثم اكتشاف سلاسة المضمون الفكرى وسلامته أو تخلف هذه وتلك كان لا بد لنا من الاعتماد على المنهج التاريخي النقدى ، ذلك لأن روايات جورجي زيدان روايات تاريخية صرفة في موضوعاتها ، ولا يمكن الوصول الى ذلك الهدف من دراستها إلا بعد تحقيق أحداثها التاريخية وتحديد مدى إمكانية الاعتماد على المصادر المستقاة منها ، كما لا بد من دراسة الحقبة التاريخية التي عاش فيها جورجي زيدان ، ثم تقديم لمحة عن تاريخ الرواية العربية ، لتبيين مكانة روايات زيدان بينها ، وتحديد أثرها في الأدب العربي الحديث ، ثم تطبيق أصول وقواعد فن الرواية عليها •

لهذا ارتضينا المنهج الذى يسمى " المنهج التكاملي " الذى يجمع بين الدراسة التاريخية والنقدية ، ومن ثم قسمنا البحث إلى ثلاثة أبواب تسبقها مقدمة وتمهيد وتلحقها خاتمة ، وقد عنينا في المقدمة بإلقاء الضوء على موضوع البحث وعلى البواعث التي حدت بنا الى

ايثاره دون سواه ، كما عنينا بتبيين منهج البحث ومصادره • أما التمهيد فقد كان مقصورا على رسم صورة مجملة لحياة جورجي زيدان من حيث الأصل والمولد والنشأة ثم الثقافة والتكوين هذا إلى جانب المؤثرات العامة والخاصة في أدبه وفكره •

جاء بعد ذلك الباب الأول بلمحة تاريخية للقصة والأقصوصة والرواية في الأدب العربي ومناقشة لقول القائلين بعدم وجود القصة عند العرب القدامى مع تبيين المرحلة التي تمثلها روايات جورجي زيدان بين مراحل الرواية العربية الحديثة وأطوارها ، هذا الى جانب مناقشة وتوضيح بعض المفاهيم والمقاييس الفنية التي ارتكزنا عليها عند الحكم على روايات جورجي زيدان ،ومن تلك المقاييس : الأساس الجوهرى لاختيار المواقف الروائية ، والتفسير الفني للاحداث والمواقف ثم مدى الحرية في التجارب التاريخية ، الى غير ذلك •

وكان الباب الثاني مقصوراً على البناء الفني لروايات جورجي زيدان ، وقد تمثلت دراسة هذا البناء الفني في ثلاثة فصول ، عني الفصل الاول بتحليل روايات زيدان تحليلا فنيا ، أما الفصل الثاني فقد قصرناه على مناقشة أحداث روايات زيدان من حيث اختلاقها أو عدم اختلاقها • ومن حيث تفككها وضعفها مع بيان عوامل الضعف والتفكك ثم دراسة شخصيات روايات زيدان من حيث التحليل النفسي للشخصيات عند زيدان ، وتوضيح أبعاد حياة الشخصية في روايات زيدان • أما الفصل الثالث فقد تناولنا فيه لغة الحوار عند زيدان مبينين أهمية الحوار الروائي وذاكرين أدلة قصور الحوار عن إحياء شخصيات زيدان مع التركيز على ظاهرة اسلوب السرد عنده ، هذا إلى جانب مناقشة فكرة الصراع في روايات جورجي زيدان وطريقة حل عُقَدِها مع بيان أثر العُقْدَة في تدرج الأحداث عند زيدان والوقوف عند خواتيم رواياته لتبيين دلالاتها الفنية •

أما الباب الثالث فقد كان خاصا بالنقد والتقويم الذى اشتمل على الشبهات وردها وعلى الدوافع العَقَدِيَّة وآثارها في روايات زيدان ثم على القيمة الفنية والموضوعية لروايات جورجي زيدان •

أما الخاتمة فقد جاءت عقب هذه الأبواب الثلاثة لتجمع شتاتها وتلم متفرّقها وتحدد نتائجها في نقاط مركزة تنفع القارئ المستعجل إن شاء الله •

وكان اعتمادنا في هذه الدراسة ونتائجها على نوعين من المصادر هما :

١) نوع تطلق عليه كلمة " مراجع عامة " وهي عبارة عن الدراسات التي أعدت حول الأديب وانتاجه ، سواء أكانت تلك الدراسة خطبة أم مقالة أم حديثا إذاعيا أو كتابا قائما بذاته .

٢) نوع تطلق عليه كلمة " مصادر " ويشمل هذا النوع قسمين كبيرين هما : المصادر الاصلية وهي عبارة عن النصوص التي تركها الأديب في الجانب الأدبي والفكرى ، والمصادر الفرعية وهي عبارة عن الأشخاص الذين عاشوا عصر الاديب وخبروا اتجاهاته الادبية والفكرية عن طريق الاستماع له ومناقشة آرائه مشافهة أو كتابة .

ولا بد من الإشارة هنا إلى أننا لم نتمكن من الاعتماد على المصادر الفرعية ، وذلك لأنه لم تتح لنا فرصة الاتصال بأولئك الذين عاشوا في عصر زيدان ، إذ أن منهم من قضى نحبه ، ومنهم من ينتظر لكنه رد إلى أرذل العمر ، بالاضافة إلى أنه لم يكن هدفنا تقديم دراسة مفصلة عن حياة جورجي زيدان ، أو إعداد ترجمة وافية لشخصيته ، بل كانت بغيتنا دراسة جانب من إنتاجه الأدبي والفكرى رغبة في الوصول إلى الهدف الذى ذكرناه قبلا دون تعصب أو تحيز ، ودون تقديس للتاريخ الاسلامي ورجاله ، ذلك التقديس الذى جنح إليه بعض الكتاب بسبب ردة الفعل العنيفة للهجوم الاستشراقي الذى شنه المستشرقون وتلامذتهم على التاريخ الإسلامي ورجاله بقصد المسخ والتشويه ، نرفض هذا التقديس (١) وذاك التحيز عن عصبية ، رغبة منا في اتباع سبيل الحق ، واقتناعا بأن الاسلام — الذى ندين به وندافع عنه ما حيينا — شيء وتاريخ رجاله شيء آخر ، لأن الأفراد والقواد قد يخطئون وينحرفون — إلا من عصمه الله — بينما يظل الإسلام نقيًا صافي النبع بعيدا عن الانحراف والزيغ لأنه من لدن حكيم خبير ، فلا يسأل عن ظلم الظالمين وانحراف المنحرفين عن منهجه وخطته .

---

(١) ليس معنى ذلك أننا نريد التقليل من قدر هؤلاء الأبطال والقواد ، إذ أننا نعترف بعظمتهم ومكانتهم السامية التي استمدوها من عظمة الإسلام ، ولولا الإسلام لما كان مثل تلك العظمة التي طبقت شهرتها الآفاق ، فالتقليل من هذه العظمة ليس مرادا ، إنما المراد الإشارة إلى أن الناس قد يخطئون ولا يصح إلحاق ذلك الخطأ أو ربطه بالإسلام الذى هو منهج رباني ، كما نريد الإشارة أيضا إلى أن الإعجاب أو التقدير شيء وأن التقديس شيء آخر ، ولا سيما إذا كان تقديسا مرتكزا على التحيز والعصبية ، ذلك لأن الإعجاب أمر محمود بينما التقديس ضرب من العبادة التي لا تكون إلا للخالق جل وعلا .

وانطلاقا من هذا المفهوم سأشير في ثنايا كتابتي إلى تلك الشبهات والمفتريات التي أثارها زيدان حول الإسلام ، وأحاول دحضها مستعينا بالله الذي بمعونته ينبلج الحق ويبين وما توفيقي الا به عليه توكلت واليه أنيب .

وبعد :

فأتقدم بالشكر مجدّدا والثناء موفورا لأستاذي الفاضل الدكتور عبد السلام سرحان على ما بذل من جهد ، وما قدم من توجيه وإرشاد ، وما وجّه من ملاحظات جعلت البحث يستوي على سوقه .

كما أشكر كل من قدم لي يد العون من الأصدقاء والزملاء وموظفي دور الكتب.

• • •

تمهيـــــد

صورة لحياة جـــورجـي زيـــدان

١) أصل ومولد ونشـأة

٢) ثقافة وتكوين خـاص

٣) في زحمـة الحيـاة

٤) في موكب السياسـة

٥) في ميدان التأليف

٦) تأثر بالمستشرقيـن

٧) وفاة جورجي زيـدان

أصـل ومولـد ونشـأة

لم يكن هدفنا البحث والتنقيب عن أسرة جورجي زيدان أو البيئة التي نشأت فيها ، على أى نحو من الأنحاء التي درج عليها كتّاب التراجم في العصر الحديث ، ذلك لأننا نُعْنَى في هذا البحث بالدراسة النقدية ، البحتة لجانب من جوانب إنتاج جورجي زيدان الأدبي والفكرى .

ولما كان فصل شخصية الأديب عن عمله الأدبي أمراً غير مستساغ في مجال الدراسات الأدبية كان لا بد لنا من رسم صورة مجملة عن حياة جورجي زيدان ، لتكون تلك الصورة بمثابة الوشيجة القوية بين شخصية الأديب وأدبه إذ أنها تلقي أضواء كاشفة على دروب الفكر التي سلكها جورجي زيدان ، وتعين على تفسير ما غمض من مراميه وأهدافه التي دفعته إلى تكريس جهده ووقته في التنقيب والبحث عن تاريخ المسلمين وتدوين نتائج ذلك البحث في كتب تحسب على المراجع التاريخية أو في سلسلة من الروايات التي تسيء إلى التاريخ الإسلامي ومن ثم نقدم لمحة موجزة عن أصل ونشأة جورجي زيدان فنقول :

جورجي زيدان علم من أعلام الأدب العربي الحديث دون ريب ، شرّق اسمه وغرب عبر (هلاله) ـه الذى أهلّ على العالم العربي في سبتمبر عام ١٨٩٢ م معلنا موازرته لمجلة المقتطف (١) في أداء رسالة الأدب والعلم ولكن باسلوب ميسر وظل خفيف وشكل أنيق .

---

(١) مجلة المقتطف :

أقدم مجلة علمية أدبية راقية في العالم العربي ، وقد كانت من أكثر المجلات انتشارا وأبعدها أثرا ، أنشأها في بيروت الدكتور يعقوب صروف وفارس نمر من خريجي الكلية السورية الإنجيلية (الجامعة الامريكية) سنة ١٨٧٦م . وقد اقترح عليهما اسم المقتطف أستاذهما الدكتور فان دايك ، ثم انتقلا بها عام ١٨٨٤ م إلى القاهرة لشدة الرقابة والضغط في بيروت وقد تركت المقتطف أثرا بارزا في النهضة العلمية والادبية في العالم العربي كما كانت منبرا لأفاضل الكتاب العرب وأداة لنشر الأفكار الحديثة وإن كان كثير منها جد خبيثة وقد احتجبت عن الصدور عام ١٩٥٢م .

أســرة جورجي زيـدان :

ينتمي صاحب الهلال إلى أسرة عربية لا يعلم أصلها ، لأن أخبار أصوله لم تكـن مدونة ، وكل ما يعلم عن أخبار هذه الأسرة هو ما دوّنه جورجي زيدان نفسه في مذكراتـه قائلا : " والدي بارح بيت أبيه مع سائر العائلة(١) أشبه بالهاربين وهو طفل لا يعرف شيئا ، وربّي في بيروت أميا فقيرا ، وشغل بإعالة العائلة(١) فلم يهتم بالبحث عن أصل أرُومتنا ... " .

ولا ريب في أن هذه الفقرة لا تساعد على إماطة اللثام عن أرُومة جورجي زيدان أو كشف القناع عن نِجاره ، وقد أدرك زيدان نفسه هذه الحقيقة ولهذا لجأ إلى الاستعانـة بآراء أهل " عين عنوب " عن طريق المراسلة حينا والمشافهة تارة ، فأتته أخبار متباينـة وأقوال متضاربة دعته إلى استعمال الحدس والتخمين قائلا : " ويغلب على ظني أن أصـل عائلتنا(١) من "حُوران" مثل أكثر عائلات الطائفة الأرثوذكسية والغالب في اعتقادي أن أكثر أهل جَنُوبِيِّ لبنان من عرب حُوران ولعلهم من الغساسنة " .

فالمحقّقُ إذن هو انتماء جورجي زيدان إلى ذلك الأب الذي لا يعلَمُ شيئا عـن أرُومته ، والمحقّقُ أيضا هو أن جورجي زيدان قد ولد في مدينة بيروت يوم ١٤ ديسمبر عام ١٨٦١م وسط أسرة يحيط بها الفقر من كل جانب ، فقر في المال ، وفقر في الثقافة والمعرفة الإنسانية ، فنشأ مشغولا بما قد يتيسر لوالده من غذاء وكساء ، أو تفكير في أمر تعليمه ، إذ أن الوالد كان أميا ، فليس غريبا أن يكون تفكيره في تعليم ابنه استجابة طبيعية لنـداء الحاجة إلى ضبط حسابات المطعم ولم يكن ثمرة إحساس وشعور بأهمية الثقافة والتعليم .

لهذا سارع والد جورجي زيدان إلى إلحاق ابنه بمدرسة صغيرة وهو في الخامسة من عمره ولم تكن تلك المدرسة ذات شأن يذكر في مضمار التعليم مما جعل حديث جورجـي زيدان عنها حديثا مشوبا بالسخرية والتندر كما فعل من بعده الدكتور طه حسين تجـاه الكُتّاب والأزهر في كتابه " الأيام " دون رعاية لحق المعلم الذي كاد أن يكون رسولا .

يقول جورجي زيدان عن أستاذه " إلياس " صاحب المدرسـة المذكـورة :

" كانت مدرسته عبارة عن قبو واسع في بناية يعقوب ثابت بجوار مدرسة اليسوعيين الآن ثم صار هذا القبو فُرْنا بعد ذلك ، فكان أشبه بالزريبة منه بالمدرسة يجتمع فيه أبناء الحي من سن الرابعة إلى العاشرة ذكورا وإناثا يجلسون على حصير أو حصر بسطها في أرض القبو ، ويجلس هو في صدر القاعة على طرّاحة وبين يديه صندوق صغير " باشتخته " يضع عليه كتابه

(١) كذا وهو خطأ ، والصواب " الأسرة " .

ودواته وأقلامه ويجمع إلى يمينه عدة قضبان تختلف طولا ودقة يستخدم كلا منها في محله (١) .

وينتهي جورجي زيدان من الحديث عن معلمه إلى أن الفوضى وسوء المكان والعقاب كانت تسود مدرسته ، بينما كان الحزم وصرامة القوانين تسود مدرسة الشوام .

لهذا نقله والده من مدرسة الياس إلى مدرسة الشوام ولكن سرعان ما انتقل منها أيضا الى مدرسة ثالثة مكث بها عامين ثم تركها ليحل محل مستخدم ترك عمله بمطعم والده ريثما يأتي الوالد بعامل مكانه بعد أيام قليلة ، إلا أن هذه الأيام القليلة ازدادت ووصلت الى سبعة أعوام دون أن يفكر الوالد في شأن مستخدم آخر ، ولكن والدة جورجي زيدان كانت تطلب دوما من زيدان إخلاء سبيل جورجي كي يتفرغ للدراسة إلا أنه كان يحاورها ويداورها قائلا لها : إن الفتى قد أتم دراسته ولا فائدة من كثرة الدروس إلا إذا كنت تريدينه معلما أو كاتبا ، بالإضافة إلى أن كثرة الدراسة تجعله ~~عضينها~~ متحضرا كالافرنجة يأكل بالشوكة والسكين وهكذا حتى أقنعها بضرورة توجيه ابنها إلى تعلم صناعة الأحذية فتعلمها ومكث سنتين عاد بعدهما الى مطعم والده لضبط الحساب مرة ثانية ، ذلك المطعم الذى أصبح من رواده مجموعة من الأدباء وأصحاب المدارس الخاصة ومن بينهم المعلم مسعود الطويل صاحب مدرسة ليلية خاصة ، وقد وفق مسعود هذا في تشجيع جورجي زيدان على مواصلة دراسته بأية صورة من الصور إذ أن التعلم لا يتقيد بسن معينة كما جاء في الأثر " اطلب العلم من المهد إلى اللحد " وقد كان لهذا التشجيع آثار بعيدة المدى في حياة جورجي زيدان الثقافية إذ جعلته يفكر مليا في أمر تكوين ثقافته وتنمية معارفه عن طريق المجهود الذاتى ولا سيما بعد أن ذكر له الأستاذ مسعود مجموعة من العصاميين الذين استطاعوا أن يشقوا طريقهم في الحياة بجوانبها المختلفة معتمدين على أنفسهم بعد الله .

ثقافة وتكوين شخصي

لا غرابة في أن تحول مثل تلك الظروف بين جورجي زيدان وبين الدراسة النظامية ما عدا الفترة القليلة التي أمضاها في المرحلة الابتدائية ، لكن عصاميته قد ساعدته على بناء

(١) مذكرات جورجي زيدان ص ٨

ذاته وتثقيف نفسه ، تلك العصامية التي جعلته لا يدع فرصة تمضي دون أن يستفيد منها في مطالعة ما تصل اليه يده من الكتب ، أو في الاستماع إلى رجال العلم والأدب والذهاب إلى مجالسهم وندواتهم دواما .

وقد اتضح له من مخالطة العلماء والأدباء ضرورة تعلم لغات أجنبية أو لغة منها لتساعده على تحقيق غاياته التي كان يتطلع إليها لهذا قرر الالتحاق بمدرسة الأستاذ مسعود الليلية ولم يمض بها فترة زمنية طويلة إلا وقد تمكن من تحصيل أكبر قدر ممكن من اللغة الانجليزية ، ثم دأب على تنمية هذه المعرفة الجديدة ، وعمل على توسيع تلك النافذة التي ينظر من خلالها إلى تراث أمم أخرى غير أمة العرب ، بل دعاه هذا الإلمام باللغة الإنجليزية في فترة وجيزة إلى التفكير في مواصلة الدراسة التي تركها ، فقرر أن يقفز قفزة عالية تصل به إلى كلية الطب ، ويا لها من قفزة تدعو إلى التردد في وصف صاحبها بالطموح أو الطمع والغرور ، لكن المتتبع لأخبار زيدان من خلال مذكراته ومقالات أصدقائه والدارسين لحياته يشعر أن قفزته تلك كانت تعتمد على الطموح المدعوم بالعزم والتصميم والعمل المتواصل وليس على الطمع المشلول ، ولهذا وفق في دخول مدرسة الطب ونال الامتياز في الصف الأول منها ، ثم حدث للمدرسة ما حدث في سنتها الثانية ، الأمر الذى أدى إلى إغلاقها والى توجه جورجي زيدان إلى مدرسة الصيدلة التي نال منها شهادة في اللغة اللاتينية والطبيعيات والنبات والجيولوجيا والكيمياء العضوية .

ولم تقف أمنية جورجي زيدان عند ذلك الحد ، ولكنه قرر المثابرة والمكافحة حتى يتم له بناء صرح من المجد يساعده على تألق نجمه في سماء الفكر والأدب العربي ، لذا كان لزاما عليه أن يوجه وجهه شطر مصر مهاجرا ومؤملا في تكملة دراسة الطب بمدرسة طب قصر العيني ، لكنه لم يوفق في هذه التكملة إذ أن عزيمته اصطدمت بصخرة عاتية أوهت قواها لأول مرة ، تلك هي طول مدة الدراسة بمدرسة طب قصر العيني من جانب ثم ضيق ذات اليد من جانب آخر ، ومن هنا كان لا بد من الانصراف عن التفكير في دراسة الطب إلى التفكير في خوض غمار الحياة المتلاطمة الأمواج علّه يعثر على عمل مناسب يساعده على شق طريقه في زحمة الحياة ، ولكن ما هذا العمل الذى يتناسب مع همة جورجي زيدان الطموح ، ومع اتجاهه الادبي والفكرى .

في زحمة الحياة

لم يفكر جورجي زيدان الا في الأعمال التي توفر له ضرورياته من جانب وتشده الى تيار الثقافة والمعرفة من جانب آخر ، لذا جاءت موافقته السريعة على أن يعمل محررا بجريدة الزمان (١) لمدة سنة او تزيد قليلا .

توجه بعد ذلك الى السودان مرافقا الحملة التي ذهبت لإنقاذ غوردون باشا ، حيث كان مترجما لقلم المخابرات ضمن تلك الحملة ، وبعد انتهاء المهمة عاد إلى مصر لكنه لم يمكث بها طويلا إذ دعاه الحنين إلى العودة لبيروت ، مسقط رأسه ومقر آبائه وأجداده ، فعاد غير أن عودته كانت موقتة ومحددة بعشرة أشهر ، اهتم أثناءها بالدراسات اللغوية ، لأن المجمع العلمي الشرقي قد انتدبه ليكون عضوا عاملا فيه ، فدعاه ذلك إلى مطالعة اللغات الشرقية حيث عكف على دراسة العبرانية والسريانية دراسة دقيقة انتهت به إلى تأليف كتاب في الألفاظ العربية والفلسفة اللغوية .

ثم توجه بعد الانتهاء من مهمة المجمع العلمي الشرقي إلى لندن ، ليقف بنفسه على نظم الحضارة الغربية ، فوقف مفكرا ومؤملا في أن تتمكن أمة الشرق من الاقتباس ، وموازنا بين حضارتي الشرق والغرب قديما وحديثا ، ولما عاد إلى مصر انضم إلى العاملين من أجل تحقيق النهضة التي تجمع بين المستحدث من العلوم والمخترعات وبين المحافظة على سمات الشرق

جريدة الزمان :

المراد بها الجريدة التي كان يملكها علكسان صرافيان عام ١٨٨٣م ، وهذا حسب ما جاء في كتاب الأستاذ محمد عبد الغني حسن : جورجي زيدان ص ١٠ ـ ١٤ ، وهي التي اشترك زيدان في تحريرها ، أما جريدة الزمان المشهورة فلم يعمل فيها زيدان لأنها صدرت بعد وفاته ، وهي جريدة مسائية صدرت في نهاية عام ١٩٤٧ م ، وقد أصدرها ادغار جلاد صاحب " الجورنال ديجيت " الفرنسية اللغة ، وقد عهد برئاسة تحريرها إلى جلال الدين الحمامصي ولكنها توقفت عن الصدور عام ١٩٥٣م .

وعاداته وتقاليده . ولم يكن له في هذا الصدد إلا دور التوعية والتوجيه ، ولا سيما بعد أن أسندت إليه إدارة تحرير مجلة المقتطف حيث تفرغ لها سنة ثلاث وثمانمائة وألف ، توجه بعدها للقيام بأعمال أخر إلى أن تمكن من تأسيس مجلته الشهيرة " الهلال " عام اثنين وتسعين وثمانمائة وألف فأعطاها كل وقته وماله وقوته الجسمانية والفكرية حتى دهمته المنون فوضع عصا التسيار في درب الحياة المزدحم بالناس والمشاكل المتنوعة ، وبذلك طويت صفحة حافلة بالعمل والأمل مليئة بالمناشط المتعددة التي اختلفت الآراء فيها وأثيرت حولها الشبهات والشكوك بغية الوصول إلى بَرْدِ اليقين لا نبش القبور أو قصم الظهور كما ترائى للذين لا يريدون مناقشة الآراء المشبوهة أو كشف الحقائق ، بل يؤذيهم عمل العاملين في هذا المضمار .

في موكب السياسة

لم يكن جورجي زيدان مشغولا بالسياسة أو مهتما بها قدر اهتمامه بالتأليف في مجال التاريخ والأدب ، لكنه لم ينصرف عنها انصرافا تاما ، إذ أن الأديب في تلك الفترة كان أشبه بدائرة معارف إنسانية حيث لم تعرف التخصصات ، أو فَصْلُ الفروع المتشابهة عن بعضها آنذاك ومن ثم كان الأدباء — وخاصة الصحفيين منهم — يحملون العبء الأكبر ، لأن المجتمع كان ينتظر منهم التوجيه العام ووضع الحلول المناسبة لكل مشكلة تحدث ، سياسية كانت أو اجتماعية أو غير ذلك .

وجورجي زيدان كان واحدا من أولئك الصحفيين ، بل كان يتفوق عليهم بتعمقه في دراسة تاريخ الأمة العربية السياسي والاجتماعي والاقتصادى ، لذا كان لزاما عليه أن يدلي بدلوه في بحر السياسة من وقت لآخر ، وذلك بتعليقاته على بعض الأحداث ، وبكتابته بعض المقالات السياسية ، ثم بإتاحته الفرصة للكتاب الذين يهتمون بالشؤون السياسية ويعملون على معالجة القضايا التي تهم الوطنيين على صفحات مجلته " الهلال " .

ومن يرجع إلى مجلة " الهلال " يجد الكثير من المقالات التي تعالج القضايا السياسية حسب المفهوم السياسي وقتذاك ، كما يجد آراء زيدان فيما شجر بين القوم من

خلاف سياسي أو فكرى ، وفي الزعماء والمشاهير الذين كان لهم دور واضح في سياسة الشرق العربي آنذاك ، ولم يكتف بهذه المقالات لكنه ألف كتابا عن مشاهير الشرق في السياسة والأدب والاقتصاد ، ومنهم مصطفى كامل الذى يعد زعيما للحركة الوطنية في مصر قبل الحرب العالمية الكبرى ، وعلى الرغم من أن الكتاب ترجمة وسيرة لبعض الأفراد والقواد والزعماء تضمن الكثير من آراء زيدان السياسية ، ومنها رأيه في الثورة العرابية حيث قال :

" ..... إن زعماء الجند كان أكثرهم من غير المتعلمين ، فلم يحسنوا التصرف في تلك الحركة ، فبعد أن كانت نهضة وطنية سياسية تحولت إلى ثورة عسكرية آلت إلى الاحتلال الإنجليزى وأمره معلوم ، فلما ذهبت دهشة الحرب انتبه عقلاء الأمة فوجدوا أنفسهم قد نجوا من شر ووقعوا في شرين لاعتقادهم أنهم سفكوا دماءهم وبذلوا أموالهم للتخلص من شرّ الشراكسة ـ وهم يختلفون عنهم جنسا ويشتركون معهم في الدين فإذا هم قد دخلوا في سيطرة دولة أجنبية تختلف عنهم جنسا ودينا ... ... " (١) .

ولا نود التعليق على هذا الرأى ، لأنه يمثل وجهة نظر الكاتب ، ولكل وجهة ، لكننا نحس بضرورة الإشارة إلى نموذج آخر من الكتابات التي تضمنت آراء زيدان في مجال السياسة ، وذلك النموذج هو ما كتبه زيدان من مقالات عندما نشب الخلاف بين العرب والترك على أثر إعلان الدستور عام ١٩٠٨ م دون تنفيذه وتطبيقه ، مما أدى إلى غضب بعض الاتراك ، فضلا عن تلك الغضبة التي اجتاحت العالم العربي بأسره ، فانبرى كتّاب العرب وشعراؤهم معبرين عن آرائهم تجاه ذلك الموقف ، وملهبين حماس القوم ، كما هب بعض المغرضين وعملوا على توسيع شقة الخلاف محاولين الاستفادة من الموقف المتصدع ، بينما ظهرت فئة أخرى من العرب جنحت إلى الاعتدال والبحث عن الحقيقة دون تعصب ، ومن هؤلاء رشيد رضا (صاحب المنار) الذى حاول إرجاع سوء التفاهم بين العرب والأتراك الى ما بدا من ذوى الأغراض في الآستانة ، ومن ثم دعا إلى استعمال الحكمة وعدم الانسياق وراء العاطفة .

ويبدو أن اتجاه الاعتدال هذا هو الذى كان مقبولا في وسط الكتاب والمفكرين ، آنذاك ، ومنهم جورجي زيدان الذى نحا منحى رشيد رضا في هذه المسألة ، فكتب مقالة دعا

---

(١) جورجي زيدان ـ تراجم مشاهير الشرق جـ ١ ص ٣١٤

ميل الناس إلى حُسـن الظن وإلى التريث والأناة في حل المعضلات السياسية قائلا :

" لا ننكر استخدام جمعية الترقي (١) نفوذها في الانتخابات حتى جعلت الأكثرية من حزبها وأنها تلكأت في إسناد الوظائف الكبرى إلى العرب ، ولكننا لا نحمل ذلك على رغبتها في الاستئثار بالسيادة دون العرب أو غيرهم ولكنها فعلت ذلك لعلها نظن رغبة في سلامة الدولة وصيانة الدستور الذى نالته بشق الانفس من أن تعبث بـه الأيدى اذا تولاه غير أهله ... ... " (٢) .

فالمقالات التي كانت تنحو هذا المنحى ـ بغض النظر عن قبولها من الوجهة السياسية أو عدم قبولها ـ هي التي تكشف عن مشاركات جورجي زيدان في ميدان السياسة وتؤكد أنه لم يكن سياسيا محترفا ولم يكن مهتما بالسياسة قدر اهتمامه بالتأليف والتأريخ ، لكنه كان يسجل خواطره من وقت لآخر ويبدى آراءه في المناسبات السياسية الكبيرة ليتفرغ للتاريخ السياسي وغيره .

في ميدان التأليف

بعد أن استقال جورجي زيدان من إدارة تحرير مجلة " المقتطف " تفرّغ للكتابة أو التأليف الذى أشرب حبه في وقت مبكر ، ومن ثم كثرت مؤلفاته وتعددت أنواعها ، مما يشير إلى سعة اطلاعه ، ويؤكد جلاده المضني في ميدان التأليف .

والنظرة الفاحصة لتلك المؤلفات المديدة الألوان والصور تشير إلى أنها تكاد تنحصر في الجانب التاريخي سواء أكان تاريخا مباشرا أم تاريخا عن طريق الرواية والقصة ، أم عن طريق دراسة أطوار الظواهر اللغوية أو غير ذلك من الدراسات التي تدور في فلك التاريخ وتسبح في دارته ، وذلك يدعونا إلى القول بأن جورجي زيدان كان مشغوفا بالتاريخ

---

(١) جمعية الترقي : هي في الأصل منظمة سرية ثورية ألفت في سالونيك وأطلق عليها اسم " الاتحاد والترقي " كانت تعقد اجتماعاتها في بيوت بعض اليهود المنتمين للجنسية الايطالية والجمعيات الماسونية إذ أن جنسيتهم هذه كانت تحميهم من الخضوع لأوامر القبض التي يصدرها السلطان ومن تفتيش الشرطة لمنازلهم أو محاكمتهم أمام المحاكم التركية لأن لهم محاكمهم القنصلية الخاصة .

(٢) مجلة الهلال ـ المجلد ١٧ ص ٤١٥

وخاصة العربي والإسلامي منه ، وما فتئ ينقب في كتب التاريخ إلى أخريات حياته مخلفا وراءه ذلك التراث الضخم الذى ذاع واشتهر ، بل راج وانتشر ، ولا يزال مرجعا هاما لدى كثير من الباحثين الذين يجهلون حقيقته .

ومن ثم يحق لنا ـ ولكل باحث ـ أن نضع ذلك التراث على نضد البحث والدراسة النقدية المفصلة ، ولكن قبل تلك الدراسة المفصلة لا بد لنا من وقفة قصيرة هنا لنجيب فيها اجابات مجملة عن بعض التساؤلات التي قد تخطر بذهن كل قارئ لروايات جورجي زيدان او مؤلفاته التاريخية ، ويمكننا أن نحصر تلك التساؤلات في جانبين هامين هما :

اولا : لماذا قصر جورجي زيدان جهده على الدراسات التاريخية وخاصة التاريخ الاسلامي ؟ مع أن تكوينه الثقافي كان قمينا بأن يوجهه وجهة أخرى غير التاريخ ، ثم انه لم يكتب بدافع الاعجاب بمواقف المسلمين البطولية ، فما بواعث هذا الجهد المضني في مجال يجر الشبهات نحو جورجي زيدان / الذى كان يرتدى وشاحا دينيا يبعده عن الحديث في تاريخ المسلمين ؟؟

ثانيا : هل كان تاريخ المسلمين مهملا ؟ أم كانت مواقفهم البطولية مبعثرة لم يضمها عقد فريد من كتب المؤرخين الثقات فأصبح تاريخهم في حاجة الى تجميع وتمحيص من زيدان وأمثاله ؟!! أم أنه قد دون ولكن بطريقة تعوزها الفنية وتنقصها المنهجية الحديثة فجاءت كتابات زيدان لتسد تلك الثغرة وتكمل ذلك النقص أم ماذا يا ترى ؟ .

إن الإجابات التفصيلية على هذه التساؤلات ستأتي في ثنايا هذه الرسالة لكننا نقدم هنا اجابات مجملة فنقول :

هناك بواعث عقدية وفنية دفعت جورجي زيدان الى تكريس جهده ووقته في تدوين تاريخ المسلمين ، ولا تفسير لهذه الدوافع العقدية ـ في رأينا ـ سوى التعصب الديني من بعض المسيحيين الذين يكيدون للاسلام ويزعجهم انتصاره وانتشاره ، ومن ثم كانوا يجنحون الى التبشير والتعصب الديني في صور متعددة وطرق مختلفة .

وجورجي زيدان واحد من أولئك المتعصبين المبشرين الا أن تعصبه لم يكن مكشوفا ، ولكن كان متسربلا برداء الفن القصصي ومتدثرا بثوب فلسفة التاريخ ومنهجيته .

وفي اعتقادنا أن كثيرين من أمثال جورجي زيدان لم يستغلوا هذه المنهجية وتلك الفلسفة لغايات نبيلة ، لكنهم اتخذوها وسيلة لتحقيق مأرب خبيث وطريقة لتشويه التاريخ الاسلامي لا تيسيره .

ولا أدل على هذه الحقيقة من الروايات التي كتبها جورجي زيدان ، تلك التي تمنى عناية خاصة بوضع هالات مثالية حول الأديرة والكنائس ، وتجنح الى تصوير الخلفاء والصحابة بصورة الوصوليين الذين يضحون في سبيل الملك بأقرب الناس اليهم .

فالقارئ لروايات جورجي زيدان ومؤلفاته التاريخية قراءة تفكير وتدبر يجد فيها ما يذهل العقل والفكر من تشويه للتاريخ الاسلامي يتمثل الدس الرخيص والعرض المسيخ الذى لا جاذبية فيه ولا روح وتحوير المواقف عن طريق الاستنتاج المتكلف والاستقراء الناقص .

ولا نشك في أن ذلك الاستنتاج المتكلف وهذا الاستقراء الناقص ثم العرض المسيخ أمور تكشف عن الدوافع الحقيقية التي حدت بجورجي زيدان ودفعته الى التفرغ لكتابة التاريخ في شكل قصص وروايات مشبوهة .

أما قضية إهمال التاريخ الإسلامي وإغفال المؤرخين الثقات تدوينه وتمحيصه فهي قضية لا يختلف منصفان في بطلانها ، لأن النظرة السريعة الى مكتبة التاريخ الاسلامي تؤكد وجود جهد مشكور في هذا المجال اذ أن المسلمين عنوا ايما عناية بالتاريخ وكتبوا في تاريخ الاسلام والعرب اسفارا عديدة استقصوا فيها أخبار الأمة في حلها وترحالها ، وسلمها وحربها ، وقوتها وضعفها وقد تميزت معظم كتبهم التاريخية بأمانة النقل ودقة الاستقصاء والتتبع .

ومن تلك المؤلفات التاريخية الهامة ما يلي :

١) تاريخ الطبرى (١) الذى يعد خير مصدر للتاريخ الاسلامي من الهجرة الى آخر القرن الثالث الهجرى ، لأن مؤلفه ينقي التاريخ من القصص الرخيصة والروايات

---

(١) ابن جرير الطبرى (٢٢٤هـ ـ ٣١٠) (٨٣٩ ـ ٩٢٣ م)
هو محمد بن جرير بن يزيد الطبرى ابو جعفر : المؤرخ المفسر الامام ، ولد في آمل طبرستان واستوطن بغداد وتوفي بها وعرض عليه القضاء فامتنع والمظالم فأبى ، ومن مؤلفاته : أخبار الرسل والملوك ويعرف بتاريخ الطبرى في احد عشر جزءا ، وجامع البيان في تفسير القرآن في واحد وثلاثين جزءا ، وهو من ثقات المؤرخين ، وقال عنه ابن الاثير " ابو جعفر أوثق من نقل التاريخ ، وفي تفسيره ما يدل على علم غزير " .

التي لا يصح سندها ، بالاضافة الى إثباته للروايات المختلفة في الموضوع الواحد ليمكن القارئ والدارس من المراجعة أو الموازنة التي تساعده في اختيار ما هو قريب من الصدق وجدير بالترجيح .

٢) تجارب الامم لابن مِسْكَوَيْهِ (١) الذى سار على طريقة الطبرى لكنه امتاز عنه بنقله التاريخ عند المسلمين نقلة جديدة ، حيث اهتم بالجوانب الاقتصادية والاجتماعية والحربية للدولة ، وعمل على استخراج العبر من التاريخ وابداء رأيه الخاص في الحوادث التي سجلها .

٣) الطبقات الكبرى لابن سعد الذى ترجم فيه لكبار الصحابة والتابعين ، حيث بدأه بسيرة الرسول عليه الصلاة والسلام ، وتتبع غزواته ومعاركه مع الكفار ، ثم ترجم لما يقرب من ثلاثة آلاف من الصحابة والتابعين .

---

(١) مسكويه (٠٠ ــ ٤٢١هـ) (٠٠ ــ ١٠٣٠ م) ... والكلمة بوزن "سيبويه"

هو أحمد بن محمد بن يعقوب مسكويه ابو علي : مؤرخ ، بحاث ، أصله من الرى وسكن أصفهان وتوفي بها ، اشتغل بالفلسفة والكيمياء والمنطق مدة ، ثم أولع بالتاريخ والأدب والانشاء وكان قيما على خزانة كتب ابن العميد ثم كتب عضد الدولة بن بويه فلقب بالخازن ، ثم اختص ببهاء الدولة البويهي وعظم شأنه عنده ، من مؤلفاته : تجارب الأمم وتعاقب الهمم بعض اجزائه في التاريخ وانتهى به الى السنة التي مات فيها عضد الدولة (٣٧٢ هـ) وغير ذلك من مؤلفات .

٤) ابن الاثير (١) الذى ألف تاريخا خاصا بالصحابة سماه " أسد الغابة في تراجم الصحابة " وتاريخا عاما سماه " الكامل في التاريخ " .

٥) ابن خلكان (٢) الذى ألف معجما تاريخيا سماه " وفيات الأعيان " ذلك لأنه ذكر فيه كل من له شهرة من العلماء والملوك والامراء والوزراء والشعراء ، ولم يستثن من المشهورين الا الصحابة والتابعين والخلفاء ، فلم يذكر منهم الا من دعت الحاجة الى ذكره .

---

(١) عز الدين بن الاثير (٥٥٥ ـ ٦٣٠هـ) الموافق (١١٦٠ ـ ١٢٣٢ م)
هو علي بن محمد الشيباني ، وكنيته ابو الحسن ، ولقبه عز الدين ، ويعرف بابن الاثير الجزرى نسبة الى جزيرة ابن عمر ، وهو ثالث ثلاثة أخوة عرف كل واحد منهم بناحية من العلوم ، فألف كبيرهم (مجد الدين) في الحديث النبوى ، وتعاطى صغيرهم (ضياء الدين) الأدب فبرع فيه ، وانصرف أوسطهم (عز الدين الى التاريخ وأشهر ما كتبه فيه كتابه الذى سماه (الكامل في التاريخ) ولم يكن عز الدين عالما في التاريخ وحسب ، بل كان أيضا اماما في حفظ الحديث ومعرفته وما يتعلق به ، خبيرا بانساب العرب وأيامهم ووقائعهم وأخبارهم ، وكان له منزلة رفيعة عند ذوى السلطان والناس حيث اشتهر بفضائله وكرم أخلاقه وتواضعه .

(٢) ابن خلكان (٦٠٨ ـ ٦٨١هـ) الموافق (١٢١١ ـ ١٢٨٢ م)
هو أحمد بن محمد بن ابراهيم بن أبي بكر بن خلكان البرمكي الإربلي أبو العباس ، المؤرخ الحجة ، والأديب الماهر صاحب وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، وهو أشهر كتب التراجم ومن أحسنها ضبطا واحكاما ، وقد ولد في إربل وانتقل الى مصر فأقام فيها مدة وتولى نيابة قضائها وسافر الى دمشق فولاه الملك الظاهر قضاء الشام وعزل بعد عشر سنين ، ثم توفي ودفن في سفح قاسيون .

وليس هؤلاء المذكورون هم كل المؤرخين المسلمين ، فإن هناك جم غفير منهم وقد حاول إحصاءهم أحد مستشرقي الألمان حيث جمع من المؤرخين المسلمين في ألف السنة الأولى ما يقرب من ستمائة مؤرخ هذا عدا من فاته منهم (١) .

ولم يسر مؤرخو العرب القدامى على طريقة واحدة في التدوين والتأريخ ، بل كانت لهم طرق مختلفة ، فمن ترجمة شخصيات وكتابة سير عامة الى ترجمة للعلماء والمشهورين كما رأينا عند ابن خلكان ، ثم تأليف في فتوح البلدان وغير ذلك حتى ظهرت فلسفة التاريخ على يد ابن خَلْدُونَ الذى وضع أصولا وقواعد جديدة للتاريخ .

ومن ثم يحق لنا أن نقول إن تاريخ العرب والمسلمين لم يكن مهملا كما يتراءى لبعض الناس اذ أن المؤرخين المسلمين والعرب قد قاموا بجهد كبير كما رأينا ، ولكن على الرغم من ذلك الجهد وجدت ثغرة في تلك المؤلفات ، لأنه لا وجود لما يسمى بالمحاكمة والاستنتاج وبيان رأى المؤرخ وآراء سابقيه ثم الموازنة والتمحيص عن طريق المقدمات المبنية على أسس منطقية ، نعم لا وجود لكل هذا في كتب المؤرخين المسلمين والعرب القدامى فبدا التاريخ العربي " ناقصا من بعض الوجوه مشوّش (٢) (مهوّش) الترتيب والتقسيم لا يستطيع الرجوع الى بعض الموضوعات الاجتماعية فيه بالسهولة التي يتمناها محبو التاريخ (٣) " ،

وقد شعر زيدان بهذا النقص وعمل بهمة على سده بمؤلفاته التاريخية كما يقول رفيق العظم (٣) ، ونحن نتفق معه في ضرورة التكملة وسد النقص لكننا لا نقبل ولا نقر أن تكون التكملة عن طريق التشويه المتعمد بحجة فنية التاريخ ومنهجيته ، أو أن تصدر باسم التيسير الذى يتخذ تُكَأَةً (٤) للاساءة الى الاسلام والمسلمين ثم يسوغ ذلك بالتسامح في نقل الأخبار كما فعل رفيق العظم حيث قال متحدثا عن جورجي زيدان :

---

(١) طه حسين وأحمد أمين ـ التوجيه الأدبي ص ١٠٧

(٢) وليس في اللغة مشوش ومشتقاتها ، وقد قال صاحب القاموس " والتشويش والمشوش والتشويش كلها لحن ووهم الجوهرى ، والصواب التهويش والمهوش " القاموس المحيط " (باب الشين فصل الشين) الجزء الثاني ص ٢٨٧ ، الطبعة الثانية .

(٣) رفيق العظم ـ حياة زيدان ص ١٢

(٤) كلمة " تُكَأَة " بوزن همزة .

" ... أما تسامحه في نقل الأخبار فانه لا ينقص من قيمة عمله العظيم ذرة لأنه ناقل ، وما الناقل بمسئول عن خطأ سواه ... ... " (١) .

نعم الناقل ليس مسئولا عن خطأ سواه ، ولكن أى ناقل هذا ؟ أهو الذى عناه الفقهاء بقولهم : ناقل الكفر ليس بكافر ؟ أم هو الناقل الذى يردد ويؤكد أية آراء للآخرين ؟ أم الناقل المنقب الممحص والباحث الدارس ؟

في اعتقادنا أن الناقل الحصيف لا بد أن يُسْأَل عن كل ما كَتَبَ أو نَقَلَ ولا سيما اذا كان نقله متعلقا بتاريخ عقيدة وفكر ، ومتصلا بعادات وتقاليد لأمة بأسرها .

وأيا ما كان الأمر فان جورجي زيدان باحث قدير ، ومؤلف شهير ، وكده التنقيب والتنقير ، ومعروف أن جميع مؤلفاته كانت تدور في اطار التاريخ أو تتصل به من قريب أو بعيد وقد عني عناية خاصة بتاريخ المسلمين بعثه واحياءه - كما يزعم - عن طريق تقديمه باسلوب مشوق جذاب وفي ثوب جديد مقبول .

زيدان والمستشرقون

لكي نتحدث عن صلة جورجي زيدان بالمستشرقين ونبين تأثره بهم لا بد من الحديث عن المستشرقين أنفسهم أولا وبيان كنههم وحقيقتهم ، ومعرفة رسالتهم التي نيطت بهم ثم الكشف عن أهمية تلك الرسالة أو خطورتها .

ومن هنا نقول : المستشرقون جماعة من علماء الغرب عنوا واهتموا بدراسة لغات الشرق وعلومه وآدابه وديانته وتاريخه وعاداته وتقاليده ، لهذا سموا بالمستشرقين ، وقد منح أكثر هؤلاء العلماء تفرغا من حكوماتهم ، وزودوا بالمال الوافر الذى يساعدهم على أداء رسالتهم ومن ثم ظهر نشاطهم في ألوان متعددة وبأساليب مختلفة منها :

١) الجمعيات الآسيوية والمعاهد التي انشؤوها لدراسة شئون المستعمرات ومعرفة لغاتها وتاريخها .
٢) المؤتمرات التي عقدوها ودعوا اليها بعض علماء الشرق وأدبائه .

---

(١) رفيق العظم - حياة زيدان - ص ١٣

٣) جمع نفائس المخطوطات العربية التي نهبت أثناء محنة العرب في الأندلس وصقلية وخلال الحروب الصليبية ٠

ولا غرابة في هذا النشاط المتعدد الألوان والصور اذا عرفنا أن " مكتبات أوربة الحالية تحوى مائتين وخمسين ألف كتاب عربي بين مخطوط ومطبوع ، وهذه الثروة الهائلة حريّة أن تتيح لمن يعيش معها ـ وقد كفلت له أسباب الوُجْدِ والرخاء ـ أن يتسع اطلاعه ويعمق نظره ، ويقرب رأيه من الصواب ـ إن كان منصفا ـ فلا بدع إذا كان بعض المستشرقين حجة في بحوثهم التي تصدوا لها ٠٠٠ ٠٠٠ " (١) ٠

ولا شك في أن نشاط المستشرقين جدير بالاشادة والتنويه على ألا يعمينا هذا الابتهاج أو يحول بيننا وبين رؤية الحق واتباعه ، هذا وقد أدرك الكثيرون من الدارسين العرب أخطاء المستشرقين ولا سيما الذين تتلمذوا على أيدى المستشرقين الا أن هؤلاء التلاميذ جنحوا الى تبرئة أساتذتهم من تلك الأخطاء وحاول بعضهم غفرانها بعد الاعتراف بها ، كأن المغفرة بيده هو ، أوكأن الجريمة قد ارتكبت في حقه دون سواه

ومن الذين أدركوا خطأ المستشرقين ـ بعد التلمذة على كتبهم ـ الاستاذ عمر الدسوقي الذى قال عنهم : " وللمستشرقين أخطاء كثيرة يرجع بعضها الى جهل بالمصطلحات العربية وعدم معرفة معانيها الصحيحة فتضللهم هذه المصطلحات وتدعوهم الى استنباطات فاسدة ٠٠٠ (٢) " ثم يعود ليقول " وعلى الرغم من كل هذا فأخطاؤهم العلمية قليلة وهي مغتفرة لهم اذا راعينا أنهم يبحثون في ديانات غيرهم ولغاتهم وآدابهم وأخلاقهم وأخطاؤنا نحن أكثر من أخطائهم وأشنع ولا نستطيع أن نغمطهم حقهم وننكر أياديهم على الأدب والأبحاث الاسلامية واللغوية والاجتماعية ونشرهم مئات الكتب والمخطوطات الثمينة التي أتاحت لنا معرفة ما كان عليه أسلافنا حق المعرفة ٠٠٠ (٤) "

(٣)

---

(١) عمر الدسوقي ـ في الادب الحديث ـ الجزء الاول ص ٤٨٨
(٢) عمر الدسوقي ـ في الادب الحديث ـ الجزء الاول ص ٤٨٩
(٤) عمر الدسوقي ـ في الادب الحديث ـ الجزء الاول ص ٤٨٩
(٣) كذا وهو خطأ ، والصواب : البحوث

عجيب أمر هؤلاء التلاميذ الذين يحكمون على أمتهم بالضعف والتأخر وارتكاب الأخطاء الكثيرة الشنيعة في دراسة الفكر والعقيدة ثم يبرئون أساتذتهم المستشرقين من الوقوع في الأخطاء الكبيرة كأنهم معصومون أو أن باعهم في معرفة ديننا أطول من باعنا ويبدو أن هذا الاعجاب والإجلال والتقدير لآراء المستشرقين ما هو الا من قبيل الشعور بالنقص الذى يوحي بالتبجيل والتقدير للغرب وعلمائه والاعتراف بفضلهم، وربما كان هذا التقدير صادرا عن غير خبث نية أو سوء طوية الا من الذين لا يؤمنون بعقيدة هذه الأمة ، أو من الذين ختم الله على قلوبهم فأصبحوا يضمرون العداء والبغضاء للاسلام والمسلمين ، نأمل أن يكون الأمر كذلك ، ونخشى أن يكون غير ذلك .

ومن هنا نستطيع أن نتبين أثر المستشرقين في جورجي زيدان وأمثاله لأنه واحد من أولئك الذين أعجبوا بآراء المستشرقين وأشادوا بها ، بل رددوها مرارا وحاولوا الترويج لها والدفاع عنها ، غير أنه لم يتتلمذ على المستشرقين تلمذة مباشرة ، لكنه اتصل بهم عن طريق القراءة لما كتبوه وعن طريق الكنيسة التي هي معبده ، اذ أن معظم المستشرقين كانوا من القسس الذين استطاعوا أن يبثوا أفكارهم في البيئة العربية بصفة عامة حتى أخذت الى عقول الكثيرين من أبناء العرب فسيطرت عليها سيطرة الخرافات والخزعبلات على عقول الأميين والعوام ، وانعكست عليها انعكاسا أورثها القتام والمتام ، ولا أدل على هذه الحقيقة من الكتب المسمومة التي ظهرت في البيئة العربيه وقتذاك ، مثل كتاب " في الشعر الجاهلي " للدكتور طه حسين الذى نشر طعونا وأفكارا مسيحية أو يهودية ذات خطورة كبيرة على الأمة الاسلامية في عقيدتها وتراثها الأدبي ، كإنكار وجود ابراهيم واسماعيل عليهما السلام ، والطعن في الشعر الجاهلي ، وغير ذلك ، ومثل كتاب " تاريخ التمدن الاسلامي " لجورجي زيدان الذى تقدم به بعد صدوره الى نظارة المعارف المصرية وطلب منها تقريره للتدريس في مدارسها ، الا أن الوزارة تريثت وشكلت لجنة لدراسة الكتاب ، وانتهت اللجنة الى أن الكتاب يشتمل على أغلاط كثيرة ، وأنه غير جدير بأن يعتمد عليه في التدريس أو المطالعة .

ونحن نعتقد أن ما بالكتاب من أخطاء ليس من قبيل الهفوات أو السقطات العفوية ، بل هي أخطاء متعمدة وتحريفات مقصودة من زيدان المسيحي الذي كان ينفذ توجيهات أساتذته المستشرقين ويردد أفكارهم وهم بين يهودي معاند ومسيحي معاد ، عدا القليل منهم .

ويا حبذا لو كانت تلك اللجنة قامت بكشف تلك الاخطاء لجمهور القراء ، ولكنها لم تغفل شيئا من هذا القبيل .. ومن ثم نرى لزاما علينا أن نذكر في ايجاز بعضا من تلك الاخطاء لنؤكد شدة تأثر جورجي زيدان بالمستشرقين .

فالقارئ للكتاب يحس أن مؤلفه جعل من العرب غرضا لسهامه المسمومة ، ويلمس أنه يرميهم بكل عيب ويقذفهم بكل شين ويعزو اليهم كل دنية وشر ، لذلك تراه يحكم على بني أمية بأنهم شر خلق الله ويصورهم بأنهم كانوا يهلكون الحرث والنسل ويقتلون الذرية وينهبون الاموال وينتهكون الحرمات . فلو صح ما ينسبه جورجي زيدان الى حكام بني أمية لما انطبق ذلك على جميع حكام بني أمية وفيهم الحاكم التقي الورع عمر بن عبد العزيز فضلا عن أن الذي حدث من بني أمية لم يتسم بالطابع الذي أراد جورجي زيدان اضفاءه عليهم وهو لم يقصد الاشارة الى انحراف القواد والافراد الذين قد ينحرفون بل أراد النيل من العقيدة التي ينتمون اليها حتى يتركها من كان يعض عليها بالنواجذ في حين أنه يعلم جيدا أن الافراد شيء والعقيدة التي ينتمون اليها شيء آخر ، لأنها قد تكون متكاملة — ولا سيما اذا كانت من لدن حكيم خبير — بينما يوجد نقص وتقصير من الافراد الذين لم يعصمهم الله ، ولا يضير هذا النقص العقيدة السليمة في شيء .

وكتاب جورجي زيدان المشار اليه لم يقتصر على ذكر تلك المعايب ولكنه اشتمل على الكثير والكثير من الدسائس وتلفيق التهم وذلك مثل القول ببشرية القرآن والشك في مصادر العربية الأولى ومدح بني العباس لانهم أنزلوا العرب منزلة الكلب ، ونسبة إحراق مكتبة الاسكندرية الى عمر بن الخطاب . وهذه هي الافكار التي أراد المستشرقون نشرها بين العرب وتفضل بعض المنحرفين من أبنائهم بالترويج لها نيابة عنهم .

فلا غرابة اذن في أن يردد جورجي زيدان مثل هذه الآراء ثم يزعم في كتابة المذكور أن الكثيرين من الناس قد رموه واتهموه بتعصبه للمسلمين على الرغم من أنه مسيحي ، وما هذه

الا حيلة من الحيل التي تعلمها من المستشرقين ليستدر بها عطف القراء ويكسب ثقتهم ، فيمكن في نفوسهم ما يريد من تهم ملفقة وعيوب منحوله .

واذا كان موقف زيدان المسيحي يثير العجب فأعجب من ذلك متابعة آراء المستشرقين من أحد علماء الأزهر — وهو الشيخ علي عبد الرازق — الذى ألف كتابا بعنوان " الاسلام وأصول الحكم " ودافع فيه بحماس عن نظرية المستشرقين التي تقول " إن الاسلام دين لا دولة " .

نخلص من هذا إلى أن المستشرقين — وإن كانت لهم جهود كبيرة في إخراج التراث الإسلامي إلى ساحات البحث والدرس — تركوا آثارا سيئة ، وآراء فجة ، لا تستند الى حجة ، ولا يؤيدها أدنى تفكير ، والذى يؤكد تلك الآثار السيئة ما يلي :

أ — ابتعاد معظم المستشرقين عن أمانة البحث العلمي .

ب — ميلهم إلى كثير من المغالطات الادبية والفكرية بدافع من التعصب الديني أو العنصرى .

جـ — الانحراف في تفسير النصوص العربية والبعد بها عن اتجاهها الصحيح بسبب عجزهم عن فهم بعض المصطلحات العربية .

د — براعتهم في زرع الشكوك ، وغرس الريبة ، وتوكيد الطعن في نفوس القراء ، وذلك لأنهم لا يذكرون الا عيبين أو ثلاثة وسط عشرات المحاسن ليخشع القارئ أمام سعة قلوبهم وساحتهم فيسيغ ذلك العيب الواحد الذى يكفي لطمس جميع المحاسن المذكورة .

هـ — عملهم على إضعاف القيم الإسلامية العليا عن طريق تقديمها في صور باهتة وعرض مسيخ ، في الوقت الذى يعرضون فيه ما يزعمونه من قيم حضارية للغرب عرضا حيا محاولين إثبات عظمتها ومبالغين في إظهار تفوقها .

و — التبشير والاستعمار اللذان هما آفة الآفات وأهم الأهداف التي يعمل معظم المستشرقين من أجل تحقيقها .

وجورجي زيدان ليس مستشرقا ، ولكنه من تلامذة المستشرقين ، وليس مستعمرا ، لكنه مسيحي متعصب ، وهو من الذين يتبعون طريقة ذكر العيوب المنتحلة وسط عشرات المحاسن — وذاك هو دليل تعصبه — ثم هو من الذين يعملون على إضعاف القيم الاسلامية في نفوس

المسلمين عن طريق العرض المسيخ والدس الرخيص ، وما ذلك كله الا صدى وانعكاسا لآثار المستشرقين في جورجي زيدان بصفة خاصة وفي البيئة العربية بوجه عام .

ولسنا في حاجة الى تقديم الوثائق والمستندات التي تؤكد صلة جورجي زيدان بالمستشرقين ، فتلك مسألة ثابتة ومقررة حتى عند المعجبين بزيدان والمدافعين عنه ، مثل الاستاذ محمد عبد الغني حسن الذي تحدث عن صلات زيدان بالمستشرقين قائلا :

" ولا شك أن أبحاث زيدان ودراساته ومقالاته في الهلال كانت سببا الى عقد الصلات بينه وبين المستشرقين الذين كانوا يقبلون على قراءة مجلات ذلك العهد متابعة لسير النهضة العلمية في الشرق العربي ... " (١) ثم يقول :

" وعلى الرغم من انقطاع زيدان الى البحث في صومعته بدار الهلال أو في بيته بالفجالة فانه كان يتلقى رسائل من المستشرقين تأتيه بانتظام وتؤكد قيام التبادل العلمي بينه وبينهم ، كما كان يستقبل من وقت لآخر أفرادا من هؤلاء المستشرقين الذين كانوا يفدون الى مصر ، والى القاهرة بالذات لأغراض علمية أهمها البحث عن مخطوطات مخبوءة في مكتبات القاهرة العامة ... الخ (٢) .

ويقول : " ولقد كان المستشرقون الوافدون الى مصر يجعلون زيارة " مجلة الهلال " وزيارة صاحبها جورجي زيدان هدفا من أهدافهم ، ويضعونها في تخطيط برامجهم للرحلة (٣) وكل هذا وذاك لا يكشف عن آثار هذه الصلات السيئة وغير السيئة منها على زيدان واضرابه فقط بل على البيئة العربية بصفة عامة ..

---

(١) محمد عبد الغني حسن — جورجي زيدان ص ١٧٤ ط الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر .

(٢) محمد عبد الغني حسن — جورجي زيدان ص ١٧٦ ط الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر .

(٣) محمد عبد الغني حسن — جورجي زيدان ص ١٧٨ ط الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر .

وفاة جورجي زيدان

لقد سطع نجم جورجي زيدان في سماء الأدب والفكر زهاء ثلاثين عاما ثم أفل دون توقع أو انذار اذ لم يصب بعلة ، ولم يشكُ نصباً أو وصباً ، فكأنما كان حتفه في طموحه ودأبه المتواصل ، وكأنما قصدت المنية فجيعة أهله ، بل أرادت امتحانهم ، فاختطفته بغتة من بين كتبه وأوراقه دون أن تترك أثرا من آثار الموت على وجهه ، فحسب أهله أنه في حالة اغماءة وسيفيق منها بعد لحظات ، بل ارتابوا في قرار الأطباء الذى أكد موته ، ولذا رفضوا دفنه وطالبوا بابقائه حتى الصباح أملا في عودته أو فدائه ولكن هيهات هيهات .

مات زيدان الأديب المؤرخ وسجي في قبره على الرغم من ارتياب أهله وأبنائه ، فبكاه الكثيرون ورثاه جم غفير من أصدقائه ومعارفه ومحبي الأدب والفكر وفي مقدمتهم فطاحل الشعراء آنذاك ،ومنهم أحمد شوقي الذى قال في رثاء جورجي زيدان قصيدة جاء فيها :

وضعت خير روايات الحياة فضع ... رواية الموت في أسلوبها العالي

وصف لنا كيف تجفوا لروح هيكلها ... ويستبد البلى بالهيكل الخالي

وهل تحنُّ اليه بعد فرقته ... كما يحن الى أوطانه الجالي

هضاب لبنان من مشماشك اضطربت ... كأن لبنان مرمي بزلزال

كذلك الأرض تبكي فقد عالمها ... كالأم تبكي ذهاب النافع الغالي

ومنهم حافظ ابراهيم الذى افتتح مرثيته بالاشارة الى أن الأرزاء قد عقدت لسانه وأنه قد سئم الوقوف على المنابر لرثاء الراحلين من أصدقائه :

دعاني رفاقي والقوافي مريضة ... وقد عقدت هوج الخطوب لساني

فجئت وبي ما يعلم الله من أسى ... ومن كمد قد شفني وبراني

مللت وقوفي بينكم متلهفا ... على راحل فارقته فشجاني

ومنهم ولي الدين يكن الذى نظم قصيدته مناجيا الفقيد بقوله :

يا ساهرا والليل يمثر بالكرى	عجبا هجعت وما عهدتك تهجع
بين المحابر والدفاتر مجلس	هو للمعارف والمعالي موضع
خسف الهلال به عشية تمه	من بعد ما قد كان منه يطلع
هي ضجعة ما أعقبتها نهضة	فقضى الضجيع كما أقض المضجع

وقد نشرت مجلة المقتطف في عدد اغسطس ١٩١٤ م نعيا لجورجي زيدان جاء فيه :
"إن صاحب الهلال توفاه الله بغتة في يوم الثلاثاء مساء في ٢١ يوليو سنة ١٩١٤م " .

ويبدو أن الكثيرين من الناعين والمسجلين لتاريخ وفاة جورجي زيدان قد أذهلهم الرزء وشغلهم القضاء عن التأكد من تاريخ الوفاة فجاءت تواريخهم متناقضة . ذلك لأن الاستاذ يعقوب صروف يرجع تاريخ الوفاة الى ٢١ يوليو سنة ١٩١٤ كما رأينا . بينما يرجعه عمر رضا كحاله الى ٢١ سبتمبر . وترجعه دائرة المعارف الاسلامية الى ٢١ اغسطس .

وقد انزعجت لذلك الاختلاف التاريخي في عصر التدوين والتسجيل . ومن ثم رأيت ضرورة البحث والتحقيق علني أعثر على ما أوقع الناس في ذلك الخطأ الذى لا يتناسب مع العصر الحديث وبينما أنا في غمرة البحث اذا بالاستاذ عبد الغني حسن يخرج كتابا عن جورجي زيدان في سلسلة اعلام العرب . واذا به يتولى تحقيق ذلك التاريخ الذى أزعجني ما حدث فيه من تناقض فكفانا مؤونة البحث . لذا نثبت هنا النتائج التي توصل اليها معترفين بسبقه ومشيدين بجهده في هذا الجانب .

يقول الأستاذ عبد الغني حسن : " والذى اتضح لنا بعد التحقيق والمراجعة لصحافة ذلك العهد ومجلاته الأدبية أن كراتشكوفسكي قد جاءه الخطأ في التاريخ مما نقله عن مجلة الهلال عدد اكتوبر سنة ١٩١٤م وهو أول عدد من الهلال يصدر بعد وفاة صاحبه وقد نشر النعي فيه مطولا مفصلا . ولكن حدث خطأ مطبعي في شهر وفاة زيدان لم يفطن اليه كاتب النعي ولا ادارة الهلال ذاتها ولا أحد من أبناء الفقيد وأسرته . وظل هذا التاريخ مرجع المترجمين لسيرة زيدان وعلى رأسهم المستشرق كراتشكوفسكي فلم يفطن اليه ودونه في دائرة

المعارف وأخذه شارحو ديوان حافظ ابراهيم وهم الاساتذة أحمد أمين وأحمد الزين وابراهيم الابيارى، فذكروا هذا التاريخ بدون تحقيق ولا تصحيح . وعلى الرغم من أن نبأ وفاة زيدان الذى نشر في آخر أجزاء تاريخ آداب اللغة العربية هو ٢٢ يوليو سنة ١٩١٤ م وهو أقرب التواريخ مظنة للصحة فاننا (١) لا نميل اليه فقد يكون خطأ مطبعيا صارخا كالذى وقع في عدد اكتوبر من الهلال . وهو التاريخ الذى خدع المستشرق كراتشكوفسكي فأوقعه في وهم كبير . ونميل الى التاريخ الذى ذكره الدكتور صروف في مقتطف اغسطس سنة ١٩١٤ م وهو يوم الثلاثاء مساء في ٢١ يوليو سنة ١٩١٤ م . ولعل السر في فرق يوم واحد بين التاريخ الذى ذكره صروف والتاريخ الذى جاء في سيرة زيدان بآخر الجزء الرابع من تاريخ آداب اللغة العربية يرجع الى أن أهل زيدان شكّوا ساعة الوفاة في وفاة الرجل ... (٢) " .

نعم مات جورجي زيدان . وبقيت كتبه ومؤلفاته على سقف التاريخ . لكنها لم تحظ بمنقب أو دارس . حتى قيض الله لها دور النشر في لبنان لتعيد طبعها ولا سيما الروايات التي أعادتها في طبعات عديدة مزدانة بالصور الخليعة والألوان الصارخة بقصد استهواء الشباب وحملهم على قراءة هذه الكتب التي لا تعطيهم إلا صورا مشوهة لتاريخ أمتهم وأخبارا ملفقة بغية التشكيك في ذلك التاريخ . بدليل تذييلهم لمعظم صفحات الروايات بأسماء المصادر والمراجع التي يقال إن المؤلف قد رجع اليها . وبدليل أنهم لم يفكروا يوما في كتابة تنبيه للقراء بأن معظم أحداث هذه الروايات اعتمد فيها المؤلف على خياله الخصب دون مراعاة لقداسة الشخصيات التي ورد ذكرها ودون ميل إلى عطية الاختيار والانتخاب الأدبي الذى يدعو إلى الأخذ بالروايات الصحيحة أو التي تقرب من الصحة كي يحس القارئ بمعقوليتها .

هذا التذييل من عمل الناشر

---

(٢) محمد عبد الغني حسن ـ جورجي زيدان ص ٢٠٦ ـ ٢٠٧

(١) كذا وهو خطأ كما أسلفنا قريبا ، والصواب حذف « فإننا »

الباب الأول

الرواية التاريخية

الفصل الاول
لمحة تاريخية

١) تحديد مفهوم القصة قديما وحديثا .
٢) القصة عند العرب القدامى .
٣) مناقشة القول بعدم وجود القصة عند العرب .
٤) القصة والأقصوصة والرواية .
٥) الرواية العربية الحديثة وأطوارها .
٦) المرحلة التي تمثلها روايات جورجي زيدان .

تحديد مفهوم القصة :

ما القصة ؟ وما الرواية ؟ وهل عرف العرب القدامى شيئا من ذلك ؟

الدقة في تحديد المفاهيم تقتضينا أن نقول ان للقصة مفهومين : أحدهما قديم وثانيهما حديث ، فهي في مفهومها القديم لا تعدو الحكاية والاخبار بأحوال الأمم الغابرة أو تصوير ما آل اليه أمر القوم بغية الفطنة والعبرة كما في قصص القرآن الكريم والأحاديث النبوية ، أو التسلية والترفيه كما في عشرات القصص الشعبية العربية أو المترجمة ...

أما القصة في مفهومها الحديث فان أكثر النقاد ودارسي الأدب العربي يريدون بها " اختراع الاشخاص وتمهيد المكان وابتكار الحوادث وخلق الوقائع ونفض الصفات على ممثليها ، على أن يتجه كل ذلك الى غاية واحدة أو يتدرج الى غرض معين " (١) .

وللقصة عدة تعاريف عند النقاد الفرنسيين أهمها ما جاء في موسوعة " دى فوربير " وهو أن : " القصة حكاية مصطنعة مكتوبة نثرا تستهدف استثارة الاهتمام سواء أكان ذلك بتطور حوادثها أو بتصويرها للعادات والاخلاق أو بغرابة أحداثها ، وقد تتناول الحياة الريفية أو حياة البطولة وقد تكون أخلاقية أو نقدية أو فلسفية أو تاريخية وقد تتناول المغامرات الغريبة والحكايات العجيبة فتستثير الخيال ..." (٢) .

وأهمها أيضا ما جاء في قاموس " لتريه " من أن " القصة إما رواية واقعية حقيقية واما مصطنعة أو حكاية ملفقة تستهدف استثارة الاهتمام بتصوير العواطف والمثل الاخلاقية ، أو بغرابة احداثها ، ولغتها قد تكون قديمة أو لغة قصصية كما قد تكون نثرا أو شعرا ..." (٣) .

فالقصة اذن ــ في مفهومها القديم والحديث ــ عرض لفكرة مرت بخاطر الكاتب أو

---

(١) زكي مبارك ــ النثر الفني ج ١ ص ٢٠٤

(٢) نقلا عن كتاب القصة العربية القديمة للاستاذ محمد مفيد الشوباشي ص ١٩

(٣) نقلا عن كتاب القصة العربية القديمة للاستاذ محمد مفيد الشوباشي ص ١٩

تسجيل لصورة تأثرت بها مخيلته ، أو بسط لعاطفة اختلجت في صدره فأراد التعبير عنها بالكلام ليصل الى القراء محاولا التأثير فيهم وامتاعهم عن طريق الفن ..

ومن ثم أصبحت للقصة مكانة سامية بين الفنون الأدبية ، لأنها أسهل وألذ أنواع الأدب قراءة بل أكثرها استهواء للقراء عند جميع الأمم بالاضافة الى إمكانية تطويعها لحل القضايا الاجتماعية والمشاكل النفسية ، عن طريق تصوير المواقف وتجسيدها ...

القصة عند قدماء العرب :

لقد أنكر بعض كتابنا المحدثين وجود القصة عند العرب القدامى ، ولا غرابة في هذا الانكار طالما كان أكثر كتابنا يرددون آراء المستشرقين بقصد أو بدون قصد ، وبادراك أو دون ادراك لما تنطوي عليه تلك الآراء من عثرة وشتات ، نعم لا غرابة في ذلك لأن الكثيرين من كتابنا أنكروا على العرب كل ميزة حضارية ونظروا بعين الاستهانة والازدراء الى آياتهم الباهرة في ميادين الأدب والفن والعلم .

وقد اختلف أولئك المنكرون طرائق قِدَدًا فمنهم من جرّد الأدب العربي من القصة قائلا : " ان مزاولة القصة تقتضي الروية والفكرة ، والعرب أهل بديهة وارتجال ، وتتطلب الالمام بطبائع الناس وقد شغلوا بأنفسهم عن النظر فيمن عداهم ونفتقر الى التحليل والتطويل وهم أشد الناس اختصاراً للقول وأقلهم تعمقا في البحث ... ..." (١) .

ومنهم من يسلم بوجود القصة أو الرواية عند أمة العرب لكنه يحكم عليها بالضعف والتخلف حيث يقول " الروايات فن له شأن عظيم في آداب اللغات الافرنجية يكاد يكون أهمها ، وأما في العربية فانه أضعف فروع الأدب ، ويظهر أن العرب قلما اهتموا بهذا الفن ولا التفتوا الى ما كان منه عند اليونان لمّا نقلوا علومهم ... " (٢) .

ومنهم من يقول ان القصة موجودة عند العرب الأقدمين لكنها قليلة جدا حتى لا تكاد تذكر ، شأنها في ذلك شأن الأساطير ، معللين ذلك بعزلة العربي في صحرائه حيث

---

(١) أحمد حسن الزيات ـ تاريخ الأدب العربي ـ ص ٢٠٤

(٢) جورجي زيدان ـ تاريخ آداب اللغة العربية جـ ٢ ص ٣٥

يقولون : " العربي لا تكلفه غير الرمال الشاسعة ولذلك نشأ قليل الأساطير ومن ثم قليل القصص لاتصال الأولى بالثانية " (١) .

ومنهم من يشتط في رأيه فيجرد العرب من الخيال الواسع والتفكير العميق ثم الاحساس بالبناء لذا يحكم بعدم وجود القصص والملاحم عند العرب البتة فيقول : " كل تفكير العرب وكل فن العرب في لذة الحس والمادة ، لذة سريعة مفهومة مختطفة اختطافا لأن كل شيء عند العرب سرعة ونهب واختطاف ، عند الاغريق الحركة أي الحياة ، وعند العرب السرعة أي اللذة ، لم تفتح أمة العالم بأسرع مما فعلت العرب ، ومرّ العرب بحضارات مختلفة فاختطفوا من أطايبها اختطافا ركضا على ظهور الجياد ، كل شيء قد يحسنونه الا عاطفة الاستقرار وكيف يعرفون الاستقرار وليس لهم أرض ولا ماض ولا عمران ؟ دولة انشأتها الظروف ولم تنشئها الارض ، وحيث لا أرض فلا استقرار وحيث لا استقرار فلا تأمل ، وحيث لا تأمل فلا ميثولوجيا ولا خيال واسعا ولا تفكير عميقا ولا احساس بالبناء ، كل شيء عند العرب زخرف ، الأدب نثراً وشعراً لا يقوم على البناء فلا ملاحم ولا قصص ولا تمثيل ... " (٢)

هذا رأى أحد كتابنا المرموقين ، وانه لسوأة لا مثيل لها اذ أن الكاتب لم يقتصر على انكار وجود القصة عند العرب انما عمد الى تجريد العرب من كل صفة من صفات الاجتماع البشرى فضلا عن النتاج العقلي والعاطفي ، ويبدو أن الكاتب متأثر فيما ذهب اليه أشد التأثر بنظرية الجنس السامي والآرى والا لما انسلخ من أمته ليصفها بهذه الصفات التي لم نسمع بأشنع منها .

ويقول عبد العزيز البشرى : " ان العرب أخذوا عن اليونان فلسفتهم وحكمهم كما نقلوا عنهم الى العربية علوما شتى كالطب والنجوم وغيرها ولكنهم لم يأخذوا عنهم فن القصص وخاصة القصص التمثيلي " (٣) .

على أن البعض من الكتاب المعتدلين ـ الى حد ـ يعترفون بوجود نوع من القصص عند العرب القدامى يتميز بطابعه الخاص ويمتاز بصدق تصويره وتعبيره فهو مختلف كل الاختلاف

---

(١) محمود تيمور ـ نشوء القصة وتطورها ص ١٨

(٢) توفيق الحكيم ـ تحت شمس الفكر ص ٧٤ ـ ٧٥

(٣) عبد العزيز البشري ـ المختار ج ١ ص ٢٤

عن القصة الحديثة ، فيقولون : " لم يكن للقصة قبل العصر الحديث شأن يذكر عند العرب بل كان لها مفهوم خاص لم ينهض بها ولم يجعلها ذات رسالة اجتماعية وانسانية .. " (١) .

ويذهب آخرون الى أنه لم يوجد لدى العرب ما يمكن ان يطلق عليه اسم قصة ، الا أن هذا الفريق يسلم بوجود بذور أولية عند العرب كان يمكن أن تكون النواة الاولى للقصة الفنية اذا وجدت الرعاية والسقي حتى تنمو وتكتمل ، ومثل هذا الفريق يقول " أما الفن الذى التصق بالواقع في تراثنا الأدبي القديم وكان من الممكن أن يتطور ويشتد عوده ويستكمل مقوماته الفنية واسلوب تعبيره حتى يتطور عنه فن القصة بمعناه الحديث ، فقد كان فن المقامة ، عندما كانت بعض مقامات الهمذاني والحريرى تتعرض لنقد الواقع والمجتمع في عصرهما على لسان أبي زيد السروجي أو أبي الفتح ... " (٢) .

مناقشة القول بعدم وجود القصة عند العرب :

واضح أن أصحاب تلك الآراء - المنكرين وغير المنكرين - كانوا يضعون نصب أعينهم القصة الغربية ، ويتخذون مقاييس من صياغتها واطارها المرسوم لها محاولين تطبيقها على الأدب العربي الذى لم يكن فيه مثل تلك القصص ، لكنه لم يخل من قصص ذات صبغة خاصة بها واطار مرسوم لها ، اذ أن الأدب العربي كله كان يصور نفسية المجتمع العربي وخلاله بدون تقصير في التصوير وهو في جوهره وثيق الصلة بالوشائج الانسانية التي هي جوهر القصص الفني وان تباينت الصياغة واختلف الاطار ، ومن ثم لا يصح أن نطبق على القصة العربية القديمة مقاييس صياغة القصة الغربية حينما نبحث عن وجود القصة عند العرب او عدم وجودها كما فعل بعض النقاد العرب الذين طبقوا تلك المقاييس على الأدب العربي وانتهوا الى ان ما وجد عند العرب من حكايات يتلهون بها ويسمرون ليست ذات قيمة فنية حتى تعد جنسا أدبيا ، ولا يمكن أن تعتبر قصة ، لأن كل الشعوب تسمر على هذا النحو البدائي (٣) وهذا رأى غير مقبول

---

(١) محمد غنيمي هلال - النقد الأدبي الحديث - ص ٥٣٠ الطبعة الثالثة .

(٢) محمد مندور - محاضرات بمعهد الدراسات العربية ، ولاحظ أن كلمة يتطور من الأخطاء الشائعة .

(٣) محمد غنيمي هلال - النقد الادبي الحديث ص ٥٣١ الطبعة الثالثة .

لأنه يحاول تطبيق مقاييس جديدة على لون أدبي وجد قبل ظهور ونضج تلك المقاييس • فتجريد الأدب العربي القديم من كل قصة يمثل حيفا وظلما للامة وتراثها ••• صحيح أن الادب العربي في جملته فقير في قصصه اذا قيس بأدب الأمم الأخرى التي عرفها العرب كاليونان والفرس والرومان • ولكن ليس معنى هذا ان يحكم عليه بالخلو المطلق من كل لون من ألوان القصص • لأن مثل هذا الحكم يؤدى ـ دون ريب ـ الى " انقطاع الصلة بين الحاضر والماضي وذلك مستحيل لأن الحاضر يقوم على الماضي ••• ••• وتدرج الأشياء عبر القرون لا يفقدها صلتها كما لا يفقدها اسمها • وإلا قلنا إن القدماء لم تكن لهم بيوت يقطنونها أو أثواب يرتدونها أو طعام يأكلونه لأن بيوتهم وأثوابهم وأطعمتهم تختلف عن مثيلاتها في الوقت الحاضر ••" (١) •

معنى هذا أن القصة العربية الحديثة ذات صلة وثيقة بالقصة العربية القديمة لأن الصلة بين شواهد الحضارة وأصلها صلة ثابتة لا يمارى فيها إلا من كان أعمى البصيرة أو كان أسير فكر ورأى مغرض • ومعنى هذا أيضا وضوح خطأ ما كنا نردده نقلا عن بعض أساتذتنا من أن القصة الحديثة التي ظهرت عندنا انما جاءت نتيجة محاكاة تامة لأدباء الغرب • لأن رأيهم هذا يغفل تلك الصلة الطبيعية التي أشرنا اليها كما أنه يغفل ما هو ثابت وواضح من أن القصة الغربية الحديثة التي يتشدقون بها ويمتدون انما جاءت نتيجة مراحل متعاقبة • ولم تصل الى قمة التكامل طفرة واحدة أو دون أوليات • لأن سنة الحياة التدرج • بل أن هذه القصة الغربية قد " سارت قدما في طريق الرقي الذى انتهى بها الى ما انتهت اليه متأثرة بالقصة العربية • وقد أشار بعض مؤرخي الأدب الاوروبيين الى أن " بوكاشيو " في ايطاليا و " شوسر " في انجلترا و " دون جوان " صاحب كتاب الديوان في اسبانيا لم يتأثروا فحسب بالقصة العربية فيما كتبوه من قصص ولكنهم اقتبسوا منها ونقلوا عنها • وهؤلاء هم الذين وضعوا البذور الاولى للقصة الاوروبية الحديثة ومن ثم تكون قصصنا العربية الحديثة حتى في حالة تأثرها بالقصة الاوروبية متصلة بالقصة العربية القديمة من طريق مباشر وطريق غير مباشر •••" (٢) •

---

(١) محمد مفيد الشوباشي ـ القصة العربية القديمة ص ٣ ـ ٤

(٢) محمد مفيد الشوباشي ـ القصة العربية القديمة ص ٦

وبهذا نستطيع أن نؤكد وجود القصة عند العرب القدامى بغض النظر عن تأثيرها في الآداب الاوروبية أو تأثرها بها ، ذلك التأثير الذى بات واضحا على الرغم من انكار بعض كتاب العرب له ، اذ أن المنصفين من النقاد الغربيين يشيرون الى ذلك ويعترفون بـــه ، والمعتدلين من كتاب العرب يثبتون ذلك الاعتراف ويشيدون به .

ولسنا في حاجة الى اعتراف هؤلاء أو أولئك اذا رجعنا الى أنصع الأدلة وأوضح البراهين ذلك هو ما جاء في القرآن الكريم من قصص في آيات متفرقة وفي سورة بأكملها ، وقد جلا هذه الحقيقة بأجمل بيان ، وأكدها بأقوى برهان أستاذنا الدكتور عبد السلام سرحان ، عندما تحدث عن القصص والتاريخ قائلا : " وهو مجال في القرآن جد فسيح ، وقد تنوعت فيه الآيات والأساليب ، وتلونت العبارات والتراكيب ، ولمع في ثناياه الاعجاز القرآني والصّبغ البياني ، وتلألأت في سمائه كواكب التعبير ذى التأثير ، وقد جاء المنهج القصصي في القرآن الكريم فنّا في روعته ، وزينا في صورته ، ومثلا في قوته ، وغاية في بيانيته ، ووراء من النسق الأدبي المحكم والنسج الاخبارى المتين ومن شمس هذا اللون القرآني الممتاز ، ونور ذلك الفن البياني الأخاذ قبسنا ثلاثة أضواء مشعة ، وَتَنَخَّلْنا ثلاثة اسلاك لامعة من أروع وأبدع ما جاء به الكتاب الحكيم !

الاشعاع الأول يصور جزءا قصيرا من قصة يوسف عليه السلام بدأ من الفترة التي بلغ فيها اليفاع واكتمل فتاؤه وأصبح مطمح الأعين ومسرح النظرات .

أما الاشعاع الثاني فيتصل بقصة العذراء مريم عليها السلام حيث أمر الرسول صلوات الله وسلامه عليه ان يذكرها في الكتاب ، ويتلو على الناس بعض سيرتها في هذا الباب " .

" أما الاشعاع الثالث فتسلط اضواؤه على قصة البدء في حياة موسى عليه السلام من ظهورها حتى فر الى مدين ودخل بيت شعيب عليه السلام ... ... " (١) .

ومجمل القول أننا نعترف بأن الأدب العربي فقير في قصصه اذا نظرنا الى طول عصوره والى النتاج القصصي عند الامم التي عاشت مع العرب في شتى اطوارهم كاليونان والفرس والرومان ، ولكنه لم يخل قط من القصص في أى عصر من عصوره وان يكن ذلك بمقدار وفي اطار خاص .

---

(١) الدكتور عبد السلام سرحان ... مختارات من روائع الادب ص٥٧٧ ، ٥٧٩ ، ٥٨١

وقد أكد هذه الحقيقة الاستاذ محمود تيمور في أكثر من موضع ، وسبق أن أثبتنا رأيه عند استعراض الآراء والأقوال في وجود القصة عند العرب القدامى ، ويجدر بنا أن نذيل هذا البحث بمناقشة الاستاذ تيمور لرأى منكرى وجود القصة عند العرب القدامى حيث يقول :

" تواطأ نقاد الأدب العربي على أن القصة العربية الحديثة انما هي وليدة مراحل متعاقبة في خلال القرن الماضي ، من الترجمة ، فالمحاكاة ، فالابتداع . فهي عندهم ثمرة البعث الجديد الذى تمخضت عنه صلات الشرق بالغرب حين اخذنا نصطنع مظاهر الحضارة في شتى أسباب المعاش وفي مختلف ألوان الثقافات ...

وعلى ذلك اجتمعت كلمة النقد واستقر رأى النقاد ، فاذا أشير الى ميراث العربية من القصص فهنالك " كليلة ودمنة " وأمثالها : عنوان القصص الحكمي و " المقامات الهمذانية والحريرية " وأشباهها : عنوان القصص البلاغي الذى يراد به التأنق في الصياغة والزخرف في التعبير و " ألف ليلة وليلة "[2] ونظائرها : عنوان القصص الشعبي ، الذى لا يمد من النثر الفني ... وما يكون لهذه الأنواع من القصص أن تنبع من بينها تلك القصة التي ترقرقت في أدبنا العربي الحديث .....

ويقول " أكاد أزعم أن الأمة العربية لا ينافسها غيرها فيما صاغت من قوالب للتعبير عن القصص والاشعار به فنحن الذين قلنا من غابر الدهر " قال الراوى " و " يحكى أن ... " و " زعموا أن " و " كان ما كان " الى آخر تلك الفواتح التي يمهد بها القصاص العربي في مختلف العصور لما يسرد من أقاصيص .

فاذا كانت قلوبنا وأذواقنا قد أشربت حب القصة الغربية واصطناع مناهجها ، فلأن الأمة العربية أمة قصصية بالطبع ، هواها للقصة منجذب ، وروحها الى الرواية تهفو، وهذا هو جوستاف لوبون يتحدث في القرن التاسع عشر عن رحلته الى الشرق فيروى ما يشهد من حظوة القصص عند المشارقة فيقول " أتيح لي في احدى الليالي أن أشاهد جمعا عربيا من الجمالين والنواتية والاجراء يستمعون الى احدى القصص ، واني لأشك في أن يصيب قاص مثل ذلك النجاح لو أنشد جماعة من فلاحي " فرنسا "[1] شيئا من أدب " لامرتين " أو " شاتوبريان " فالجمهور العربي ذو حيوية وتصور يتمثل ما يسمعه كأنما هو يراه " .

---

(١) كذا شاع ، والصواب : "فرنسة" بتاء التأنيث .

(٢) يراجع كتاب ملامح أدبية ص٨٤

وينقل جوستاف لوبون عن أحد السياح قوله : " لينظر الانسان الى أبناء الصحراء حين يستمعون الى القصص ليرى كيف يضطربون ويهدأون ، وكيف تلمع عيونهم في وجوههم السمر وكيف تنقلب دعتهم الى غضب وبكاؤهم الى ضحك ، وكيف يقاسمون الأبطال سراءهم وضراءهم . وحقا ان الشعراء في اوربة لا يؤثرون في نفوس الغربيين ما يؤثر ذلك القاص في نفوس سامعيه . "

اني لأومن اليوم بأننا نزاول فن القصة بالوان شتى من وراثات عربية أصيلة ، فأعمالنا القصصية المصرية تحمل لقاحها من أدبنا العربي العريق ومن قصصنا الشرقي التليد ....

على هذه القصص المصرية التي نكتبها تنبسط من ذلك الأدب القصصي القديم ظلال وأطياف ، بل تمتد جذور وأعراق ولا يعيا الباحث بأن يتعرفها بالدرس والتمحيص ... لا ريب عندي في أننا نفكر في موضوعاتنا القصصية ونعالج كتابتها ببعث من تلك الوراثات المتأصلة فانها لتتسرب في مشاربنا وأذواقنا واتجاهاتنا ، بكل ما فيها من قوة وأصالة وتأثير ..." (١) .

القصة والأقصوصة والرواية :

كلمة "قصة " كلمة عامة تشمل الأقصوصة والقصة والرواية الا أن المتعارف عليه بين النقاد هو تقسيم القصة الى قسمين كبيرين هما :

١ ـ القصة القصيرة .

٢ ـ القصة الطويلة التي تسمى احيانا بالرواية .

هذا باستثناء الفرنسيين الذين يقسمون الفن القصصي الى ثلاثة أنواع هي :

١) القصة القصيرة : التي تعرّف بأنها تجسيد لفكرة أو احساس .

٢) القصة المتوسطة الحجم والتي تقع في حجمها بين القصة القصيرة والقصة الطويلة ، ويراد بها القصة الإخبارية وهي التي تقوم على الأحداث لتحولها الى وسائل للكشف عن سلوك الشخصيات بطريق الايحاء وهي قليلة التحليل والوصف ، فهي شبيهة اذن بالقصص

---

(١) محمود تيمور ... دراسات في القصة والمسرح ص ٦٣ ـ ٦٦

الشُّرَطِيّة الا أن تلك تختلف عنها بأن فيها الاثارة من مهارة رجال الشرطة في المطاردة ومهارة المتهمين في الفرار •

فالفرق بينهما اذن يكمن في الهدف من كل قصة ، فاذا كان المؤلف يعتمد في قصته على الأحداث ثم يحرص على تفسيرها والبحث عن دوافع السلوك الكامنة خلفها ومنابع هذا السلوك في البيئة والوراثة أو في الثقافة والمجتمع فان قصته عندئذ تعتبر من القصص الاخبارية الانسانية الرفيعة المستوى أما اذا لم يفسر المؤلف تلك الأحداث ولم يبحث عن دوافعها النفسية والخلقية ، ولكنه اعتمد على الاحداث لمجرد اثارة الخيال والانفعال فيسمى هذا النوع بالقصص الشرطية البوليسية " •

٣) القصة الطويلة : وهي التي تسمى في أدبنا العربي الحديث بالرواية وتشتمل على جميع عناصر القصة من حكاية وتحليل وحوار وشخصيات ووصف وهدف • ثم يتفرع هذا النوع الى أنواع أخرى حسب غلبة عنصر على بقية العناصر • فاذا تغلب عنصر التحليل سميت قصة تحليلية واذا غلب عنصر الوصف سميت قصة وصفية ، أما اذا غلبت فيها الاحداث والوقائع فتسمى تمثيلية " درامية " •

لكن بعض كتابنا المحدثين يرى أن " القصة والرواية على نسق واحد ولا فرق بينهما الا أن الاولى ذات حادثة واحدة قصيرة ، وتدور غالبا على شخص واحد أو أشخاص قلائل ، أما الثانية فطويلة وتقوم على حادثة رئيسية يتفرع عنها أو يتصل بها حوادث أخر ، وهي مع توجيهها الفكر الى بطل أو بطلين تعرض لنا عدة أشخاص وعلى الرغم مما فيها من استطراد وتفريع يشعر القارئ بأنه مسوق نحو هدف لا مندوحة عن الوصول اليه ••• " (١) •

ولا بد من الاشارة الى أن أكثر النقاد يقسمون القصة من ناحية القالب والمظهر ، فهي من هذه الناحية أربعة أنواع : الاقصوصة ، فالقصة ، فالرواية ، فالحكاية ، واليك بيان ذلك :

أما الاقصوصة أو ما يسمونه بالفرنسية Conte فهي قصة قصيرة يعالج فيها الكاتب جانبا من الحياة لا كل جوانب هذه الحياة ، فهو يقتصر على سرد حادثة او بضع حوادث يتألف

---

(١) أنيس المقدسي •• الاتجاهات الأدبية الحديثة ص ٤٥١ ـ ٤٥٢

ويلاحظ أن كلمة « رئيسية » خطأ شائع ، والصواب : « رئيسة ».

منها موضوع مستقل بشخصياته ومقوماته • على أن الموضوع مع قصره يجب أن يكون تاما ناضجا من جهة التحليل والممالجة ولا يتهيأ هذا الا ببراعة يمتاز بها الكاتب الاقصوصي ، اذ أن المجال أمامه ضيق محدود يتطلب التركيز الفني •••

وأما القصة واسمها Nouvelle فهي التي تتوسط بين الاقصوصة والرواية وفيها يعالج الكاتب جوانب أرحب مما يعالج في الأولى فلا بأس هنا بأن تطول وتمتد الحوادث ويتوالى تصميدها في شيء من التشابك •

وأما الرواية وهي التي تسمى Roman ففيها يعالج المؤلف موضوعا كاملا ـ أو أكثر ـ زاخرا بحياة تامة ـ واحدة أو أكثر ـ فلا يفرغ القارئ منها الا وقد ألم بحياة البطل أو الابطال في مراحلها المختلفة • وميدان الرواية فسيح أمام القاص يستطيع فيه أن يكشف الستار عن حياة أبطاله ويجلو الحوادث مهما تستغرق من الوقت •

أما الحكاية فاسمها Recit وما هي الا سوق واقعة أو وقائع حقيقية أو خيالية لا يلتزم فيها الحاكي قواعد الفن الدقيقة بل يرسل الكلام كما يواتيه طبعه • والحكايات في الأكثر تكون منقولة عن أفواه الناس وصاحبها يعرف بالحكّاء أو السمير ••• " (١) • (٢)

الرواية العربية الحديثة وأطوارها :

لا شك في أن أقدم لون أدبي اتخذ شكلا روائيا في أدبنا الحديث هو الرواية التعليمية التي كان من روادها الاوائل رفاعه رافع الطهطاوى وعلى مبارك اللذان قصدا من عملهما الروائي تعليم الوطنيين وتبصيرهم بالحياة الفاضلة الكريمة •••

فالبذرة الاولى للرواية العربية الحديثة تتمثل اذن في الكتاب الذى ألفه رفاعه رافع الطهطاوى وأسماه " تخليص الابريز " وفي روايته المترجمة المسماة "مغامرات تليماك " ولكن لا بد من الاشارة هنا الى أن هذين الكتابين لا يتسمان بالطابع الفني ، وذلك لعدم وجود عناصر الفن الروائي فيهما ومرد هذا راجع الى أن كاتبهما كان مشغولا بالوعظ والارشاد والتعليم •

---

(١) محمود تيمور ـ دراسات في القصة والمسرح ـ ص ٩٩ ـ ١٠٠

(٢) فن كتابة ملامح أدبية ص ١٢٦ وما بعدها من أعلام القصة.

أما ما تركه على مبارك في هذا المضمار فهو رواية " علم الدين " وقد أغفل هو أيضا عنصر الحكاية والتشويق اللذين هما روح العمل الروائي ودعامته الاساسية للاسباب التي أبعدت رفاعة عن ميدان الفن الروائي نفسها .

جاء بعد هذين الرائدين محمد المويلحي الذى ترسّم خطاهما محاولا التجديد والابتكار وقد وفق بالفعل في نقل الرواية التعليمية خطوة واسعة جعلتها تقرب من الرواية الفنية ، وذلك في كتابه " حديث عيسى بن هشام " ثم جاء بعده حافظ ابراهيم واتفق معه في الهدف وطريقة التعبير الى حد كبير ولكن على الرغم من هذا بقي كتاب حافظ ابراهيم (١) أقرب الى المقالة منه الى الرواية . ومرد هذا الى الطابع العام الذى اتسم به كل من الكتابين ، ذلك الطابع الذى أشار اليه أحد دارسي الرواية العربية بقوله : " ففي حين يسود الطابع التصويرى رواية المويلحي يسود الطابع التقريرى كتاب حافظ ، وهذا ما جعلنا نقرر أن كتاب حافظ أقرب الى المقالة منه الى الرواية ، وبدلا من أن يحاول حافظ تصوير المجتمع وعيوبه من خلال هذه المشاكل التي عرضها على سطيح وطلب رأيه فيها ... ... وهو في عرضه لهذه المشاكل لا يخضعها لنظام معين ولكنها تأتي كيفما اتفق كما أنه لا يعرض المشاكل التي تهم مجتمعه انما يعرض المشاكل التي تهمه هو ... ... " (٢) .

ولم يكن الاهتمام بالرواية التعليمية آنذاك مقصورا على من ذكرنا من الأدباء المصريين بل كان هناك أدباء آخرون في بيئات أخرى غير مصر منهم " فرح انطون " من أدباء الشام ، وقد ألف رواية بعنوان " الدين والعلم والمال " أو المدن الثلاث ، ثم كتب مقدمة لهذا الكتاب أبان فيها هدفه التعليمي حيث قال : " وسيكون اهتمامنا فيها بالمبادئ والأفكار مقدما على الاهتمام بالحوادث والأخبار وقد سميناه هذا رواية على سبيل التساهل لأنه عبارة عن بحث فلسفي اجتماعي في علائق المال والعلم والدين وهو ما يسمونه في أوروبا (٣) بالمسألة الاجتماعية .. "

ذلك هو الطور الأول من أطوار الرواية العربية الحديثة وأولئك هم رواده ، أما الطور الثاني للرواية العربية الحديثة فهو طور يعنى بالتسلية والترفيه ، وقد ظهر هذا اللون

---

(١) ليالي سطيح ، هو الاسم الذى اختاره حافظ ابراهيم لكتابه المذكور .
(٢) عبد المحسن طه بدر — تطور الرواية العربية ص ٨١
(٣) لذا والصواب : أوربة

الروائي في أواخر القرن التاسع عشر الميلادى على يد أدباء الشام الذين هاجروا الى مصر .

والذى حدا بهم الى التفكير في هذا النوع من الروايات هو رغبتهم الشديدة في اجتذاب أكبر عدد من القراء الى مجلاتهم التي أنشأوها وقتذاك ومن ثم جاءت عنايتهم بالقصة المترجمة والمؤلفة ، وخير دليل على هذا هو مجلة " الهلال " التي عنيت بنشر مجموعات كبيرة من هذا اللون الروائي منذ عام ١٨٩٢ م .

استمر تيار رواية التسلية والترفيه منذ ذلك الوقت الى يومنا هذا لأنه صادف هوى في نفوس القراء الذين كان لديهم شغف بهذا النوع من الروايات ومثيلاتها التي تقدم في المذياع "والتلفاز" ، لكن هذا الامتداد والاستمرار لم يمنع من ظهور الرواية الفنية في البيئة العربية ، اذ ظهر الى جانب ذلك قصة "زينب " للدكتور محمد حسين هيكل ، تلك القصة التي تعدّ من بواكير القصة الفنية الحديثة في البيئة العربية ، وهي التي مهدت لظهور الرواية الفنية العربية وقد أشار الى هذا الاستاذ محمود تيمور في حديث له عن القصة الفنية الحديثة قائلا : " ان مولد القصة المصرية الحديثة اقترن بمواليد جديدة أخرى شملت مرافق حياتنا الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والعقلية والادبية على السواء ، ولقد حاول الأدباء الكبار أن يصطنعوا الفن القصصي في اطاره العربي الموروث اطار المقامات وما اليها كما فعل المويلحي في حديث عيسى بن هشام الذى عرف أثر الاطار القصصي الفني الحديث في وصف الشعوب وفي تصوير واقع الحياة وفي تحليل النفس البشرية ومنازعها العميقة .. وهنا بدأت بواكير القصة المصرية في مظهرها الفني وكانت أولى هذه البواكير قصة زينب للدكتور محمد حسين هيكل التي نشرها حينذاك متخذا لها اسم " مناظر ريفية " بقلم فلاح مصرى ولما اتقدت ثورة مصر الوطنية عام ١٩١٩ وتجلى الطابع المصرى متألقا في مختلف مناحي الحياة شرع أدب القصة الفنية الحديثة يستجيب لذلك الطابع فيتناول بالوصف والتصوير والتحليل تلك الشخصيات ... " (١) .

وليس معنى حديث الاستاذ تيمور أن جميع القصص وقتذاك كانت تعني عناية تامة بالجوانب الثلاثة التي اشار اليها : الوصف والتصوير والتحليل ، لأن بعض تلك القصص كان

---

(١) مجلة الآداب البيروتية ـ السنة الثامنة ـ عدد ٩ ص ١١ عام ١٩٦٠ م

يغلب عليها عنصر التحليل والبعض الآخر يكثر فيه عنصر الوصف وهلم جرا . ومن ثم نستطيع أن نقول إن الرواية الفنية التي ظهرت مؤخرا في البيئة العربية قد تفرعت وتمددت ألوانها ، كما نستطيع أن نشير الى التصنيف الذى أعده الدكتور مندور للاتجاه القصصي الحديث عند العرب بادئا بأول نوع تفرع عن القصة الفنية الحديثة عند العرب وهو : " الاتجاه التاريخي الذى ابتدأه جورجي زيدان وجاء بعده فريد ابو حديد فجدد من معناه وجدد من وسائله وأوشك أن يخلقه خلقا جديدا في " الملك الضليل " و " زنوبيا " وتبعه في ذلك شاب ينبعث عنه الأمل هو علي أحمد باكثير كاتب " اخناتون " و " سلامة القس " و " جهاد " التي نالت احدى جوائز وزارة المعارف والقصة التحليلية تمثلها " سارة " للعقاد ، ثم أدب الفكرة الذى يصدر عنه توفيق الحكيم ، ومنحى طه حسين الذى يتميز بموسيقاه وتدفق عواطفه وأخيرا لدينا الأدب الواقعي الذى برع فيه محمود تيمور ..." (١) .

<u>المرحلة التي تمثلها روايات جورجي زيدان :</u>

يتضح من هذا العرض لأطوار الرواية العربية الحديثة أنها كانت تمثل ثلاثة أطوار بارزة هي :

١ — الرواية التعليمية التي ظهرت بواكيرها على يد رفاعة الطهطاوى وعلى مبارك .
٢ — الرواية التي تعنى بالتسلية والترفيه ولا تعنى بالتعليم وقد ظهرت على أيدى أدباء الشام المهاجرين الى مصر .
٣ — الرواية الفنية الحديثة التي ظهرت بواكيرها على يد محمد حسين هيكل صاحب رواية زينب ...

واذا بحثنا عن مكانة روايات زيدان بين هذه المراحل لوجدناها تقع في مرحلة بين الرواية التعليمية وبين رواية التسلية والترفيه ، ذلك لأنها تجمع بين التسلية والترفية والتعليم ولأنها تختلف عن الرواية التعليمية من حيث إنها تعنى بالعنصر القصصي قدر عنايتها بعنصر التعليم الا في حالات اهتمام الروائي بالتاريخ والتعليم أكثر مما ينبغي فيؤدى ذلك الى اضعاف

---

(١) محمد مندور — في الميزان الجديد — ص ٣٩

العنصر القصصي وليس الى فقدانه البتة كما يتوهم البعض ، وهذا ما نجده في سلسلة جورجي زيدان التاريخية ، فجورجي زيدان اذن هو الممهد الأول لهذه المرحلة الوسطى التي قلده فيها الكثيرون من الكتاب آنذاك وقد صادف بعضهم نجاحا وتوفيقا ، على حين أخفق البعض الآخر ولكن على الرغم من ذلك نرى هذه المحاولات وتلك الجهود قد ساعدت وعملت على وجود الرواية التي تعنى بالتسلية والترفيه ولا تعنى بالتعليم او التوجيه ، والتي مهدت بدورها لوجود الرواية الفنية في الأدب العربي الحديث .

الفصل الثاني

الموقف المعبر واختياره

١) مفهوم الموقف والحدث أو الحكاية .
٢) الاساس الجوهرى لاختيار المواقف الروائية .
٣) الفرق بين اختيار الروائي والمسرحي للمواقف .
٤) تحويل المغامرات الخيالية الى وسائل فنية .
٥) طريقة اختيار زيدان لمواقف رواياته .

مفهوم الموقف والحدث أو الحكاية

ماذا يراد بالموقف أو الحدث؟ أيوجد فرق بينهما أم هما لفظان لمعنى واحد ؟ ثم ماذا يريد نقاد القصة أو المسرحية بكلمة " حكاية " ؟ أتلحق هي الأخرى بكلمتي " موقف وحدث " في معناهما أم أن لها دلالة خاصة ؟

يراد بكلمة " موقف أو حدث " مجموعة الأفعال المرتبة التي تدور حول موضوع واحد (١) وهذا هو الذى يسمى بالحكاية او الحادثة أحيانا ، غير أنه يشترط في الحكاية هنا أن تركب تركيبا فنيا بحيث تشف عن عادات وخلق واضح من الناحية الفنية (٢) وذلك ليتحقق الفرق بين معنى الحكاية هنا والحكاية التي تقدم ذكرها وهي الوقائع التي تساق سوقا دون أن يعتمد حاكيها على قواعد فنية وتسمى " Recit " .

ولو لم يتحقق ذلك التركيب المطلوب لأدى الى انخفاض القيمة الفنية للرواية او المسرحية ان لم يؤد الى فقدها ، لأن مواقفها وأحداثها تصبح عندئذ احداثا تافهة غير جديرة بالتأمل لاستخلاص الدروس والعبر ، ولأنها لا تشف عند ذاك عن عادات وخلق واضح من الناحية الفنية (٢) .

وأكثر النقاد يمثلون للحكايات التي لم يحسن اصحابها تركيب احداثها أو أفعالها في عصرنا هذا بالروايات " البوليسية " التي تعد دون القصص الأخرى من حيث المرتبة الفنية ، بل ان بعضهم يرى أنه من الممكن " أن توجد اخلاق بدون حكاية في سلسلة محادثات حوارية أو أحاديث فردية يناجي بها الفرد نفسه مثلا ، ولكن في العمل الفني الكامل تستلزم الحكاية الخلق " (٢) .

ومعنى هذا أنه لا بد من ذلك التركيب الفني للاحداث والأفعال بحيث لا تأتي المسائل الخلقية في صورة وعظية أو خطابية ، انما تستشف استشفافا من ذلك التركيب الفني المرتكز على التصوير والتعبير ، ومن ثم نجد أكثر النقاد ينحون جانبا الرأى القائل بامكان

---

(١) محمد غنيمي هلال ـ النقد الادبي الحديث ـ ص ٦٣ الطبعة الثالثة .
(٢) محمد غنيمي هلال ـ النقد الادبي الحديث ـ ص ٦٤ الطبعة الثالثة .

وجود اخلاق بدون حكاية .. ومن هؤلاء " هنرى جيمس " الذى يقول : " وما قيمة الخلق اذا لم يكن تخصيصا لحادثة من الحوادث ؟ وما قيمة الحادثة اذا لم تكن تصويرا لخلق خاص ؟ لو أن امرأة اسندت يدها الى مائدة ونظرت اليّ نظرات خاصة ذات دلالة فتلك حادثة .. " (١) .

نخلص من هذا المبحث الى أنه لا يوجد فرق يذكر بين الموقف والحدث والحكاية طالما كانت الحكاية الفنية عبارة عن مجموعة احداث مرتبة ترتيبا سببيا تنتهي الى نتيجة طبيعية لهذه الأحداث التي تدور حول موضوع عام هو التجربة الانسانية أو البشرية .

ولا بد من الاشارة الى أن هناك فرقا بين التجربة الانسانية للقصة وبين التجربة البشرية الشعرية اذ أن الاولى موضوعية اجتماعية بطبيعتها بينما تظل الثانية ذاتية في جوهرها ، ذلك لأن كاتب القصة أو الرواية لا يستطيع أن يصف مشاعره في التجربة التي عاناها وصفا مباشرا من ثنايا شعوره ولكنه يخلقها خلقا ويضفي عليها طابع التبرير والاقناع في اطار الصدق الذى لا بد منه لكل تجربة انسانية شعرية كانت أم قصصية .

وليس معنى هذا الصدق في التجربة الانسانية أن يحكي الكاتب القصصي الواقع كما هو أو يسرد رواية التاريخ كما حدث ، لأنه عندما يسلك هذا المسلك يبتعد بدون ريب عن ميدان الفن وينحرف عن محرابه ! " اذ أن الفن يستلزم ـ بطبعه ـ الاختيار بين الاحداث وترتيبها على نحو خاص مقنع فنيا بحيث توحي في عالمها المصور في القصة بالقضايا التي يؤمن بها القاص ويدعو اليها ، وفي هذا يتجاوز القاص الواقعي نَفْسُه عالم الواقع كما هو . فهذا الصدق ليس مرده وقوع حوادثه التي ساقها كما هي ولكن مرجعه الى سياقها على طريقته المقنعة واقعيا وفنيا ... " (٢) .

---

(١) الترجمة للدكتور محمد غنيمي هلال عن Henry James: The Art of Ficition "Newyork" P. 86.

(٢) محمد غنيمي هلال ـ النقد الادبي الحديث ـ ص ٥٤٦ ـ ٥٤٧ الطبعة الثالثة .

الأساس الجوهرى لاختيار المواقف

ما أكثر المواقف التاريخية التي تحتاج الى تسجيل وتدوين من المؤرخين الثقات، وتتطلب تعبيرا وتصويرا من كتاب الرواية التاريخية!! ولا ريب في أن كلا من المؤرخ والكاتب الروائي يعتمد على الانتخاب والاختيار لتلك المواقف • ولكن ما أسس اختيار هذه المواقف عند كتاب الرواية ؟ سواء أكانت المواقف احداثا تاريخية أم غيرها من المواقف والحوادث العديدة في دنيا البشر ؟

لقد اختلفت الآراء حول هذه المسألة فعلى حين يتساهل بعض النقاد ويترك الامر للكاتب ذاته ليختار ما يشاء ويعبر عما يريد-لأنه فنان ذو حرية مطلقة = نجد نقادا آخرين يجعلون لهذه الحرية حدودا وقيودا فيشترطون على الكاتب الروائي اختيار نوع من الاحداث والمواقف وفق مقاييس ومعايير معينة يمكن ان يستخلص منها الأساس الجوهرى الذى يعتمد عليه كتاب الرواية التاريخية في اختيار المواقف وهو أن تكون المواقف المختارة امتدادا لواقع الكاتب وحاضره أو تكون ذات قدرة على معالجة مشكلة من مشاكل عصره أو قضية من قضايا مجتمعه وذلك عن طريق الاخلاق والمثل التي يصورها أو عن طريق الدروس التي يستخلصها القارئ من ثنايا عبارات الكاتب وتفسيراته •

أما اذا اقتصرت عملية الاختيار على مجرد التعريف بالماضي دون بعثه واحيائه ودون استخلاص عبرة أو درس منه فلا قيمة عندئذ لتلك المواقف والأحداث المختارة ، لأنه لا فرق في هذه الحالة بين عمل الكاتب الروائي وعمل المؤرخ علما بأن البون شاسع بينهما بل ان المؤرخ نفسه أصبح يطالب بالتفسير والتعليل وبالمقارنات والموازنات ثم الترجيح ، فلا يصح اذن قصر عمل الروائي على مجرد التعريف بالماضي •

الفرق بين اختيار الروائي والمسرحي للمواقف

لا يقتصر النقاد على التفريق بين عمل الروائي وعمل المؤرخ فقط لنما ينسحب تفريقهم الى عمل كاتب الرواية من جانب وعمل كاتب المسرحية من جانب آخر ، وأهم فارق

بينهما يتمثل في عملية اختيار المواقف والاحداث •

وقد أوضح هذه الحقيقة الدكتورمحمد مندور حيث قال : " ومن السهل أن نلاحظ أن كاتب المسرحية يختلف في موقفه ازاء موضوع تاريخي عن موقف كاتب القصة ، فالكاتب المسرحي قد يختار موضوعا تاريخيا لمجرد أن هذا الموضوع فيه الامكانيات اللازمة لاثارة انواع من المشاعر أو الاحاسيس والأفكار الانسانية المطلقة التي تصعب على كل حصر ، بينما كاتب القصة لا يختار ولا يحسن له أن يختار الا الموضوعات التاريخية التي يرى في حاضره وواقعه امتدادا لها ... ... " (١) •

فالمواقف هي التي تميز فن القصة عن غيرها من الفنون الأدبية التي تصور الشخصيات كالفن المعروف باسم الصور القلمية التي نجد لها أمثلة واضحة في أدبنا العربي القديم عند كاتب كبير قدير كالجاحظ الذى رسم خصمه اللدود احمد بن عبد الوهاب المربع المستدير ، في رسالة سماها "رسالة التربيع والتدوير" ...

فكتّاب هذا اللون الأدبي يركزون همهم على رسم صورة قلمية لنوع من السلوك الخلقي المعلوم ، كالجبن والنفاق وحداثة النعمة ، ولا يتعدون هذا التصوير ، بينما يعتمد كاتب القصة على المواقف التي يصورها ويضع فيها شخصياته ليرينا كيف تتصرف تلك الشخصيات في كل موقف ثم يفسر تصرفها في تلك المواقف ويوضح دلالتها النفسية والاجتماعية والخلقية ،وهدفه عندئذ هو الكشف عن منابع السلوك الدفين عند الانسان ليزداد القارئ معرفة بحقائق الانسان وبالنفس البشرية والعوامل المختلفة التي تتفاعل في داخلها ...

ومن ثم نستطيع أن نقول : أن اهمية المواقف المختارة لا ترجع الى المواقف ذاتها بقدر ما ترجع الى تفسير سلوك الشخصيات في كل موقف والكشف عن سلم القيم الخاص بكل شخصية وسنتحدث عن هذا التفسير بتوسع في مبحث لاحق ان شاء الله •

---

(١) محمد مندور _ محاضرات معهد الدراسات العربية _ جامعة الدول العربية •
ويلاحظ أن كلمة " الامكانيات " خطأ لغوي ونحوي شائع •

تحويل المغامرات الخيالية الى وسائل فنية

عرفنا فيما مضى أن تركيز همّ الكاتب القصصي على المواقف يدعوه الى تفسيرها لتبصير القارئ بحقائق الانسان ، ولا بد من الاشارة هنا الى أن ذلك التفسير لا يقتصر على المواقف والاحداث الواقعية ، انما يمتد ليشمل المغامرات الخيالية فيحولها الى وسائل فنية لتجسيد واقع نفسي خلقي .

وعند ما يعجز كاتب ما عن تحويل المغامرات الخيالية الى وسائل فنية يتخذ النقاد من قصصه موقفا خاصا ويعتبرونها من الفن القصصي الرخيص أو الساذج الذى قد يسروق الأطفال وحدهم ويرسم لهم وسيلة لتحريك خيالهم واثارة انفعالهم .

ذلك لأنها لم تمل الى تجسيد واقع نفسي أو خلقي ولم تجنح الى تصوير فكرة هادفة أو رأى سديد بل كان هم كاتبها هو حشو القصة بالمغامرات الخيالية التي تستهوى المراهقين ، لهذا كانت الحملة على هذا النوع من القصص جدّ شديدة .

طريقة اختيار زيدان للمواقف

بعد تحديد مفهوم الموقف والحدث وتبين الأساس الجوهرى لاختيار المواقف الروائية نستطيع أن نقول ان طريقة اختيار جورجي زيدان لمواقف رواياته كانت تجرى على ذلك النسق الذى ارتضاه معظم النقاد وهو اختيار المواقف التي نرى فيها امتدادا لواقع الكاتب ، ذلك لأن المواقف التي اختارها جورجي زيدان نرى فيها امتدادا واستمرارا لواقع العرب والمسلمين ، الا أنه لم ينجح في تفسيرها لأنه لم يعتمد على تحليل الشخصيات ومحاولة استبطانها للكشف عن أبعادها انما اعتمد على السرد وتقديم المعلومات والآراء الخاصة بحضارة العصر وعادات القوم آنذاك ، كل ذلك في أسلوب سردى محض وبطريقة التعليم التي تعتمد على التلقين والتقرير لا الرسم والتصوير .

وكما عجز جورجي زيدان عن تفسير المواقف وتحليل الشخصيات تحليلا يجعلهـا نابضة بالحياة ماثلة أمام القارئ في جميع المواقف والتصرفات ، عجز أيضا عن تحويل المغامرات الخيالية الى وسائل فنية تساعد على تجسيد واقع خلقي ، أو كشف موقف انساني نبيل ، وما أكثر هذا وذاك في الفترة التي كتب عنها زيدان ، ولكن حيل بينه وبين الكشف عنها ، وذلك لأنه اتخذ من تلك المغامرات وسائل لاثارة عواطف الشباب وتحريك شهواتهم بحيث يتمكن مـن السيطرة على مشاعرهم فيسهل عليه بث سمومه وافكاره التي تجعل صورة المجتمع الاسلامـي قاتمة في نظر الشباب الذى يجب أن نجذبه دائما الى مشاهدة الصور النقية ، ودراسـة المواقف النبيلة التي تدفعه الى أن يتمسك بها وهو في قمة الاعتزاز والافتخار ، لا فـي درك الذلة والاستهتار .

ولسنا في حاجة الآن الى ذكر نماذج من تلك الوسائل الرخيصة التي اعتمد عليهـا جورجي زيدان في تحريك العواطف وبث السموم والافكار الخطيرة ، لكننا نشير هنا الـى أن زيدان كثيرا ما كان يحاول اخفاء هذه الحقيقة قائلا انه يريد ترغيب الناس في مطالعة التاريخ والاستزادة منه ، وقد جاء هذا القول في المقدمة التي كتبها لرواية الحجاج بن يوسف الثقفي حيث قال :

" قد رأينا بالاختيار أن نشر التاريخ على أسلوب الرواية أفضل وسيلة لترغيب الناس في مطالعته والاستزادة منه ، وخصوصا لأننا نتوخى جهدنا أن يكون التاريخ حاكما علـى الرواية لا هي عليه ، كما فعل بعض كتبة الافرنج ، ومنهم من جعل غرضه الأول تأليف الرواية وانما جاء بالحقائق التاريخية لالباس الرواية ثوب الحقيقة فيجره ذلك الى التساهل في سـرد الحقائق التاريخية بما يضل القراء ، وأما نحن فالعمدة في رواياتنا على التاريخ وانما نأتـي بحوادث الرواية تشويقا للمطالعين ، فتبقى الحوادث التاريخية على حالها وندمج في مجالها قصة غرامية تشوق القارئ الى استتمام قراءتها ... " (١) .

هذا ما يدعيه الكاتب لنفسه ، ولكن ترى أيّ تسامح هذا الذى يقوم على الاعتمـاد على الروايات الضعيفة في عديد من الحالات ؟ وأيّ تمهيد للدس أبعد وأشد من اختـلاق

(١) جورجي زيدان ـ رواية الحجاج بن يوسف الثقفي ـ المقدمة .

الحوادث وتلفيقها ، ومن التلاعب بالمصادر والمراجع ؟ بل كيف لا يضل القارئ أمام مئات الصفحات التي تصور بطولات غرامية تبدأ الرواية بها ولا تنتهي الا بحل عقدها ، كأنما النصر عند المسلمين رهين بالفوز والنجاح في المواقف الغرامية ، بل كأن شبابهم المحدثين لا يقرأون التاريخ الا عندما يختلط فيه الحق بالباطل والواقع بالخيال ؟؟

هذا ما يستخلص من التسويغ الذى أثبته جورجي زيدان في مقدمة روايـــة الحجاج بن يوسف عندما هجمه بعض الغُير على شباب هذه الامة وتراثها ولكنه تبرير وعــذر أقبح من الذنب في اعتقادنا ، الا اذا قلنا ان زيدان كان يكتب هذه الروايات ليلفت انظـار العامة الذين كانوا يتلهون بالقصص الشعبي وأكثره تافه كما قرر الاستاذ محمد يوسف نجـم الذى أكد أيضا أن أكثر قصص جورجي زيدان لا تلذ قراءته القارئ المثقف الذى يبحث عـن القيم الأدبية ، كما أنها لا تستهوى القارئ الذى يكره التزييف أيا كان مصدره وكيفما كـان تصويره والتفاهة التي وصف بها الاستاذ محمد نجم بعض القصص الشعبي الذى كان يتلهى به العامة قد ينسحب جزء كبير منها على معظم روايات زيدان الذى ظهر انه كان يداوى الناس بالتي كانت هي الداء .

• • •

(١)

(٢)

الفصل الثالث

الروائي وتفسير حوادث التاريخ

١) الروائي بين التصوير والتفسير ٠
٢) التفسير الفني للاحداث والمواقف ٠
٣) التفسير والتحوير للحقائق الأساسية ٠
٤) مدى الحرية في التجارب التاريخية ٠
٥) تفسير زيدان لأحداث التاريخ الاسلامي ٠

الروائي بين التصوير والتفسير

أكثر النقاد يذهبون الى أن لعرض القصة أو الرواية طرقا كثيرة يصعب تحديدها وذلك لأن حرية المؤلف في هذا اللون الأدبي لا تحدها القواعد كل التحديد " انما يعتمد المؤلف على عبقريته التي تعينه على الافادة من الطريقة التي يختارها " (١) .

ومن ثم لا يلزم كاتب القصة ببداية معينة أو منهج خاص ، بل تتاح له فرصة الاختيار للخطة التي يسير عليها ، ثم يأتي النقاد بعد ذلك للحكم على اختياره ، وعندئذ تجدهم يميلون الى الاشادة بخطته بعد استحسانها أو الى التنديد بها بعد تبين ما فيها من عيوب ومن خلال هذه الأحكام أو تلك يتكون منهج عام وتتضح طريقة يرتضيها الكثيرون .

فمثلا في وسيلة التعبير عن أحداث الرواية ومواقف شخصياتها تجدهم يستحسنون اسلوب التصوير ، شريطة أن تكون الصور ذات دلالات ايحائية " لأن الايحاء يكتسب قوة فنية تقربه من قوة الدلالة الموضوعية في القصة والمسرحية " (٢) ومن ثم يرفضون أسلوب الوصف المباشر لأنه دون الصور الايحائية أيا كان مظهر الايحاء ، ولكن لا يكفي هذا التصوير الايحائي وحده لأن الصورة قد تكون غير واضحة الدلالة في بعض الحالات ، لذا كان لا بد من عملية المزج بين التصوير والتفسير ، ذلك التفسير الذى يساعد القارئ ويأخذ بيده ، وليس التفسير الذى يطمس معالم الصورة ويجعل القارئ يضل في متاهات بعيدة ... فما حقيقة هذا التفسير يا ترى ؟؟

التفسير الفني للاحداث والمواقف

اذا كان التفسير ضروريا وملازما للتصوير فلا بد اذن من تبيين المراد به حتى لا يظن أنه التفسير الذى يطمس معالم الصورة أو القريب منه ، اذ لا يقبل أن يراد به هذا أو ذاك انما

---

(١) محمد غنيمي هلال — النقد الادبي الحديث — ص ٥٥٧ الطبعة الثالثة .

(٢) محمد غنيمي هلال — النقد الادبي الحديث — ص ٥٦١ الطبعة الثالثة .

يراد به التفسير الفني للاحداث والمواقف وهو التفسير الذى يقوم به المؤلف دون أن يظهر ظهورا مباشرا لكنه يذكر الحقائق والتأويلات من غير طابع وجداني بحيث " تبدو تلك الحقائق كأنها صادرة عن قاص محايد صاحب للشخصيات الأخرى التي لا تجرى على لسانها تلك الحقائق فلا يغضب ولا يثور على الحقائق ولا يتحمس " (١) والا لكان تفسيره تدخلا سافرا معيبا ، ولأدى ذلك التدخل الى اضعاف التحليل النفسي للشخصيات أو تقديمها في صور غير موحية أو معبرة وقد " عيب هذا على الروائيين الرومانتيكيين مثل (ولترسكوت) و (الكسندر دوماس الأب) ثم عيب على (بلزاك) نفسه في بعض مواضع من قصصه مثل هذا التدخل بالشرح والتفسير " (٢) .

فالتفسير الذى ننشده هو التفسير المنطقي الذى لا يثير شبهة ولا ينم عن خبث نية أو سوء طوية مع ملاحظة أن منطقية التفسير لا تبعد الروائي عن الخيال الذى هو دعامة أساسية في عمله اذ أنه يستطيع الارتكاز على العقل من ناحية وعلى الخيال من ناحية، وذلك عن طريق تحرى الحق ثم التصوير الفني للحوادث العظام والوقائع الهائلة ، لا عن طريق الخيال الجامح الذى يدعو الى التحوير وخلق الحوادث خلقا ، ويذهب بعضهم الى أنه " لا يصح الاعتماد في الفترة التاريخية على شيء من الخيال وخلطه بالمعلومات التاريخية والا خرجت الصورة زائفة لا تكشف عن غرض الكاتب في التاريخ للفترة التي يصفها " (٣) .

وقد وضعت كل هذه القيود لكيلا يبتعد المؤلف عن الموضوعية التي تدعوه للميل الى تصوير شخصياته بالطريقة التي تكشف عن صراعها النفسي ونظراتها الى القيم الاجتماعية السائدة ، ثم تبيين مدى تفاعلها مع أحداث المجتمع ، وقد أشرنا من قبل الى أن الايحاء التصويرى يكتسب قوة فنية تقربه من قوة الدلالة الموضوعية ، لذا كان لا بد من تعانق التفسير والتصوير أو المزج بينهما بطريقة فنية ...

---

(١) محمد غنيمي هلال ـ النقد الادبي الحديث ـ ص ٥٥٨ الطبعة الثالثة .

(٢) محمد غنيمي هلال ـ النقد الادبي الحديث ـ ص ٥٥٩ـ٥٦٠ الطبعة الثالثة .

(٣) محمد غنيمي هلال ـ النقد الادبي الحديث ـ ص ٥٥٠

التفسـير والتحويـر

الفرق كبير بين تفسير الحوادث التاريخية وبين تحويرها أيا كان نوع هذا التحويـر ، سواء أكان عن طريق الاغراق في المبالغات أم كان عن طريق التحريف والتشويه أو المسـرض المسيـخ .

فحينما يتحدث جورجي زيدان عن أركاديوس بن قائد حصن الروم بمصر (١) ويصفه بالحنكة والخبرة ، يعد حديثه هذا تحويرا وليس تفسيرا ذلك لانه نقل قصة عمرو بن العـاص مع قائد حصن الروم في موقعة أَجْنَادَيْن وأضافها الى أركاديوس بحذافيرها .. وعندما يقول عن المسلمين وقت فتحهم لِبُلْبَيْس في عهد عمرو بن العاص : انهم دخلوا البيوت لينهبـوا ويسلبوا فهو كاذب محرف ومختلق ملفق وليس مفسرا أو باحثا عن منابع السلوك الدفينة ، اذ أن هذا القول يتنافى مع سـلوك المسلمين في تلك الفترة ، ويتعارض مع ما جاء عنهم في كتـب المؤرخين الثقات ، فهذا النوع من التحوير لا يقبل بحال في مجال النقد النزيه لأنه يضعف من قيمة العمل الفني ، أما اذا حورت الحوادث بعض التحوير فلا ضير ولا ضرر عندئذ ، لكن يشترط على الكاتب في هذه الحالة ألا يحكي حوادث قصته حكاية مباشرة بل يحكيها مـن زوايا مختلفة من خلال شخصيات ذات أوضاع متباينة ، وهذا هو الاتجاه الذى توسع في فهم معنى الموضوعية للقصة كما يقول غنيمي هلال " وقد توسع كتاب القصة في فهم معنى الموضوعية فلم يعد معناها مقصورا على وقوف الكاتب موقف الحيدة من الحقائق التي يعرضها كما كان ذلك لدى الواقعيين والطبيعيين منذ " بلزاك و " زولا " بل صار معناها أن يصور الكاتب الموقف من نواح مختلفة ومن خلال شخصيات في أوضاع متباينة ينظر كل منهم الى الموقف من جانـب من جوانبه " (٢) .

---

(١) جورجي زيدان — ارمانوسة المصرية — ص ١٣٤ — طبعة دار صادر — بيروت .

(٢) محمد غنيمي هلال — النقد الادبي الحديث — ص ٥٦١ ويلاحظ أن كلمة " الطبيعيين " خطأ شائع ، والصواب " الطبعيين " .

مدى الحريـة في اختيار التجارب التاريخية

التجربة الروائية أو الموضوع الروائي له مصادر عديدة يستقى منها ، وقد حصرها بعض النقاد (١) حصرا جامعا مانعا في ستة مصادر هي :

١) الاسطـورة .

٢) التاريـخ .

٣) واقع الحياة العصرية للكاتب .

٤) الخيال الذى يبتكر الاحداث بقدرته المبتدعة .

٥) التجارب الشخصية للأديب .

٦) العقل الباطـن .

وقد اختار جورجي زيدان المصدر الثاني حيث استمد معظم موضوعات رواياته من التاريخ ، ومن ثم كان لا بد لنا من تحديد مدى الحرية التي تمنح الكاتب الرواية التاريخية .

هل يعطى الروائي حرية مطلقة في تفسير الاحداث حتى ولو كان ذلك التفسير غير مقبول ، أو يثير شبهات وشكوكا ؟؟ ثم هل يحق للروائي ان يحور بعض الحقائق والمواقف من أجل توفير عنصر التشويق أو غيره من العناصر الفنية التي لا بد منها في كل رواية أم لا ؟؟

لقد اختلف النقاد حول تحديد مدى الحرية التي تعطى لكاتب الرواية التاريخية الا أنهم يكادون يجمعون على عدم اعطائه حرية مطلقة ، وفي مقدمة هوءلاء الاستاذ عباس العقاد ولا أدل على ذلك من الخلاف الذى نشب بينه وبين أحمد شوقي حول موقف الأديب من التاريخ وحريته في اختيار بواعث أحداثه ، وذلك عندما كتب أحمد شوقي مسرحية " قمبيز " مفسرا سبب غزو قمبيز لمصر استنادا على الرواية الشعبية التي تقول : ان سبب هذا الغزو كان غش فرعون مصر لقمبيز عندما خطب ابنته فزف اليه بدلا عنها بنت خصمه الفرعون السابق ، فغضب قمبيز وتألم من هذه الخديعة فغزا مصر انتقاما منه ، كما غضب العقاد لهذا التفسير

---

(١) محمد مندور ـ محاضرات عن القصة ـ ؟

والتعليل التافه فألف كتابا بعنوان (" قمبيز في الميزان) اتهم فيه أحمد شوقي بجهله لحقائق التاريخ الأساسية وأوضح أن غزو الفرس لمصر كان لأسباب اكثر جدية وخطورة اذ أنهم كانوا مشتبكين في حرب ضروس مع اليونان وكانوا يرون في الاستيلاء على مصر عنصرا أساسيا بسبب قيمتها الاستراتيجية الهامة (١) ، هذا هو ما ذهب اليه الاستاذ العقاد ، بينما رفض الاستاذ مندور هذا الرأي وعلل اختيار شوقي لذلك الباعث بأنه لم يكن يهدف الى كتابة التاريخ انما اتخذ تلك الحادثة وسيلة لتجسيد بطولة المصريين واستماتتهم في الدفاع عن أنفسهم (٢) .

فهذا الخلاف يؤكد لنا أن النقاد لم يجمعوا على اعطاء الكاتب الروائي الحرية المطلقة في التصرف في احداث التاريخ ...

تفسير زيدان لاحداث التاريخ

لقد أعطى جورجي زيدان نفسه الحرية المطلقة في تفسير احداث التاريخ في معظم رواياته ، استنادا الى أن موقف الأديب من التاريخ يختلف عن موقف المؤرخ منه وهذا أمر طبيعي ولكن ليس معناه أن يتجاهل الأديب وقائع التاريخ الكبرى وحقائقه الاساسية المتفق عليها ويميل الى التلفيق والتزوير ، بل معناه أن يتمتع الأديب بحريته الفنية في اطار تفسير الحدث التاريخي وتعليله تعليلاً فنيا بحيث يكون مقنعا ومقبولا ، لما فيه من منطقية وبعد عن التفاهة والاسفاف .

ونحن عندما ننظر الى تفسير زيدان لاحداث التاريخ الاسلامي نحس في كثير منها عدم المنطقية بل نرى تفسيرات باهتة تافهة وتعليلات متعسفة متكلفة تثير في العرب والمسلمين مشاعر السخط والفرك لهذا المفسر ، ونحن لا نريد أن نتهم جورجي زيدان بالجهل والغفلة

---

(١) عباس محمود العقاد — قمبيز في الميزان .

(٢) محمد مندور — الادب وفنونه — ص ٨٦

بسبب هذا التفسير كما فعل الاستاذ العقاد مع شوقي عند ما نقد مسرحيته (قمبيز) لأنه فسر غزو ملك الفرس لمصر بباعث تافه ، انما نريد اتهام زيدان بتعمد ذلك التفسير التافه بغية الدس الرخيص والتشويه المسيئ لتاريخ يعتز به المسلمون أجمعون ويفخرون .

ولا أدل على ذلك من تصويره للخلفاء والصحابة والتابعين بصورة الوصوليين الذين يريدون الوصول الى الحكم بأية وسيلة ولو كان ذلك على حساب الدين والخلق القويم .... ومما يدل على ذلك التفسير المغرض أيضا تفسيره لتصرفات هارون الرشيد مع اخته العباسة وجعفر البرمكي بما لا يتفق مع ما عرف عن الرشيد من أنه كان يحج عاما ويغزو عاما بل لا يتفق مع أيسر قواعد التفكير والمنطق السليم ، فمثلا تعليله عقد الرشيد لاخته العباسة على جعفر البرمكي بأنه لمجرد اباحة النظر لأنه لا يطيق الابتعاد عنها ..." (١) تعليل غير مقبول . واذا كان الاستاذ مندور قد وجد تعليلا لتفسير شوقي لغزو قمبيز لمصر فما الذى يبرر به تفسير جورجي زيدان ، ذلك التفسير الذى يدور في فلك واحد في مجمل رواياته ألا وهو محاولة تفسير كل الانتصارات والبطولات التاريخية بالمواقف الغرامية وربطها بها ربطا محكما ..... ما الذى يجعلنا نقتنع بهذا وما هو أخطر منه ؟؟

في رأينا أنه لا علة لهذا التفسير ولا باعث له الا الدس الرخيص والتشويه المتعمد ، لأن هذا التفسير لا يتمشى مع المنطق العام للفترة التي اختار منها زيدان موضوعات رواياته ، ولا يتفق مع أيسر الحقائق الأساسية لتاريخ تلك الفترة ، الأمر الذى يجعلنا نشك في أصالة كاتب هذه الروايات ونقتنع بالرأى القائل بقصر باعه في هذا الميدان ، ذلك لأن أصالة الأديب انما تكون " في تحليل نفوس الشخصيات التاريخية واختيار البواعث التي يفسر بها تصرفاتها على ضوء المنطق العام للفترة التي اختار منها موضوعه ......" (٢) .

ثم لا بد من الاشارة هنا الى أن تفسير شوقي كان مقبولا على الرغم من تفاهته لأنه كان يخدم هدفا معينا تستريح له نفوس قرائه ، وتهوى اليه افئدتهم ، ذلك هو الاشادة

---

(١) جورجي زيدان ـ رواية العباسة أخت الرشيد ـ ص ٢٣ . طبعة دار الاندلس ـ بيروت .

(٢) محمد مندور ـ الادب وفنونه ـ ص ٨٥ ـ طبعة معهد الدراسات

ببطولة المصريين في رواية قمبيز ، والاشادة ببطولة كليوباتره وحنكتها السياسية حينما فسّر سلوكها مع حكام روما على أساس أنها سياسية ماهرة تريد أن تبني مجد وطنها مصر على أساس ضرب الرومانيين بعضهم ببعض ، فهدف شوقي اذن هو الاشادة ورد الاعتبار لكيليوباتره التي ذهب شكسبير الى تفسير سلوكها بأنها امرأة حسية متهالكة ، وذهب برنارد شو الى أنها امرأة أغراها جمالها فظنت أنها تستطيع ان تسيطر على عملاق داهية محنك كيوليوس قيصر .

اذا كان الهدف هو الذى يجعل تفسيرات أحمد شوقي للاحداث مقبولة عند البعض فلماذا لا يكون هدف جورجي زيدان كذلك ؟ ولماذا لا نعطيه فرصة التسامح والتساهل في بعض الحقائق ليفسر سلوك العباسة مثلا مع أخيها وحبيبها على أساس أنها امرأة حسية متهالكة تريد أن تشبع غرائزها الجنسية ولو أفضى ذلك الى القضاء على بني هاشم ؟؟؟

لا يمكن أن يُعطَى مِثْلُ زيدان مِثْلَ هذه الفرصة لأن الهدف الذى كان يرنو اليه لم يكن هدفا نبيلا ، ولأن " حرية الأديب في التصرف في التجربة التاريخية أقل من حريته ازاء التجربة الاسطورية ، لأنه لا يستطيع أن يتجاهل وقائع التاريخ الكبرى وحقائقه الاساسية المتفق عليها والا قام عمله على التزوير الذى لا يقبله أحد ، الا أنه مع ذلك له حرية واسعة في تفسير الحدث التاريخي وتوضيح بواعثه على النحو الذى يخدم هدفه كما أن له الحرية المطلقة في أن يتصور شخصيات أهمل التاريخ الحديث عنها ..." (١) .

وجورجي زيدان على الرغم من هدفه الذى كان يعمل له ولم يقبله أحد لم يستطع بعث شخصيات أهمل التاريخ الحديث عنها ، فلنوازنْ بينه وبين الرافعي في تصويرهما لارمانوسة المصرية لنرى أيهما كان معنيا باستكمال حلقات التاريخ المفقودة وتصوير الشخصيات التي أهمل التاريخ الحديث عنها على الرغم من اختلاف اللون الادبي الذى اعتمد عليه كل منهما في التعبير والتصوير لشخصية أرمانوسة ، ذلك لأن الرافعي لم يكتب عن أرمانوسة الا مقالة

---

(١) محمد مندور — الادب وفنونه — ص ٨٥ — طبعة معهد الدراسات .

قصصية بينما كتب جورجي زيدان رواية كاملة ، ومع ذلك لم يلتفت كثيرا الى الشخصيات التي أهملها التاريخ والتي كانت كفيلة بالقاء ضوء ساطع على طبيعة الفترة التي أراد تشويق القراء الى أحداثها التاريخية ، بينما استطاع الرافعي في اطار مقالاته أن يبعث التاريخ وان يتصور الشخصيات التي أهملها التاريخ ، وقد أشار الى ذلك في مطلع مقالته حيث قال بعد تلخيص مركز لما جاء في تاريخ الواقدى : " هذا ما أثبته الواقدى في روايته ولم يكن معنيا الا بأخبار المغازى والفتوح فكان يقتصر عليها في الرواية ، أما ما أغفله فهو ما نقصه نحن ..." (١) .

ومن الذى أغفله الواقدى وغيره من المؤرخين الحوار الطريف الذى دار بين أرمانوسة ووصيفتها ماريا والذى كان يهدف الى دحض الأراجيف التي عمل الروم على نشرها ضد العرب ، وأروع ما في ذلك الحوار المبارات التالية التي لا يمكن ان يجريها جورجي زيدان على لسان شخصية من شخصياته الحية المعروفة أو السالفة الغابرة التي يقتضي العمل الفني بعثها واحياءها لمعرفة طبيعة العصر وعادات القوم وطباعهم ، كما جاء ذلك على لسان أرمانوسة في حوار جميل في مقالة الرافعي : " ان هؤلاء المسلمين هم العقل الجديد الذى سيضع في العالم تمييز الحق من الباطل وان نبيهم أطهر من السحابة وانهم جميعا ينبعثون من حدود دينهم وفضائله لا من حدود أنفسهم وشهواتهم ، واذا سلوا السيف سلوه بقانون واذا أغمدوه أغمدوه بقانون " (٢) (انهم لا يغيرون على الامم ولا يحاربونها حرب الملك وانما تلك طبيعة الحركة للشريعة الجديدة تتقدم في الدنيا حاملة السلاح والاخلاق قوية في ظاهرها وباطنها فمن وراء أسلحتهم أخلاقهم وبذلك تكون أسلحتهم نفسها ذات أخلاق " (٢) " ان العلماء بهيئة السماء وأجرامها وحساب افلاكها ليسوا هم الذين يقتون الفجر ويطلعون الشمس ، وأنا أرى أنه لا بد من أمة طبيعية بفطرتها يكون عملها في الحياة ايحاء الأفكار العملية الصحيحة التي يسير بها العالم وقد درست المسيح وعمله وزمنه فكان طيلة عمره يحاول أن يوجد هذه الأمة غير أنه أوجدها مصغرة في نفسه وحوارييه وكان عمله كالبدء في تحقيق الشيء المسير حسبه ان يثبت معنى الامكان فيه ....." (٢) .

---

(١) مصطفى صادق الرافعي — وحي القلم — الجزء الاول ص ١٨ — ٢١ طبعة دار الكتاب العربي — بيروت .

(٢) مصطفى صادق الرافعي — وحي القلم — الجزء الاول ص ١٨ — ٢١

هذه عبارات أجريت على لسان فتاة مسيحية هي ابنة المقوقس عظيم القبط "ارمانوسة" التي تحدث عنها كل من الرافعي وزيدان ، ولكن شتان بين الحديثين ، ذلك لأن جورجي زيدان اهتم بالمواقف الغرامية بين أرمانوسة واركاديوس ابن قائد حصن الروم ، لينتهي من ذلك الى أن الحب أو الغرام هو السبب في هزيمة الروم وانتصار المسلمين ولا دخل لما يسمى بالعقيدة أو الأخلاق كما قالت أرمانوسة في مقالة الرافعي ، بل ان زيدان يذهب الى أبعد من هذا فيتهم المسلمين بأنهم دخلوا البيوت ينهبون ويسلبون عندما فتحوا بلبيس ويكرر ذلك على لسان شخصياته فيقول على لسان زياد الذي دار حوار بينه وبين أرمانوسة " أن الامير عمرا قد أرسلني لأطمئنك بأن النهب والسلب لن يمسك منهما شر وأن الامان عليك وعلى كل من هو في قصرك ومن تشائين غيرهم " (١) • ثم يقول عند وصفه لموقف من مواقف اركاديوس : " فجلس أركاديوس ليستريح فجاءته برباره بثياب ليبدل ثيابه ويغسل جرحه فاذا هو جرح طفيف نتج عن العنف في محاولة قطع الوثاق فربطه ولبس ثيابه ثم أطل من النافذة فرأى العرب قد أمعنوا في المدينة قتلا ونهبا فجعل يتململ ويتأسف على ما اصابه العرب منهم فقالت أرمانوسة ما بالك يا حبيبي تتململ ؟ قال : أتململ أسفا على ما حل بجندنا ألا ترين أن العرب ينهبون المدينة ويقتلون حاميتنا " (٢) •

شتان بين هذا التصوير وبين التصوير الذى يجعل أرمانوسة تفضي بما تكنه وما تشعر به شعورا حقيقيا تجاه العرب والمسلمين فتقول عنهم : " انهم لا يغيرون على الامم ولا يحاربونها حرب الملك وانما تلك طبيعة الحركة للشريعة الجديدة تتقدم في الدنيا حاملة السلاح والاخلاق ••• " فما أجمل هذا التعبير وما أروع ذلك التصوير انه يتمشى مع طبيعة الفترة التي تحدث عنها الكاتب ، ولا ينم عن خبث نية أو سوء طوية ، أو قلب يتلفف في بجاد السواد •

---

(١) جورجي زيدان — رواية أرمانوسة — ص ١٤٥ طبعة دار الاندلس — بيروت •

(٢) جورجي زيدان — رواية أرمانوسة — ص ١٥٢ طبعة دار الاندلس — بيروت •

الباب الثاني

البناء الفني لروايات جورجي زيدان

الفصـــل الأول

تحليـل لروايات جورجي زيدان

التمهيـــــــــــد

أ ـ الترتيب الزمـــنى للتأليـــف

ب ـ التسلسل التاريخـي للاحداث

الترتيب الزمني للتأليف

صدرت روايات جورجي زيدان إبّان ظهورها لأول مرة في أعداد متسلسلة من الكتاب السنوي لمجلة الهلال ، ثم طبعت بعد ذلك طبعات مستقلة خالية من تحديد تواريخ التأليف ولا سيما في مطابع بيروت التي اهتمت بتقديم تلك الروايات في صور تجارية تعنى بالورق والرسوم التي تزين الغلاف وتجسد بعض الحوادث ، كما اهتمت بالألوان التي تستهوي العملاء الكرام ليقبلوا على شرائها ، دون أن تعنى بتحقيق أحداث الرواية أو بالقاء نظرة فاحصة على ما كتب، فكان الهم أن تخرج الروايات الى السوق وأصحاب المطبعة مطمئنون الى أنها جديرة بالنشر، صالحة للرواج .

ومعلوم أن معظم أصحاب المطابع في الآونة الأخيرة لا يعنيهم تمييز الغث من السمين بل يعتمدون كليا على الوسائل الرخيصة في الدعاية والترويج لما يخرجون .

فالذي يريد دراسة هذه الروايات حسب تسلسلها للتأليف عليه أن يرجع الى مصادرها الأصلية في مجلدات الهلال ، وعند ذاك يتضح له أنها مرتبة على النحو التالي :

١) المملوك الشارد	عام ١٨٩١	٢) أسير المتمهدي	عام ١٨٩٢
٣) استبداد المماليك	١٨٩٣	٤) أرمانوسة المصرية	١٨٩٥
٥) فتاة غسان	١٨٩٦	٦) عذراء قريش	١٨٩٨
٧) ١٧ رمضان	١٨٩٩	٨) غادة كربلاء	١٩٠٠
٩) الحجاج بن يوسف	١٩٠١	١٠) فتح الاندلس	١٩٠٢
١١) شارل وعبد الرحمن	١٩٠٣	١٢) ابو مسلم الخراساني	١٩٠٤
١٣) العباسة أخت الرشيد	١٩٠٥	١٤) الامين والمأمون	١٩٠٦
١٥) عروس فرغانة	١٩٠٧	١٦) أحمد بن طولون	١٩٠٨
١٧) عبد الرحمن الناصر	١٩٠٩	١٨) الانقلاب العثماني	١٩١٠
١٩) فتاة القيروان	١٩١١	٢٠) صلاح الدين الأيوبي	١٩١٢
٢١) شجرة الدر	١٩١٣		

ويلاحظ أن هذا التسلسل الزمني للتأليف يختلف عن التسلسل الزمني للحوادث الواردة في جميع روايات زيدان ، كما نلاحظ عدم اهتمام المؤلف بالجانب التاريخي للحوادث من حيث التسلسل بدليل انه لم يتقيد عند تأليفه لهذه الروايات بالزمن على صورة تنازلية أو تصاعدية ، انما آثر أن يأخذ من هنا وهناك ليبحث عن خيط نفسي واحد يجمع كل تلك الحوادث على الرغم من بعثرتها وتفريقها عبر العصور ، وتلك براعة تدل على مقدرة ودهاء وتشير الى وجود الحافز القوى الذى كان يدفع ذلك الفرد للقيام بمثل هذا الجهد الجبار .

ولتوضيح الفرق بين التسلسل الزمني لتأليف روايات زيدان وبين التسلسل التاريخي لحوادثها كان لا بد لنا من ترتيبها حسب العصور التاريخية التي تمثلها حوادث تلك الروايات، ويتلخص ذلك الترتيب فيما يلي :

التسلسل التاريخي لاحداث الروايات

١) رواية فتاة غسان :

تعتبر هذه الرواية أولى الروايات من حيث ترتيب العصور ، ذلك لأنها تصور حال الاسلام منذ ظهوره وحتى فتوح العراق والشام ، وتبين عادات العرب وتقاليدهم في آخر الجاهلية وأول الاسلام .

فالفترة التي تمثلها أحداث هذه الرواية تبدأ من بعثة محمد صلى الله عليه وسلم حتى سنة ١٤ هـ حيث تم فتح العراق والشام .

٢) رواية أرمانوسة المصرية :

هي الرواية الثانية لأنها تتحدث عن الفترة التي حكم فيها البيزنطيون مصر وتبين أحداث فتح عمرو بن العاص لمصر .

فالفترة التي تمثلها حوادث هذه الرواية هي من أواخر حكم البيزنطيين لمصر حتى فتح المسلمين لمصر .

٣) عذراء قريش :

هي ثالثة الروايات من حيث ترتيب العصور ، ذلك لأنها تتحدث عن الفتنة الكبرى التي أدت الى مقتل الخليفة عثمان بن عفان ، وتصور المعارك التي دارت في خلافة الامام علي بن أبي طالب ، فالفترة التي تمثلها هذه الرواية هي من عام ٢٣هـ الى ٣٥هـ.

٤) ١٧ رمضان :

هي الرواية الرابعة لأنها تدور حول الفتنة في عهد علي بن أبي طالب وتبين الظروف والملابسات التي اكتنفت مقتله ، كما تشير الى موقف الخوارج من الامام علي ، وتتناول مسألة استئثار بني أمية بالخلافة ، فهي اذن تمثل الفترة الواقعة ما بين عامي ٣٥هـ - ٤٠هـ .

٥) غادة كربلاء :

هي الرواية الخامسة لأن حوادثها كانت تدور في عهد يزيد بن معاوية لتبيين الاسباب والعوامل التي أدت الى مقتل الحسين بن علي وأهل بيته في كربلاء فهي اذن تمثل الفترة ما بين سنتي ٦٠هـ - ٦٣هـ .

٦) الحجاج بن يوسف :

هي الرواية السادسة لأن حوادثها كانت تدور في عهد عبد الله بن الزبير وتبين مقتله ثم انتقال الخلافة الى عبد الملك بن مروان ، فهي اذن تمثل الفترة ما بين سنتي ٦٥هـ - ٨٦هـ .

٧) فتح الأندلس :

هي الرواية السابعة لأنها كانت تتحدث عن إسبانية قبيل الفتح الاسلامي وحتى فتحها على يد طارق بن زياد سنة ٩٢هـ .

٨) شارل وعبد الرحمن :

هذه الرواية هي الثامنة اذ أنها تشرح فتوحات العرب في بلاد فرنسا ، وتوضح أسباب فشل العرب في أوروبة مع الاشارة الى العلاقة بين شارل مارتل وعبد الرحمن فهي

اذ ن تمثل الاحداث المربية في سنة ١٠٧ هـ تقريبا •

٩) أبو مسلم الخراساني :

هي الرواية التاسعة ، اذ أن أحداثها كانت تدور حول سقوط دولة بني أمية ، وقيام دولة بني العباس سنة ١٣٢هـ كما تتحدث عن مقتل ابي مسلم الخراساني •

١٠) العباسة أخت الرشيد :

هي الرواية العاشرة لأن حوادثها وقعت في عهد الرشيد ولأن مؤلفها كان يمني بتبيين موقف الرشيد من البرامكة مع التركيز على تصوير العلاقة بين جعفر البرمكي والعباسة أخت الرشيد • فهي اذ ن تمثل الفترة بين سنة ١٧٠هـ ـ ١٩٣هـ مع ملاحظة أن نكبة البرامكة كانت سنة ١٨٧هـ •

١١) الأمين والمأمون :

هي الرواية الحادية عشرة لأنها تصور الحوادث في عهد المأمون مع التركيز على الخلافات التي كانت دائرة بينه وبين أخيه الأمين فهي اذ ن تمثل الفترة ما بين سنتي ١٩٣ ـ ٢١٨هـ وذلك لأن فترة الأمين تقع بين سنتي ١٩٣هـ و ١٩٨هـ وتقع فترة المأمون بين سنتي ١٩٨ و ٢١٨هـ •

١٢) عروس فرغانة :

هي الرواية الثانية عشرة ، لأنها تصور حالة الدولة العباسية في عهد المعتصم بالله وتبين العوامل التي أدت الى قيام الفرس لإرجاع دولتهم ثم نهوض الروم لاكتساح الدولة الاسلامية •

١٣) أحمد بن طولون :

هي الرواية الثالثة عشرة ، لأنها تتحدث عن مصر في عهد أحمد بن طولون فهي اذ ن تمثل الفترة ما بين سنتي ٢٦٣ هـ و ٣٢٣ هـ •

١٤) عبد الرحمن الناصر :

هي الرواية الرابعة عشرة لأن حوادثها كانت تدور في الفترة الواقعة بين سنتي ٣٠٠هـ و ٣٥٠ هـ لتصور بلاد الاندلس وحضارتها في عهد الخليفة عبد الرحمن الناصر الأموى وتشير الى العوامل التي أدت الى خروج ابنه عبد الله عليه •

١٥) فتاة القيروان :

هي الرواية الخامسة عشرة لأن حوادثها كانت تدور في الفترة الواقعة بين سنتي ٢٩٦هـ و ٣٦٢هـ لتتحدث عن دولة الفاطميين في افريقيا وتصور الحالة الاجتماعية والسياسية في عهد المعز لدين الله وقائده جوهر الصقلي وتفصيل ذلك يتلخص في أن الدولة الفاطمية قامت في تونس سنة ٢٩٦هـ وانتقلت الى مصر سنة ٣٦٢هـ ، بينما كان فتح الفاطميين لمصر سنة ٣٥٨هـ •

١٦) صلاح الدين الأيوبي :

هي الرواية السادسة عشرة وذلك لأن حوادثها جرت في القرن الثاني عشر الميلادى سنة ١١٧١م اذ أنها كانت تتحدث عن انتقال مصر من حكم الفاطميين الى حكم الايوبيين وتصف المعارك الحربية التي دارت آنذاك مع الاشارة الى مكايد الحشاشين •

١٧) شجرة الدر :

هي الرواية السابعة عشرة لأنها تتحدث عن مبايعة شجرة الدر وانتقال الخلافة العباسية من بغداد الى مصر ، وتشير الى سيرة الأمير ركن الدولة بيبرس ، فحوادثها تقع اذن في الفترة ما بين سنة ١٢٥٠م ، ١٢٧٧م وبيان ذلك هو ان مبايعة شجرة الدر كانت سنة ١٢٥٠م وانتقال الخلافة من بغداد الى مصر سنة ١٢٦١م ، بينما امتدت فترة ركن الدولة بيبرس من ١٢٦٠م — ١٢٧٧م •

١٨) استبداد المماليك :

هي الرواية الثامنة عشرة ، لأنها كانت تتحدث عن الحالة السياسية والاجتماعية بمصر في عهد المماليك مع التركيز على ظلم المماليك واستبدادهم ، ثم الاشارة الى

الحرب التي كانت بين تركية وروسية وقتذاك .

١٩) المملوك الشارد :

هي الرواية التاسعة عشرة ، لأنها كانت تتحدث عن مجزرة المماليك البشعة في عهد محمد علي باشا ، وتشير الى الحوادث التي وقعت في مصر وسورية آنذاك بقيادة الأمير بشير الشهابي ، ومحمد علي باشا ، وأمين بك ، في النصف الاول من القرن التاسع عشر (١٨٠٦ — ١٨٤٩م) .

٢٠) أسير المتمهدى :

هي الرواية العشرون ، لأن مؤلفها حاول تصوير دسائس الاوربيين التي أدت الى قيام الثورة العرابية في مصر ، والى الثورة المهدية في السودان ، فهي اذن تمثل الفترة ما بين ١٨٨٢ و ١٨٨٥م ، ذلك لأن ثورة عرابي كانت عام ١٨٨٢م بينما كانت ثورة المهدى عام ١٨٨٥م .

٢١) الانقلاب العثماني :

هي الرواية الحادية والعشرون ، ذلك لأن حوادثها كانت تدور حول نظام الحكم في عهد السلطان عبد الحميد وجواسيسه ، وتصور الظروف والملابسات التي اكتنفت اعلان الدستور في عهد العثمانيين ، فهي اذن ممثلة للفترة الواقعة سنة ١٩٠٨م — ١٩٠٩م .

يتضح من هذا العرض السريع أن هناك فرقا كبيرا بين الترتيب الزمني للتأليف وبين الترتيب الزمني للحوادث ، وسنتناول بعض هذه الروايات بالتحليل حسب الترتيب الذى اعتمد عليه المؤلف لا حسب ترتيب العصور ، على الرغم من أن ترتيب العصور يفيدنا من حيث ترابط الحوادث وتماسكها وفق تسلسلها الزمني ، لكننا آثرنا التقيد بترتيب المؤلف لنتمكن من متابعة الخيط النفسي الذى حاول المؤلف نسجه للربط بين تلك الحوادث المختلفة الأزمنة ، ولا شك أن ذلك الربط يدل على براعة المؤلف ومقدرته ، وفي الوقت نفسه يكشف عن نواياه ومخططاته .

الفصـــــل الأول

تحليل روايات جورجـي زيدان

١- تحليل روايـــة

(المملـــوك الشـــــارد)

١) اقســام الروايـــة .

٢) مضمون الروايـــة .

٣) خاتمة التحليل وتشتمل على :

أ ـ العناية بالمواقف الغرامية لا التاريخيـة .

ب ـ مدى صحة الحقائـــق التاريخيـــة .

جـ ـ تصـوير أحـداث التاريـــخ .

د ـ شخصيات الرواية بين الحقيقة والخيـال .

هـ ـ التحليل النفسي لشخصيات الروايـــة .

و ـ مدى استكمال حلقات التاريخ المفقودة .

ز ـ لغـة الروايـــة وسماتهـــا .

ح ـ خاتمة الرواية ومدى تطابقها مع مجريات الاحداث .

الفصل الاول

تحليل روايات جورجي زيدان

أولا : تحليل رواية المملوك الشارد

١) اقسام الرواية :

تتكون هذه الرواية من قسمين هما :

أ ـ القسم التاريخي الذى صور فيه المؤلف الأحداث والوقائع التي جرت في عهد محمد علي باشا وابنه ابراهيم باشا مع ذكر الفتوحات التي تمت لهما ، ويتخلل ذلك حديث حب وغرام .

ب ـ القسم الغرامي : ويتمثل في القصة الغرامية التي كانت تأتي في ثنايا الاحداث التاريخية ثم خلصت وشغلت الجزء الأخير من الرواية .

٢) مضمون الرواية :

بطل القصة الغرامية هو غريب بن الأمير المملوكي الذى قدر له النجاة من المجزرة البشعة والمؤامرة الرهيبة التي دبرها محمد علي لابادتهم واستئصال شأفتهم ، ولم يفت المؤلف في القسمين وصف المدن والقرى وتبيين عادات القوم وتقاليدهم .. لذا بدأت الرواية بوصف لجبل لبنان واشارة الى حكامها الشهابيين الذين اتخذوا من بلدة (دير القمر) مركزا لحكومتهم أغلب الزمن ، ومنهم الامير بشير الشهابي الذى قدمه المؤلف في صورة البطل المغوار واسترسل في الحديث عنه مشيرا الى تيقظه الدائم وتعهده راحة الرعية وفراسته النادرة ، كما تحدث عن قرية (بيت الدين) التي اشتراها الامير بشير وابتنى فيها الدور والمتنزهات له ولاولاده .

كل ذلك ليكون توطئة للحديث عن زوجة المملوك الشارد التي فرّت بعد المجزرة بابنها (سليم) الذى كان يبلغ من العمر سبع سنوات ، ومعها عبد لها ، فأخذت تتنقل من بلد الى بلد حتى وصلت الى دير في قرية (بيت الدين) .

والغريب في الأمر أن يكون الامير بشير نفسه هو الذى أوصل هذه الفتاة مع عبدها

الى ذلك الدير في منتصف الليل ، في الوقت الذى كان فيه رئيس الدير والرهبان يتحدثون في أمور تتصل بالدولة وبالامير بشير نفسه ، وقد تعمد المؤلف زج الامير في هذا الموقف الغريب ليؤكد ما ادعاه من أن الامير رجل دائم التيقظ يعمل على راحة الرعية بنفسه كما تعمد اثبات الجانب المثير من حوار أولئك الرهبان ، وهو ايهام ان الامير بشيرا الشهابي قد اعتنق الديانة المسيحية سرا ، ومحاولة رئيس الدير تعليل هذه السرية بأن الامير كان يخشى الأضرار المادية التي قد تترتب على اعلان تنصره ، ثم تبرير ذلك بأن الامير قد خصص غرفة من غرف قصره اتخذها كنيسة للصلاة فيها سترا .

فالغرض الرئيسي اذن هو أن المؤلف أو رئيس الدير يتهم الامير بشيرا الشهابي بالمراءاة في دينه ويجعله عرضة لتشكيك الرهبان فيه ، على حين أن تنصره لم يكن مكتوما (١) أوسريا كما يزعم المؤلف ، بالاضافة الى أن هذه المسألة لا دخل لها البتة في تسلسل أحداث الرواية ، انما أقحمها المؤلف اقحاما لحاجة في نفسه .

ثم ينتقل المؤلف انتقالا مفاجئا ليزيح النقاب عن السر العميق الذى أفضى به الغريبان لرئيس الدير بعد أن أكد لهما الرئيس أنه مستودع أسرار الهاربين وملاذ التائهين بغض النظر عن عقيدتهم ، وطبيعي أن هذه العبارات تنم عن اشادة مقصودة بالكنيسة والرهبان .

وفي تلك اللحظات يعمل المؤلف على تحريك الامير بشير ويوحي اليه باستدعاء رئيس الدير ليسأله عن الغريبين اللذين نزلا في منتصف الليل ، وسرعان ما يتهمه بجهله أو تجاهله للحقيقة أو هكذا أراد المؤلف ليكون ذلك الاتهام دليلا على تيقظ الامير بشير وفطنته ، وخاصة عندما قال لنا ان الامير قد طلب احضار الغريبين وأجرى معهما حوارا أدى الى بكائهما وبكاء رئيس الدير كما أدى الى تأثر الامير ورثائه لحالهما ، الأمر الذى جعله يسمح لهما بالاقامة في داره مع أهله .

والى هنا يشعر القارئ بأن الاحداث قد توقفت أو أن الرواية كادت أن تصل الى نهايتها لكن الواقع غير ذلك اذ أن الاحداث بدأت تتأزم وتتعقد على الرغم من العناية

---

(١) كتاب لبنان في التاريخ — فيليب حتي — ترجمة الدكتور انيس فريحه ص ٤٧٢

التي وجدتها جميلة في قصر الامير ، وذلك لأنها سرعان ما وقع الرعب في قلبها عند ما علمت بسفر ابنها غريب (الذى تركه والده في بطن أمه) الى مصر فجأة مع الامير بشير ، ويرجع ذلك الاضطراب الى أنها كانت تمقت الارض التي فقدت فيها زوجها ، وتلك حقيقة لم يعرفها الأمير بشير حتى هذه اللحظة ، لأن المؤلف أصر على اخفائها كما أصر على سفر غريب مع ابني الامير بشير الى مصر في صحبة الامير الذى خاف من تهديد والي البلاد اياه بالقتل فقرر الاستعانة بمحمد علي باشا .

رافق المؤلف هؤلاء المسافرين ليحدثنا عن مجريات الاحداث هناك بوساطة شخصياته التي يحركها أنى شاء كالدمى والتماثيل ولا يتيح لها فرصة التحرك الطبيعي ، ولم يفته آنذاك وصف القاهرة والوقوف عند الأماكن التي تم فيها اضطهاد المماليك ثم تصوير الحيف والضيم الذى لحق بنساء المماليك لذا أتى بقصة فرعية تبين المعاملة السيئة التي تعرضت لها نساء المماليك ، وقد دعاه ذلك الى الاستفاضة في الحديث عن أصل المماليك ثم تدرجهم في الوظائف ورغبتهم في السلطة وحب السيادة ، ثم تبيين موقف الدولة العثمانية منهم .

وبهذا توقف تحرك الشخصيات حتى يريد المؤلف تحريكها تحريكا آليا ، وبهذا كان لا بد له من أن يترك الامير بشيرا غارقا في مشاكله السياسية ليحرك غريبا ويزج به في مخاطرات عجيبة بل يعرضه للضياع والهلاك على أيدى اللصوص ، وان كانت نجاته قد تمت بأعجوبة ومحض المصادفة على يد أمير من أمراء البدو ، وهذا في الظاهر فقط ، أما في واقع الامر فهو الامير المملوكي الشارد ، وهو والد "غريب" ، لكن المؤلف حاول اخفاء ذلك عنهما حرصا منه على تتابع الاحداث عن طريق الإسرار والألغاز ، كما أخفى ذلك عن القارئ ليشوقه الى قراءة الرواية فيتقدم معه ولكن ماذا يجد ؟

انه لن يجد الا أمورا غريبة تدور حول شخصية غريب وشخصية المملوك الشارد الذى كان معه الخدم والحشم في تلك الصحراء دون أن يعلم به محمد علي وهذا أمر يدعو الى الحيرة والتساؤل ، ولكننا نقبله باعتباره صورة خيالية قصد بها التشويق ، الا أنها تستعصي على التصديق عندما ترتبط بشخصية الأمير بشير وهي شخصية واقعية ، وعلى الرغم من هذا

ترى المؤلف يذهب الى أن الأمير بشيراً قد زار هذا البدوى وعرف حقيقته والتزم بمساعدته على الرغم من اعترافه بأنه قد ارتكب جرما وقع منه على الامير بشير الشهابي وأسرته ، اذ أنه اختطف فتاة جميلة من فتياتهم وذهب بها الى مصر ، ثم تزوجها بعد حوار غرامي أطنب فيه المؤلف .

وعندما يصل القارئ الى هذه النقطة يتصور أن الأمير بشيراً قد أدرك العلاقة بين هذا المملوكي وبين الفتاة التي أحلها في داره .

والواقع أن الامير لم يدرك ذلك لأن المؤلف لا يريد له ذلك الادراك ، اذ أن في معرفته تمطيلا لتصاعد الاحداث وتدرجها ، ومن ثم يسير المملوكي مع الامير بشير ليشفع له عند محمد علي ، وقد رضي عنه محمد علي وألحقه بالجيوش المسافرة الى السودان ، والى هنا يتركه المؤلف ليعود الى الحديث عن الاميرة جميلة فيجدها قد كشفت السر الذى كانت تخفيه حتى على خادمها الوفي سعيد ، وقد دهش الخادم عندما علم أن سيدته من أسرة الامير بشير الشهابي ، كما دهش القارئ عندما رأى المؤلف يحاول استنطاق الشخصيات بتلك الصورة ويجعلها تفصح عن كيفية استسلامها لذلك المملوكي فتقول مخاطبة خادمها سعيدا : وتقدم اليّ سيدك وسألني عما اذا كنت أريد الزواج به فلم أجبه لأن الحياء غلب عليّ فضلا عن أني لم أكن أفهم معنى الزواج غير أنه أصر على ارضائي وأنا لشدة غيظي من والدى ورغبة في الفرار من الحفرة التي حفرها لي سلمت بما أرادوه وأنا آسفة على ذلك " (١) .

هذا ما قالته الاميرة جميلة استنطاقا ، ولكن ليس من المعقول أن تجهل معنى الزواج فتاة تفر من دار أبيها لأنه يريد تزويجها بمن لا تريد ، وليس من المعقول أيضا أن تجهل معنى الزواج فتاة تستسلم بتلك الصورة ، كما لا يمكن أن يكون صمتها دليلا على الجهل انما هو دليل على الرضا .

تتجه المشاكل عندئذ الى الحل وفق خطة المؤلف حيث جمل المملوك الشارد ينضم الى الجنود المتجهة الى السودان وهو يائس من الحياة ، فيذهب معه الكاتب ليحدثنا عن المعارك التي دارت هناك وعن خديعة الملك نمر لاسماعيل باشا ، تلك الخديعة التي أودت

---

(١) جورجي زيدان ـ رواية المملوك الشارد .

بحياة كل من كان معه من الجنود والضباط الا الضابط المملوكي الذى كان متشوقا للموت ، وقد أراد المؤلف ابقاءه حيا حفاظا على تدرج أحداث الرواية ، كما أوحى اليه بأن زوجته لا تزال على قيد الحياة ، فجعله يتشبث بالحياة بعد أن وهب نفسه للموت بسبب يأسه من الاجتماع بأسرته التي شردت بعد المؤامرة التي دبرت للمماليك ، فبدأ يفكر من جديد في البحث عن زوجته ، ومر بمواقف عديدة ومخاطر كثيرة تمكن الكاتب أثناءها من تصوير حصار عكا والاشارة الى دفاع جندها دفاعا عديدا حتى امتنعت على ابراهيم باشا أكثر من خمسة أشهر ، وقد كان الامير بشير الشهابي في معية ابراهيم باشا اثناء حصار عكا ، وكان معه غريب الذى أخرجه المؤلف ذات يوم من المعسكر وأوقعه في يد جنود الأعداء الذين أخذوه الى عبد الله باشا والي عكا الذى هدده وأمر بحبسه ، بل همّ بقتله ، ولكنه أعرض عن ذلك استجابة لرغبة المؤلف!! وخشية من تنكيل الامير بشير به اذا هو وقع في يده .

والغريب في الأمر أن يكون الضابط الذى وكل اليه أمر سجن غريب هو شقيق غريب الا أن الكاتب لم يفصح عن هذا ولكنه قال :لقد عامل الضابط غريبا معاملة كريمة بل دبر له حيلة للفرار لانهما غريبان"وكل غريب للغريب نسيب " أو هكذا أراد أن يقرر المؤلف في تسويغ لما قام به الضابط من أعمال تتعارض مع أمانته ، وكان موفقا في هذا التسويغ

حفظ غريب ذلك الجميل للضابط وقرر أن يكافئه بالتوسط له عند ابراهيم باشا عن طريق الامير بشير لارجاعه الى الجيش وقد كان ، فافترق سالم وغريب دون أن يتعرف أحدهما على حقيقة صاحبه وعندئذ يتدخل زيدان معتمدا على ظاهرة المصادفة العجيبة ليجمع بين غريب ووالده الذى هو المملوك الشارد والذى التقى به من قبل دون أن يعرفه كما لم يعرفه الآن أيضا ولكن المؤلف أوحى للقارئ به عن طريق العنوان الذى وضعه لهذا الفصل وهو (غرائب الاتفاق) .

ثمّ اتفاقٌ غريب يعقبه (لقاء بهيج) اذ أخذ غريبٌ ذلك الرجل الذى وجده في الصحراء وتذكر صنيعه معه ، أخذه الى دار الامير بشير في قرية بيت الدين حيث تقيم والدته جميلة ، وهناك تم التعارف فجأة بين الرجل وبين والدة غريب ،وعندها انكشف السر العميق ، واشتد ذهول الناس عندما رأوا جميلة قد أغمي عليها بعد قولها : " أمين (أنت) ؟ ألا تزال على قيد الحياة " كما أغمي على الرجل العجوز بعد قوله " سلمى سلمى هل أنت هنا " .

ثم هدأت الخواطر وذهبت الاغماءات وجلس الجميع وأخذت زوجة الامير بشير تقص على غريب حكاية والده باختصار وهو صامت لا يكاد يصدق أنه في يقظة .

ويخيل للقارئ عندئذ أن أحداث الرواية قد انتهت حيث وصلت الى جمع الشمل ، ولكن يبدو أن المؤلف تعمد أن يبقي جزءا من أحداثها الغرامية أو يصطنع لها أحداثا غرامية جديدة تساعده على سرد بقية الحوادث التاريخية ، لأنه ترك مدينة عكا محاصرة من قبل ابراهيم باشا فعاد اليها الآن ليقول لنا : ان ابراهيم باشا أمر بفتحها عنوة ، وقد تم له ما أراد ، وأعطى الأمان لعبد الله باشا .

ورغبة من المؤلف في تعقيد الاحداث يصطنع خروج "غريب" مع الامير بشير لتهنئة ابراهيم باشا بالنصر ، وعند عودة "غريب" أوقعه المؤلف في فخ حيث نصب له كمينا من الفرسان دارت بينه وبينهم معركة ضارية كادت تودى بحياته لولا مساعدة فارس ملثم خرج من القصر الذى كان وحيدا في ذلك المكان ، ذهب غريب وراءه ليتعرف عليه ويشكره ، لكنه لم يعرف من أمره شيئا انما تعرف على فتاة ضمدت جراحه ووقعت في قلبه .

ومن ثم تفرغ زيدان للحديث عن هذا الحب فعقد فصلا بعنوان (أول الحب نظره) ثم وضع العراقيل في طريق الحب " غريب " حيث جعله يتذكر أن والدته ذكرت له فتاة كانت تريد أن تزوجه بها قبل سفره الى عكا ، فخشي ألا يميل الى التي اختارتها والدته فيبقى مقيدا هنا وعند ذاك ربما تودى به عواطفه الى مخالفة أمر والديه على حين أنه يود أن يذعن لرغباتهما ويطيعهما في كل شيء ، وفي الوقت ذاته لا يريد الارتباط بغير هذه الفتاة التي استولت على قلبه ، فماذا يفعل ؟ وكيف الخلاص من هذا المأزق ؟

الحل في يد المؤلف الذى استطاع أن يقنعنا بأن الفتاة التي اختارتها الام هي عين الفتاة التي رآها غريب بمحض المصادفة ، وقد سر غريب لذلك لأنه استراح مما كان يتردد في نفسه ، وانحلت المشكلة بأيسر سبيل ، نعم انحلت المشكلة الأولى ولكن تولدت مشكلة أخرى وهي رفض والد غريب بعد أن علم أن الامير بشيرا على خلاف مع والد الفتاة ، وأنه لا يستطيع التوسط في خطبتها لغريب ، لذلك أظلم النور في عيني غريب ، ولم يدر كيف يدبر الأمر لكنه صبّر نفسه

وأخذ يقلب الأمر مع المؤلف الذي أوحى اليه بالسعي لعقد الصلح بين الامير بشير ووالد الفتاة ولكن هيهات ان ينجح هذا المسعى ، اذ أن الكاتب وضع مشكلة ثالثة لتتاح له فرصة الحديث عن مجيء ابراهيم باشا الى بيت الدين لجمع سلاح طائفة الدروز عام ١٨٣٢م ، وفي الوقت ذاته خطب تلك الفتاة لواحد من كبار ضباطه فاضطرب غريب ونازعه ـ عند ذلك ـ عاملان مختلفان عواطفه من جهة وعقله من جهة أخرى ، وأخيرا قرّر رأيــه على أن يعترض طريق هذا الضابط عند توجهه الى منزل والد الفتاة للمفاوضة ، ليهدده أو يقتله ، فيخلو له الجو ،أو هكذا أراد المؤلف ليشد أعصاب القارئ ويتلاعب بعواطفه .

وللاستمرار في ذلك التلاعب أخذ يتحدث عن تدبير غريب لحيلة تهيء له الفتك بالمنافس ولكن تأتي المفاجآت بما لا يتوقعه القارئ ، حيث تمّ التعارف فجأة بين غريب والضابط الــذى خطبت له الفتاة ، اذ ظهر أنهما يتعارفان من قبل ، فأخذ غريب يعتذر له اعترافا بجميلـــه وتقديرا لمواقفه معه في سجن عكا ، بعد ذلك تنازل غريب عن الفتاة للضابط تقديرا لشهامتـــه واعترافا بسبقه ، ولكن عندما علم الضابط بموقف غريب وقصته تنازل فورا عن الفتاة على الرغم من الحاح غريب عليه .

وحتى يقنعنا المؤلف بصدق هذه التنازلات التي ربما لم تحدث إطلاقا في دنيـــا الزواج أو بين المحبين والمحبات قال لنا : إن الضابط ذهب فورا وتزوج بفتاة أخرى كـــي لا يبقى مجال للكلام في زفاف سُعْدَى الى غريب ، وتلك وسيلة من وسائل التشويق عند زيدان .

ثم ماذا بعد هذا ؟ تم توطيد العلاقة بين الضابط وغريب ويتوجهان معا الـــى منزل الامير بشير للتعرف على أهله بعد السلام على والده ، وهناك يجرى المؤلف حـــوارا بين هذا الضابط ووالد غريب من جهة ثم بينه وبين غريب من جهة أخرى ، ويدور ذلك الحـــوار حول الجنود المصريين في لبنان وحول شجاعة ابراهيم باشا ، ثم حَوْلَ نكبة الانكشارية ، وتلــك حيلة مدبرة من الكاتب ليكشف بها عن حقيقة الضابط ويبين صلته بأسرة غريب ، لذا تراه بعــد استرسال في الحديث عن نكبة الانكشارية يعود ليطرح سؤالا وجيها على لسان والد غريـــب للضابط قائلا له : " ان تركك اليونان في حال فوزهم وانحيازك الى ابراهيم باشا لم أره ينطبق على حكم العقل أما كان الافضل لك البقاء هناك مستقلا ؟؟ " وتأتي اجابة الضابط موضحة أنه

في الأصل من سلالة قوم أفاضل من مصر ، قتل والده هناك ، فهربت به والدته وهو في السابعة من عمره حتى أتت به الى عكا ، وهناك نزل وحده في قارب للنزهة فقذفته الأمواج واختطفه بعض اليونانيين وباعوه بثمن بخس الى أحد التجار في نافارين ، فدهش جميع أفراد الأسرة لهذه القصة التي تشبه حكايتهم ، وقد صرح بذلك ابنهم غريب طالبا من الضابط ذكر اسم أبيه وأمه ، وما أن ذكرهما حتى صرخت سلمى ورمت نفسها عليه وجعلت تقبله حتى أغمي عليها وكذلك زوجها ، وبقي غريب حائرا متسائلا : ما هذا ؟ ومن أين نبت لنا هذا الاخ ؟ ما بال الدهر يأتينا كل يوم بنبأ جديد ؟؟ ولم يجد من يقنعه الا المؤلف الذى سر بنجاحه في تغليف الأسرار وجمع غرائب الأمور ومتناقضات الحياة ، كما سر الأمير بشير بجمع شمل تلك الاسرة المشتتة وتم زواج غريب باحتفال عظيم ، الا أن فرح الأسرة لم يكتمل ، لأنهم افتقدوا خادمهم الوفي سعيدا الذى أوحى الينا المؤلف بأنه قد مات بضربة من سيف سيده أمين الذى لم يكن يعرفه وقت الضربة ولم يتمكن من الرجوع لانقاذه .

ويبدو أن المؤلف أرجأ ذلك الى نهاية الرواية حتى يتمكن من الحديث بلسان سعيد عما جرى للسودانيين بعد مكيدة الملك نمرضد اسماعيل باشا ، وعن قرار الدولة العثمانية باخراج ابراهيم باشا وجنوده من سورية فخرج الامير بشير أيضا وأقام في مالطه مدة ، وكانت تلك الاسرة معه بعد أن انضم اليها خادمها الوفي (سعيد) فاجتمع شمل الاسرة واكتمل فرحها ، كما فرح المؤلف بتلك النهاية .

خاتمة التحليل

لقد رأيت ضرورة تذييل كل تحليل بخاتمة توضح نتائجه وتجمع شتاته ، وحرصت على تسجيل عدة ملاحظات تتلخص فيما يلي :

أ ـ العناية بالمواقف الغرامية لا التاريخية :

لم يعن المؤلف بالأحداث التاريخية قدر عنايته بالمواقف الغرامية ، ولا أدل على ذلك من الرجوع الى الرواية ذاتها أو الى التحليل الذى أثبتناه قبلا ، وهو يتضمن خلاصة مركزة للرواية .

ب — مدى صحة الحقائق التاريخية :

معظم المعلومات الواردة في هذه الرواية صحيحة الا ما أشرنا اليه اثناء التحليل وما سنذكره في باب الشبهات ، ويبدو أن المؤلف كان حريصا على تحرى الحقائق في هذه الرواية ، لأنها أول رواية تصدر لتحدد مستقبل السلسلة وتشير الى اقبال الناس عليها أو اعراضهم عنها ، ومن ثم كانت العناية التي مكنت المؤلف من تفادى الكثير من الأخطاء والمزالق .

جـ — تصوير أحداث التاريخ :

ما كتبه جورجي زيدان في رواية "المملوك الشارد" لا يشمل الا جزءا قليلا من الحقائق المتعلقة بالفترة التي تحدث عنها في روايته هذه ، خذ مثلا لذلك حديثه الموجز عن اسماعيل باشا وفتوحاته بالسودان ، فهو لم يذكر من أهداف محمد علي من فتح السودان الا أشياء قليلة ، وكان ذلك عرضا ، حيث ذكر في حوار دار بين الخادم سعيد وبين جماعة من المسافرين — بعضا من تلك الاهداف وهي :

١) التفتيش عن مناجم الذهب في أرض السودان .

٢) توسيع التجارة (١) .

على حين أن هناك أهدافا أهم من التي ذكرها المؤلف ، وقد جاء ذكرها في كتب التاريخ (٢) ، بل أن منها ما كان يجب ذكره في هذه الرواية لأنه يتناسب مع أحداثها ومع سياقها العام ، وذلك مثل استئصال شأفة المماليك الذين بقيت منهم بقية في دنقله ، ومثل توسيع أبواب الرزق لأنصار محمد علي باشا : الاتراك والارناؤوط والمغاربة الذين تغلب بهم على المماليك في مصر ، كما أن هناك أحداثا مهمة لم يرد لها ذكر في هذه الرواية مثل فتح دنقلة ، وغير ذلك من اعمال اسماعيل باشا في السودان ، تلك التي يتوقع القارئ ان يجد لها تصويرا أو سردا في رواية زيدان ، لكن المؤلف يخيب أمله فلا يقدم له الا مقتل اسماعيل باشا في السودان بخديعة الملك نمر كأنما هذا الجانب وحده هو الذى يشكل التاريخ والتاريخ كله .

---

(١) جورجي زيدان — رواية المملوك الشارد ص ٧٥

(٢) نعوم شقير — جغرافية وتاريخ السودان ص ٤٩١ — ٤٩٢

د — شخصيات الرواية بين الحقيقة والخيال :

كل شخصيات هذه الرواية تعتبر واقعية وذات أبعاد حقيقية الا شخصية المملوك الشارد وزوجته وابنيه ، فهي شخصيات خيالية جاء بها المؤلف لاستكمال حلقات التاريخ المفقودة كما يزعم ، أما أن يكون هناك مملوك شارد أو مماليك هربوا بعد المجزرة الرهيبة والتي قصد بها استئصال شأفتهم فهو أمر مقبول ، ولكن لا يمكن أن يكون بالصورة التي أرادها المؤلف ، وهذا يؤكد عدم وجود أمير مملوكي ينطبق عليه ما جاء في رواية جورجي زيدان ، وخاصة عندما نجده يقول : " ان هذا الامير قد كان مع اسماعيل باشا في السودان ساعة المكيدة التي دبرها الملك نمر وأنه قد نجا من الحريق والقتل لكنه وقع أسيرا في أيدى السودانيين ، على حين أن جميع المؤرخين الذين تناولوا هذه الحادثة قالوا انهم قد " أجمعوا على قتله هو وعساكره ، ولما جن الليل أحاطوا المنزل بالهشيم وأشعلوا فيه النار فاحترقوا جميعا واسماعيل باشا من الجملة (١) " .

هـ — التحليل النفسي لشخصيات الرواية :

الشخصيات الواردة في رواية "المملوك الشارد" — واقعيةً أو خياليةً — لم يمل المؤلف الى تحليلها تحليلا نفسيا ، وذلك لأنك كثيرا ما تراه يعطيها أحكاما عامة مستمدة من ذاكرته ومعلوماته لا من الموقف الذى يحتاج الى تحليل الشخصية واستبطانها ، ومن ثم لم يكن لتحليل الشخصيات دور في صياغة أحداث هذه الرواية صياغة متدرجة .

لذا كان لا بد للمؤلف من الاستعانة بالمفاجآت والصدف التي كانت تنقذه في كثير من الحالات ، خذ مثلا لذلك : تصويره لشخصية محمد علي باشا أو ابنه ابراهيم باشا أو الملك نمر ، وكلها شخصيات تاريخية مهمة تستحق التحليل عن طريق المواقف لاستخراج الجوانب الانسانية الكامنة — جانب الخير أو الشر — الا أن المؤلف لم يلتفت الى شيء من هذا ، واكتفى بالسرد المادى الذى لا يكشف عن الملامح

---

(١) نعوم شقير — جغرافية وتاريخ السودان — ص ٥٠٩

والاتجاهات فضلا عن أن يُوجِدَ فرقا بين شخصية وشخصية ، استمع الى حديثه عن ابراهيم باشا حيث يقول :

" ... ... وكان ابراهيم باشا ربعة في الرجال ، مستوى القامة منتصبها ، وكان عمره خمسا وثلاثين سنة ، دقيق الأنف ، أشهل العينين (١) ، حادهما مع ارتفاع موقيهما (٢) مستطيل الوجه ، ووجهه أثر الجدرى ، أشقر اللون ، وعلى رأسه الطربوش العسكرى الطويل ، وقد لبس الحلة الرسمية وعلى صدرها مستعرضات من جدائل القصب ، وكذلك أكمامها محلاة وموشاة به ، وكان وجهه أقرب الى العبوس منه الى الطلاقة والدعة ، ولذلك لم تكن الرعية تحبه كأبيه ، وكان سريع الغضب حاد الطبع لكنه سليم النية ، ليس في قلبه مكر ولا خداع البتة ... ... (٣) " .

واستمع الى حديثه عن الملك نمر اذ يقول : " هو شيخ متوسط القامة خفيف شعر اللحية ، اسمر اللون ، كبير العينين حادهما ، عليه القفطان الحريرى ، وفوق كتفيه العباءة البيضاء ، وعلى رأسه العمامة وبيده الغليون وفي خدمته رجال ، واحد يحمل له سلاحه من رمح وسيف وجراب وآخر ينقل له الغليون والتبغ وآخر غير ذلك ... (٤) " .

عجيب أن تكون السمة المميزة للشخصية الانسانية أنه يحمل في يده غليونا أو أن في خدمته عدة رجال ، وغريب أن يكون الفرق بين صاحبي الشخصية والشخصية أن الاول أشهل العينين حادهما ، والثاني كبير العينين حادهما ، ومن ثم يمكننا أن نقول ان شخصيات روايات زيدان تكاد تكون متشابهة واذا وجد فرق بينهما فهو فرق ظاهرى فقط يتصل بالمظاهر الخارجية والعادات والتقاليد .

---

(١) أشهل العينين ، يقال : عين شهلاء أى يخالط سوادها زرقة .

(٢) موقيهما ، مثنى كلمة " موق " ويراد بها هنا مجرى الدمع من العين .

(٣) جورجي زيدان — رواية المملوك الشارد ص ٤٨

(٤) جورجي زيدان — رواية المملوك الشارد ص ٨٠

و — مدى استكمال حلقات التاريخ المفقودة :

في رأينا أن المؤلف لم يستكمل حلقات التاريخ المفقودة لأن طبيعة فنه لا تسمح له بذلك ، ولأن الذى أثبته في هذه الرواية انما هو شذرات يسيرة واشارات خفيفة الى تاريخ تلك الفترة ، وكلها كانت مستمدة من كتب القدماء ومن ذاكرة المؤلف التي اختزنت ما دونه الاقدمون في كتبهم ، أما الشخصيات الخيالية التي اخترعها المؤلف فلا تعتبر استكمالا لحلقات التاريخ ، لأن السلسلة التاريخية حينما تكون ذهبية لا يصح أن توضع فيها حلقة حديدية ليقال ان ذلك استكمال لحلقات التاريخ المفقودة ، وهذا هو ما فعله زيدان في هذه الرواية ، لأنه عني بالجانب الغرامي ، وهو الحلقة المفقودة ، أو هو الجانب الذى أهمله المؤرخون وهم محقون فيما فعلوه ، اذ أنه لا أحد يقول ان جوهر التاريخ هو الغرام أو ان الطريق الى دراسته هو عرض المواقف الغرامية .

ز — لغة الرواية وسماتها :

لقد اعتمد جورجي زيدان على اللغة الفصحى في جميع الاجزاء الحوارية لرواية المملوك الشارد ، وكانت لغة هذه الرواية عادية سهلة وخالية من الأخطاء اللغوية أو النحوية الا في حالات قليلة جدا ، وقد تتبعت تلك الاخطاء فوجدتها تتمثل في الصفحات التالية : (٦٧ ، ٧٦ ، ٧٧ ، ٩٠ ، ١٠٣ ، ١٠ ، ١١٠ ، ١١١ ، ١١٧ ، ١١٨)

ولا بد من أن نذكر أمثلة لها مبينين وجه الخطأ فيها ، واليك بيان ذلك :

أ — كلمة لغة في قوله : " فناداه رجل قائلا بلغة تلك القبيلة " (١) والصحيح بلهجة تلك القبيلة ، لأن اللغة هي الام التي تتفرع عنها اللهجات الاخرى .

ب — كلمة قادم في قوله : " لئلا يكون أحد قادم (٢) " والصحيح : لئلا يكون أحد قادما " بنصب " قادما " لانها خبر يكون .

جـ ــ كلمة " عشرون " في قوله : " منذ خمس وعشرون سنة (١) " والصواب : منذ خمس وعشرين سنة ، بنصب عشرين لانها معطوفة على كلمة خمس وهي مجرورة والمعطوف على المجرور مجرور ، وعلامة جرها الياء نيابة عن الكسرة لأنها من ملحقات جمع المذكر السالم •

وعلى الجملة نرى لغة الرواية جميلة بيسارتها وقربها من الافهام •

ح ــ خاتمة الرواية ومدى تطابقها مع مجريات الاحداث :

لقد أُنْهِيَتْ هذه الرواية نهايةً سعيدةً ، حيث تم جمع شمل الاسرة التي شردها الظلم وعصف بها تيار الاستبداد ، ولكن لم تكن هذه النهاية متفقة مع مجريات أحداث الرواية ، وذلك لأن أحداثها كانت تدور حول الظلم وسفك الدماء عن طريق مجزرة المماليك من جانب وعن طريق حروب محمد علي وابنيه ابراهيم واسماعيل من جانب آخر •

ولا يمكننا اعتبار هذا التناقض بين الخاتمة ومجريات الاحداث ظاهرة عامة في جميع روايات جورجي زيدان ، اذ أن مثل هذا الحكم لا يمكن اصداره الا بعد تحليل الروايات وتحديد نهاية كل رواية ثم الموازنة بينها وبين مجريات الاحداث وسيأتي هذا في مبحث خاص ان شاء الله •

ح- تحليـــل روايــــة

(أســـير المتمهـــــــدى)

١) اقسـام الروايـــــة ·

٢) زمـــن الروايــــة ·

٣) شخصيـات الروايــــة ··

٤) مضمـون الروايـــة ·

٥) خاتمة التحليل وتشتمل على :

أ ــ العناية بتصوير المواقــف الغراميـــــــة ·

ب ــ بين الكشف عن الدسائس والتصويـر للحقائـق ·

جـ ــ شخصية شـــفيق بين الحقيقة والخيـــــال ·

د ــ دلالة العنوان ومدى تطابقه مع مجريات الاحداث ·

تحليل رواية أسير المتمهدى

١) أقسام الروايـــة :

تتكون رواية (أسير المتمهدى) من قسمين كبيرين هما : القسم التاريخي الذى اعتمد فيه المؤلف على التاريخ فأخذ المادة التي أراد نقلها الى القراء ، أو أراد تشويقهم اليها ثم القسم الغرامي المرتكز على القصة الغرامية التي تخيلها زيدان ليربط بها حوادث التاريخ كما يقول ، أو ليستحضر حلقات التاريخ المفقودة كما يزعم •

٢) زمن الروايـــــة :

تدور حوادث هذه الرواية في الربع الأخير من القرن التاسع عشر ، ذلك لأنها تحاول الكشف عن دسائس الدول الأوربية التي أدت إلى الثورة العرابية في مصر وإلى الثـــورة المهدية في السودان ، ثم إلى الاحتلال البريطاني لوادى النيل •

٣) شخصيات الروايــة :

اشتملت هذه الرواية على مجموعة من الشخصيات الهامة التي تآزرت وعملت على تدرج أحداث الرواية ، وأهم تلك الشخصيات هي :

١) الخديو محمد توفيق أسماعيل : خديو مصر سنة ١٨٧٩ ـ ١٨٩٢ ، الـــذى استوزر عرابيا باشا ثم الجئ الى قبول التفتيش الانجليزى اقتصاديا وعسكريـــا ، وتخلى عن سيادته على السودان عام ١٨٨٤م •

٢) أحمد عرابي باشـا : (١٨٣٩ ـ ١٩١١) ، زعيم الحزب القومي المصرى ، وقائـد الثورة العرابية لتحرير مصر من الاستعمار الانجليزى •

٣) محمد أحمد المهدى : زعيم الثورة المهدية في السودان ، وكان والده نجـارا ماهرا في بناء المراكب والسواقي ، وقد ضاق به العيش في دنقلة فرحل الـــى الخرطوم وابنه محمد أحمد اذ ذاك طفل صغير ، وقد تعلم اخوة محمد أحمـــد

صناعة والدهم أما هو فقد مال بفطرته الى الثقافة العلمية الدينية ، ولما مالت نفسه الى التصوف ذهب الى الشيخ محمد شريف حفيد الشيخ الطيب صاحب الطريقة السمانية ، فأقام عنده منقطعا للعبادة وخدمة شيخه ، وكان يحترم شيخه ويجله غاية الاجلال ، وقد أحبه شيخه لما رأى فيه من اخلاص وتفان في العبادة ، بل جعله شيخا وأعطاه راية ثم اذن له في الذهاب حيث شاء ، فارتحل الشيخ محمد احمد المهدى مع اخوته الى جزيرة أبا وبنى جامعا للصلاة وخلوة (١) للتدريس ، فاجتمع عليه سكان الجزيرة ، ولم يمض الا القليل حتى نبه شأنه وعلا صيته ، لكن ارتفاع الذكر هذا لم يحل بينه وبين شيخه محمد شريف ، اذ أنه كان يزور شيخه من وقت لآخر لتقديم واجب الطاعة وفروض الولاء ، وقد اقترح على شيخه الارتحال الى الجزيرة (أبا) أو ما جاورها ، وقد زين له الاقامة في المراد يسبب (بين أبا والكوة) فانتقل اليها عام ١٢٨٨هـ الموافق ١٨٧٢م وعاش بالقرب من تلميذه محوطا بالعناية والرعاية ولكن سرعان ما تكدر هذا الصفاء وتحول الى جفاء وعداء ، لأسباب مختلف فيها ، منها ما رواه الاستاذ محمد شريف من أن محمد احمد المهدى لما كثرت انصاره ومريدوه كبرت نفسه ، وسول له شيطان الغرور أنه أعظم من في الارض ، وأنه المهدى المنتظر ، ويقول الشيخ محمد شريف ان محمد احمد قد أسر اليه بدعواه ورغب في أن يكون له وزيرا ومستشارا فيجعل الامر كله في يده ، وكان ذلك عام ١٢٩٥هـ الموافق ١٨٧٨م ، فزجره ونهاه مرارا ، ولما لم ينته نفاه عن الطريقة وأمر أصحابه بأن يضربوه ، وأوعز الى الحكام بالقبض عليه (٢) .

٤) هكس باشا : من ضباط الانجليز النابغين ، وقد انتظم في الجيش الهندى سنة ١٨٤٩ ، وشهد عدة وقائع حربية في الهند والحبشة ، وتقاعد برتبة

---

(١) يراد بالخلوة الكتاب الذى يحفّظ القرآن الكريم .

(٢) راجع كتاب نعوم شقير — جغرافية وتاريخ السودان ص ٦٣٧ — ٦٤٠

كولونيل ، وفي سنة ١٨٨٢م قدم الى مصر فسمي رئيس اركان حرب الجيش المصرى ، ولما ألغي جيش عرابي وصدر الامر بارسال مدد حربي الى السودان سمي رئيس اركان حرب الجيش في السودان ، وقد وصل الخرطوم في ٧ فبراير سنة ١٨٨٣م ليشترك في اخماد ثورة المهدى •

٥) غوردون باشا : حاكم ادارى انجليزى ، ولاه الخديوى توفيق باشا أمر السودان عام ١٨٨٧ لاتساع اطرافه وكثرة مشاكله في تلك الفترة ، اذ أنه لم يجد أفضل من غوردون في تولي هذه المهمة فاستدعاه تلغرافيا من بلاد الانجليز ، وأصدر له فرمانا بالولاية على جميع بلاد السودان المصرى مع دارفور وخط الاستواء وسواحل البحر الأحمر ، ومنحه السلطة العسكرية والمدنية عليها ، وأعطاه سلطانا عسكريا مطلقا في العفو والقتل وغيرهما ، فذهب غوردون الى الخرطوم بعزم وطيد على اصلاح البلاد وفض مشاكلها ، ولكنه غرق في تلك المشاكل وبقي حائرا الى أن قتل بسيوف أنصار المهدى ، وذلك عندما فتح المهدى مدينة الخرطوم بعد حصار عنيف •

٦) الكابتن شفيق : هو أسير المتمهدى ، وهو الذى دارت حوله الحوادث الغرامية لرواية جورجي زيدان : (أسير المتمهدى) •

٧) فدوى : بنت أحد الباشوات ، وهي الفتاة التي هام بها كل من شفيق وعزيز في رواية جورجي زيدان (أسير المتمهدى) ومن أجلها كانت المخاطرات والمؤامرات •

٨) عزيز : من أبناء الذوات بمصر ، وهو المنافس الشرير في رواية زيدان لشفيق في حب فدوى •

٩) بخيت : هو خادم فدوى الوفي الذى انقذها من مخاطر كثيرة في الرواية •

١٠) أحمد : خادم شفيق ، وكان وفيا مخلصا له •

٤) <u>مضمون الرواية :</u>

لمّا كانت حوادث رواية "أسير المتمهدى" تدور في الربع الاخير من القرن التاسع عشر كان لا بد للمؤلف من أن يبدأ الرواية باعطاء لمحة تاريخية عن أحوال مصر

في تلك الفترة ، لينتقل بعد ذلك الى تصوير ملامح والد شفيق وبيان حالته النفسية التي تميزت بالانقباض والكآبة دائما ثم توضيح حالة زوجته التي كانت في حيرة من أمر زوجها ، وقد ازدادت حيرتها بسبب الصندوق الذى كان يحتفظ به والد شفيق دون أن يعلم أحد بحقيقته •

اتخذ زيدان من الصندوق لغزا يشوق القارئ ، ولهذا كان معنيا بتصوير الحاح الزوجة على زوجها في أمر الصندوق بعد أن حدد الزوج موعداً لِكَشْفِ جانب من سر الصندوق ، ولكن امعانا من زيدان في تغليف اللغز تراه يأتي بأمر ينسي الزوج والزوجة موضوع الصندوق ، ذلك هو غياب ابنهما الوحيد عن المنزل الى العاشرة مساء على غير عادته ، فاضطر الوالد الى الخروج للبحث عن ابنه ، بينما بقيت الام غارقة في هواجسها ناسية أمر الصندوق ، وقد عفا المؤلف عنها بشرح أسباب غياب الابن •

وتتلخص تلك الاسباب في أن لشفيق صديقا أسمه عزيز ، وقد ربط هذا الصديق برحلة ما كان يتوقعها وعندما كانا سائرين شاهدا حادث محاولة اعتداء على فتاة بريئة ، فاستبسل شفيق في سبيل الدفاع عنها وصون عرضها دون أن يعلم من الفتاة ؟ وهذا موقف نبيل وفق الكاتب في إبرازه وتصويره •

وبسبب ذلك الموقف النبيل نال شفيق اعجاب الفتاة وتقديرها لشهامته ونبله وانسانيته ، بل تبادلا عبارات الثناء والاطراء ، وقد أسرف المؤلف في تصوير ذلك كله مشيرا الى أن علاقة الحب والغرام قد بدأت بين فدوى وشفيق من تلك اللحظة ، بينما ازداد حقد عزيز الذى كان هو المدبر الحقيقي لذلك الحادث لكنه اضطر الى اخفاء عواطفه عن صديقه شفيق والى التظاهر له بالمحبة والاخلاص ولهذا قال له : ان مثل هذه الفتاة الطاهرة لا تليق الا بك ، على حين انه كان يضمر له الشر ويتربص به الدوائر •

ولما كان المؤلف معنيا بالجانب الغرامي أكثر من عنايته بالجوانب الاخرى كان لا بد له من أن يحرك هذا المنافس الشرير وينقله من مؤامرة الى مؤامرة ومن حيلة الى حيلة ، ليذوق الحبيبان آلام الحب وبلاءه ، وكأنما كان الكاتب بصدد كتابة قصة غرامية بين المجنون

وليلى ، أو جميل وبثينة ، وليس بصدد كتابة قصة تاريخية صرفة أو ممتزجة بشيء من الخيال والمواقف الغرامية للتشويق ، ولهذا كثرت متابعة المؤلف لمواقف عزيز وشفيق وازداد تتبعه لنقطات كل منهما في دار الاوبرا وغيرها حيث ذهب مع عزيز الذي خرج بعد بدء التمثيل مباشرة ليحيك مؤامرة من سلسلة مؤامراته ، فاتصل بعجوز شمطاء طالبا منها مساعدته في جذب فدوى اليه ، فرسمت له العجوز خطة العمل ، وعاد توا لينفذ تلك الخطة حيث اتصل بوالد الفتاة في شرفته بدار الاوبرا ، وسرعان ما طمع الوالد في مال عزيز ، ورغب في أن يتولى الوصاية عليه ليكون حر التصرف فيما ورثه عزيز من مال ، ولو أدى ذلك الى تقديم بنته هدية لعزيز ، وذلك أمر يتمناه عزيز ، بل يعمل على تحقيقه . أما شفيق فقد أخرجه المؤلف من دار الاوبرا بعد فترة طويلة من بدء التمثيل ، ثم ترك الفرصة للصدف كي تؤدي دورها في الجمع بين شفيق وفدوى .

وعندما تم ذلك اللقاء عجزت فدوى عن الافصاح عما بنفسها ، فاضطرت الى توديع شفيق تاركة خادمها بخيتا لكي يوضح رغبتها ويشرح مرادها ، وفي هذه اللحظات كان عزيز يعمل على تكدير صفو العلاقة بين فدوى وشفيق عن طريق تشكيك الأب في خدم فدوى وخاصة بخيتا ، وفي الحال عاد الى صديقه يتملقه ويسترضيه ، الا أن شفيقا ارتاب في سلوكه وشك في تصرفاته ، فأخذ يعاتبه ويناقشه حتى وصلت بهما العربة الى مكان الاحتفال بفتح فم الخليج ، لكنهما لم يجدا الا عددا قليلا من الناس ، اذ انتهى الاحتفال ففسر شفيق بذلك لأنه يريد الرجوع الى والده ....

والى هنا يخيل للقارىء أن القصة قد انتهت بسبب حل المؤلف لجانب كبير من عقدها ، ولكن قد يفوت على القارىء المتعجل أن المؤلف لم يعمد الى ذلك الحل الا ليزيد الأمر احكاما وتعقيدا ، بدليل عودته الى الصندوق مرة أخرى ومحاولته الكشف عن جانب من حقيقته ، ثم اشتراطه عدم الاستفسار عما سيرى بالصندوق .

ولما رأت زوجته خصلة من الشعر بداخل الصندوق ازداد اضطرابها ، واشتدت حيرتها ، وقد تركها المؤلف في تلك الحيرة لينتقل بالقارىء الى الحديث عن شفيق الذي

منح بعثة دراسية ، وعن فدوى التي حز في نفسها نبأ البعثة ، لأنها كانت تخشى مغبة فراق حبيبها ، كما تحدث عن عزيز الذى انكشف أمره وافتضح سره لكنه منافس شرير ومغامر جرئ ، لذا سولت له نفسه السفر مع صديقه شفيق الى الاسكندرية ليكون في وداعه كما يزعم ، على حين أنه كان يدبر أمر قتله لكنه أخفق حيث تمكن شفيق من الذهاب الى إنجلترة .

وما إن وصل شفيق الى انجلترة حتى استجمعت الثورة العرابية أسباب الانفجار وقد أشار إليها المؤلف إشارة عابرة ، وفي هذه الإشارة إيذان بوصوله إلى الجانب الثاني من الرواية ، ولكي يقدم شيئا عن هذا الجانب التاريخي تراه يحرك شفيقا تحريكا آليا كأنما هو دمية في يديه ، وليس شخصية ذات أبعاد ، وقد تمثل ذلك التحريك في الحاق شفيق بالجيش الانجليزى متطوعا ، لأن هذا الانضمام سيمكنه من السفر إلى مصر للاطمئنان على محبوبته من جانب ، وليسرد أحداث الثورة العرابية من جانب آخر ، وقد نجح المؤلف في هذا التنسيق ، لكنه لم ينجح في تصوير أحداث الثورة العرابية تصويرا حيّا اذ اكتفى بالسرد العابر والتصوير المجتزأ عن طريق ذكر المطالب التي تقدم بها الجيش للخديوى ، ثم الإشارة العابرة إلى قيادة أحمد عرابي للثورة الوطنية ، كما تحدث عن مذبحة الاسكندرية التي أدت إلى صدور الأوامر من الحكومات الأجنبية لرعاياها بالهجرة من مصر فورا ، وكان ضمن المهاجرين والد شفيق ، والى هنا ينتهي التاريخ في خطة المؤلف ، أو تتوقف الحوادث التاريخية لتحل محلها الحوادث الغرامية التي تتوالى دون انقطاع ، أو دون خلو صفحة منها أو من أسبابها المؤدية اليها ، حيث انتقل المؤلف من الحديث عن ثورة عرابي الى الحديث عن فدوى التي فزعت لهجرة والدى شفيق ، وعن عزيز الذى سره ذلك الموقف فانضم الى الجيش العرابي لا لمصلحة وطنية ولكن لتحقيق مآربه الدنيئة كما أشار المؤلف ، وهي إشارة لطيفة تبين للقارئ دور الوصوليين والانتهازيين حتى في أحرج اللحظات وفي صفوف الجيش بالذات ...

ثم يعود المؤلف الى الصندوق للمرة الثالثة ، ويسوغ عودته هذه بخشية والد شفيق وخوفه من زوال أمر الصندوق وانتشار خبره بسبب سفره الى لندن ، ومن ثم كان لا بد من كتابة تفاصيل سر الصندوق في ورقة صغيرة تسلم للزوجة مع اشتراط عدم فتحها الا بعد

موته • وهذا الشرط من شأنه أن يزيد السر تخليفا وتعمية لا ايضاحا وتفسيرا • ومن شأنه أيضا أن يشد القارئ ويحطه على متابعة قراءة الرواية • وتلك وسيلة من وسائل التشويق عند زيدان •

هاجر والدا شفيق الى لندن لكنهما لم يجدا ابنهما هناك فهالهما الامر • وما كان من المؤلف الا أن أوحى الى والدته بفكرة الكتابة لفدوى (حبيبة شفيق) بمصر لعلها تكون قد سمعت شيئا عن شفيق • ولما وصل كتاب الوالدة الى فدوى تأثرت وبقيت في هم وغم • بل ساء حالها بسبب الاخبار التي كانت تتحدث عن ضرب الاسكندرية • اذ أن والدها كان بالاسكندرية عند ذاك • ومن ثم أتى المؤلف بشخصية ثانوية هي والدة فدوى وجعلها تشارك ابنتها في همها • وقد علل تلك المشاركة تعليلا غير مقبول بالنسبة للحوادث التاريخية •لكنه مناسب من حيث الاسرار والالغاز • لأنه مرتبط تمام الارتباط بأمر الصندوق الذى غدا سرا ولغزا محيرا •

ويتلخص ذلك التسويغ في أن الام قد تذكرت أخا لها قد ضاع قبل تسع عشرة سنة • وبالتحديد في حادثة سنة ١٨٦٠م بدمشق • تلك الحادثة التي أشار اليها المؤلف في خبث قائلا : " •••• قام فيها فتيان المسلمين على النصارى بمذبحة هائلة دارت فيها الدائرة على النصارى •••• " ونحن نرى أنه لا داعي الى ذكر هذه الحادثة في مجال تعليل حزن الام وبكائها • لأنه من الأفضل أن تتذكر الامُّ زوجها الذى كان في الاسكندرية اثناء الحرب والضرب اذ أن مثل هذا التذكر من شأنه أن يوحي بالمحبة المتبادلة بين الزوجين • ومن شأنه أن يذكر فدوى بالرباط المقدس الذى تتطلع اليه • بل يدعوها ذلك التذكر الى أن تبكي على أبيها الغائب قبل بكائها على حبيب لم ترتبط به بعد • ولم تدر أين هو الآن ؟ وما مصيره ؟

تنمو الاحداث بعد ذلك وتزداد فيصل شفيق فجأة الى مصر ضمن الجيش الانجليزى ويتمكن من الاطمئنان على محبوبته ومن القضاء على محاولات منافسه الشرير • وقد نجح المؤلف في تصوير هذا الموقف خاصة عندما جمع بين الحبيبين اللذين تمكنا من تجديد عهد الحب والوفاء بعد أن مرت المحبوبة بمخاطر عديدة دبرها المنافس عزيز • وقد عرض بذلك حياته وحياة فدوى للهلاك لولا مجيء شفيق الذى كان سببا في إنقاذهما من الهلاك •

استغل المؤلف وجود شفيق بمصر فكلفه بمهمة سرد أخبار الثورة العرابية ، ولهذا كان تصويره لثورة عرابي تصويرا باهتا فاقدا الحيوية وروح الوطنية ، ولم يكتف بتكليف شفيق بتلك المهمة بل كلفه بمهمة أخرى فزج به في معركة حربية ليتمكن من سرد أخبارها ، وقد جاء هذا الموقف بعد مضي مائة وأربعين صفحة مكتظة بالحديث عن الحب والغرام وشيء قليل عن ثورة عرابي ، حيث جعل شفيقا أسيرا للمتمهدى عند ما ذهب ضمن الحملة المتوجهة الى السودان بقيادة هكس باشا الذى بعث شفيقا ليستطلع له أخبار الدراويش في الأبيض فذهب متنكرا ، وتمكن من الانضمام الى الحملة المتوجهة الى الدويم بقيادة الامير عبد الحليم ، ولكن سرعان ما انكشف أمره وألقي القبض عليه ، فأمر المهدى بحبسه .

وبينما هو في سجن المهدى اذا برجل غريب يدخل عليه فجأة قائلا له انه مصرى ، وكان موظفا تابعا للحكومة المصرية قبل سقوط الابيض في أيدى الثوار لكنه اضطر الى التظاهر باتباع المهدى حتى أصبح كاتبا للامير عبد الحليم ، وما حضر في تلك اللحظة الا لمساعدة السجين شفيق عند ما علم بأنه مصرى ، وقد تمكن بالفعل من تدبير حيلة غريبة لتخليصه من موت شبه محقق ، وبهذا أصبح شفيق واحدا من جماعة الأمير عبد الحليم فرافقهم ضمن حملتهم التي كانت تتابع حملة هكس إلى أن أبيد معظم أفراد الحملة في موقعة شيكان ، وقتل هكس باشا ، وعلى الرغم من هذه الانتصارات كان شفيق يحاول الفرار أو اللحاق بهكس باشا ، ولكن دون جدوى فبقي حائرا الى أن جاء غوردون الذى حاول ـ دون نفع ـ أن يخدع المهدى بما قدمه له من عرض الدنيا ومتاعها الزائل .

وهكذا تتصاعد الأحداث وتتلاحق ، الا أن المؤلف يعرض عنها ليعود ـ للمرة الرابعة ـ الى أمر الصندوق الذى نسي ، حيث نجده يتحدث عن والدى شفيق وعن الحوادث والمغامرات المصطنعة حديثا مسهبا استغرق قرابة ثلاثين صفحة (من ١٨٥ ـ ٢١٤) ويتخلل ذلك كله حديث عابر عن عثمان دقنه ، وعن حصار الخرطوم ، لكن المؤلف لا يركز على هذه الجوانب المهمة ، بل يتعمد اغفالها ليعنى بشخصية غوردون أيما عناية فيصوره بصورة البطل المغوار .

وبعد موت غوردون فرّ شفيق ومعه انطباعات مبالغ فيها عن المهدى وأتباعه .
وقد أعجب زيدان بتلك الانطباعات فركز عليها في روايته لأنها تمثل الحلقة المفقودة في نظره . على حين أنها لا تمثل الا آراء المستعمرين والكفار الذين يكيدون للاسلام وأهله . ومن ثم اكتفى زيدان بتلك اللمحات العابرة والصور المشبوهة عن مواقف المهدى . ثم عاد بعد ذلك الى الجانب الغرامي الذى هو شغله الشاغل . حيث تحدث عن عزيز وفدوى ووالدها الذين استقر بهم المطاف في بيروت . وبيّن أن والد فدوى ما زال يطمع في الاستيلاء على ثروة عزيز وقد نجح بالفعل . حيث حصل على صك من عزيز بالتنازل له عن كل أمواله . فسر كل منهما بما تم الا فدوى فقد غضبت غضبا شديدا وفكرت في التخلص من الحياة . لكن المؤلف حال بينها وبين الانتحار . كما حال دون وصول عزيز اليها حيث وضع عقبات شديدة في طريقه . وهدف الكاتب من هذا هو دغدغة عواطف القراء وحملهم على متابعة قراءة القصة .

وأخيرا يصل الكاتب الى اللغز المغلف والسر المكتوم . سر الصندوق الذى انكشف أمره فاتضح منه أن شفيقا ليس في الأصل الا ابن خال فدوى . ومن ثم بدأ حب فدوى له يزداد . وأخذ تعلقها به يتضاعف . مما أدى الى الحاق الفشل بمواقف عزيز فأخذت مواقفه تتأزم وطفقت مشاكله تتعقد . لكنها ما لبثت أن انفرجت على يد شفيق الذى لم يقابل السيئة بالسيئة . انما لقن صاحبه الخسيس درسا لا ينسى . وضرب للناس مثلا يحتذى . وذلك عندما طلب من عمه الباشا التنازل عن الصك الذى كتب بينه وبين عزيز . ولم يكتف بهذا بل أخذ الصك من عمه ومزقه فأثبت شهامة ونبلا . وذاك موقف يدل دون ريب على براعة الكاتب في هذا الجانب . حيث استطاع ان يمهد للنهاية السعيدة التي درج عليها في كل رواية من رواياته . ومن ثم انتهت الرواية باحتفال الباشا احتفالا كبيرا بزواج ابنته فدوى لشفيق فكانت نهاية سعيدة على الرغم مما اكتنف الرواية من فتن وحروب ومنازعات ودسائس ومكائد للاستعمار والمستعمرين ....

٥) خاتمة التحليل :

أ — العناية بتصوير المواقف الغرامية :

تحليل رواية (أسير المتمهدى) يؤكد لنا أن مؤلفها كان معنيا بالجانب الغرامي أكثر من عنايته بالجانب التاريخي ، وذلك جريا وراء عنصر التشويق بوسيلة رخيصة غير مقبولة في مجال الفكر والفن ، وغير متناسبة مع حقائق التاريخ التي تتطلب تحرى الحق وتوخي الصدق عن طريق الميل الى الدقة والتمحيص ، وزيدان لم يلتفت الى شيء من ذلك لأنه كان مشغولا بدغدغة العواطف وتحريك الغرائز الدنيا ، وكان جديرا به أن يعنى بالجانب التاريخي لأنه هو المقصود بالابراز والتصوير ، ولأن الكاتب يزعم أن هدفه من كتابة جميع رواياته هو تعليم الناشئة التاريخ وتحبيبه الى نفوسهم ، وعليه فلا يصح الانصراف عن التعليم الى التسلية ودغدغة العواطف بالمواقف الغرامية المسفة الساقطة .

كما أن التحليل يؤكد أن الجانب الذى اهتم به المؤلف وشغل به القراء لا يعتبر استكمالا لحلقات التاريخ المفقودة ، لأنه لا يمت الى الحقائق التاريخية بأدنى صلة لكنه هو استكمال لوسيلة فنية عند الروائيين ، وتلك الوسيلة هي ادماج قصة غرامية في مجال الرواية التاريخية ، لكن زيدان بالغ في استخدام هذه الوسيلة ، فبدا وكأنه يكتب قصة غرامية ليدمج في مجالها قصة تاريخية ، ومن ثم نستطيع أن نعطي هذه الرواية عنوانا آخر يتناسب مع أحداثها الظاهرة والمسيطرة على جو الرواية ، وذلك العنوان في نظرنا هو : (غرام شفيق وفدوى) وليس أسير المتمهدى ، لأنها لم تعط صورة متكاملة عن المتمهدى (محمد احمد المهدى) ولم تصور اسيره تصويرا فنيا دقيقا ، ومن ثم كان النقد منصبا على الرواية وعنوانها معا .

ب — بين الكشف عن الدسائس وتصوير الحقائق :

تبين لنا من تحليلنا لرواية أسير المتمهدى أنها لم تكشف عن دسائس الاستعمار الاوربي في مصر والسودان بالصورة التي كان يتوقعها كل قارئ للرواية ، وخاصة

الصفحات الاخيرة منها ، حيث تحدث فيها الكاتب عن مهدى السودان ، لكنه لم يبرز بطولته وانتصاراته بقدر ما سخر منه ، وتتمثل سخريته في جوانب كثيرة منها اشارته الى أن المهدى قد ذبح صورة شفيق بسيفه ليوهم اتباعه بأنه قد قضى على الجاسوس الذى كان يعمل لصالح المستعمر الاوروبي ، وسبب سخرية زيدان واعراضه عن تصوير بطولة المهدى كما ينبغي يرجع الى أن زيدان كان ضمن الحملة التي توجهت لانقاذ غوردون باشا من سيوف المهدى وأنصاره ،والى تعصبه لمسيحيته ، بينما كان المهدى مسلما مصلحا يدعوه دينه وتدعوه رغبته في الاصلاح الى محاربة غوردون وأعوانه ، ومن ثم كان لا بد أن يعمل زيدان أو غيره على طمس معالم تلك الفترة لاخفاء دسائس الاستعمار والمسيحية ولصرف الناس عن التفكير في أمر الاصلاح الديني وشغلهم بالمواقف الغرامية المسفة والصور الفاتنة ، ولا أدل على ذلك من الرجوع الى الرواية ذاتها أو الى تحليلنا الموجز .

أما من ناحية تصوير الحقائق فان كل قارئ للرواية قراءة امعان وتدبر — يتساءل قائلا : أكانت الحقائق الواردة في رواية "أسير المتمهدى" صحيحة ومتمشية مع ما عرف عن المهدى المجاهد في سبيل إعلاء كلمة الله أم أن بها تحويرا واختلاقا ؟؟ على حين أن تلك الحقائق قد استمدها المؤلف من المصادر التاريخية التي دونت بيد المستعمر ، وهي متفقة مع هوى زيدان ورغبته في ابرازها دون سواها لأنها تقدم المهدى في صورة الدجال الحقير ، ومن ثم يتراءى للقارئ أن كل ما بالرواية تلفيق وتزوير ، وخاصة عندما يجد المؤلف يتحدث عن ادعاء المهدى وزعمه بأنه المهدى المنتظر ، وبالحضرة النبوية ليقنع اتباعه بأن كل ما يقوله لهم انما هو بتوجيه من النبي صلى الله عليه وسلم في تلك الحضرة .

وهذا الذى قد يتراءى للقارئ لا يوصف بالصحة المطلقة ولا بالبطلان المطلق ، لأنه يمثل جانبا من الحقيقة الثابتة في بعض الحالات وليس من نسج خيال المؤلف ، وذلك مثل زعم محمد احمد بأنه المهدى المنتظر ، وادعائه وجود الحضرة النبوية ، ونعني بثبوتها أن المهدى قد قال بها فعلا في خُطَبِه التي كان يلقيها على أتباعه

وفي المنشورات التي كان يكتبها الى أعدائه ، وتحتفظ المكتبة السودانية بنسخ مخطوطة من تلك المنشورات ، فلا مجال إذن لانكارها على مؤلف رواية "أسير المتمهدي" من هذه الناحية ، ولكن ننكر عليه إغفاله الجوانب المشرقة عند المهدى والمواقف البطولية في تاريخ حياته .

أما مناقشة ذلك الزعم الذى كان يقول به المهدى من حيث صحته وعدمه فليس مجاله هذا البحث ، ولكننا نشير الى أن الباحثين في الجانب التاريخي قد ناقشوا هذه المسألة وقتلوها بحثا ، على الرغم من أنهم قد اختلفوا فيها طرائق قددا ، فمنهم من كفّر المهدى بسبب ادعائه المهدية (١) ومنهم من صدّق مهديته فأصبح من أنصاره وأتباعه ، ونحن لا نقر ادعاءه المهدية ، ولا نعترف بما قال به في هذا الجانب ، لكننا نرجح أنه ما كان يقصد بذلك الادعاء الا أن يعبر عن رغبته الصادقة في الاصلاح ومحاربة الكفار ، وأن يكشف عن شعوره وهو في قمة درجات التصوف ، فاندفع الى القول بما قال ، وربما كان المهدى في هذه الحالة من المتصوفة المتطرفين الذين عرفوا بالشطح ، وهو المجيء بألفاظ يخالف ظاهرها ظاهر الشرع ، كما هو الحال عند الحلاج الذى كان يقول " أنا الحق " ويقول " ليس في الجبة الا الله " وربما لم يكن المهدى كذلك ، وما جاء به هو زلة من زلاته وخطيئة من خطاياه ، لأنه بشر غير معصوم .

وأيّا ما كان الأمر فمحمد احمد المهدى زعيم من زعماء الاصلاح في العصر الحديث دون ريب ، ولا يصح اغفال نواحي الاصلاح عنده كما فعل جورجي زيدان في رواية أسير المتمهدى .

---

(١) راجع قصيدتي الشيخ محمد شريف (استاذ المهدى) في كتاب نعوم شقير ص ٦٤٠ ، ٦٤٩ ، ثم رسالة المفتي شاكر الغزى ص ٦٥٢ ، ورسالة السيد أحمد الازهرى ص ٦٦١ . وكلها تنكر على المهدى ادعاءه وتفند اراءه تفنيدا قويا .

جـ) شخصية شفيق بين الحقيقة والخيال :

كل قارئ لرواية أسير المتمهدى يتساءل عن شخصية شفيق أهي واقعية أو خيالية ؟ ولا يجد اجابة على هذا التساؤل الا في كتب التاريخ التي تؤكد أن شخصية شفيق باعتباره مندوبا عن هكس باشا في حملة الأُبَيِّض شخصية واقعية دون ريب ، ولكن مؤلف الرواية قد تصرف في مواقف هذه الشخصية بعض التصرف ، الامر الذى جعلها تختلف اختلافا بينا عن الشخصية التي ورد ذكرها في كتب التاريخ ، وخاصة من حيث مصير الشخصية في كل موقف ولا سيما المواقف الغرامية ، ومن تلك المواقف افتضاح سره عندما حاول أن يندس وسط الحملة المتوجهة الى الدويم بقيادة الامير عبد الحليم ، ومنها أيضا إلقاء القبض عليه وسجنه ثم تخلصه من السجن بحيلة بارعة دبرها المؤلف بوساطة الموظف المصرى ، فهذه النهاية تختلف تماما عن نهاية أسير المتمهدى الذى جاء ذكره في كتب التاريخ ووصف بأنه ذهب الى السودان بايعاز من هكس باشا ليتعرف على أحوال جيوش المهدى ، ولم يذكر مصدر من المصادر نبأ نجاته أو فراره بالحيلة التي ورد ذكرها في رواية زيدان ، بل أشارت كتب التاريخ الى أنه قد قتل عندما تبين أنه جاسوس ، وقد جاء هذا في ثنايا الحديث عن حملة هكس باشا على الابيض حيث ذهب مؤرخو تلك الفترة الى أن هكس باشا قد أقام " في الرهد ستة أيام ينظر في طريق الحملة الى الابيض ، ولم يكن للابيض من الرهد الا طريقان : طريق الملبس وطريق البركة فقر الرأى على اختيار طريق البركة لأنها أغزر ماء ، فسار بالجيش قاصدا المنهل المذكور ، وأرسل في الطريق أحد الخبراء ومعه عبد الى الأبيض للاستعلام عن قوة المهدى ووجهته ، ووصل الجيش الى منهل علوبة يوم الاثنين ٢٩ اكتوبر ، فوجد فيه ماء غزيرا ، فأقر على البقاء فيه الى أن يعود الخبير بخبر المهدى ، فلما كان الخميس أول نوفمبر عاد العبد وحده ومعه ألف وخمسمائة نسخة من كتاب كتبه المهدى الى هكس وجنوده ، فلما اطلع هكس على الكتاب مزقه ، وأحرق نسخه كلها ، وسأل العبد عن الخبير فقال ان المهدى أمر بقتله ... " (١) .

(١) نعوم شقير ـ جغرافية وتاريخ السودان ـ ص ٧٢٠ ـ ٧٢١

تلك الفقرة وحدها كفيلة بأن تؤكد وجود موقف أو مواقف كثيرة أضيفت عن طريق خيال المؤلف الى شخصية شفيق ، مندوب هكس باشا في حملة الابيض ، وتشير الى أن الحيلة التي دبرت لنجاته من الموت لا وجود لها في الأصل ، بل دبرها المؤلف لكي تنمو الأحداث بالصورة التي يرتضيها هو ، وبالكيفية التي تجعل شخصية شفيق مسيطرة على جو الرواية ، لتكون جديرة بأن تحتل مكان الصدارة في رواية أسير المتمهدى ، ألا وهو العنوان ...

د) دلالة العنوان ومدى تطابقه مع الاحداث :

الذى يقف وقفة متأنية عند عنوان هذه الرواية يدرك أنه ذو دلالة وايحاء عجيب وتتركز تلك الدلالة في سخرية المؤلف من المهدى وأتباعه ، وذلك لأن المؤلف لم يختر العنوان الا بعد أناة وروية ودراسة لابعاده ، وليس لأنه العنوان الوحيد ، اذ أنه يستطيع أن يجعل العنوان (أسير المهدى) وليس أسير المتمهدى ، هذا فيما اذا كانت هناك ضرورة لابراز هذا الاسير والاحتفاظ باسمه تخليدا لذكراه ، أما اذا لم تكن هناك ضرورة فلا بد من البحث عن عنوان آخر ، وقد سبق أن اقترحنا ذلك العنوان وحددناه وهو : (غرام شفيق وفدوى) فلا بد من الاشارة هنا الى أن العنوان الذى تمسك به زيدان ليس من ابتكاره أو استنتاجه ، انما هو تقليد وترديد لعبارات خصم المهدى غوردون باشا الذى بعث خطابا الى المهدى جاء فيه ما يلي : " من غوردون باشا والى السودان الى محمد أحمد المتمهدى ... " (١) فقد سماه المتمهدى ولم يقل له المهدى كما هو معروف ، وقد نقل زيدان تلك التسمية بحذافيرها ، ومن ثم نستطيع أن نقول أن العنوان مستعار بالاضافة الى أنه غير مطابق أو مناسب لاحداث الرواية التي دبجها يراع زيدان ، ونسجها خياله الوقاد ، اذ أن أحداث الرواية كلها تدور حول الحرب والضرب ، والمؤامرات والمغامرات الغرامية وهذه الاحداث لا تتناسب مع نهاية الرواية ، لأنها كانت نهاية سعيدة ، فهي نهاية متكلفة لغرض معين هو تهدئة أعصاب القارئ بعد أزعاجها بسفك الدماء وتهييجها بالمواقف الغرامية والادوار الاجرامية .

---

(١) نعوم شقير ـ جغرافية وتاريخ السودان ـ ص ٧٨٣

٢- تحليـل روايـة

(استبداد المماليك)

١) أقسـام الروايـة :

٢) زمـن الروايـة .

٣) شخصيات الروايـة .

٤) مضمون الروايـة .

٥) خاتمة التحليل وتشتمل علـى :

أ ـ مدى بروز الحقائـق ووضوحهـا .

ب ـ بيـن الأديـرة والرهبـان .

جـ ـ التحليل النفسي لشخصيات الروايـة .

د ـ العامل الرئيسي في تحريك أحداث الرواية .

هـ ـ نهاية الرواية ومدى تطابقها مع الاحـداث .

تحليل رواية
(استبداد المماليك)

١) أقسام الرواية :

تتكون هذه الرواية من قسم واحد فقط هو القسم التاريخي الذى تحدث فيه الكاتب عن أحوال مصر وسورية في عهد على بك الكبير ومضاهئيه من مماليك مصر وأمراء الشام •

٢) زمن الرواية :

تصور الرواية أحداثا وقعت في النصف الأخير من القرن الثامن عشر تقريبا وذلك لأن كاتبها عني بتصوير ظلم المماليك واستبدادهم ، وبيان الحالة السياسية والاجتماعية بمصر في تلك الفترة •

٣) شخصيات الرواية :

اشتملت الرواية على شخصيات عديدة أهمها :

الشخصية	الصفة
١) علي بك الكبير	حاكم مصر
٢) محمد بك ابو الذهب	خليفة على بك وصهره
٣) الأمير يوسف الشهابي	حاكم لبنان
٤) الشيخ ضاهر الزيداني	حاكم عكا
٥) الأميرال أورلوف	قائد الاسطول الروسي
٦) السيدة نفيسة	زوجة على بك الكبير
٧) السيد المحروقي	من السادة الاشراف بمصر
٨) السيد عبد الرحمن	تاجر مصرى كبير بوكالة الصابون
٩) حسن	ابن السيد عبد الرحمن
١٠) سالمه	زوجة السيد عبد الرحمن
١١) علي	الخادم الوفي للسيد عبد الرحمن وأسرته
١٢) عماد الدين	رسول الشيخ ضاهر الزيداني

٤) مضمون الرواية :

لما كان الكاتب مهتما في هذه الرواية بتصوير ظلم المماليك واستبدادهم كما يشير الى ذلك عنوان الرواية ، كان لا بد له من البدء بتبيين نظام الادارة بمصر في عهد السلطان سليم الذى جعل الحكومة المصرية مؤلفة من ثلاث سلطات هي :
أ ـ سلطة الباشا وتتمثل في الوالي الذى يرسله السلطان من الآستانه .
ب ـ سلطة البكوات وهم بقية الحكام المماليك الذين أسندت اليهم ادارة المحافظات .
جـ ـ سلطة الوجاقات وهي القوة العسكرية .
وقد ركز مؤلف الرواية على السلطة الثانية وهي سلطة البكوات ليكشف عن استبدادهم ويبين ميلهم الشديد الى تجريد الباشا التركي من السلطة الا مظاهر جوفاً لا أثر لها على الاطلاق من أولئك المستبدين وعلى رأسهم علي بك الكبير الذى كان أكثر المماليك شهامة وأعظمهم همة وأشدهم بطشا ، ولكي يتحدث المؤلف عن ضروب الاستبداد وأنواعه في عهد علي بك بدأ بوصف القاهرة في تلك الفترة مبينا أحياءها ووكالاتها التجارية مثل وكالة الصابون بالجمالية ، تلك الوكالة التي كانت مجتمع كبار التجار وأصحاب الثروة .

اختار المؤلف تاجرا من كبار تجار تلك الوكالة ، وأجرى على لسانه أحداث روايته تلك الاحداث التي تكشف عن استبداد المماليك وظلمهم الشنيع ، وكان موفقا في ذلك أيما توفيق حيث اختار تاجرا مصريا اشتهر ـ على رغم ضخامة ثروته واتساع تجارته ـ بالتواضع الجم والاستقامة والبر بالفقراء مع رجاحة عقل واتزان فكر ، وعلى الرغم من هذا لم ينج من ظلم المماليك وأذى جنودهم القساة ...

تحدث المؤلف عن أولئك القساة مشيرا الى هجومهم على التاجر المسكين ومطالبتهم له بدفع مبلغ ضخم لمساعدة الحملة الذاهبة لنجدة شريف مكة ، وذاكرا الحوار الذى دار بينهم ، ذلك الحوار المشوب بالتهديد والاساءة للسيد عبد الرحمن ثم النهب لكل ما في خزانته ، حتى أجبر على الاقتراض من مكان آخر ، ولم تقف قسوتهم عليه وحده بل ضربوا خادمه ضربا شديدا ومن هنا بدأت الحوادث تتعقد وخاصة

عند ما علم التاجر بأخذ ابنه الوحيد الى الحرب عن طريق عساكر المماليك الذين جاءوا الى منزله وهم سكارى ، عند ذاك أدرك التاجر أن الجابي المجرم هو الذى أخذ ولده ، على رغم الأكياس المالية التي قبضها في سبيل اعفائه ، كأنما أراد الجابي أن يفجع التاجر في ماله وولده ، ومن ثم طفرت الدموع من عيني السيد عبد الرحمن حسب تصوير المؤلف له في هذا الموقف ، حيث قال انه قد بكى ثم توجه الى زوجته واشتركا في البكاء كما اشتركا في التفكير والبحث عن وسيلة لانقاذ ابنهما الوحيد ، ولو اقتضى الامرُ التنازلَ عن كل ممتلكاتهما تنازلاً ، وقد ساعدهما المؤلف في الوصول الى الحل المناسب حيث اتفقا على أن يذهب الأب الى علي بك مستعطفا بوساطة السيد المحروقي ، فشجعه المؤلف وحركه ، وفي الوقت ذاته وضع أمامه العراقيل والعقبات ، ليتمكن هو من السرد والتصوير لاكبر جانب من الجوانب التي تكشف عن ظلم المماليك واستبدادهم ، وقد نجح في ذلك نجاحا كبيرا ، اذ استطاع ان يزج بالسيد عبد الرحمن في السجن فجأة ضمن الذين اتهموا بالقتل لبواب الحارة ، وذلك تشويقا للقارئ وحملا له على متابعة قراءة الرواية ، لذا تجده يعنى بتقديم صور عجيبة عن التحقيق والتعذيب ، وقد خلص من ذلك الى نجاة السيد عبد الرحمن وتوجهه الى السيد المحروقي الذى وافق على التحدث بشأنه في مجلس علي بك شريطة أن يتولى التاجر عرض مظلمته بنفسه ، وقد تم كل ذلك ، الا أن الكاتب جعل عليا بك في موقف الحاكم المستبد الذى يرفض كل توسل واستجداء مما حدا بالشيخ المحروقي الى تكرار الرجاء حتى جاءت موافقة علي بك على اطلاق سراح ابن التاجر ، بشرط أن يحل التاجر محل ابنه في التجنيد ، وأن يدفع عشرين كيسا من المال ، فوافق التاجر على مضض ، وعاد الى زوجته ليخبرها بما تم ففرحت وجزعت في آن واحد ، لكن السيد عبد الرحمن استطاع ان يخفف عنها الجزع بما أسره اليها من أنه سيعمل على التخلف عن الحملة حالما تصل الى الشام ، وهناك يقيم بعكا لينتظرها ريثما تأتي مع ابنها بعد أن يبيعا ما بقي لهما من ممتلكات في مصر دون أن يشعرا أحدا بذلك سوى خادمهم الخاص .

ورغبة من المؤلف في تعقيد الحوادث تراه يأتي بمشاكل عديدة تشويقا للقارئ الى معرفتها أو معرفة حلولها ، ومن تلك المشاكل : اعتداء الجنود على منزل التاجر عقب مغادرته حيث نهبوا كل ما في منزله ثم اقتادوا ابنه حسنا وأمه ومن معهما الى القلعة موثقين مهانين ، وقد رآهم علي بك وهم يبكون ويستجيرون به ، فما كان منه الا أن صرخ في وجوههم وأمر بمصادرة ممتلكاتهم ، ثم أمر بأخذ الولد ووضعه في كيس ومعه حجر ثقيل ويلقى في النيل ليهلك غرقا ، أما أمه فتؤخذ الى القصر وتسند اليها أحقر أنواع الخدمة وأقساها كي تقضي بقية حياتها في تعب وشقاء ، وقد تركها المؤلف في ذلك الشقاء وانتقل بنا الى الحديث عن الحملة التي أعدها علي بك بقيادة أبي الذهب ، وكان ضمن الحملة السيد عبد الرحمن الذى تمكن من التخلف عن الحملة بعد خروجها من حدود القاهرة كما تمكن من الذهاب الى عكا متنكرا بزي المغاربة الذين يمارسون الطب الروحاني والتنجيم ، وكان هدف المؤلف من ذلك إقامة علاقة بين السيد عبد الرحمن وبين ضباط الاسطول الروسي ليتمكن من السفر معهم الى القاهرة .

عاد المؤلف بعد هذا الى الحديث عن حسن وأمه اللذين كتب لهما النجاة من عقاب علي بك عن طريق الست نفيسة التي دبرت حيلة لتخليصهما من ذلك العقاب الاليم ، وقد أطنب المؤلف في سرد تلك الحيلة التي جعلت حسنا وأمه على قيد الحياة ، ولكن دون أن يعلم أحدهما بحال الآخر ، الا أن الام كانت مقتنعة بأن ابنها قد قتل اغراقا ، ومن ثم لم تجد من يخفف عنها الحزن سوى أصحاب كنيسة ماري جرجس ، حيث تركت في ضيافتهم ، أو هكذا أراد المؤلف ، لتتاح له فرصة الحديث عن الأديرة والرهبان ولا أدل على ذلك من إطنابه الشديد في الحديث عن الاعمال التي قدمتها هذه الكنيسة وغيرها لمن يأوي اليها !!!

أما السيد عبد الرحمن فقد بقي في تنكره ذاك حتى وصل الى مصر وأخذ يتجول في شوارع القاهرة حتى وصل الى منزله ، وقد برع المؤلف في تصويره في هذا الموقف حيث مكنه من أداء دوره بدقة ، ولا سيما عند محاولته التعرف على ما لحق بأهله

دون أن يكتشف أمره ودون أن يتعرف أحد على حقيقته ، وقد توصل الى ما اراد ثم قرر التوجه الى قصر علي بك ليعرف ما لحق بزوجته ، وسرعان ما عرف الحقيقة فانفجر باكيا ، ولم يتمكن المؤلف عندئذ من تحليل شخصيته او تصويرها تصويرا فنيا ولهذا تركه هائما على وجهه مرتديا ملابس المجاذيب يمسك رمقه بما يجود به الناس من طعام ، وينام في المكان الذى يتفق له ، وفجأة يلتقي السيد عبد الرحمن بخادمه الوفي علي ، وعندئذ يحس القارئ بأن الاحداث قد توقفت ولا بد من تحريكها ، ولكن بماذا يتم التحريك والتنمية لهذه الأحداث لكي تصل الى الذروة أو القمة؟ ، لا شيء عند زيدان سوى المصادفات والمفاجآت ، ولهذا كان لا بد من الجمع بين السيد عبد الرحمن وخادمه علي الذى يبذل جهدا كبيرا في مساعدة سيده ، وخاصة بعد أن علما بعدم تنفيذ الحكم على الابن ، ولكن أين هذا الابن الذى نجا من الموت ؟ لقد حركه المؤلف تحريكاً آلياً وزج به في مخاطر عديدة إبّان ذهابه الى عكا للبحث عن والده ، وعلى الرغم من ذلك حاول أن يقدم له مساعدات كثيرة من الاديرة والكنائس ليكون ذلك تكأة للحديث عن الكنائس والاشادة بها مرة أخرى ، وقد استغل المؤلف هذا الفاصل الزمني فتحدث عن حصار بيروت من قبل الامير يوسف الذى استعان بقائد الأسطول الروسي ، وقصد الكاتب من الحديث عن حصار بيروت هو أن يجمع بين السيد عبد الرحمن وقائد الاسطول الروسي مرة ثانية ، ليكون هذا الجمع بمثابة التمهيد للسيد عبد الرحمن كي يتعرف على أمر ابنه ، ومن ثم كان لا بد للمؤلف من أن يتحدث عن مندوب الشيخ ضاهر الزيداني قائلا ان هذا المندوب قد أجرى حوارا بينه وبين السيد عبد الرحمن وهو حوار طويل ومحرج ، لكنه كشف النقاب عن شخصية السيد عبد الرحمن الذى كان يعتقد انه لا أحد يعرف حقيقته ، ففاجأه المندوب بأنه قد تعرف على ابنه حسن وأنه مدين لابنه بالفضل ، ومن هنا تحقق السيد عبد الرحمن من حياة زوجته وابنه ، ولكن أين هما الان ؟ وكيف اللحاق بهما ؟

اتضح مما سبق أن المؤلف قد ترك زوجة السيد عبد الرحمن في دير ماري جرجس بالقاهرة ثم تنقل مع الابن في مواقفه المختلفة كي يسخره للحديث عن فتح دمشق ، وبيان دلالة ذلك الفتح على امتداد استبداد المماليك وتهديد جنودهم للمقيمين والمسافرين ، مع الاشارة الى أنه لا منقذ من تلك المخاطر والتهديدات سوى الأديرة والرهبان ، ومنها الدير الذى أوى اليه حسن ووجد فيه حسن استقبال وكرم ضيافة ، وقد تم له في هذا الدير اتفاق عجيب ، هو التعرف على أمر والدته عن طريق العقد الذى جاء الى الدير كهدية لمقام النبي ايليا من احدى الراهبات بالقاهرة ، وكان ذلك العقد هو عقد والدته التي أراد لها المؤلف أن تتنصر ، الأمر الذى يدعو الى تساؤل القارئ قائلا متى ترهبنت أم حسن ؟ ولم تنصرت ؟ لكنه لا يجد اجابة من المؤلف الذى يمضي في طريقه ليحدثنا عن السيد عبد الرحمن الذى أتيحت له فرصة التقرب من الشيخ ضاهر الزيداني حاكم عكا ، بل أعطي منصبا كبيرا بعد نجاحه في امتحان الشيخ ضاهر له ، حيث أخبره عن طريق المندل ـ كما يزعم ـ بأسباب رجوع محمد بك ابو الذهب عن دمشق بعد فتحها ، ومن ثم أقبلت الدنيا على السيد عبد الرحمن بعد أن أعرضت عنه ، ولم يبق له الا جمع الشمل الذى عمل الكاتب على تحقيقه فيما بعد ، ثم أنهى روايته بانتصار ابي الذهب على علي بك الذى جهزه الشيخ ضاهر بجيش عرمرم كي يعود الى مصر فاتحا ، لكنه عاد أسيرا ، ومات متأثرا بجراحه ، فخلا الجو لأبي الذهب الذى قرر الانتقام من الشيخ ضاهر حاكم عكا لمساعدته لعلي بك ، لكنه مات في الطريق ، ففرح الجميع لموته ، وفرح السيد عبد الرحمن للقائه بأسرته بعد أن جمع ثروة طائلة من عمله في خدمة الشيخ ضاهر الزيداني ، لهذا قرر العودة بأسرته الى مصر فعاد واسترد املاكه ومكانته التجارية بوكالة الصابون ، ثم أسدل زيدان الستار على فصول الرواية قائلا : " وهكذا دالت دولة الظلم وآن لهذه الأسرة التي شردها الاستبداد والطغيان أن تعود الى وطنها الحبيب ليتمتع أفرادها بحلو الحياة ولذيذ العيش " .

وبهذا كانت نهاية الرواية نهاية سعيدة على الرغم من الفتن والحروب ومن الظلم والاستبداد ، وتلك عادة درج عليها زيدان في معظم رواياته .

خاتمة التحليل

أ — مدى بروز الحقائق التاريخية ووضوحها :

كل قارئ لرواية (استبداد المماليك) يتوقع أن تكون الحقائق التاريخية بارزة واضحة فيها بحيث تشد القارئ وتشوقه الى قراءة الرواية ودراسة التاريخ لاستخراج العبر والدروس من أحداثه ، لكنه يصاب بخيبة الأمل عندما يتبين له أن تلك الحقائق لم تكن بارزة في هذه الرواية ، والسر في عدم بروزها راجع الى أن المؤلف كان معرضا عنها ومشغولا بالمغامرات التي سيطرت على جو الرواية ، اذ أن القارئ لها يكاد ينسى في زحمة مغامراتها الجانب التاريخي الذي من أجله كتبت الرواية ولا يمكنه ادراك هدف الكاتب الا اذا تنبه لعملية الربط بين تلك المغامرات وبين ما كان يهدف اليه من اعطاء صورة عن الظلم والفساد اللذين انتشرا في عهد المماليك ، ولا يتسنى هذا الربط لمعظم القراء ولا سيما قراء روايات زيدان ، لأن معظمهم من الشباب الذين لم تكتمل دراستهم بعد ، ولم ينضج فكرهم بحيث يتمكنون من عملية الربط والموازنة المذكورة .

ب — بين الاديرة والرهبان :

يلاحظ كل دارس لهذه الرواية أن مؤلفها قد تعمد أن يذهب بمعظم شخصياتها الى الأديرة والكنائس ، وأن يقيم علاقة بينهم وبين الرهبان ومن ثم يظل الدارس متسائلا عن الباعث الى تلك العلاقة ، وباحثا عن سر هذه العناية ، ومن دراستنا وتحليلنا لهذه الرواية انتهينا الى أن ذلك راجع الى ولاء الكاتب للكنيسة وأتباعها ، والى عنايته بها واخلاصه لها كأنما نيطت به رسالة تجاهها ، ولا أدل على ذلك من الوقوف عند حديثه الساذج عن المسجد عندما جعل السيد عبد الرحمن يمر بالمسجد مرورا عابرا ، لانه لا يطيق الانتظار فيه ، وعندما جعل ابنه حسنا يزور قبة الشيخ الاوزاعي لفترة لا تمكن الزائر من التأمل ناهيك بوصف القبة والحديث عن صاحبها وسبب ذلك هو أن قبة الشيخ الاوزاعي مقام قديم لا يستحق وقوفا أو استفاضة في

الحديث من وجهة نظر المؤلف ، ولنستمع الى حديثه عن القبة في حوار أحد الرهبان مع " حسن " ابن السيد عبد الرحمن حيث قال للراهب : " وهل للمسلمين مقام مثل هذا في هذه الانحاء ؟ قال ان لهم مقاما قديم العهد جدا على مقربة منا يقال له مقام الشيخ الاوزاعي ، وقد مرت عليه أجيال عديدة والزائرون من المسلمين يقصدونه كما يقصدون هذا الدير " ..(١) .

فانظر الى عملية الربط بين زيارة المسلمين لقبة الشيخ الاوزاعي وبين زيارتهم ـ المزعومة ـ للأديرة والكنائس ، تجد الخبث والمكر وخاصة اذا علمت أن المشبه به أبلغ من المشبه .

ثم وازن بين الحديث عن قبة الشيخ الاوزاعي وبين الحديث عن الأديرة والرهبان وانظر ماذا تجد ؟

لا تجد الا عناية واهتماما بالاديرة ولا أدل على ذلك من الاشارة الى الصفحات العديدة التي تحدث فيها المؤلف عن الأديرة والرهبان ومنها صفحات: (٥٥ ، ٨٨ ، ٩١ ، ٩٤ ، ٩٨ ، ١١٧ ، ١١٩ ، ١٢٠ ، ١٢٢ ، ١٢٣) ولا بد من الاشارة هنا الى أن المؤلف لم يكتف بذلك الحديث المستفيض عن الاديرة والرهبان في الصفحات المذكورة ، بل جعل أحد أبطال هذه الرواية يخاطر بحياته في سبيل أولئك الرهبان وذلك بنقل رغبتهم الى قائد الاسطول الروسي في عدم ضرب ديرهم بالمدافع معللا ذلك بأن أصحاب الدير ليسوا من الاعداء " (٢) فمن الاعداء اذن ؟ وما موقف قائد الاسطول الروسي من المسجد أو قبة الشيخ الاوزاعي ؟ ثم ما ذنب الأبرياء المساكين ؟ ولم يتركون دون وسيط أو شفيع بشأنهم ؟ ألأنهم لم يهرعوا الى الدير ؟ أم ماذا يا ترى؟ وما الداعي الى تعداد الأديرة التي تتوزع هنا وهناك في رواية تتحدث عن تاريخ الاسلام ؟ أهو الحرص على تعداد أماكن العبادة أيا كان نوعها أم هو صرف الانظار عن عظمة ومجد الاسلام والمسلمين في معرض الحديث

(١) جورجي زيدان ـ استبداد المماليك ـ ص ١١٩ ـ ١٢٠
(٢) جورجي زيدان ـ استبداد المماليك ـ ص ٩٨

عن تاريخ الاسلام ؟ ونحن نرجح الرأي الأخير وهو صرف الانظار عن اشراق تاريخ المسلمين ودليلنا على ذلك هو العرض المسيخ والتصوير المشوه لمواقف المسلمين البطولية الى جانب العناية الفائقة بالمواقف الغرامية ثم بالقس والرهبان وأديرتهم فلنستمع اليه وهو يتحدث عن تلك الأديرة يمد حديث مستفيض عن دير ماري جرجس فيقول :

"... ... وبجانب هذا الدير تقوم أديرة أخرى كثيرة للاقباط والاروام ومن بينها دير أبي سرجة ودير المعلقة ويحيط بها جميعا سور أشبه بأسوار الحصون ، اذ كان ذلك البناء حصنا منيعا فيما مضى وفيه حاصر العرب أقباط مصر حين جاءوا لفتحها بقيادة عمرو بن العاص ... ..." (١) .

هكذا يتحدث عن الاديرة وينتهي من ذلك الى اعتبار الفتح الاسلامي فتحا عربيا على الرغم من أن ذلك الفتح كان باسم الاسلام وليس باسم العروبة ، لأن العرب قبل الاسلام لم يتعدوا حدود جزيرتهم العربية ، ولم يفكروا في تنظيم الحياة في بيئتهم المحدودة فضلا عن أن ينتقلوا بذلك التنظيم الى خارج الجزيرة العربية ، بالاضافة الى أنهم كانوا مشغولين بأسمارهم وأشعارهم ومنهمكين في حروبهم الداخلية التي كانت تندلع لاتفه الاسباب وعلى الرغم من هذا نرى المؤلف يغفل حياتهم الجديدة التي نظمها الاسلام وعصمتها العقيدة السمحاء التي خرجوا باسمها ناشرين النور ومبددين دياجير الظلم والجهل والجهالة ـ فلا يسمى الفاتحين عربا مسلمين ، لكنه يسميهم عربا فقط لحاجة في نفس يعقوب ، هذا الى جانب الأكذوبة الواضحة عن أن أقباط مصر كانوا هم المحاصرين في ذلك الحصن ، مع أن التاريخ يقرر في غير مواربة أن المحاصرين كانوا فرقا من جيش الاحتلال الروماني وأن أقباط مصر كانوا أول المرحبين بالفتح الاسلامي وأول المساندين له لما رأوا فيه من سماحة تجلت في حروبهم ومعاملاتهم ، والقارئ لا يجد تصويرا لمثل هذه الحقائق في روايات زيدان .

---

(١) جورجي زيدان ـ رواية استبداد المماليك ـ ص ٢٧

ومن ثم نستطيع أن نقول أن الربط بين حقائق الفتح الاسلامي وبين العناية بالاديرة يؤكد لنا أن المؤلف صاحب رسالة خبيثة يريد نشرها من خلال اللمحات الخاطفة والاشارات العابرة الى تاريخ الاسلام في سلسلة تسمى روايات تاريخ الاسلام .

جـ ـ <u>التحليل النفسي لشخصيات الرواية :</u>

جميع شخصيات رواية استبداد المماليك شخصيات واقعية وذوات أبعاد حقيقية الا أن المؤلف لم يعتمد في تقديمها للقراء على التصوير الفني او التحليل النفسي انما اعتمد على السرد للاحكام العامة والمعلومات الخاصة بكل شخصية مستمدا تلك المعلومات من ذاكرته التي اختزنت الكثير منها . ويا حبذا لو ترك المجال أمام القارئ ليتعرف على كل شخصية من خلال مواقفها وسلوكها في الرواية . ونأخذ مثلا لذلك حديثه عن شخصية علي بك الكبير (١) وشخصية السيدة نفيسة (١) . ثم شخصية السيد عبد الرحمن (١) . اذ أنه كان يجنح في حديثه عن هذه الشخصيات الى السرد لا التصوير . ويعتمد على الوصف العام لكل شخصية دون العناية بالمواقف والتصرفات . ولا شك في أن القارئ سَيُكَوِّنُ عندئذ حكما عاما عن كل شخصية . ومن ثم لا يمعن النظر في مواقفها التي قد لا تجد هي الأخرى تصويرا دقيقا من المؤلف أو استبطانا للشخصية بغية الكشف عن منابع السلوك الانساني الدفين . الا في حالات قليلة . مثل تصويره للسيد عبد الرحمن في بعض مواقفه . وخاصة عندما جاء الى منزله متنكرا في زي المجاذيب ووجد زميله التاجر قد اشترى منزله وسكن فيه .

وقد كان الكاتب موفقا في الحوار الذي أجراه بين السيد عبد الرحمن وبين خادم صاحب البيت دون أن يؤدي ذلك الى افتضاح أمره أو انكشاف سره . واليك طرفا من ذلك الحوار :

" .... ما كاد السيد عبد الرحمن يدخل منزله مع زميله التاجر الذي وجده ساكنا فيه حتى أدرك أن نظام البيت قد تغير الى حد كبير . ولم يجد في طريقه الى

(١) جورجي زيدان ـ استبداد المماليك ـ ص ٨، ٤٩، ٥٩

حجرة الجلوس أي أثر لأهله أو خدمه ، فتسارعت دقات قلبه ، وكاد يجهش بالبكاء ، لكنه تجلد حتى لا يفتضح أمره ، وصبر الى أن انصرف زميله التاجر ثم جاءه الخادم بالطعام فتظاهر بالغضب وأمر باعادته ، بل هم بحمل طبله وعصاه وطرطوره ، ورفع صوته قائلا — وهو يتظاهر بأنه يحدث نفسه — لا — لا ... هذا مستحيل فوجم الخادم وخشي أن يترك المجذوب يغادر المنزل فيغضب سيده ، فاقترب من السيد عبد الرحمن وهم بتقبيل يده قائلا : ما الذى أغضبك ؟ أطلب ما شئت فاني في خدمتك ، فقال له : أنا لا آكل طعاما ، ولا أنام في منزل خلا من أصحابه ، ففهم الخادم أن الشيخ المجذوب عرف بالالهام قصة الظلم الذى أوقعه المماليك بأصحاب المنزل الاولين ، فمال على يده وقبلها في خشوع واجلال ، وقال رحمهم الله يا سيدى ورحمنا جميعا من الظلم والاضطهاد .... فتكلف السيد عبد الرحمن الضحك ساخرا وقال للخادم : كيف يطردك ؟ أهو الذى طرد من كانوا في المنزل من قبل ؟ قال ان علي بك هو الذى طردهم ... (١) " .

ولا شك في أن ذاك تصوير طريف وحوار جميل مترابط يوحي بالصدق والواقعية ، ويؤدى الى النتيجة التي أرادها المؤلف في اتزان واتقان ، كما يكشف عن السلوك الفطرى لدى ذلك الخادم ، وعن مدى تعلق الانسان بأسرته وحثه عنها — في حال ضياعها — بشتى السبل ولو تقطعت به الاسباب ((بل الانسان على نفسه بصيرة ولو ألقى معاذيره)) (٢) .

د — <u>العامل الاهم في تحريك أحداث الرواية :</u>

لا بد لنا من التساؤل عن العامل الاهم في تحريك احداث هذه الرواية وحل عقدها ، أهو الصراع والنمو الداخلي ؟ أم الحوار ؟ أم الصدف والمفاجآت ؟

سؤال يمكننا أن نجيب عليه من خلال التحليل لرواية استبداد المماليك ، اذ أن الدراسة والتحليل يؤكدان أنه لم يكن للحوار أو الصراع أثر كبير في تحريك أحداث الرواية الا في حالات قليلة ، كما في حوار السيد عبد الرحمن في بعض المواقف ،

---

(١) جورجي زيدان — استبداد المماليك
(٢) القرآن الكريم — سورة القيامة — الاية رقم ١٤ ، ١٥

ومن ثم كان العامل الأهم في تحريك أحداث هذه الرواية وحل عقدها هو المصادفات والمفاجآت التي اعتمد عليها زيدان في كثير من الحالات ، فالمصادفة هي التي انقذت حسنا من قطاع الطرق ، والمصادفة هي التي أنقذته يوم أن سقط من سور الدير وقبض عليه الحراس ، وغير ذلك من المواقف التي نجا فيها بأعجوبة أو بوسائل خارقة للعادة كما جمعت المصادفات والمفاجآت بين السيد عبد الرحمن وخادمه علي (١) وبين السيد عبد الرحمن وعماد الدين الذى أخبره بوجود ابنه على قيد الحياة (١) فكان هذا الاخبار عاملا مهما في تدرج الحديث ونموه ، وفي الوقت ذاته استطاع المؤلف عن طريق المصادفات والمفاجآت أن يجمع بين السيد عبد الرحمن وابنه وزوجته ، وكل هذه مواقف تكشف عن مدى ارتكاز زيدان على عامل المصادفات والمفاجآت ...

هـ ـ نهاية الرواية ومدى تطابقها مع مجريات الاحداث :

لقد كانت نهاية رواية استبداد المماليك نهاية سعيدة ، حيث تم جمع الشمل للاسرة التي شردت حينا من الدهر ، فأقبلت الدنيا عليها مبتسمة بعد أن بكت الحياة بدارها ردحا من الزمن ولاحت بوجه العابس المتجهم ، ولكن سرعان ما زال ذلك العبوس والشقاء ، الى درجة تدعونا الى أن نقول ان هذه النهاية لم تكن متفقة مع مجريات الاحداث التي تميزت بالكآبة والحزن الناجمين عن ظلم المماليك في رواية استبداد المماليك لجورجي زيدان ..

---

(١) جورجي زيدان ـ استبداد المماليك ص ٦٣ ، ١٠١

٤- تحليل رواية
(أرمانوسة المصرية)

١) أقسام الرواية
٢) زمن الرواية
٣) شخصيات الرواية
٤) مضمون الرواية
٥) خاتمة التحليل وتشتمل على :

أ ـ تحليل هزيمة الروم وانتصار المسلمين في فتح مصر ·
ب ـ بين التاريخ والمواقف الدرامية ·
جـ ـ دور المفاجآت في تحريك أحداث الرواية ·
د ـ التحليل النفسي لشخصيات الرواية ·
هـ ـ مدى استكمال حلقات التاريخ المفقودة ·
و ـ لغة الرواية ومميزاتها ·
ز ـ نهاية الرواية ومدى تطابقها مع الحوادث ·

تحليـل روايـــة

أرمانوســـة المصريـــة

١) أقسـام الروايــــة :

تتكون هذه الرواية من قسمين كبيرين هما : القسم التاريخي الذي تحدث فيه الكاتب عن فتح الرومانيين لوادي النيل ، واقامتهم به قرونا طويلة ، كما تحدث فيه عن فتح المسلمين لمصر ، أما القسم الثاني فقد جاء ماثلا في القصة الغرامية التي تخيلها المؤلف بين أرمانوسة بنت المقوقس وبين مجموعة من الشبان الذين كانوا يتطلعون الى الظفر بها ، ومن ثم كان عنوان الرواية (أرمانوسة المصرية) ، ولهذا الاختيار دلالته التي سنشير اليها فيما بعد .

٢) زمـن الروايـــة :

تمثل حوادث هذه الرواية الفترة التي حكم فيها المقوقس مصر من قبل الرومان وتمتد فترة تلك الحوادث لتشمل عهد عمرو بن العاص حيث تم الفتح الاسلامي لمصر ، وقد عني المؤلف بتصوير المعارك التي دارت ابان الفتح الاسلامي .

٣) شـخصيات الروايـة :

اشتملت رواية أرمانوسة المصرية على مجموعة من الشخصيات التي لا بد من وجودها بالطريقة الفنية بحيث تتفاعل في اطار الرواية لتمثل واقع الحياة التي أراد الكاتب نقلها الى القراء بوسيلته التعبيرية ، وأهم تلك الشخصيات ما يلي :

(١) هرقـــل : امبراطور الرومانيين في القرن السابع الميلادي .

(٢) عمرو بن العاص : صحابي جليل وقائد جند المسلمين في الفتح الاسلامي لمصر .

(٣) المقـوقس : حاكم مصر من قبل هرقل ملك الروم واستمر حكمه الى أن جاء الفتح الاسلامي .

(٤) أرمانوسة : بنت المقوقس ، وهي فتاة بارعة الجمال أحبها ابن ملك الرومان كما أحبها ابن قائد هم العسكري ، وقد دارت حولها معظم أحداث هذه الرواية .

(٥) قسطنطين : ابن ملك الروم (هرقل) وقد أحب أرمانوسة المصرية فعقد عليها دون رضائها ولكن باتفاق مع والدها .

(٦) بربارة : فتاة مصرية عنيت بتربية أرمانوسة أيما عناية .

(٧) الاعيرج : قائد جند الروم ، وقد نيطت به مهمة الدفاع عن حصن الروم بمصر عند الفتح الاسلامي .

(٨) أركاديوس : ابن قائد جند الروم بمصر (الاعيرج) وهو المنافس الخطير في حب أرمانوسة .

٤) مضمون الرواية :

بدأ الكاتب روايته بالحديث عن الرومانيين مشيرا الى ظهور الدين المسيحي الذي اعتنقه المصريون آنذاك وتمذهبوا به ، وموضحا ما حدث من خلاف ديني بين كهنة القسطنطينية وكهنة الاسكندرية مما جعل الاقباط يكرهون الرومان وحكمهم الاستبدادي ، فلم يتجاوبوا مع حاكم من حكامهم سوى المقوقس الذي كان متشيعا للوطنيين ، وكانت له فتاة بارعة الجمال اسمها أرمانوسة ، وقد خطبها هرقل ملك الروم لابنه قسطنطين .

ركز زيدان على هذه الناحية فكتب القصة الغرامية التي بالغ في حبك حوادثها وايجاد العوائق التي تحول دون وصول قسطنطين الى أرمانوسة كما عني بعقد علاقة حب وغرام بين أرمانوسة وبين أركاديوس الذي كان مسؤولا عن حصن الروم في مصر نيابة عن أبيه ، ومن ثم كانت الفرصة مواتية للحديث عن الكنائس والرهبان وقد بالغ المؤلف في تصوير مهمة الكنيسة ودورها تجاه المحبين والمحاربين على السواء وكان لا بد من ايجاد تابع وَفِيّ مخلص يعمل على مساعدة الحبيبين من جانب ويساعد على تنمية أحداث الرواية من جانب آخر ، واختار المؤلف لهذه المهمة شخصية بربارة وصيفة أرمانوسة ، وجعلها تتنقل من كنيسة الى كنيسة ، ومن حصن الى حصن ،

لتلتقي بأركاديوس وتفاتحه بحقيقة الموقف ، بل تنقل اليه مشاعر أرمانوسة تجاهه وكرهها الشديد لقسطنطين ، وقد نجحت بربارة في هذه المهمة الخطيرة ، والدليل على ذلك هو رجوعها الى أرمانوسة ومعها خاتم أركاديوس ليكون تذكارا عندها وناقوسا يُدقّ في عالم نسيانها .

استغل زيدان أمر هذا الخاتم استغلالا عجيبا حيث نسج قصة غرامية فرعية محاولا الربط بينها وبين قصة أرمانوسة ، وتلك القصة هي قصة حب مُرْقُسٍ لمارِيةَ[1] بنت المعلم اسطفانوس التي أرادت لها الاقدار أن تكون ضحية النيل في تلك السنة بتدبير من حاكم القرية الذى حقد عليها فرشحها لأن تكون فتاة النيل أو عروس النيل كما كانوا يقولون وقد استرسل المؤلف في سرد هذه الخرافة ، وانتهى الى تصوير عجز والد مارية عن ايجاد وسيلة لإنقاذ ابنته من قرار الحاكم الظالم ، ولكن سرعان ما جاءه الفرج على يد خطيب ابنته .

ومن هنا يدرك القارئ مدى انصراف الكاتب الى الجانب الغرامي كأنما يريد أن يكتب قصة حب وغرام بين عاشقين متيمين ، ورغبة من المؤلف في تعقيد الامور وتمزيق أرمانوسة تراه يأتي بمنافس آخر وفي ظروف عجيبة ، ذلك المنافس هو البطريرك يوقنا حاكم حلب من قبل هرقل ملك الروم ، وقد جعل المؤلف هذا الحاكم يتظاهر بالاسلام ويسمى نفسه عبد الله ليسير برفقة عمرو بن العاص متظاهرا بنصرته ، لاعتقاده بأن عمرا سيفتح البلاد لا محالة ، وأن أرمانوسة ستكون ضمن الغنائم دون ريب ، وعند ذاك يمكنه أن يدبر حيلة لاختطافها من أيدى المسلمين ، وقد ساعده المؤلف في تدبير الحيل والمؤامرات ، الامر الذى جعل أرمانوسة تفكر في الانتحار ، وفجأة جاء الفرج على يد مُرْقُسٍ الذى أتى بخطاب من عمرو بن العاص الى يوقنا فاحتار وارتبك ثم لاذ بالفرار وبهذا انتهت مشكلة من مشاكل أرمانوسة .

تفرغ المؤلف بعد ذلك لمشكلة الخطيب الثاني مرقس فوضع أمامه العقبات المتمثلة في اختطاف ابن حاكم القرية لخطيبته ، وقد تعمد المؤلف هذا التعقيد لانه يمثل وسيلة من وسائل التشويق الاساسية عنده . عاد بعد ذلك الى حصن الروم لا

كان يستغنى عن التفصيل

(١) بتخفيف الياء وتشديدها مع تاء التأنيث .

ليتحدث عن الروم وموقفهم من الفكرة الجديدة التي جاءت لتدك حصونهم المنيعة ولكن ليتحدث — كعادته — عن الجوانب الغرامية ، وذلك لأنه انصرف الى الحديث عن أركاديوس فصوره في صورة الرجل المهتم بأمر محبوبته أكثر من اهتمامه بأمر الحصن الذى كانت مسئولية التنظيم فيه ترجع اليه دون سواه ، بل ذهب الى أبعد من ذلك حيث جعل اركاديوس يخرج من الحصن ناسيا والده بل ناسيا دولة الروم كلها (١) ليتوجه الى محبوبته أرمانوسة تاركا الحصن وراءه بلا قائد أو موجه ، ولم يخرجه المؤلف من الحصن عبثا ، ولكن ليوحي الى القارئ بأن ما يفتخر المسلمون به من بطولات لم يتحقق لهم الا عن طريق الدسائس والمؤامرات وتتضح هذه الفكرة الخبيثة من ثنايا عبارات الهوى والغرام ، تلك العبارات المتبادلة بين الحبيبين والتي أتاحت الفرصة للمؤلف ليجرى عبارات معينة على لسان أركاديوس . ثم يصور عودة اركاديوس الى الحصن وقيامه بواجبه بعد الاعتذار لوالده ، مشيرا الى أنه قد عاد ومعه سلسلة ذهبية بها صليب ذهبي مرصع ، نقش عليه اسم أرمانوسة بالقبطية ، نعم صليب ذهبي ولكن ما علاقة هذا الصليب بتاريخ الاسلام ؟ يقول الكاتب ليكون تذكارا عند اركاديوس ، وليته تركه مع هذا التذكار ولكنه اشار الى وقوعه في الاسر عند عودته الى الحصن ، وقد بالغ في تصوير موقفه هذا ، حيث أضفى عليه كل صفات البطولة والشجاعة قائلا انه قد تمكن من التخلص من ذلك الاسر بشجاعة ورباطة جأش ، ولما عاد وجد العرب قد تمكنوا من فتح بُلْبَيْسَ ، أو هكذا أراد زيدان حيث جعل الفتح الاسلامي في روايته رهينا بوضع أركاديوس في السجن ، ولا شك في أنه تعليل مغرض يؤكد عدم عناية الكاتب بالجانب التاريخي ، ويكشف سر اهتمامه بالجانب الغرامي الذى كان خيالا محضا .

ولا أدل على ذلك من الرجوع الى الرواية ذاتها حيث يجد القارئ مواقف غرامية عديدة من أول الرواية الى آخرها ، وهي في نظر المؤلف السبب المباشر في أسر اركاديوس وفشله في المقاومة على الرغم من تصميمه على الدفاع عن وطنه ودولته ولكن لم

---

(١) جورجي زيدان — رواية أرمانوسة المصرية ص ١١٩

تُتَحْ له الفرصة في نظر زيدان في روايته لأنه يريد ويهدف الى المؤاخاة بينه وبين عمرو بن العاص (١) فكان لزاما عليه أن يحقق له النجاة من ويلات الحرب ، كما كان لزاما عليه التحدث عن وفاء العرب وكرم أخلاقهم ، ولكن سرعان ما ترك المؤلف هذا الجانب وعاد الى أركاديوس ليذكره بمحبوبته أرمانوسة ، ثم يجمع بينه وبين عمرو بن العاص ليقول له : " لا تعجب فقد علمت بعلاقتك بأرمانوسة ويسرني أن أراكما في وفاق ولا تظلم حماك المقوقس ، فانه معذور لما تعلم من فساد الحكام ، واذا أردت الخروج الى عروسك فذلك لك ٠٠٠ " (٢) ومن ثم توجه به المؤلف الى منزل المقوقس ، وهناك وجد يحيى النحوى جالسا الى جانب المقوقس ، فاستقبل اركاديوس ورحب به ثم قدمه الى المقوقس قائلا : " لا تعجب يا ولدى من اجتماعنا في منزل أرمانوسة ٠٠٠٠٠ أردنا التوسط بينك وبين حميك ، ليفهم كل منكما الاخر ، فأنت بمنزلة ابنه وهو بمنزلة والدك " (٢) ٠

وقد تم في تلك الجلسة تسلم أركاديوس لعروسه أرمانوسة ، ووضع كل منهما يده بيد الاخر ، وفي صباح الغد جاء عمرو بن العاص فهنأ العروسين ، وأظهر ارتياحه لصداقة اركاديوس أو هكذا أراد مؤلف رواية أرمانوسة المصرية ، ثم خير عمرو بن العاص أركاديوس بين الاقامة بالاسكندرية أو في أية مدينة يختارها ، فاستمهله ريثما يكتب الى والده بالقسطنطينية ، فكتب وجاءه الرد بموت والده في السجن ظلما بلا محاكمة فبكاه وكره القسطنطينية وأهلها مفضلا البقاء في الاسكندرية ، فعاش مع عروسه في رغد وهناءة ومعهما بربارة ومَرْقُسُ وأهله ، وهكذا انتهت الرواية بما لا يؤكده سند تاريخي صحيح كما بدأت وهي في مجموعها تثير شكوكا وتساؤلات ، وهذا ما سنتناوله في خاتمة التحليل ان شاء الله ، ولكن لا بد من الاشارة هنا الى أن نهاية هذه الرواية كانت نهاية سعيدة ، شأن معظم روايات جورجي زيدان ٠

---

(١) جورجي زيدان ــ رواية أرمانوسة المصرية ــ ص ٢١٤

(٢) جورجي زيدان ــ رواية أرمانوسة المصرية ــ ص ٢١٥

خاتمة التحليل

أ — تعليل هزيمة الروم وانتصار المسلمين في فتح مصر :

لقد صور المؤلف معارك المسلمين مع الروم في بُلْبَيْسَ وغيرها بصورة باهتة الظلال ، بل مشوهة في كثير من الحالات ، ولا أدل على هذا من الموازنة بين حديثه العابر عن الدعوة الى الاسلام (١) وبين حديثه المستفيض عن المسيحية (١) هذا بالاضافة الى أنه قد تعمد أن يقدم قائد حصن الروم وابنه أركاديوس في صورة الأبطال المغاوير في كل موقف من مواقفهما الغرامية أو الحربية وغرضه من ذلك الايحاء للقارئ بالتعليل الذى اصطنعه لهزيمة الروم إبان حربهم مع عمرو بن العاص ، ذلك التعليل الذى حصره زيدان في الجانب الغرامي وفي مواطأة المقوقس مع المسلمين كما يزعم ، أما أن تكون الهزيمة نتيجة قوة المسلمين أو قوة العقيدة التي تجعل أفكارهم الجديدة تندفع الى العالم اندفاع السيل فذاك أمر لا يجد القارئ ايماء اليه او ايحاء به من خلال رواية أرمانوسة المصرية لجورجي زيدان ، انما يجد تأكيدا وترديدا للتعليل الذى أراد زيدان نشره بين الشباب ، ولا أدل على ذلك من الحوار الذى دار بين أركاديوس وحبيبته أرمانوسة بُعَيْدَ سقوط حصن الروم ، ذلك الحوار الذى جاء فيه ما يلي :

" ..... فالتفت اليها والدمع ملء عينيه ، وقال : كيف لا أبكي يا ارمانوسة وقد خرج الحصن من أيدينا وأنا مقيد هنا ، لا أستطيع حراكا ، ومن الغريب أن هؤلاء الرفاة لم يفعلوا ما فعلوه الا وأركاديوس بعيد عنهم ، ولكن آه يا أرمانوسة آه من الحب ، ما أعظم سلطانه ، ان الحب وحده كان سبب سقوط هذا الحصن ، فقد كان في وسعي تفادي ذلك الشر قبل وقوعه ولكن حبي لأرمانوسة حملني على التجاهل ، فالعرب لم يغلبونا ، ولكنها خيانة أنا شريك فيها من غير عمد مني والحب يعمي ويصم .... آه منه ..... الخ " (٢) .

---

(١) جورجي زيدان — رواية أرمانوسة المصرية — ص ١٤ ، ٤٢
(٢) جورجي زيدان — رواية أرمانوسة المصرية — ص ١٧٤

الذى يستفاد من هذه الفقرة هو أن هزيمة الروم في حربهم مع العرب المسلمين راجعة الى الحب الذى شغل به ابن قائد الحصن ، والى الخيانة التي اشترك فيها دون ارادة منه ، وهذه آراء تمثل أفكار زيدان التي يريد نشرها عن طريق اجرائها على ألسنة الشخصيات وفي مواضع مختلفة ، والدليل على هذا هو هذا الحوار المذكور الآخر الذى دار بين اركاديوس ومرقس وقد جاء فيه ما يلي :

" ... ولكنني آسف لانني تعاميت عن حقائق كنت أراها رأى العين وأحسب اني لم أرها وأكذب نفسي لا لجهل أو سذاجة بل لغشاء غطى عيني وأعمى بصيرتي وشاغل شغلني عن والدى ووطني ألا وهو الحب ... " (١) .

أما الحوار الذى يكشف عن التواطوء المزعوم فهو الحوار الذى دار بين أرمانوسة ورسول المقوقس الى ابنته ، وقد جاء في ذلك الحوار ما يلي :

" ... لا نعلم كيف دخلوه لكننا أصبحنا فاذا هم يتسلقون الاسوار وكان سيدى المقوقس قد أمرنا بالخروج الى الروضة فقطعنا الجسر وأقمنا هناك .... الخ " (٢) .

هذه الاجزاء الحوارية وغيرها تدل دلالة صادقة على الهدف الذى كان يرنو اليه المؤلف جورجي زيدان ، وتؤكد أن ذلك الهدف يتمثل في وضع السم في الدسم .

ولكن على الرغم من هذه الدلالات الساطعة والتأكيدات الواضحة قد يعترض معترض على هذه الاستنتاجات قائلا ان تلك الفقرات لا تمثل آراء المؤلف ، انما تمثل آراء الروم وأراجيفهم التي اشاعوها عن العرب في تلك الفترة ، ومن ثم لا يصح الاعتماد عليها أو الاستشهاد بها عند ارادة نسبة ذلك التمليل المغرض الى المؤلف ، الا أننا نرد على هذا الاعتراض قائلين ان ما تضمنته تلك الفقرات من أفكار وعبارات انما جاء بلسان الشخصيات عن طريق استنطاق المؤلف بها ، ولم يكن الروم قد قالوها بالفعل حتى يقال ان المؤلف قد نقلها عن كتبهم ليقال انه ناقل

---

(١) جورجي زيدان — رواية أرمانوسة المصرية — ص ١٧٥

(٢) جورجي زيدان — رواية أرمانوسة المصرية — ص ١٧٤

وناقل الكفر ليس بكافر .

ذلك التعليل اذن افتراء واختراع من خيال المؤلف لحاجة في نفسه ، والذى يؤكد ذلك هو ما أفصح عنه المؤلف بلسانه لا بلسان شخصية من شخصياته حيث كان يتحدث عن أرمانوسة قائلا :

" .... أما أرمانوسة فقد ساءها كثيرا تكدر أركاديوس ، ولكن سرها نفوذ حيلتها ، ولم تكن تخشى بأس الحرب لعلمها أن والدها في وفاق معهم .. " .

وتلك مخالفة صريحة لما هو معروف عن تاريخ الاسلام والمسلمين ، ولا سيما في تلك الفترة ، نعم الحرب خدعة ولكن لا بالصورة التي أرادها زيدان منتلك العبارات .

ب — بين التاريخ والمواقف الغرامية :

لم يعن المؤلف بالجانب التاريخي في هذه الرواية قد رعنايته بالجانب الغرامي ، ذلك لأنه كان مهتما بعقد علاقة حب متزايد بين أرمانوسة وأركاديوس ابن قائد حصن الروم بمصر ، ثم علاقة حب مرفوض بين أرمانوسة وقسطنطين ، وعلاقة حب متكلف بين أرمانوسة والبطريرك " يوقنا " حاكم حلب ، الذى فكر في الظفر بأرمانوسة قبل قسطنطين بحيلة دبرها ، ومن ثم عني المؤلف بأمره فساعده في تدبير الحيل ، حيث جعله يتظاهر بالاسلام ويسمي نفسه عبد الله ويسير برفقة عمرو بن العاص مدعيا نصرته ، كل ذلك في سبيل الظفر بأرمانوسة حسب ما جاء في رواية جورجي زيدان .

ولم ينته الحديث عن الغرام والعلاقات الغرامية عند هذا الحد ، انما يأتي حديث آخر عن الحب بين مرقس ومارية بنت المعلم اسطفانوس وكل هذه المواقف تؤكد انصراف الكاتب عن الجانب التاريخي ، الامر الذى يدعو القارئ الى التساؤل قائلا : هل اراد المؤلف أن يكتب قصة تاريخية مشوبة بقليل من المواقف الغرامية لتكون وسيلة تشويق وتصعيد ؟ أم أراد أن يكتب قصة غرامية ممتزجة بشيء من الحوادث التاريخية ؟ أم ماذا يا ترى ؟

ونحن نقرر استنادا إلى دراستنا وتحليلنا لرواية أرمانوسة المصرية أن جورجي زيدان انما أراد أن يكتب قصة تاريخية مشوبة بكثير من المواقف الغرامية التي أصبحت

ـ في روايات زيدان ـ وسيلة تمزيق لا تشويق ، وغدت مؤكدة اهمال زيدان للجانب التاريخي ومبرزة عنايته بالجانب الغرامي ليثير انفعال المراهقيين وذوى النفوس المريضة .

جـ ـ دور المفاجآت في تحريك الاحداث :

لقد كان للمفاجآت والصدف دور بارز في تحريك حوادث هذه الرواية وتنمية مواقفها وتصعيدها ، ويتجلى ذلك بوضوح في مواقف كثيرة منها : انفراج أوحل أزمة مارية فجأة وفي اللحظات الاخيرة ، ومنها انقاذ أرمانوسة فجأة من مكيدة يوقنا الذى نوى اختطافها ، ولكن سرعان ما انكشفت مؤامرته بوصول خطاب عمرو بن العاص دون تمهيد أو تلميح ، ودون توقع أيضا ، وغير ذلك من المواقف والازمات التي تتعقد فجأة وتنفرج بغتة وبدون تمهيد مقبول لدى القارئ أو تعليل مقنع له فنيا ، ومن هنا نستطيع أن نقول ـ ونحن مطمئنون ـ ان زيدان كان يعتمد كثيرا على ظاهرة المصادفات والمفاجآت في تدرج أحداث رواياته أو تصعيد مواقفها ، وهذا دليل ضعف وليس دليل قوة أو تمكن من الفن الروائي .

د ـ التحليل النفسي لشخصيات الرواية :

لم يَمِلْ المؤلف في هذه الرواية الى تحليل شخصيات روايته تحليلا نفسيا بحيث يتمكن من استخراج الدروس والعبر واكتشاف منابع السلوك الدفينة للانسان ولكنه اكتفى بسرد المعلومات ، اذ أنه حصر همه في اعطاء القارئ فكرة عن كل شخصية دون أن يتيح له فرصة التعرف عليها من خلال تحركها لاداء دورها في كل موقف من مواقفها ونأخذ مثلا لذلك حديثه عن عمرو بن العاص حيث قال عنه :

" هو قصير القامة ، وافر الهامة ، أدعج أبلج ، عليه ثياب موشاة كأن بها العقيان تأتلق ، عليه حلة وعمامة وجبة ..... (١) "

---

(١) جورجي زيدان ـ رواية أرمانوسة المصرية ـ ص ٧٤

وتلك صفات عامة ليس من شأنها أن تحدد شخصية زعيم كبير كعمرو بن العاص الذى ينبغي أن يجيء التعريف به من طريق آخر وجوانب أخر غير هذه الجوانب المادية الساذجة والتي تبدأ بقصر القامة لتنتهي بالجبة والعمامة ، لا بالسلوك والاعمال والافكار التي تستخرج استخراجا من مواقف الشخصية وتحركاتها وتفاعلها مع الحدث الروائي ، وذاك هو التحليل النفسي الذى أهمله زيدان ، فعدم التحليل للشخصيات مبدأ عام سار عليه زيدان في معظم رواياته ، ومن ثم جاءت شخصياته باهتة الظلال ضعيفة التصوير فاقدة السحر والتأثير .

هـ ـ مدى استكمال حلقات التاريخ المفقودة :

يزعم زيدان أن هدفه من هذه الروايات هو استكمال حلقات التاريخ المفقودة ، الا أن الدراسة والتحليل لهذه الرواية تؤكد أن الجانب الذى عني به زيدان هو الجانب الغرامي أو القصة الغرامية التي أحكم نسجها ، ولا يمكن اعتبار هذه القصة استكمالا لحلقات التاريخ المفقودة اذا صح أن هناك حلقات مفقودة أو أغفلها المؤرخون ، لأن هذا الجانب لا يمت الى الحقيقة بصلة ، هذا بالاضافة الى أنه لا يتمشى مع مجريات أحداث الرواية ، لان الحوادث الاساسية لهذه الرواية هي حوادث الحرب بين الروم والمسلمين أثناء نشر الفكر الاسلامي الذى أخذ يندفع الى العالم بأسره اندفاع العصارة الحية في الشجرة الجرداء ، فلا دخل للغرام هنا بل لا يحسن في هذا المجال مجرد التصوير الغرامي لانه يعد عندئذ ضربا من الاسفاف والابتذال ، ونوعا من السقوط في مهاوى الرذيلة .

أما ما أغفله بعض المؤرخين وكان ينبغي للمؤلف أن يشيد به أو يشير اليه انما هو الجانب الذى يبرز سماحة الاسلام ، ويبين أن المسلمين ما كانوا يقاتلون الروم بقوة الانسان لكن بقوة الروح الدينية حيث لا موازنة بين عدد جند الفريقين (مائة ألف من الروم الى جانب اثني عشر ألف مسلم) . فلو عني المؤلف بمثل هذه الجوانب لكان ذلك استكمالا لحلقات التاريخ المفقودة ، وليس هذا الجانب فقط هو الذى يستحق الابراز والتصوير ، انما هنالك جوانب كثيرة أهمها قصة مارية القبطية

التي أهداها المقوقس الى النبي محمد صلى الله عليه وسلم ، حيث قالت تلك الفتاة عن المسلمين : أن هؤلاء المسلمين هم العقل الجديد الذى سيشرع في العالم تمييز الحق من الباطل ، وإن نبيهم أطهر من السحابة في سمائها ، وانهم جميعا ينبعثون من حدود دينهم وفضائله لا من حدود أنفسهم وشهواتهم ، واذا سلوا السيف سلوه بقانون ، واذا أغمدوه أغمدوه بقانون . وقالت عن النساء عند المسلمين : لان تخاف المرأة على عفتها من أبيها أقرب من أن تخاف عليها من أصحاب هذا النبي ، فانهم جميعا في واجبات القلب وواجبات العقل ، ويكاد الضمير الاسلامي في الرجل منهم يكون حاملا سلاحا يضرب صاحبه اذا هم بمخالفته .. (١) "

هذا استنطاق جميل لمارية ، وهو يمثل الحلقة المفقودة أصدق تمثيل ، تلك الحلقة التي يتوقع القارئ أن يعنى بها كاتب روايات تاريخ الاسلام ، ولكن فات القارئ أن مثل هذه الامور قد تتعارض مع رغبة المؤلف وهدفه الذى دعاه الى تكريس جهده ووقته للبحث والتنقيب في تاريخ المسلمين وليس تاريخ النصارى .

و ـ لغة الرواية ومميزاتها :

لغة رواية أرمانوسة المصرية لغة سليمة فصيحة ومتميزة بالسهولة والقرب من أفهام القراء ، بحيث جعل روايات زيدان كلها ذات أثر ورواج بين قطاعات مختلفة ولا سيما الشباب ، ويخطئ من يظن أن مرد جمال لغة الرواية الى الصور الفنية أو المحسنات البديعية ، لان الكاتب لم يعن بهذا الجانب كثيرا ، فسر جمال لغة الرواية اذن راجع الى سهولتها وقربها من الأفهام وخلوها من الاخطاء اللغوية أو النحوية الا في حالات قليلة ، كما في قوله : "ولكن سرها نفوذ حيلتها " (٢) والصحيح نفاذ حيلتها أو انطلاء حيلتها بدلا من نفوذ ونفاذ ، وكما في قوله : " ان والدها في وفاق سرى معهم (٣) " والاصح : على وفاق سرى معهم ، بدلا من في وفاق ، الا اذا أخذنا بالرأى الذى يقول : ان حروف الجر تنوب عن بعضها البعض .

---

(١) مصطفى صادق الرافعي ـ وحي القلم جزء ١ ص ١٨ ط دار الكتاب العربي ـ بيروت
(٢) جورجي زيدان ـ رواية أرمانوسة المصرية
(٣) مصطفى صادق الرافعي ـ وحي القلم ـ الجزء الاول ص ١٨ ـ ٢١

ز ـ نهاية الرواية ومدى تطابقها مع الاحداث :

كل قارئ لرواية أرمانوسة المصرية يريد التعرف على نهايتها ، ويتساءل عن مدى اتفاق تلك النهاية مع مجريات احداث الرواية ، ونحن نرى أن احداث هذه الرواية قد وصلت الى نهاية درج عليها جورجي زيدان في الروايات التي فرغنا من تحليلها ، ذلك لانه كان حريصا على النهاية السعيدة ، ولهذا كانت نهاية رواية أرمانوسة المصرية بحسم النزاع بين عمرو بن العاص وأركاديوس ، وبزواج أركاديوس بأرمانوسة على الرغم من الاخطار والعقبات التي كانت تعترض طريقه ، فكانت نهاية سعيدة ، إلا أن هذه النهاية لا تتفق مع مجريات أحداث الرواية ، وذلك لأن الرواية في مجملها عبارة عن حرب وضرب ، ومغامرات ومخاطرات ، تجعل القارئ يتوقع نهاية أخرى غير هذه النهاية لكن المؤلف آثر كعادته الخاتمة السعيدة ليريح أعصاب القارئ بعد ارهاقها بمغامرات المحبين وجهاد المحاربين وتلك خطة مرسومة من جورجي زيدان ، ولها مزاياها وعيوبها كما سنرى فيما بعد ان شاء الله .

• • • • • •

٥ - تحليل رواية

(فتاة غسان)

أ — أقسام الرواية ب — زمن الرواية

جـ — شخصيات الرواية د — مضمون الرواية

هـ — خاتمة التحليل وتشتمل على :

١) عناية المؤلف بالمواقف الغرامية لا التاريخية •

٢) بيان دور المسيحية والكنيسة والرهبان •

٣) التصوير الفني لتاريخ الاسلام في رواية فتاة غسان •

٤) مدى صحة الحوادث في رواية فتاة غسان •

٥) العامل الاساسي في تحريك أحداث الرواية •

٦) التحليل النفسي لشخصيات الرواية •

٧) مدى استكمال حلقات التاريخ المفقودة •

٨) لغة الرواية ومميزاتها وعيوبها •

٩) نهاية الرواية ومدى تطابقها مع مجريات الاحداث •

تحليـــل روايـــة

فتـــاة غســـــان

أ ـ اقســـام الروايـــة :

تقع هذه الرواية في جزأين كبيرين ، وتتألف من قسمين هما : القسم التاريخي الذى يتضمن الاحداث الكبرى التي وقعت ابان ظهور الدعوة الاسلامية ، ثم القسم الغرامي الذى تمثل في مواقف غرامية عديدة كانت ملازمة لكل فقرة من فقرات العرض والتصويـر ، وبطلة القصة الغرامية هي هند بنت جَبَلَة بن الأَيْهَم ، وقد أطلق عليها المؤلـــف (فتاة غسان) ثم جعل هذا الاسم عنوانا للرواية كلها .

ب ـ زمـن الروايـــة :

تمثل حوادث هذه الرواية فترة تاريخية كبيرة ، وذلك لأنها تبدأ من أواخر العصر الجاهلي وتركز على ظهور الدعوة الإسـلامية ثم تمتد حتى فتوح الشـام والعراق .

جـ ـ شـخصيات الروايـــة :

اشـتملت رواية" فتاة غسـان" على مجموعة من الشـخصيات أهمهـــا :

١) جبلة بن الايهم : ملك من ملوك غسان ، بل هو آخر ملوكهم ، وقد اعتنق الاسلام في عهد عمر بن الخطاب لكنه سـرعان ما ارتد عن الاســلام بسـبب حادثة مشـهورة .

٢) الحارث بن أبي شمر : ملك من ملوك غســان .

٣) عبد اللـــــــه : أمير من أمراء العراق .

٤) هنـــــــد : ابنة جبلة بن الايهم وهي بطلة هذه الرواية .

٥) ثعلبـــــــه : ابن الحارث بن أبي شـمر الغساني ، وابن عم هند الذى دبر لها المكايد وحاول أن يتزوجها على الرغم من رفضهـا اياه .

٦) حمـــاد : ابن الامير عبد الله (الامير العراقي) كما جاء في أول الروايـــة ولكنه في الواقع ابن النعمان بن المنذر ، ويعتبر حماد هـــذا المنافس الوحيد لثعلبة في ابنة عمه هند ، التي كانت تميل الـى حماد وتكره ابن عمها ثعلبة .

٧) ســـعدى : والدة هند وقد تميزت بعقل راجح ومنطق سليم ، وبهذا استطاعت أن تؤثر في جبلة بن الأيهم لتقنعه برغبات هند .

٨) سلمـــان : خادم حماد الوفي الذى رافقه في مواقف عديدة وساعده فـــي مجالات كثيرة ايما مساعدة .

د ـ مضمون الروايـــــة :

لما كان جبلة بن الايهم ملكا من ملوك غسان كان لا بد لكاتب الرواية من البـــدء بالحديث عن بني غسان ، والاشـارة الى دياناتهم ، ثم تحديد مكان اقامتهم ، وبيان مدى موءازرتهم لقياصرة الروم مع ذكر للمناذرة الذين كانوا يشدون أزر الفرس .

وبعد الفراغ من هذه المقدمة أخذ يتحدث عن هند بنت جبلة بن الايهم فأشـار الى جمالها وأوضح أنها كانت تنزل ميدان السـباق ، وكثيرا ما كانت تنال قصـــب السـبق أو تحمل الخلعة بيدها وتلبسها للفائز من المتسابقين ، وليتمكن الموءلف من عقد علاقة حب وغرام بين هند وثعلبة بن الحارث تعمد أن يحضره الى ميدان السـباق ، وجعله يبدى ترفعا عن هند كلما خوطب بشأنها كما جعل هندا تستنكف من اخـــلاق ابن عمها ولا تميل اليه بحال ، ومن هنا بدأت المواقف تعلو وتتعقد عن طريـــــق المصادفات والمفاجآت حيث وجد ضمن المتسابقين شـاب وسـيم في العشرين من عمره ، فافتتنت به هند فجأة ، بل اشـتد اعجابها به عندما رأته يلحق اهانة بثعلبة ويقلـــل من شـأنه مما جعل ثعلبة يحقد على الشـاب الغريب ويحاول أن يوغر صدر عمه جبلـة ضـده قائلا له : لا يحسن أن يكون بين فرساننا غريب لا نعرف أصله ، كما لا يحسـن ادخاله الى فسـطاط الملك وابنته جالســة ، لانه لا يعرف مقام الملوك ، ومن ثم أفاض

المؤلف في اجراء حوار بين ثعلبة وعمه جبلة ، ذلك الحوار الذى اشتركت فيه هند محاولة اشعال نار الغيرة في قلب ابن عمها لتؤكد جبنه وضعفه ، فتحمس ابن العم وقرر أن ينازل الغريب بنفسه دفعا للعار عن بني غسان .

انتقل الكاتب بعد هذا الى الحديث عن فوز حماد (الشاب الغريب) في الجولة الاولى مبينا مشاعر هند تجاهه وصورا الحفلات التي أقيمت مع ذكر بعض القصائد التي قيلت في مدح أولاد جفنة ، كما تحدث عن الجولة التي كانت بين حماد وثعلبة مركزا على شعور هند وخوفها من اخفاق حماد ، لان جواده قد تعب في الجولتين الأُولَيَيْنِ ... ، ولكن سرعان ما فاز حماد على ثعلبة ففاز بالجائزة كما فاز بحب هند ، بينما اشتد كره ثعلبة له وازداد تعجب جبلة من أمره ، وكثر فرح زيدان لنجاحه في استغلال الاسرار التي تحمل القارئ على متابعة رواية يزيد عدد صفحاتها على ٤٥٠ صفحة ، ولم يفت المؤلف الحديث عن عادات القوم وتقاليدهم ، لكنه آثر التركيز على عادات الوثنيين وتقاليد المسيحيين ، حيث تحدث عن الرسومات التي بداخل غرفة هند قائلا انها من رسوم القديسين ،ومن تلك الرسوم صورة صلب المسيح كما يزعم ، وصورة مريم العذراء تحمل طفلها ، وانتقل بعد هذا الى تسجيل الحوار الذى دار بين هند ووالدتها حول السباق وما جلبه لهم ثعلبة من عار يوم السباق وخاصة عند ما حاول الفتك بالغريب حماد ، وأخذت الوالدة تمدح حمادا فطربت هند وقررت في نفسها مقابلة حماد ، ولكن كيف يتم اللقاء ؟

لم يعجز المؤلف عن تدبير الحيلة لها ، فجعلها تخرج الى دير بحيراء منفردة ، ثم تركها وانتقل الى الحديث عن لثام حماد الذى كان يخفي شعره الذى لم يقص منذ الصغر ولن يقص الا في موعد محدد لم يأت بعد ، لهذا لا يصح له أن يرتبط بهند أو غيرها قبل موعد قص شعره ، وقد أطنب المؤلف في الحديث عن هذه المسألة فازداد تشوقنا الى معرفة سر هذا الغريب ، ولكن يبدو اننا لن نعرف شيئا من ذلك الا بعد مضي اربعمائة صفحة ، لان الكاتب لا يذهب بنا مباشرة ، لكنه يظل يدور ويدور ، حيث يترك مسألة قص الشعر ليتحدث عن مدينة بُصْرَى حديثا مستفيضا ،

ثم يتحدث عن حماد الذى كان في انتظار هند بدير بحيراء ، فأجرى حوارا مطولا بين حماد وبين راهب وجده هناك ، وقد ركز على هذا الراهب وبين مذهب آريوس ونسطور ذاكرا آثار بحيراء في العرب الوثنيين الذين كانوا يمرون بقوافلهم من الحجاز متلمسين الراحة هناك ، وأبى الا أن يضم الى ذلك الركب محمد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه عند ما كان غلاما صغيرا مرافقا لعمه ابي طالب في أسفاره ، وقد أشار عندئذ الى أن محمدا صلى الله عليه وسلم قد تأثر بالرهبان وان دعوته قد ظهرت وأخذت تعم البلاد ، وربما اكتسحت الشام والعراق نتيجة اختلال الاحوال هناك (١) ونتيجة تعدد الفرق المسيحية (٢) ثم يردف قائلا : " أما بحيراء فهو من نعم الله على بني الانسان ولا أظن أن الارض تجود بمثله (٣) " وتلك اشارة خبيثة وتعليل مغرض دون ريب .

يحتاج الى تفصيلها

يذهب المؤلف بعد هذا الى أن حمادا قد استسلم للنوم ، ورأى في منامه النبي صلى الله عليه وسلم حيث حدثه قائلا له : " انت لست حمادا وستلاقي عذابا ولكنك تجد بعد العسر يسرا "فبقي حماد حائرا من هذه الرؤيا العجيبة (٤) ، كما احتار القارئ ، وتوقع أن يجد تفسيرا في الفصول المقبلة ولكن هيهات ، اذ أن المؤلف ترك الامر غامضا هكذا وشغل بتسجيل الحوار الغرامي الذي دار بين حماد وهند بنت جبلة بن الايهم ، وهو — في نظرنا — حوار مسف ساقط ، لأن المؤلف استخدم فيه كل الحيل والوسائل الخبيثة التي يستعين بها عادة اسرى الحب والغرام ، ويلجأ اليها من عرفوا بالمروق والانزلاق ، والمؤلف يرى أن هذا الحوار يمثل جزءا من تاريخ الاسلام والاسلام منه براء ، وقد استغرق هذا الحوار المسف زهاء تسع صفحات ، وانتهى بمحاولة هند التعرف على أصل حماد

(١) جورجي زيدان — رواية فتاة غسان — ص ٤٤
(٢) جورجي زيدان — رواية فتاة غسان — ص ٤٥
(٣) جورجي زيدان — رواية فتاة غسان — ص ٤١
(٤) جورجي زيدان — رواية فتاة غسان — ص ٤٥

ونسبه ، لكنها لم تفلح لان ذلك سر مغلق في صندوق المؤلف ، وأخيرا يشير المؤلف الى أن الحبيبين قد افترقا دون ارادتهما حيث جاء ثعلبة فجأة الى الدير محاولا الايقاع بحماد للنيل منه أو قتله لكنه عجز فقفل راجعا وألقي القبض على والد حماد (الامير العراقي عبد الله) بتهمة الجاسوسية فزج به في السجن بعد تحقيق رهيب وتفتيش دقيق أدى الى الحصول على خاتم النعمان بن المنذر عنده لكنه رفض توضيح علاقته بالخاتم مدعيا أنه قد اشتراه من أحد الصاغة ولا يعرف أكثر من ذلك ، وفي الوقت الذى كان فيه عبد الله بالسجن تمكن المؤلف من تدبير حيلة للفرار بحماد الى عمّان مع احد خدم أبيه بعد أن زج بهما في مخاطر عديدة لم ينجوا منها الا بعد اللجوء الى دير في مسبغة الزرقاء بغية الاشادة بالاديرة والرهبان ، ثم عاد بعد ذلك للحديث عن السجين عبد الله قائلا انه قد أرسل مع خاتمه الى هرقل ليرى رأيه فيه ، فحقق معه هرقل بنفسه وانتهى ذلك التحقيق بالسماح لعبد الله كي يبوح بسره للبطريرك الاورشليمي ، وهذا هو ما يسمونه بسر الاعتراف عند المسيحيين ، فبقي سر عبد الله مصونا الى أن يحين وقت افشائه ومخفيا عن القراء الى أن يفرغوا من قراءة الرواية كلها ، الا ان القارئ قد يضرب صفحا عن ذلك السر ويتساءل قائلا : ما علاقة اعترافات النصارى بتاريخ الاسلام؟ لكنه لا يجد اجابة من المؤلف الذى لم يذهب بعبد الله الى هرقل الا ليصل الى سر الاعتراف ويشيد به ولتتاح له فرصة الحديث عن النصرانية ثم يجيء حديثه عن الاسلام بعد ذلك تحت عنوان : " دعوة الملوك الى الاسلام " ثم " صاحب الشريعة الاسلامية " وليكن العنوان ما يكون ولكن كيف كان الحديث عن الاسلام في هذه الرواية ؟ كان حديثا مبتسرا وتصويرا فجا ضعيفا لا يزيد القارئ العادى معرفة بسماحة الاسلام وانتصاراته في الشرق والغرب ، ولا يشوقه الى قراءة التاريخ ، بل ربما عقّده ونفّره .

ويتمثل ذلك التصوير الضعيف في حديثه العابر عن كتاب النبي صلى الله عليه وسلم واشارته الى أنه كتاب مختوم بالطين (١) ، ثم ذكره الحيرة التي استولت

---

(١) جورجي زيدان ـ رواية فتاة غسان ـ ص ٧٧

على الجميع بعد قراءة الخطاب وعجزهم عن توضيح أمر صاحب الدعوة الاسلامية عند ما طلب منهم هرقل ذلك ، الا عبد الله الذى أطلق سراحه قبل لحظات ، لكن هرقل لم يكتف برأيه ، بل طلب أن يحضروا له من يحدثه حديثا مستفيضا عن سيرة النبي محمد صلى الله عليه وسلم ، فاختار المؤلف أبا سفيان تمشيا مع ما هو ثابت في كتب التاريخ لكنه أجرى على لسان أبي سفيان الغث والسمين والصحيح والباطل (١) حيث تحدث عن محمد عليه الصلاة والسلام قبل البعثة مشيرا الى سبب تلقيبه بالامين ذاكرا مكانة قريش بين القبائل العربية ، وبينا قصة جده عبد المطلب الذى نذر أن ينحر واحدا من أبنائه اذا بلغوا عشرة وهكذا الى أن وصل للحديث عن حادثة شق صدره الشريف ، فوصف تلك الحادثة بأنها من قبيل الاعراض الغريبة التي لم يسمع بها وهو وصف غريب منكر ، ثم تحدث عن أثر كفالة عمه أبي طالب في نجاح دعوته لان عمه كان يصحبه معه في اسفاره وينزل به في الاديرة ليجلس مع الرهبان . وغرض المؤلف من هذه الاشارة الايحاء للقارى بأن محمدا قد أخذ عن الرهبان الكثير مما جاء به ، ولا يكتفي بهذا الايحاء بل يفصح عن ذلك قائلا : " ان الراهب بحيراء قد أنبأه بأمور كثيرة عن مستقبل حياته (٢) " وفي وصف تلك الامور بالكثرة ما فيه من دلالات وتأكيدات .

يتحدث المؤلف بعد ذلك عن عمل محمد في تجارة خديجة وزواجه بها ثم اعلان دعوته ، ويشير الى معاداة قومه له واحتجاجهم عند عمه أبي طالب دون جدوى ، وينتقل فجأة ليسرد على لسان أبي سفيان قصة غريبة هي قصة الغرانيق ، ويثبتها هكذا كأنما هي مسألة واقعة وثابتة ومن واجبه أن يعلم الشباب اياها ، ويركزها في أذهانهم دون سمواها ، والاعجب من هذا هو أن يضيف المؤلف الى القرآن الكريم ما ليس منه ، وذلك عندما أراد الاستشهاد بآية لاثبات قصة الغرانيق على لسان

---

(١) وقد أشار كل من الطبرى وابن الاثير الى أن المتحدث في مجلس هرقل هو أبو سفيان كما جاء في رواية زيدان ، لكنهم ذكروا أن هرقل قد اشترط عليه الصدق والتزم هو بذلك الامر الذى لم يفعله جورجي زيدان في روايته .

(٢) جورجي زيدان — رواية فتاة غسان — ص ٨٨

أبي سفيان قائلا :

" ..... ثم علمنا ذات يوم أن محمدا ذكر آلهتنا فيما نزل عليه من كتابة فقال : (أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الاخرى ، تلك الغرانيق العلى وان شفاعتهن لترتجى) وذلك ما كنا نعتقده ، فسررنا سرورا عظيما لا مزيد عليه ، وقلنا ها قد تمّ الوفاق " (١) .

بتلك الصورة يكتب زيدان الآية للايهام والتشكيك وان شئت فقل للدس والافتراء ، ولا أدل على ذلك من متابعة الرواية ، حيث يجد القارئ المؤلف يترك الحديث عن صاحب الدعوة لينتقل للحديث عن عبد الله الذي خرج مع أبي سفيان من مجلس هرقل متوجها الى عمان للبحث عن ابنه حماد وخادمه سلمان ، وليس معه اثناء البحث الا المؤلف الذي زج به في مخاطر عديدة وأوحى اليه في الطريق بموت ابنه حماد ، لأنه رأى جواد حماد ميتا وبجانبه عباءة ممزقة هي عباءة حماد ، فأيقن ان ابنه قد ابتلعه الاسد ، وبكى بكاء شديدا لعدم تمكنه من الوفاء بالنذر بعد أن صبر عشرين عاما ، فبقي حائرا هائما على وجهه الى أن القي القبض عليه من بعض جنود المسلمين الذين كانوا في طريقهم الى غزوة مؤتة ، وقد تعمد المؤلف ذلك لتتاح له فرصة الحديث عن غزوة مؤتة ، فتحدث عن هذه الغزوة حديثا مقتضبا لا يشفي غليلا .

عاد بعد ذلك للحديث عن حماد وسلمان ، مبينا سبب فرار الجواد منهما ومصورا هواجس حماد المتأرجحة بين هند من جهة وبين والده عبد الله من جهة ثم تركه في هذه الحيرة والاضطراب ليتحول الى الحديث عن ثعلبة بعد قبضه على عبد الله قائلا ان ثعلبة قد اندفع ـ بعوامل الغيرة ـ الى الانتقام من هند وحماده فطلب من والده أن يخطبها له ، وقد أدى ذلك الى اضطراب هند وتضعضع أفكارها ، واهتم زيدان بهذا الجانب ، فصوره في حوار جميل بين هند ووالدتها ، استغرق قرابة عشر صفحات ، وانتهى باعتراف هند لوالدتها بحبها لحماد ، وما تم بينهما

---

(١) جورجي زيدان ـ رواية فتاة غسان ـ ص ١٦٨

من لقاءات وأحاديث حب وغرام ، ثم أفصحت عما تحس به من تخوف على حماد من ثعلبة وشروره ، فتقبلت الام كل ذلك بصدر رحب والتزمت بمساعدة هند مؤكدة لها أن حمادا لن يمس بسوء ، وبينما هما كذلك وصل اليهما خبر من حماد بحيلة دبرها المؤلف وتحدث عنها في ست صفحات تحت عنوان (منادى دير بحيراء) .

عاد بعد ذلك للحوار الذى دار بين والدة هند ووالدها حول خطبة ثعلبة حيث استطاعت الام أن تؤثر في جبلة بفصاحتها وانسجام حديثها ، فمال الى رأيها وقبل اقتراحها العجيب ، وهو التظاهر بقبول ما أرادته هند والموافقة عليه وفي الوقت نفسه يعملان على تدبير مؤامرة للتخلص من حماد ، وكان رأيها أن يكلف حماد بأمر يقرب من المستحيل ، فاذا استطاعه كان زواجه من هند أمرا مقضيا ، وان عجز فسوف لا تقبله هند ، وقد ارتاح جبلة لهذا الرأى ، فاستدعى سلمان وطلب منه أن يخبر حمادا بضرورة الحضور اليه فورا ، ولما حضر حماد دار حوار بينه وبين سعدى انتهى بقولها : " نقترح عليك أن تلبس هندا يوم زفافها قرطين فيهما لؤلؤتان ، كل لؤلؤة منهما قدر بيض الحمام (١) " فقال حماد : ألملك تمنين قرطي مارية وانزعج سلمان لهذا الطلب ، كما انزعجت هند لأن الحصول على قرطي مارية ضرب من المستحيل ، وبالرغم من هذا وافق حماد وقرر السفر الى الحجاز عسى ولعل أن يقابل والده هناك ثم يحاول الحصول على القرطين من داخل الكعبة .

سافر حماد ومعه سلمان ، وقد تكبدا مشاق كثيرة ، ولقيا صعوبات جمة ، وفي طريقهما الى المدينة المنورة قابلا قوافل أبي سفيان القادمة من الشام فاستغل المؤلف تلك المناسبة ليتحدث عن غزوة بدر الكبرى ، فتحدث حديثا ضعيفا لا جاذبية فيه ولا روح ، لان الحديث عن غزوة بدر لم يكن مقصودا لذاته ولكنه جاء عرضا ، اذ أن غرض المؤلف الاساسي من ذكر تلك الغزوة هو تبيين مدى الاخطار التي واجهت حمادا ، والكشف عن العقبات التي وقفت في طريقه وأرادت عرقلة مساعيه

---

(١) جورجي زيدان — رواية فتاة غسان — ص ١٤٤

في الحصول على قرطي مارية ، فصور الرعب الذى ألقي في قلبي حماد وسلمان عندما سمعا بأمر تلك المعركة ، فأصبحا يقدمان رجلا ويوءخران أخرى الى أن وصلا مكة ومعهما الموءلف الذى تفرغ عندئذ للحديث عن فتح مكة متظاهرا بأنه يريد تصوير فتح مكة وتسجيل الظروف والملابسات التي اكتنفت ذلك الفتح ، الا أن القارئ لا يقتنع بهذا الادعاء ، لانه يشعر بأن تصوير فتح مكة لم يكن بأحسن من تصوير غزوة بدر الكبرى ، والدليل هو عدم ظهور الموءلف وحماد في الصورة لحظة انتصار المسلمين في فتح مكة ودخول النبي عليه الصلاة والسلام الكعبة حيث صلى ركعتين ووقف على باب الكعبة ، وقد وقف الناس صامتين ، كأن على روءوسهم الطير فقال : لا اله الا اللـه وحده لا شريك له ، صدق وعده ، ونصر عبده ، وهزم الاحزاب وحده ، ثم خطب خطبة ضافية ، وأخذ القرشيون يهنئون بعضهم بعضا بالدخول في الاسلام ولكن أين حماد ؟ لقد انزوى مع الموءلف وسلمان في ركن قصي دون أن يفكروا في الدخول في الاسلام ، لانهم كانوا مشغولين بأمر القرطين اللذين أصبح الحصول عليهما ضربا من المستحيل ، الامر الذى جعل حمادا يستسلم للبكاء ولمناجاة هند ، وقد جاءت تلك المناجاة معبرة أدق تعبير وأجمله ، ولكن لا علاقة لها بتاريخ الاسلام .

بقي حماد كئيبا حزينا الى أن جاءه الفرج عن طريق حسان بن ثابت الذى رافقهما الى المدينة المنورة عند عودتهما الى عمان حيث عرف حماد أن أباه في دار حسان بالمدينة المنورة ، فانحلت عقدة اختفاء والده ، وعندئذ يخيل للقارئ أن الاحداث ستتوقف لكنه يفاجأ بتحريك عبد الله ليسرد على القراء جانبا مما شاهده في غزوة موءتة ، وليفصح عن تشوقه وتطلعه الى معرفة قصر شمره ، ولما لم يصرفه طلب من والده أن يسمح له بالذهاب الى جبلة لاداء التحية فسمح له بشرط التقيد بوصيته ، ولما وصل وجد والدى هند قد تحولا عن فكرة المطالبة بقرطي مارية مهرا لابنتهما ، لان الباعث الى ذلك قد انتهى بموت والد ثعلبة ، ففرحا بوصول حماد سالما وشرح حماد الاخطار التي واجهته وخيبة الامل التي مني بها بالنسبة للقرطين ، ولا يعزو هذا الا عثوره على والده فقالت له سعدى : لقد سررنا

بمشورك على والدك ، وما عدنا نهتم بالقرطين ، ولما اجتمع حماد بجبلة أثنى عليه جبلة وطلب منه الاقامة هو ووالده بدار جبلة بعد الزواج بهند ، فشكره حماد طالبا عدم تحديد موعد الزواج لان ذلك مرتبط بقص شعره الذى لم يحن موعده بعد .

ولما جاء اليوم المحدد أخذه والده الى الدير وحدث رئيس الدير مشترطا أن يبارك قص شعر ابنه شيخ عجوز يوجد بصومعة الدير ، فوافق العجوز على القص لكنه اعتذر عن أداء الفروض اللازمة اثناء صلاة القص ، وتم كل ذلك فعني به المؤلف عناية تامة كأنه يكتب للشباب المسيحي ليعلمهم جانبا من أمور دينهم ، أو كأنما تسجيل الاحداث التاريخية يتوقف على عرض هذه الجوانب ، وعلى السر الذى لا يذاع الا في وسط صومعة مظلمة مما جعل حمادا يشعر بالخوف والرهبة ، ويحس بخطورة السر الذى بالغ المؤلف في تغليفه حتى مل القارئ وتضايق حماد ومن معه . وخلاصة ذلك السر أن النعمان بن المنذر كان في سجن كسرى وكان يتوقع الموت داخل السجن ، فأوصى عبد الله وصية مؤداها : ان زوجته سمية ستلد قريبا فليذهب اليها عبد الله ويسلمها خاتم النعمان ورداءه ثم يقول لها ان هي وضعت غلاما أن تعهد اليك بتربيته ، فتربيه تربية رجال القتال حتى يشب شهما ، واحذر أن تقص شعره أو تخبره بنسبه قبل الحادية والعشرين من عمره فاذا بلغهما فقص شعره في دير بحيراء وأخبره بنسبه وألبسه هذا الرداء وهذا الخاتم ، وليفتح هذه الاسطوانة ليعمل بما هو مكتوب فيها .

ولما فتحت الاسطوانة وجدت بها عبارات موجهة الى حماد من والده النعمان ومن تلك العبارات ما يلي : " فاذا قرأته وقد وفيت بنذرك وعرفت حقيقة نسبك فاعلم أن عظامي تناديك في ظلمة القبر وتستحلفك بشرف أجدادك المناذرة ألا تقرب امرأة ولا تشرب خمرا حتى تنتقم لابيك من أكاسرة الفرس فاذا فعلت ذلك فانك مبارك أنت ونسلك ، وان لم تفعل فان رفاتي ترتمض حنقا ونفسي تتألم وهي تنظر اليك من منافذ الآخرة تراقب حركاتك ، وسيجمعني واياك موقف نتحاسب فيه والسلام (١) "

---

(١) جورجي زيدان – رواية فتاة غسان

وذاك الحديث أقرب الى الخرافة والاساطير منه الى الحقيقة والواقع ، وان دل على شيء فانما يدل على أن زيدان قد أوتي موهبة فريدة في تأليف غرائب الامور ومتناقضات الحياة ثم محاولة مزج ذلك كله أو ربطه بالواقع بحيث تنطلي الحيلة على الكثيرين فيبدو لهم أن كل ما عرض لا يصور الا الحقائق التاريخية الثابتة والتاريخ منه براء ، والدليل على تلك المهارة هو القدرة على الاستمرار في العرض والتصوير بعد أن توقفت الاحداث عقب الكشف عن السر المكتوم ، حيث استطاع المؤلف أن يكتب بعد ذلك قرابة مائة صفحة مصورا شعور حماد وهو يفكر في الانتقام لوالده النعمان ، ومتحدثا عن الفرس منذ أن كانوا تحت سلطة مملكة آشور الى عهد كسرى وابنه هرمز ، كما أفاض في الحديث عن المدائن عاصمة أكاسرة الفرس مشيرا الى أسمائها المختلفة عند اليونان ثم العرب وغيرهم ، ولم يفته عند ذاك وصف ايوان كسرى .

عاد بعد ذلك للحديث عن حماد قائلا انه قد خرج ذات مرة الى الصحراء وهو غارق في التفكير في عملية الانتقام لابيه ، وفجأة وجد نفسه في مغارة مخيفة رأى فيها رجلا عاري الجسد ، لا يكسوه الا شعره المسترسل على قدميه ، فخاف حماد من ذلك المنظر وكاد الخوف أن يقضي عليه لولا انه رأى صليبا كبيرا في يد ذلك الرجل المخيف فعلم أنه ناسك من نساك تلك الايام ، وفهم من اشاراته أنه نذر أن يتحدث أسبوعا ويكف عن الحديث اسبوعا ، لذا طلب من حماد عن طريق الاشارة أن يعود غدا للحديث معه ، فعاد مع والده ، وقضيا وقتا طويلا مع الناسك حتى عرفا ان سر تنسكه عائد الى الظلم الذي لحق بالنعمان من كسرى ، فتاقت نفس حماد الى معرفة التفاصيل ، وقد أسهب المؤلف في عرض ذلك كله لانه بمثابة العصا السحرية التي تشد القارىء ، ثم عاد ليقول ان الناسك طلب من حماد العدول عن فكرة الانتقام من الاكاسرة لان قاتل النعمان قد قتل هو وأولاده شر قتلة ، وسيقضي العرب على دولتهم .

ولهذا كان لا بد من الحديث عن فتح الشام والعراق باسهاب وعن المهاجرين والانصار ، فتناولهم المؤلف تناولا لطيفا لكنه كان بمثابة الحديث العابر ، كما تحدث عن عهد أبي بكر وموقفه من المرتدين حديثا موجزا وجميلا لولا العبارات الموهمة التي جاءت عند حديثه عن غزوة أسامة الى الشام بأمر النبي صلى الله عليه وسلم .

ثم ماذا ؟ ثم العودة الى هند لتصوير مشاعرها بعد أن علمت بحقيقة نسب حماد ، وبعد ما علمت رفض والدها لحماد زوجا لها خوفا من نسبه الذى اتضح مؤخرا وخشية انتقال الملك من الفساسنة الى المناذرة ، وبهذا عادت مشكلة حماد للتعقيد من جديد ، وقد طرب المؤلف لهذا التعقيد أيما طرب ، لأن من شأنه أن يجذب القارئ ويسيطر على أحاسيسه فلا يفكر الا في كيفية حل اللغز ، وعندئذ تكون الفرصة مواتية لتقديم الحقائق التي يريد تصويرها ولنشر السموم الفكرية التي يريد نشرها ، وقد نجح في كل ذلك نجاحا كبيرا حيث تحدث عن فتح المسلمين لبصرى وفتحهم للحيرة مشيرا الى موقعة اليرموك جاعلا سلمان (خادم حماد) جاسوسا لصالح المسلمين بأمر من خالد بن الوليد ، لكنه لم يؤد دوره كما ينبغي ، بل انحرف عن أداء الدور المطلوب بايعاز من المؤلف فأصبح جاسوسا على المسلمين لا لهم ، ذلك لأن المؤلف جعله ينقب عن الاشياء التي لا داعي للاشارة اليها أو ذكرها في هذه الرواية ، من تلك الاشياء حديثه عن اسلام أبي سفيان خوفا على حياته لا رغبة في الاسلام (١) ومنها ايضا اشارته الى الخلاف بين خالد بن الوليد وأبي عبيدة في القيادة ، ولا يكتفي بهذه الاشارة بل يتعداها ليبدى اعتراضه على قرار الخليفة عمر بن الخطاب في مسألة قيادة الجند بين أبي عبيدة وخالد ، ولا يأتي الاعتراض عاريا سافرا ولكنه يأتي في ثنايا حوار بين سلمان وصاحب البريد (٢) .

---

(١) خبر اسلام أبي سفيان خوفا ورد في كتاب الكامل — لابن الاثير — الجزء الثاني ص ٤١٤

(٢) جورجي زيدان — رواية فتاة غسان — ص ٣٧٢

ولم يكتف المؤلف باشارات سلمان المابرة في حواره مع صاحب البريد ، بل عقد فصلا كاملا بعنوان " خصام أبي عبيدة وخالد " ليكون هذا الفصل مسوغا للقول بأنه قد تحدث حديثا صرفا عن التاريخ ، ولكن أي تاريخ ؟ أهو التاريخ الاسلامي الصحيح الذي يضم نماذج بشرية تحترم العهود والعقود ولو كان العهد لامرأة ، وتؤكد عدم وجود خصومة بين صحابيين جليلين شهد لهما بالفضل رسول الله صلى الله عليه وسلم فسمى أحدهما أمين الامة ، وسمى الاخر سيف الله المسلول ؟ أم هو التاريخ الخيالي الملفق الذي يحكم زيدان نسجه بطريقة غريبة مرفوضة مركزا فيها على ما تخيله من خصومة عنيفة بين خالد وأبي عبيدة (١) .

وهكذا يسرف كاتب رواية فتاة غسان في الحديث عن الخصومة المزعومة ليصل الى أن صلح الشام قد تم بفضل الامير العراقي حماد بطل هذه الرواية ، ومن ثم تراه يحرك حمادا ويتنقل به هنا وهناك ليكون هو السبب أيضا في صلح بيت المقدس مشيرا الى أن أبا عبيدة قد أكبر عمل حماد وأثنى عليه ووعده بأن يذكر شهامته لابن الخطاب عند قدومه لعقد الصلح ، كما أشار الى انتهاز حماد لتلك الفرصة وطلبه من أبي عبيدة كي يساعده في حل مشكلته المستعصية ، وهي الزواج من هند بنت جبلة بن الايهم فأجابه أبو عبيدة قائلا : اني سأحمل جبلة على ما تريد قهرا ، ولما جاء عمر بن الخطاب عقد معه أهل بيت المقدس الصلح وتعهدوا بأداء الجزية فأوصى بهم خيرا ، فهدأت الاحوال وسكنت القلوب الا قلب حماد فانه ظل يخفق ويتوجس خيفة من أن تبوء مساعيه بالفشل فلا يتم له الزواج بهند خاصة بعد أن تحدث ابن الخطاب عن قصة جبلة المشهورة ، فعادت اليه فكرة الانتقام لابيه من الفرس ، ولكن أبى زيدان الا أن يصرفه عن ذلك ، ففاجأه بخبر هند التي كانت تقيم في دير اسمه " دير هند " وما كان من حماد الا أن توجه الى الدير لكنه فوجئ بأن جماعة قد ألقت القبض على جبلة والد هند ، أما هي فقد امتطت جوادا وخرجت دون أن

---

(١) جورجي زيدان ـ رواية فتاة غسان ـ ص ٣٧٣

يعلم أحد وجهتها فأطلق حماد عنان جواده حتى اشرف على الحيرة ، وقد غابت الشمس واشتد الظلام ولم يعد يرى الطريق وفجأة سمع صوتا يناديه فتوجه اليه وهناك التقى براع دار بينهما حوار متعمد من المؤلف للكشف عن أخبار هند وتهدئة روع حماد ، وبذلك انحلت العقدة الكبيرة لتحل محلها عقدة أخرى قوية دعت حمادا الى الاستسلام للمناجاة ثم التفكير في الانتحار بسبب ما تراءىله من أن هندا قد ماتت وبقيت عباءتها فجرها كلب الراعي اليه لكن المؤلف حال بينه وبين الانتحار اعتمادا على الصدف والمفاجآت ، وذلك لأنه أتى فجأة بمجموعة من الفتيات لأخذ الماء ومعهن هند التي لم تعرف حمادا الذى كان جالسا هناك لكنها عرفت العباءة التي كان يلتف بها دون أن يخطر ببالها أنه حماد ، فما كان منها الا أن طلبت من المرافق لهن أن يذهب ويسأل عن مصدر تلك العباءة ، لانها تعتقد انها عباءتها المسروقة منها قبل أيام قلائل ولما سئل الرجل الذى هو حماد قال لتحضر صاحبة العباءة بنفسها وتستفسر عن عباءتها ان كانت صادقة فيما تزعم ، لكن المرافق رفض هذا الاقتراح قائلا : " ان الفتاة من راهبات دير هند الصغرى ، ولا يؤذن لهن في مخاطبة الرجال ، ففرح حماد لذلك وأعطى المرافق برد النعمان الذى كان معه ، ثم قال له اعط الفتاة هذا البرد بدلا من عباءتها ، فهو أثمن كثيرا من العباءة ، وما إن رأت الفتاة البرد الا وصاحت قائلة : حماد حبيبي ، كما صاح حماد أيضا ، فتعجب المرافق مما رأى لكنه تجلد الى أن تدخل المؤلف فجمع بين الحبيبين بعد أن كانا لا يحلمان بذلك ، وهيأ لهما فرصة الزواج السعيد بعد أن جمع شمل الاسرة التي تفرقت أيدى سبأ ، وبهذا كانت نهاية الرواية نهاية سعيدة جريا على عادة المؤلف في معظم رواياته .

هـ - خاتمـــة التحليـــل :

١) عناية المؤلف بالمواقف الغرامية :

يزعم زيدان ويتصور بعض القراء أن مؤلف رواية فتاة غسان قد عني بتصويـــر أحداث تاريخ الاسلام الكبرى والصغرى ، لانهم وجدوها تتحدث عن حالة العرب في الجزيرة العربية قبيل مطلع النور الذى شق رداء الظلام الفكرى وبدد دياجيـر الجهل الانساني التى كانت العقول في حيرة من أمرها ، كما كانت تصور انتشـــار الدعوة الاسـلامية في عهد النبي عليه الصلاة والسـلام ثم في عهد الخليفتين أبي بكـر وعمر رضي الله عنهما . وكل هذا صحيح دون ريب ، ولكن كيف كان حديث مؤلـف رواية فتاة غسـان عن تلك الحقبة الطويلة المزدحمة بالاحداث الجليلة ، التي هـزت العروش وأنارت العقول ، ودكت حصونا منيعة ما كانت لتهد بقوة السلاح وحدها ؟ أكان حديثه حديثا طريفا يثير النشاط ويبعث الحياة ، وفي الوقت ذاته يشير الـى العناية المزعومة ؟ أم كان حديثا عابرا لا جاذبية فيه ولا روح ؟

نحن نعتقد أن حديث زيدان في رواية فتاة غسان كان حديثا عابرا فجًّـا لا جاذبية فيه ولا روح بل ان الدراسة لرواية فتاة غسان تؤكد أن المؤلف لم يعن فـي حديثه عن أحداث تاريخ الاسـلام عنايته بالجوانب الغرامية ، وذلك لانه شغل بأمر الحب الذى كان بين حماد وهند بنت جبلة بن الأيهم ، ومن ثم نجده يجعل حمادا مشغولا بذلك الحب أكثر مما يتوقعه كل قارئ لأية رواية تاريخية ممتزجة بعنصر الغرام أو غير ممتزجة ، ومظهر ذلك الشغل بالحب يتمثل في ضايقة حماد وتضجره الشديد عندما تجمعه الصدف بقادة المسلمين ، وعندئذ يلجأ زيدان الى مجرد الســـرد الضعيف لذلك الموقف الإسلامي بدلا من الحوار الفني المصحوب بتحرك الشخصية وتفاعلها ، على حين أن هدف المؤلف المنصف من تحريك الشخصيات التاريخية في المواقف المختلفة انما هو تصوير الاحداث التاريخية ، ثم اجراؤها على ألسنـــة الشخصيات بدلا من السرد الآلـي .

وعلى الرغم من وضوح هذه الحقيقة لكل كاتب وقارئ نجد أن بطل رواية فتاة غسان لجورجي زيدان يصرخ قائلا : " ما بالنا انشغلنا بهذه الامور ونسينا أمر القرطبين " وهذا بالطبع عند ما يمر بحادثة أو موقف إسلامي ، أما عند ما يأتي الى دير من الاديرة فلا يرى بأسا في الاقامة بذلك الدير يوما أو يومين ، وعند ما يلتقي براهب أو ناسك من النصارى لا يرى ضيرا في قضاء ساعة أو ساعات معه .

فما هذا بتصوير لتاريخ الاسلام ، ان هو الا عناية واهتمام بالاديرة والرهبان ، وقد يكون لهذه العناية ما يسوغها من ناحية تصعيد المواقف وتدرج الحوادث في الجانب الغرامي فقط لكنه لا يقبل التسويغ من ناحية الموضوع الاساسي للرواية وهو تاريخ الاسلام ، فالمؤلف اذن كان مشغولا بالجانب الغرامي اكثر من غيره ، وكان معنيا بالدس الرخيص والعرض المسيخ أكثر من عنايته بتصوير أحداث التاريخ الاسلامي .

٢) <u>بيان دور المسيحية والكنيسة :</u>

يخيل للقارئ أن المؤلف لم يعن بأمر الاديرة والرهبان والنساك من النصارى الا ليبين دور الكنيسة بوجه عام في الاسلام ، ويوضح موقف المسيحيين من المسلمين ابان ظهور دعوتهم ، الا أن التحليل لرواية فتاة غسان يؤكد أن المؤلف لم يفعل شيئا من ذلك الا عند ما أشار اشارة عابرة ــ وفي شيء من الخبث ــ الى قصة الراهب بحيراء مع عم النبي محمد صلى الله عليه وسلم وغيرها من الاشارات الخفية المغرضة ، وذلك لان اشارته الى قصة الراهب بحيراء تفيد أن للكنيسة دورا كبيرا في الاسلام ، وتؤكد مزاعم بعض المستشرقين الذين يرون أن محمدا عليه الصلاة والسلام قد أخذ تعاليمه من الكنيسة والرهبان ولا سيما الراهب بحيراء ، فعناية المؤلف اذن بالكنائس والرهبان لا لبيان دورها وأثرها في الاسلام والمسلمين ــ ان كان لها أثر ــ بل لمجرد الاشادة بالكنيسة والقسس ، ثم للدس والافتراء في بعض الحالات ، اذ أنه يستطيع أن يتخذ من الحديث عن الكنيسة تكأة لبث السموم والافكار المشبوهة .

٣) التصوير الفني لتاريخ الاســـلام :

نخلص من دراستنا لرواية فتاة غسان الى أن تصوير أحداث تاريخ الاســـلام في هذه الرواية لم يرق الى مستوى التصوير الفني الدقيق ، الذى يجمع الى جانب التحرى التاريخي اكتشاف منابع السلوك الدفينة لاولئك الابطال وتصوير مركز العظمة عند كلٍّ منهم تصويرا دقيقا ، بحيث يستحوذ ذلك على مشاعر كل قارئ للرواية ، وحيث يكون المؤلف قد أحيا التاريخ أو بعث الحياة في أوصال الحوادث المندثرة ليتخذ القارئ منها عظة وعبرة أو يتخذ منها مشكاة تضيء له طريقه ولا سيما عند ما تمرض النفوس ، وتفقر الأرواح ، ويحس الانسان أنه في حاجة ماسة الى مراجعة التاريخ للاستمداد والتزود ، وللاقتداء والاحتذاء .

وهذا التصوير الفني المتكامل الذى ننشده ـ ولم نجده في رواية فتاة غسان ـ لا يتحقق الا من الفن الادبي الرفيع الذى يتخذ التاريخ المشرق مادة لتصويره المشرق دون تحوير أو تزوير ، أما الأدب الرخيص فانه لا يحقق شيئا من ذلك لأنه يكتفي باثارة المواطف المريضة كما هو الحال في رواية فتاة غسان لجورجي زيدان حيث ركز فيها على الجانب الغرامي ، واهتم بنشر أفكار النصرانية وتعاليمها عن طريق الاستنطاق تارة ، وطريق التلميح والتصريح تارة أخرى ، كما في تعليله لعدول حماد عن فكرة الانتقام لوالده من الفرس حيث قال : " وفي العدول عن فكرة الانتقام فضيلة مسيحية كما تعلمون لأن ديانتنا توصينا بمحبة عدونا ومباركة لاعنينا (١) " .

٤) مدى صحة الحقائق في رواية فتاة غسان :

يخيل لمعظم قراء رواية فتاة غسان أن الحقائق التاريخية الواردة بها صحيحة كلها ولا شبهة فيها لأنها مستمدة من كتب التاريخ كما يزعم المؤلف ، على حين أن دراستنا لهذه الرواية تؤكد أنها قد جمعت بين الحقائق والاباطيل ، هذا باستثناء القصة الغرامية التي هي خيال محض ، والتي استغرقت أكثر من نصف الرواية ، فلم يبق لذكر الحقائق التاريخية الا حيز ضيق ، وما بقي لم يكن خاصا بها وحدها ، بل

(١) جورجي زيدان ـ رواية فتاة غسان ـ ص ٣١٢

هناك الأباطيل والشبهات التي كادت تغطي على الحقائق .

من تلك الاباطيل وصف المؤلف لخطاب النبي صلى الله عليه وسلم الذي بعثه الى هرقل ملك الروم بأنه مختوم بالطين ، فأي عقل يصدق هذا ؟ بل أي فن يقبل تحويرا كهذا الذي يزعم المؤلف أنه قد أخذه من كتاب الاغاني .

ومن الاباطيل ايضا تصويره لما أسماه النزاع بين خالد بن الوليد وأبي عبيدة بن الجراح ، على حين أن جميع المصادر التاريخية الموثوق بها لم تشر الى مثل تلك الخصومة المذكورة في رواية فتاة غسان لزيدان كما أنها لا تتفق مع ما عرف عن صحابيين جليلين كما سنرى فيما بعد .

ومن الاباطيل أيضا التركيز على ذهاب عم النبي صلى الله عليه وسلم الى دير بحيراء والاشارة الى أنه كان يصحب معه ابن أخيه محمدا صلى الله عليه وسلم ليختلط بالرهبان ويتحدث اليهم ، وبذلك أفادوه كثيرا ، وخاصة الراهب بحيراء هكذا يقول زيدان ولم يقصد بهذا القول الا أن يعلم الشباب آراء المستشرقين الذين يزعمون أن محمدا صلى الله عليه وسلم استفاد من الرهبان وانطبعت في ذهنه معارفهم ثم فاض ذلك على لسانه فيما جاء به من قرآن على حين أن المؤرخين الثقات لا يذكرون غير المقابلة والوصية لعمه لكنهم لا يشيرون الى هذا الفيض من قريب أو بعيد (١) لانه لا وجود له في الاصل ، بل هو دس وافتراء .

ومن الاباطيل أيضا وصف حادثة شق صدره صلى الله عليه وسلم بالغرابة وفي أسلوب ساخر ، اذ أن هذا الوصف والاسلوب الساخر لا يدلان الا على شيء واحد هو أن الكاتب يريد الاشارة الى آراء المستشرقين الذين ينكرون حادثة شق صدر النبي صلى الله عليه وسلم ، ويرون أنها نوبة عصبية أو أنها أسطورة ولا يمكن أن تقبل بحال من الاحوال ، لأن راويها طفل صغير ، وقد أراد زيدان الاشادة بهذه الاراء في رواية فتاة غسان لكنه خشي مغبة التصريح فاكتفى بالتلميح عن طريق ذلك الوصف الذي ذكرناه .

---

(١) راجع تاريخ الكامل لابن الاثير . وتاريخ الطبري لابن جرير الطبري .

ومن الاباطيل أيضا قصة الغرانيق الملفقة ثم محاولـة زيدان التزويـر في القرآن باضافة ما لم يكن منه إليه :

وسنتناول كل هذه الاباطيل وغيرها بالمناقشـة والتمحيص في باب : شبهـات وردها ، ونكتفي هنا بتلك الاشارات ، لأنها تؤكد أن نسبة الاباطيل في هـذه الرواية كبيرة ، وقد غطت على الحقائق القليلة ، فهي اذن كالسم في الدسم ، ومن ثم نستطيع أن نقول ـ ونحن مطمئنون ـ ان هذه الرواية لم تصور الفترة التي تناولهـا الكاتب ، لان ما كتبه لا يمكن أن يعد تصويرا أو تعبيرا فنيا ، انما هو تمزيق وتشويه ودس وافتراء في معظم الحالات وجل المواقف .

٥) العامل الاساسي في تحريك أحداث الرواية :

لقد كان للمفاجآت والمصادفات دور بارز وواضح في تصعيد أحداث هذه الروايـة وتدريج مواقفها ، فالمصادفة فقط هي التي جمعت بين هند وثعلبة عندما أراد أن يلحق بها سوءا ، وكان من الممكن أن يخلق المؤلف جواسـيس وعيونا لثعلبة ، لتراقـب هندا وتصرفاتها ، ولتساعد ثعلبة في حبك المؤامرات ضد هند وحماد ، أما أن تكون حيلة الايقاع بهند وحماد بالصورة التي رسمها المؤلف (١) فذلك أمر يؤكد لنا اعتماده على المصادفات والمفاجآت لا على الحبكة الفنية للقصة .

كما أن المصادفة فقط هي التي جمعت بين اليثربي وبين حماد وسلمان في آبـار بدر ، فالقارئ يحس عندئذ بعدم واقعية هذا الاتفاق العجيب ، وقد أحس المؤلف نفسه بذلك فرأى ضرورة التدارك عن طريق إسناد مهمة التسويغ والتعليل لذلـك الاتفاق العجيب الى اليثربي الذى قال لحماد ـ وكأنه يجيب على تساؤلات القارئ : " ... ... أظنكما تستغربان مجيئي اليكما في الليل على غير موعد بيننا ، وأمـا السبب في ذلك فاني كنت في انتظاركما اليوم عند باب المدينة فلما استبطأتكما جئت

(١) جورجي زيدان ـ رواية فتاة غسـان ـ ص ٥٣

أفتقد كما فعلمت من قرائن مختلفة أنكما سرتما نحو هذه الآبار ٠٠ (١) " ٠

الا أن هذا التحليل لا يقنع القارئ ولا يشفي غليله ، اذ أنه سيظل متسائلا وقائلا : أين تلك القرائن وما هي ؟ لكنه لا يجد اجابة في الرواية ولا ايحاء بها أو ايماء اليها ، حيث يترك المؤلف الامر للمصادفات التي لا تجود في كل لحظة وفي كل موقف ٠٠٠٠

٦) التحليل النفسي لشخصيات الرواية :

الدراسة الادبية تقتضينا أن نبحث عن مدى عناية المؤلف بالتحليل النفسي لشخصيات الرواية ولا سيما رواية فتاة غسان لنبين قدرة الكاتب على استخلاص العبر والدروس ونشير إلى حرصه على الكشف عن منابع السلوك الدفينة وقد لاحظنا ذلك عند تحليلنا لرواية فتاة غسان فاتضح لنا أن مؤلفها لم يعن بالتحليل النفسي الذى يكشف عن المنابع الدفينة للسلوك ، ولكنه كان يعتمد على السرد العابر والتقرير القاطع ، ونأخذ مثلا لذلك حديثه عن جبلة بن الأيهم حيث قال عنه : " طويل القامة أصهب ، ذو سبال وعثنون ، عليه ازار من الديباج المزركش ، يغطي أثوابه ويديه ويجر وراءه ٠٠٠ (٢) " وتلك صفات بصرية حسية ليس من شأنها الكشف عن منابع دفينة ، لكنها تدل على خلال ظاهرة ومعروفة ، فالارتكاز عليها وحدها لا يكفي ، وخاصة عندما يتناول الكاتب مجموعة شخصيات ، كما هو الحال في رواية زيدان التي نحن بصددها حيث أعطى هذه الصفات المادية بعينها لكل من جبلة بن الايهم وعمرو بن العاص وهرقل ملك الروم و كثير غيرهم ، لهذا قلنا انه لم يعن بالتحليل انما كان يكتفي بالسرد للصفات العامة ولا يعنيه ما اذا كانت تلك الصفات متشابهة أولا ، الا في حالات قليلة فانه كان يلجأ الى المناجاة وقد نجح في هذا الجانب وخاصة عندما جعل حمادا يستسلم لمناجاة هند (٣) بعد أن تجمعت حوله الخطوب

---

(١) جورجي زيدان ـ رواية فتاة غسان ـ ص ٢٠٥ ـ ٢٠٦

(٢) جورجي زيدان ـ رواية فتاة غسان ـ ص ٨

(٣) جورجي زيدان ـ رواية فتاة غسان ـ ص ٢٣٢

وتضمضع فكره فجاءت المناجاة في وقت مناسب وكانت لطيفة وممتازة فكرة وصياغة ، فالكاتب بارع في هذا الجانب وفي هذا الموقف .

٧) <u>مدى استكمال حلقات التاريخ المفقودة :</u>

قد يتراءى لبعض القراء أن الجانب الذى تخيله زيدان يعد استكمالا لحلقات التاريخ المفقودة كما يزعم ، لكننا نؤكد — استنادا إلى تحليلنا للرواية — أن الجانب الذى تخيله زيدان لم يكن ولا يمكن أن يكون استكمالا لحلقات التاريخ المفقودة . وذلك لأن التاريخ الذى هو بصدد استكمال جوانبه — كما يزعم — انما هو التاريخ الاسلامي ، ولا علاقة لحب هند وحماد بالاسلام أو تاريخه ، الا ما يدعيه الكاتب من أن حمادا قد ساعد أبا عبيدة في فتح الشام وبيت المقدس ، كما أنه لا علاقة للصلبان أو الاديرة والرهبان بتاريخ الاسلام الا ما يزعمه الكاتب من أن محمدا صلى الله عليه وسلم قد أخذ عن الرهبان الكثير من تعاليمهم ولما لم تكن هذه الجوانب ذات صلة بتاريخ الاسلام كان من الواجب على الكاتب ألا يعتبرها حلقات مفقودة يعطيها جهده ووقته قائلا للناس انه قد استكمل حلقات التاريخ الاسلامي المفقودة ليشوق الشباب لمطالعته ، فالجانب الجدير بالعناية اذن انما هو تصوير الدروس والعبر التي تستخلص استخلاصا ، لأن هذا هو ما أغفله المؤرخون القدامى ، وهو ما أهمله زيدان — ايضا — ظنا منه بأن الاكمال للحلقات المفقودة لا يكون الا عن طريق الحب والغرام .

٨) <u>لغة الرواية ومميزاتها وعيوبها :</u>

لقد كانت لغة رواية فتاة غسان لغة جميلة ومميزة بالسهولة والبعد عن التكلف ، وتمتاز ببعض اللمحات الفنية والعبارات التصويرية ، وخاصة في حديثه عن غوطة دمشق (١) فانه كان حديثا عذبا أنيقا ، ولكن على الرغم من هذا نجد الرواية لم تخل من بعض الهنات التي نظن أنها من الطباعة ، من تلك الهنات قوله : " وسفه احلامنا ضلل

---

(١) جورجي زيدان — رواية فتاة غسان — ص ٣٥٤

آبائنا ٠٠ (١) " والصحيح : ضلل آباءنا ، لانه مفعول به منصوب ، ومنها أيضا قوله " قال الخزاعي : اذكراني شاهدت أبي سفيان ٠٠٠ (٢) " والصحيح : أبا سفيان لانه مفعول به منصوب وعلامة نصبه الالف نيابة عن الفتحة ٠

٩) نهاية الرواية ومدى تطابقها مع مجريات الاحداث :

لقد كانت نهاية رواية فتاة غسان نهاية سعيدة حيث تم اللقاء بين حماد وهند وتم جمع شمل الاسرة المشتتة ، وهذه النهاية لا تتفق مع مجريات أحداث الرواية التي ازدحمت بالمخاطر والمشاكل والحروب والنزاع وغير ذلك من الاحداث التي لا تمت بصلة الى غرام المحبين وتطلعهم الى اللقاء ٠ لهذا قلنا ان نهاية هذه الرواية غير مناسبة لطبيعة أحداث الرواية وغير متناسقة مع مجريات الاحداث بحيث تكون نتيجة طبيعية لها ، لكن المؤلف عدل عن ذلك ، لانه درج على انهاء رواياته كلها أو معظمها بالخاتمة السعيدة التي تريح القارئ بعد جولة طويلة في ميادين الحروب وسفك الدماء ، وبعد وقفات عديدة مع المحبين ومغامراتهم العجيبة ٠٠٠

• • •

---

(١) جورجي زيدان ـ رواية فتاة غسان ـ ص ٢١٧

(٢) جورجي زيدان ـ رواية فتاة غسان ـ ص ٣٥٤

٦ـ دراسة وتحليل لرواية (عذراء قريش)

أ ـ أقسام الرواية
ب ـ زمن الرواية
جـ ـ شخصيات الرواية
د ـ مضمون الرواية
هـ ـ خاتمة التحليل وتشتمل على :

١) بين الحقائق والأباطيل .
٢) شخصيات الرواية بين الحقيقة والخيال .
٣) التحليل النفسي لشخصيات الرواية .
٤) مدى استكمال حلقات التاريخ المفقودة .
٥) تجريح متعمد للصحابة .
٦) تناقض واضح فاضح .
٧) لغة الرواية وسماتها .
٨) نهاية الرواية ومدى تطابقها مع مجريات الاحداث .

تحليل روايـــة

عــــذراء قريـــش

أ ـ أقســام الروايــة :

تتكون رواية عذراء قريش من قسمين كبيرين ، أولهما القسم التاريخي الذي جاء في ثنايا الرواية ، حيث عني الكاتب فيه بالاسباب التي أدت الى مقتل الخليفــة عثمان بن عفان وما استتبع ذلك من حوادث وفتن واضطرابات تتمثل في وقعة صفين ووقعة الجمل وحادثة التحكيم ، ثم اعلان معاوية بن أبي سفيان الخلافة لنفســه وخروج مصر عن خلافة علي بن أبي طالب ، وما استلزم ذلك من أحداث واراقــة دماء . أما القسم الثاني فهو الجانب الغرامي الذي يتمثل في قصة الحب بيــن محمد بن أبي بكر الصديق وأسماء بنت مريم ، تلك الفتاة التي تخيلها زيــدان وسماها عذراء قريش .

ب ـ زمــن الروايــة :

تدور حوادث هذه الرواية في عهد عثمان بن عفان وجزء غير قليل من عهــد علي بن أبي طالب ، حيث صورت الرواية الفتن والحروب والمنازعات السياسيــة وقتذاك ، فهي اذن تمثل فترة زمنية طويلة مليئة بأعمال هامة وأحداث جسيمة .

جـ ـ شخصيات الروايــة :

اشتملت رواية عذراء قريش على مجموعة من الشخصيات الرئيسة والثانوية الــتي لا بد من وجودها لتحريك أحداث الرواية نحو القمة والذروة ، لكننا لا نتحدث هنا عن الشخصيات الثانوية ، لأنها لم تكن ذات دور مركز في الرواية ، بل نتحــدث ـ وفي شيء من الايجاز ـ عن الشخصيات الرئيسة وهــي :

١ — عثمان بن عفان :

هو ابن عفان بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف ، كان ابوه تاجرا واسع التجارة ، وكان يحمل قوافله الى الشام على عادة الاكثرين من تجار بني أمية ثم مات عن ثروة عظيمة وترك ابنه بين الصبا والشباب ، فنشأ الابن سمح النفس طيب الخلق ، وقد لازمته نشأة العيش الخفيض من صباه الى شيخوخته ، وفوق هذا وذاك كان من كتاب الوحي ومن المبشرين بالجنة ، وهو ثالث الخلفاء الراشدين وقد قتل مظلوما فاندلعت بعده نيران الفتنة التي لم يخمد أوارها الى يومنا . مبالغة

٢ — علي بن أبي طالب :

هو ابن عم الرسول صلوات الله عليه وسلامه ، وهو رابع الخلفاء الراشدين ، وهو المتهم زورا بالتآمر على قتل الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه ، وكان هذا الاتهام سببا من أسباب الفتنة التي اشتعل أوارها فركز عليها مؤلفو الروايات بغية التصوير والابراز ومنهم جورجي زيدان .

٣ — عائشة بنت أبي بكر :

بنت أول الخلفاء الراشدين أبي بكر الصديق ، وزوجة النبي صلى الله عليه وسلم ، تكنى بأم المؤمنين ، وعلى الرغم من هذا فقد تَقَوَّل عليها المتقولون ، والتف حولها المتآمرون على علي بن أبي طالب ، فمزجوا بها في مخاطر عديدة ومواقف مريبة ، وبالغ في تصوير تلك المواقف مؤلفو الروايات وكتب القصص والاسمار ولا سيما مؤلف رواية عذراء قريش . مبالغة

٤ — نائلة بنت الفرافصة :

هي زوجة الخليفة عثمان ، ولم يذكر لها المؤرخون الثقات دورا حيال الفتنة التي اندلعت نيرانها ، أو تجاه الخطر الذي دهم زوجها في داره ، الا ما

يروى من أنها قد ارتمت على زوجها عند ما اعتدى عليه المعتدون ، فضربت في أصابعها بالسيف ، ولكن مؤلف رواية عذراء قريش أضاف اليها بطولات جمة وأمورا غريبة ، حيث جعلها تقوم بالاتصالات والمشاورات من أجل رأب الصدع .

٥ـ محمد بن أبي بكر :

ابن أول الخلفاء الراشدين أبي بكر الصديق ، تربى في حجر علي بن أبي طالب الذي تزوج أمه أسماء بنت عميس ، ومحمد كان من المتهمين بالتآمر ضد الخليفة عثمان بن عفان ، وقد ركز زيدان على هذا الاتهام ليبرزه للشباب كأنما هو حقيقة ثابتة ، أو كأنه يريد أن يستخلص من ذلك كله درسا وعظة وعبرة .

٦ـ عذراء قريش :

هي أسماء بنت مريم ، وهي شخصية تخيلها زيدان ليستكمل بها أو بوساطتها حلقات التاريخ المفقودة كما يزعم ، ولهذا جعلها بطلة تقوم بأدوار عجيبة وتأتي بأشياء خارقة لعادات العرب .

٧ـ مروان بن الحكم :

هو مروان بن الحكم بن أبي الحكم بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس ، اسلم والده عام الفتح ، ونفاه رسول الله صلى الله عليه وسلم الى الطائف لانه كان يتجسس عليه ولما توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم كلم عثمان أبا بكر في رده لانه عمه فلم يفعل ولما توفي أبو بكر وولي عمر كلمه في رده فلم يفعل ، فلما ولي عثمان رده وقال : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وعده أن يرده الى المدينة ، فكان ذلك مما أنكر عليه الناس (١) وكان مروان قصيرا أحمر أوقص

---

(١) ابن الاثير ـ الكامل ـ الجزء الرابع ـ ص ١٩٣

ويكنى أبا الحكم وأبا عبد الملك ، وقد أعتق في يوم واحد مائة رقبة ، ومن ثـم جاءت صورته غريبة في رواية زيدان .

٨_ معاوية بن أبي سفيان :

أول ملوك بني أمية ، وقد اشترك في الفتنة التي اندلعت عقب مقتل عثمان بن عفان ، ويقال انه قد أخذ قميص عثمان مع أصابع نائلة زوجة عثمان وعلقها في الشام ليستثير بها الناس ضد علي بن أبي طالب ، وقد ركز مؤلف رواية عذراء قريش على هذه الجوانب التي ليس من حقه أن يتناولها .

٩_ عمرو بن العاص وأبو موسى الاشعري :

هما الحكمان في الخلاف بين علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان .

د _ مضمون الروايـة :

بدأ الكاتب روايته بوصف لقباء ، وقد تجلى في ذلك الوصف _ على رغم ايجازه _ جانب من الجمال ولمحة من لمحاته ، وليس مبعث هذا الجمال اعتماد الكاتب على الألفاظ ذات الدلالات الإيحائية المشعة أو استعانته بالاستعارات والتشبيهات، بل كان مبعث ذلك الجمال هو النغم الموسيقي العذب المنبعث من رنين بعض الالفاظ المتجانسة والمتجاورة ، هذا الى جانب يسارة تلك الالفاظ وسهولتها .

انتقل المؤلف بعد ذلك الوصف الموجز الى الحديث عن امرأة كانت على فراش الموت ، وهي والدة الفتاة عذراء قريش ، وقد أبرز المؤلف عناية هذه الفتاة بأمها الى جانب استخفافها بوالدها المزعوم ، الذى لم يكن يهتم بأمر تلك المريضة بل كان يتمنى موتها ليتمكن من تحقيق مآربه . كما تحدث الكاتب عن احتقار الفتاة للشاب الذى كان يرافق والدها وهو مروان بن الحكم الذى اتفق مع والدها سرا على الزواج بها على الرغم من رفضها ورفض والدتها . ثم انتقل بعد ذلك الى بيان أصل والدة الفتاة مشيرا الى أنها في الأصل سبية من سبايا مصر عند الفتح الاسلامي

ومعها ابنتها أسماء التي كانت تبلغ من العمر سنتين (١) وقتذاك وقد تزوج يزيد الأموى تلك السبية وانتقل بها من مصر الى الشام ومعها بنتها التي تربت في حجر يزيد دون أن تعرف أباها الحقيقي على الرغم من أن الناس كل الناس يدركون اختلافها عن والدها المزعوم خلقا وخلقا . ومن ثم لجأ المؤلف الى تصوير شخصية أسماء وشخصية يزيد ثم شخصية مروان . لكنه لم يسترسل في هذا التصوير . بل عاد سريعا للحديث عن السر الذى ذهب الى القبر مع والدة الفتاة التي ماتت في ظروف عجيبة ودون أن تبوح بسرها لاحد لانها اشترطت حضور الامام علي .

وقد ركز المؤلف على هذا الشرط . لانه سيجعل الفتاة (عذراء قريش) متمزقة مشردة ومتطلعة دائما الى معرفة ذلك السر الذى قد يكشف جانب منه عن أمر أبيها الحقيقي . وليكون ذلك سببا في جمل الحدث الروائي ناميا . وتلك وسيلة من وسائل التشويق والتنمية عند زيدان . أسرار وألغاز . وخرافات وأساطير . ثم شبهات وأباطيل .

وتتمثل تلك التنمية في سرد الفتاة لاحداث الثورة والتمرد على الخليفة عثمان بن عفان ذاكرة تمليلات تمثل وجهة نظر المؤلف . أبرزها التعليل الذى يقول ان سبب الفتنة هو انصياع عثمان الى شاب من أهل قرابته (مروان بن الحكم) يسوقه حيث شاء (٢) وتتردد هذه التعليلات وشيلاتها في ثنايا الرواية في مواقف عديدة .حيث انصرف المؤلف الى الحديث عن والدة الفتاة التي ماتت فجأة فمات معها سرها اذ لم يحضر الامام علي قبل وفاتها . بل حضر محمد بن أبي بكر بدلا عنه .

ومن هنا يبدأ الحب بين محمد وبين أسماء ـ كما يزعم المؤلف ـ وبهذا أصبح محمد منافسا لمروان بن الحكم . كما أصبح حاقدا على الخليفة عثمان بن عفان حسب ما جاء في رواية عذراء قريش ومن هنا يتضح لنا سر متابعة زيدان لكل المؤامرات التي

---

(١) جورجي زيدان ـ رواية عذراء قريش ـ ص ٤٠

(٢) جورجي زيدان ـ رواية عذراء قريش ـ ص ٥٢

دبرها مروان في سبيل تحقيق مآربه من الفتاة اليتيمة ذات الجمال البارع ، وقد استغرق منه الحديث عن جمالها زهاء عشر صفحات مليئة بالمواقف الغرامية المسفة ، ولكي يدعو القارئ الى متابعة تلك المواقف المسفة أتى بسر عجيب هو اكتشاف وشم في شكل صليب على زند أسماء ، ثم قلادة تشبه قلادة المسيحيين ، وازداد السر تغليفا بعد اجابة الفتاة بأنها لا تعرف أين كان ذلك الوشم ومتى ؟ ولا تعرف من الذى ألبسها القلادة التي تشبه قلادة المسيحيين ومتى ؟ ولماذا ؟

اكتشف ذلك الصليب وتلك القلادة في دار الخلافة حيث تركت الفتاة هناك مصونة مرعية ، ولذا شاهدت مقتل الخليفة عثمان والقرآن بين يديه وأبناء الصحابة من حول داره يحاولون حمايته والدفاع عنه ، لكنهم لم يفلحوا ولم ينجحوا في ذلك ، فبقيت أسماء قلقة مضطربة من جراء ذلك الوضع المتردى الذى يشكل خطورة على الامة بأسرها وليس على دار الخلافة وحدها .

وبينما أسماء في غمرة الحيرة وفي ذلك الموقف الحرج اذا بخيال زيدان يجعل عرا الصداقة والمحبة بين أسماء ومحمد بن أبي بكر تتوثق وتقوى على الرغم من الاضطرابات الاجتماعية والازمات النفسية ، حيث فكر محمد في اقامة بيت لأسماء بجوار بيت علي وهذا ما أراده زيدان لتتمكن أسماء من الاطلاع على أحوال علي بعد مقتل عثمان وقد رأت بالفعل انقساما في الصفوف عجيبا ، واشهارا للسيوف غريبا ، المسلم يشهر سيفه في وجه أخيه المسلم ، وانقسمت الامة الى شيع وأحزاب : مجموعة تؤيد عليا وتلح عليه كي يقبل الخلافة وهم سنده وعونه بعد الله ، ومجموعة ناقمة على علي رافضة البيعة له ، وقد وجدت هذه المجموعة مناصرة من السيدة عائشة أم المؤمنين بنت أبي بكر الصديق وأخت محمد الذى أحب أسماء ، أسماء التي أبى الكاتب الا أن يجعلها دمية بين يديه ، يحركها أنى شاء ووقتما شاء ، لذا رأيناها في الرواية متنقلة بين مكة والمدينة لتروى تفاصيل ما يحدث هنا وهناك . بعد حوار طويل بينها وبين محمد في التصدع الذى لحق بالكيان الاسلامي أو بالمجتمع المسلم الذى تربى على يد الرسول عليه الصلاة والسلام .

وعندئذ يطلق المؤلف عنان قلمه الجامح فينفث سمومه وتجريحه للصحابة ، حيث يجعل اسماء (١) زوج علي تقول لابنها محمد بن أبي بكر بعد أن أفصح عن خوفه من عدم مبايعة طلحة والزبير المبايعة التي تدل على الرضاء والقبول : " .. لا تخف من ذلك فقد تم الامر لابي الحسن وحوله نخبة من الصحابة يشدون أزره ، فاذا أحسنوا الرأي في مشورته استتام له الامر باذن الله ، فقال محمد : لا يغرنك كثرة العدد وفيهم من يضمر غير ما يظهر ... (٢) " ولم يكتف الكاتب بهذا بل بالغ في تسيير الاحداث وفق ارادته ، فجعل الحسن بن علي بن أبي طالب ومحمد بن أبي بكر يتنافسان في أسماء بنت مريم ، ومن ثم تدفع الغيرة الحبيب الاول محمد بن أبي بكر الى التفكير في ابعاد حبيبته عن جو المدينة حيث يقيم الحسن ، ووالده أمير المؤمنين فأرسلها الى مكة لتقيم مع اخته عائشة ، ثم جاء خيال زيدان ليوجد منافسا ثالثا يجري وراء أسماء ، ذلك المنافس هو التاجر البصري بمكة ، الذي حاول استرضاء أسماء بشتى الوسائل ، بل فكر في اختطافها والذهاب بها الى البصرة ، وقد تم له ما أراد ، وفي الطريق الى البصرة أفلتت منه ونجت بأعجوبة فلجأت الى دير من الاديرة حيث تعرف عليها رئيس الدير بعد حوار قصير فسألها عن والدتها التي ماتت فانفجرت باكية ، وحاول رئيس الدير تخفيف حزنها وتفريج كربها ، لكنه دون أن يقصد أوقعها في حرج ومأزق شديد ، حيث أخبرها بأن الرجل الذي كان مع أمها ليس والدها الحقيقي ، والتزم بأن يساعدها في التعرف على أبيها الحقيقي ، فتركته وتوجهت للاشتراك في موقعة الجمل ، وهناك تمكنت من مقابلة علي وحبيبها محمد بن أبي بكر لكنها كانت في حيرة بين البقاء مع حبيبها أو الرجوع الى ذلك الدير الذي تعرفت فيه على قسيس التزم بمساعدتها في معرفة السر الذي لم تبح به أمها ، وأكد لها أنها ابنة أحد عظماء المسلمين في المدينة المنورة فتاقت نفسها الى التعرف على هذه الحقائق المجهولة ، وألحت

---

(١) اسماء المذكورة هنا هي أسماء بنت عميس والدة محمد بن أبي بكر وزوجة علي بن أبي طالب بعد وفاة أبي بكر .

(٢) جورجي زيدان ـ عذراء قريش ـ ص ١٥٠

في أن تعرف اسم أبيها ، لهذا آثرت الرجوع الى الدير وفضلته على البقاء مع حبيبها محمد بن أبي بكر ، ولما وصلت الى الدير أخبرها القسيس بأن اسم أبيها لا يعرفه أحد غير القسيس مَرْقُس المقيم في كنيسة يوحنا بدمشق ، وقد جاءت هذه الاحالة الى دمشق موافقة لهوى زيدان لانه يريد أن يذهب بأسماء الى هناك كي تطلع على أخبار الفتن بين معاوية وعلي ، فذهبت وحاولت الدفاع عن علي ، وأدى ذلك الى سجنها ، وبعد خروجها من السجن اتصلت بعلي الذي جاء ليحارب معاوية في موقعة صفين فكشفت له عن حيلة عمرو بن العاص في التحكيم ثم قررت بعد ذلك السفر الى حبيبها محمد بن أبي بكر الذي عين واليا على مصر من قبل علي بن أبي طالب ، لانها فقدت الامل في معرفة اسم أبيها ، اذ أن القسيس مَرْقُس مات فمات معه السر ولما وصلت الى مصر شاهدت هزيمة حبيبها أمام جيش عمرو بن العاص ، ورأت احراق حبيبها في جوف جثة حمار ، فألقت بنفسها في ذلك اللهب الذي كان يحرق حبيبها ثم حاول خادمها انقاذها فانتشلها من النار لكنها ماتت على الرغم من ذلك ، فجمع الخادم رفات الحبيبين ووضعه في قبر واحد .

هـ ـ <u>خاتمة التحليل ـ لرواية عذراء قريش !</u>

١) <u>بين الحقائق والاباطيل :</u>

عندما نوازن بين نسبة الحقائق الواردة في هذه الرواية ونسبة الاباطيل يتضح لنا أن نسبة الاباطيل كبيرة وخطيرة بالقياس الى الحقائق التي جاءت في ثناياها وبالنظر الى الشخصية التي تنسب اليها ، ومن تلك الاباطيل ما يلي :

أ ـ عقد علاقة حب وغرام مسف ساقط بين محمد بن أبي بكر الصديق وبين الفتاة المسماة عذراء قريش ، وهي أسماء بنت مريم التي هام بها محمد بن أبي بكر ـ حسب زعم زيدان ـ في لحظة وفاة أمها ، كما هامت به وانجذبت اليه في تلك اللحظة ، وذاك أمر لا يقبله عقل ولا يقره عرف أو دين ، بل لا يتفق مع جميع

الروايات التاريخية التي تحدثت عن تلك الفترة ، لكنه قد يتفق مع خيال زيدان الجامح وتصويره المغرض .

ب — اتهام محمد بن أبي بكر بالحقد على الخليفة عثمان بن عفان استنادا على الروايات التاريخية التي تشير الى موقفه من عثمان بن عفان ابان ثورة الثوار من البصرة والكوفة ومصر على عثمان ، وهذه التهمة غير مقبولة لان اختلاف ابن أبي بكر مع الخليفة عثمان في الرأي لا يفسر بدافع الحقد والضغينة ، ولا سيما اذا لم توجد المرجحات القاطعة التي تقوي جانب الحقد وتؤكده دون سواه ، أما اذا وجدت المواقف التي تشير الى اقلاع ابن أبي بكر عن خطة الثوار وابتعاده عن مؤامرتهم فلا يحق لكاتب مهما كانت منزلته العلمية والخلقية أن يتهمه بالحقد والكراهية لعثمان ، اذ أن ابن أبي بكر قد ارتدع وانصاع لاوامر الخليفة عثمان ، وذلك عند ما دخل على الخليفة فزجره وذكره بأن والده ما كان يجرؤ على مثل هذه الفعلة ، فكفتوا عما كان قاد ما من أجله بتحريض من الثوار ، فمن أين لزيدان اذن دليل الاتهام بالحقد ، نعتقد انه لا دليل لديه ، ولكنه كان يعتمد على التخرص أو الرجم بالظن " وكل إناء بالذى فيه ينضح " .

جـ — ارجاع ذلك الحقد المزعوم الى رغبة محمد بن أبي بكر في الظفر بفتاة ينافسه فيها مروان بن الحكم ابن عم الخليفة والمقرب لديه دون سواه ، وهذا تعليل مغرض مرفوض ، ورفضه لا يحتاج الى برهان أو دليل أقوى من الاشارة الى أن فكرة الحب بين محمد بن أبي بكر وبين الفتاة المزعومة فكرة لا أساس لها ولا وجود لها في دنيا الواقع ، بل هي من نسج خيال زيدان ، وما قام على الخيال فهو خيال ، بل انه محض اختلاق وافتراء ، وما قام على الخلق والافتراء فهو افتراء أيضا ، ولا يصح للكاتب أن يفسر التاريخ حسب هواه ، أو أن يتخيل أحداثا لم تقع بقصد الدس والتشويه .

د — ارجاع الثورة والتمرد على الخليفة عثمان بن عفان الى انصياعه الى شاب من ذوى قرابته يسوقه حيث شاء ، وعلى فرض أن هذا الانصياع كان سببا من أسباب

الفتنة والتمرد مرة ليس بالسبب المباشر او الوحيد حتى يركز عليه كاتب مسيحي أو غيره ، علما بأن هذا الانصياع المذكور لم يكن من قبيل الامور المسلم بها ، لانها واردة عند بعض المؤرخين وغير واردة عند البعض الاخر ، ولانها مرفوضة كليا عند الذين دافعوا عن عثمان وفندوا حجج خصومه ودحضوا افتراءاتهم ، ثم لاننا نعتقد أن الباعث على هذا التعليل انما هو الرغبة في التشويه للصورة المشرقة التي انطبعت في اذهان الشباب عن تلك الفترة الخطيرة ذلك التشويه الذي يتمثل في وصف الخليفة عثمان بن عفان بالضعف والاستسلام للشبان الطائشين ليصرفوا أمور الحكم حسب هواهم ورغبتهم ، ذاك هو زعمهم ، بينما الدراسة لتاريخ عثمان وأعماله وملابسات عصره تشير الى أنه لا يمكن أن يقال عن شخصية عثمان " انها شخصية ضعيفة بكلمة متيقنة لا تردد فيها ".

ولقد يكون من السهل أن يقال ذلك متابعة لجمهرة المؤرخين الذين درجوا على تعليل الحوادث الجلى في عصر عثمان بضعفه واستسلامه لمن حوله وعلى رأسهم ابن عمه مروان بن الحكم ، فان السهولة هنا توحي الى المؤرخ أن يختار سبيلها ويعفي نفسه من النظر الى طريق غيرها قد يعترضه فيها اعتراض حيث لا اعتراض على سالك السبيل السهل الذلول . لكن القول بضعف عثمان صعب على من يعلم أن السماحة نفسها قوة لا يضطلع بها طبع ضعيف ، وصعب على من ينظر في أعماله جميعا ولا يكتفي منها بما يبدو فيها الضعف والتردد ، ولم يكن عهد من عهود سيرته يخلو من عمل يدل على قوة نفس ومناعة خلق وثبات لا يتزعزع أمام الهول والخطر وحسبنا من عهود سيرته ما أحاط بأطرافها من أول اسلامه الى ختام حياته . فقد كان اسلامه تحديا قويا لخاصة أهله ثبت عليه مع بقاء العلية من قومه بين عدو للاسلام أو مسالم له على دخل وسوء نية ، وقد تلقى في أول خلافته صدمات لم يتعرض الفاروق (لمثلها) في جميع أيامه ، ومنها هزيمة الجيوش وفناء بعضها بين عوارض الاجواء القصية وانقضاض الروم والخزر على اطراف الدولة الاسلامية

الحديثة ، وبعض مواقفه في تلك الايام لا يمكن الرجوع به الى رأي مروان بن الحكم كوصاياه في اعداد الحملات البحرية من المتطوعين بغير اكراه على أحد من المجندين وليس من السهل أن يوصف بالضعف رجل يحيط به خطر الموت من كل جانب ولا يذعن لمن توعدوه به جهرة وردده على مسمعه ليل نهار ، كلا لا يقول (قائل) عن رجل كهذا انه ضعيف ، ثم يستريح الى قولته الا أن يبتغي الراحة ولا يبتغي سواها (١) وسنعود الى دحض هذه الاباطيل بالتوسع والتفصيل في باب : شبهات وردها ان شاء الله .

٢) شخصيات الرواية بين الحقيقة والخيال :

جميع شخصيات رواية عذراء قريش شخصيات واقعية وذات أبعاد حقيقية الا شخصية أسماء وأمها ووالدها المزعوم ، فانها شخصيات خيالية ، أما شخصية عثمان ومروان وغيرهما من بقية شخصيات الرواية فقد ورد ذكرها في جميع الكتب التاريخية التي رجع اليها زيدان ، ولكن كيف كان تصوير المؤلف للشخصيات الحقيقية والخيالية ؟ أكان معنيا بتحليلها وابراز ما يستحق الابراز والتصوير من سلوكها وتصرفاتها ؟ أم شغل بأمر آخر غير هذا أو ذاك ؟ وهذا ما سنتحدث عنه في المباحث التالية .

٣) التحليل النفسي لشخصيات الرواية :

الدراسة لرواية عذراء قريش تؤكد أن المؤلف لم يهتم بالتحليل النفسي أو التصوير الفني لشخصيات الرواية ، ولنأخذ مثلا لذلك حديثه عن علي بن أبي طالب ، فالقارئ لحديث زيدان عن كل موقف من مواقف الامام علي بن أبي طالب يدرك أن ذلك الحديث لا يدل على شخصية عرفت بمواقفها العظيمة وحنكتها وتجاربها المتعددة ، بل لا يشير ذلك الحديث الى الموهبة الفذة التي صقلتها بها جامعة الرسول عليه الصلاة والسلام ، ولكنه يدل على عدم توفيق الكاتب في تحليل الشخصيات وتصويرها تصويرا

---

(١) عباس محمود العقاد ـ عبقرية عثمان ـ ص ٥٧٤ من مجموعة العبقريات الاسلامية منشورات دار الاداب ـ بيروت .

فنيا ، فالقارئ لذلك الحديث يحس بتمزيق المؤلف لشخصية الامام علي ، اذ أنه يجعل عليا يتناقض مع نفسه من موقف لآخر ، حيث يجعله مرة جبانا يرفض الخلافة بعد مقتل عثمان خشية أن يثور المسلمون عليه ، ويجعله مرة ثانية متهورا يندفع في عزل العمال القدامى ويعين غيرهم (١) ويجعله في موقف ثالث عنيدا صلبا شجاعا مهيبا ، بينما تراه في موقعة صفين يرضخ ويذعن والامر أعظم من أمر العمال وأكثر أهمية ٠

هذا ولم يكن عرضه لشخصية الخليفة عثمان بن عفان بأحسن من عرضه وتصويره لشخصية الامام علي ، ذلك لانه طمس معالم شخصية عثمان أيضا عند ما صورها تصويرا ضعيفا تافها معتمدا في ذلك التصوير على المزاعم التي ادعاها اعداء الخليفة عثمان قائلا انه قد أخذها من كتب التاريخ ، على حين أن الكتب التاريخية لم تشر الى تلك المزاعم بل اشتملت على الكثير من الصفحات المشرقة في عهد الخليفة عثمان ابن عفان ، لكن زيدان لا يريد الالتفات الى تلك الصفحات المشرقة ، لأنه لا يستبين اشراقها ولا يستسيغ ابرازها ، كما لا يتذوق ما فيها ، ومن ثم كان يعمل على طمس معالمها وينكر اشراقها ، ولا غرابة في هذا على أمثاله ، وقديما قيل :

قد تنكر العين ضوء الشمس من رمد ... وينكر الفم طعم الماء من سقم

أما شخصية عذراء قريش فقد جاءت ممزقة أيضا ، اذ أننا لا نكاد ندرك العاطفة التي كانت تقودها ، لان الكاتب أعطاها مجموعة صفات متناقضة وجعلها تمر بمواقف متباينة فبدت ممزقة مشردة ، مضطربة حائرة ، حيث كنا نراها تندفع تارة اندفاع فتاة تيمها الحب وتبلها الغرام ، وتتراجع تارة فتنسى حبها وهيامها ، وتبدو هادئة ساكنة ، ولكن سرعان ما تتحرك في اتجاه مغاير ، فتتحمس للدفاع عن الخليفة المقتول ظلما " عثمان بن عفان " وعن الامام علي بن أبي طالب المتهم زورا

---

(١) جورجي زيدان _ عذراء قريش _ ص ١٤٩ _ ١٥٩

بالتآمر ضد عثمان بن عفان ، ومن ثم نجد عذراء قريش ترضى تارة عن مواقف محمد بن أبي بكر واخته عائشة أم المؤمنين ، وتتشكك تارة فتثور عليهما وتلوذ بالفرار ، وهكذا تتقسمها التصرفات والمواقف المتناقضة التي تؤكد لنا عدم القدرة على تحليل شخصية عذراء قريش (اسماء بنت مريم) .

وفي رأينا أن السر في تمزيق شخصية عذراء قريش راجع الى محاولة الكاتب اقناع القراء بشخصية خيالية لا وجود لها في التاريخ ، الا أنه لم يوفق في الاقناع والارضاء عن طريق التصوير الفني البديع ، بل كان ذلك عن طريق السرد واضفاء صفات متعددة النواحي ، على حين أنه لا يمتد في مجال الفن الادبي الرفيع بتعدد الصفات والنواحي ، بل العبرة بتناسقها في ذات واحدة ، ويبدو أن ذاك كان هو الاتجاه العام لزيدان في تناول الشخصيات ، كما رأينا في حديثه عن عثمان بن عفان ، وعلي بن أبي طالب ثم عذراء قريش ، أما محمد بن أبي بكر فقد جعله شابا مشغولا بالحب والغرام وسلبه معظم الصفات الحميدة التي تتوفر عادة عند أبناء تلك الحقبة التاريخية الممتازة ولا سيما أبناء الخلفاء الراشدين ، وقد بالغ مؤلف رواية عذراء قريش في تصوير مواقف محمد بن أبي بكر الغرامية ـ كما يزعم ـ وذلك تشويقا للمراهقين الذين يكتب لهم زيدان وتشويها للتاريخ الاسلامي الذي ما فتىء الاعداء يعملون على هدمه وتقويض دعائمه .

ومن ثم يمكننا أن نقرر ـ ونحن مطمئنون ـ أن زيدان لم يحلل الشخصيات ولم يعطها الصفات المتناسقة في ذات واحدة ، انما كان يعنى بالسرد لا التصوير ، ويهمل الانتقاء او الاصطفاء الذى يؤكد براعة الاديب ويبين صدقه واخلاصه .

٤) مدى استكمال حلقات التاريخ المفقودة :

يزعم زيدان أن هدفه من رواياته التاريخية انما هو استكمال حلقات التاريخ المفقودة ، أو العناية بتصوير ما أغفله المؤرخون تصويرا غنيا ، واذا صح أن هناك جوانب قد أغفلها المؤرخون القدامى والمحدثون بالنسبة لما قبل بعثة نبينا محمد

عليه الصلاة والسلام ، وبالنسبة لمعارك المسلمين في سبيل اعلاء كلمة الله ابان نشر الدعوة في المرحلة الاولى فما الذى أغفله المؤرخون القدامى والمحدثون بالنسبة لعهد عثمان بن عفان رضي الله عنه حتى يكمله زيدان أو غيره ؟

النظرة السريعة في قسم التاريخ بالمكتبة العربية تؤكد لنا أن ما كتب عن عهد عثمان وعن الفتن والثورات التي حدثت فيه يكاد يعدل ما كتب عن التاريخ الاسلامي كله ، بل ان الذى يرجع الى كتاب واحد فقط من الكتب التاريخية القديمة ، وليكن كتاب الطبرى مثلا يجد فيه حديثا وافيا عن الفتنة في عهد عثمان ، وذلك لان الطبرى لم يترك رواية من الروايات التي قيلت حول الفتنة ، وهي في مجموعها متضاربة ومتعارضة أشد التعارض ، لانها تأتي مرة في جانب عثمان وأتباعه لتؤيدهم تأييدا يوحي بالتعصب الشديد ، وتأتي مرة على العكس تماما فتعارضهم وتتهمهم اتهاما يوحي بالتحامل الشديد ومرة تكون الروايات بين هذا وذاك ، ومن ثم نستطيع أن نقول : لم تبق حلقة مفقودة من ناحية التاريخ بحيث يستكملها زيدان ، ولكن يبقى شيء أهم من الحلقات التاريخية المفقودة وانفع للشباب الذى نريد أن نشوقه الى قراءة التاريخ ، ذلك هو عملية الانتخاب والاصطفاء لتلك الاخبار المتضاربة ثم تدوينها بروح اسلامية لا تعرف التزوير والتشويه ، ولا تجنح الى التجريح والتشكيك ، ولا تميل الى التعصب والمبالغة في المدح والثناء ، ولا مانع من أن يكون هذا التدوين والتسجيل عن طريق أى لون من الالوان الادبية ، القائمة على الانتخاب والاصطفاء أيضا مع الابتعاد عن التزوير والتجريح ، لانهما لا يخدمان غرضا ولا يشوقان شابا الى قراءة تاريخنا الذى نريد أن يتشرب به .

وما جاء في رواية عذراء قريش لجورجي زيدان لم يكن من هذا القبيل ، ولم يعتمد على التصوير الادبي المرتكز على الخيال المعتدل ، بحيث يصف انتهاك الجناة لحرمة دار الخليفة عثمان بن عفان ، ويصور المؤامرة كلها في جمل تقطر دما وعبارات تفيض حزنا الى جانب ايحائها للقارئ بالدروس والعبر التي يمكن استخلاصها من المواقف السلبية والايجابية في تلك الفترة ، ولهذا نقول انرواية عذراء قريش لم تكمل حلقة

من الملابسات أيا كان نوعها ، وكيفما كان لونها .

٥) تجريح الصحابة :

بالغ زيدان في تصوير مواقف صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا سيما موقف طلحة والزبير من علي بن أبي طالب حيث أظهرهما بمظهر الحاقد الذى يظهر غير ما يضمر بل ذهب الى أن طلحة والزبير قد دبرا المكائد وأشعلا نار الثورة ضد علي بن أبي طالب بعد أن بايعاه ، ومن ثم وجد زيدان الفرصة مواتية لتكبير الصورة وتضخيم الحادث بنية النيل من الصحابة الاجلاء ، والذى ساعد زيدان على هذا الموقف المخزى من الصحابة الاجلاء هو ورود أخبار كثيرة متضاربة عن هذه الفتنة فأخذ منها ما يوافق هواه ، ويحقق هدفه ، ويتمثل هذا التجريح للصحابة في أماكن متفرقة من الرواية ، وفي صور مختلفة ، منها ما أجراه المؤلف على لسان نائلة زوجة الخليفة عثمان في حوار بينها وبين شخصية خيالية هي أسماء بنت مريم (عذراء قريش) .

وقد جاء في ذلك الحوار ما يلي : " قالت نائلة بصوت مختنق أخافني مجيء هؤلاء ، فإنهم لا يأتون الا لتوبيخ وتهديد ، قالت ومن هم ؟ قالت: علي بن أبي طالب والزبير بن العوام وطلحة بن عبيد الله وهم أوجه الصحابة ، ولهم مطمع في الخلافة كل منهما يطلبها لنفسه وما زلنا منذ تولاها أمير المؤمنين لا يهدأ لنا بال مما يتهمونه به من الاعمال .... (١) " .

ومن صور التجريح أيضا الزعم بأن محمد بن أبي بكر لم يكف عن ايذاء الخليفة عثمان بن عفان الا استجابة لرغبة مالكة فؤاده وسالبة لبه (اسماء بنت مريم) والغريب أن هذه الفكرة لم تأت في ثنايا حوار أو نقاش ولم تجر على لسان شخصية من الشخصيات بل جاءت على لسان زيدان وكأنها فكرة حقيقية وقضية مسلم بها فأثبتها هكذا : " فلما رأت أسماء ما دار بينهما خافت أن يفتك محمد بالخليفة فيكون ذلك نقطة سوداء في تاريخه ، فدنت منه ووقفت بحيث يراها وأشارت اليه

---

(١) جورجي زيدان ـ رواية عذراء قريش ـ ص ٥٢ ـ ٥٣

أن يكف عما هو فيه ، وان يتبعها حالا ، فلما رآها محمد بن أبي بكر ترك لحية عثمان وخرج يسأل أسماء عما تريده فانفردت به جانبا وقالت : أو أنت أيضا على عثمان ٠٠٠ (١) " ويأبى زيدان الا أن يجعل ابن أبي بكر طرفا في الجريمة عند تنفيذها حيث قال ان أسماء قد هجمت على الرجل الذى ضرب عثمان بحديدة على رأسه ، هجمت عليه بخنجرها تريد قتله لولا أن محمد بن أبي بكر أمسك بها ، ولم تمض لحظات قليلة حتى قتل عثمان وفر قاتلوه ، ومعنى هذا أن محمد بن أبي بكر مشترك مع القاتل بدليل الحماية التي جاءت في زعم زيدان (٢) ثم يؤكد هذا الزعم والادعاء المغرض بما أجراه على لسان أسماء بنت مريم عند عتابها لمحمد ابن أبي بكر قائلة له : ٠٠٠٠ ٠٠٠ أنكم ظلمتموه يا محمد ، ولو استطعت انقاذه من أيديكم لفعلت تبا لمروان ، إنه أصل هذا البلاء ٠٠٠٠ (٣) هكذا يلصق زيدان التهم بابن أبي بكر الصديق ، بل يعمل جاهدا على طمس معالم شخصيته وتشويه مواقفه فيجرى حوارا غراميا مسفا (٣) بين ابن أبي بكر وبين أسماء بعيد موت الخليفة عثمان مباشرة دون مراعاة لحرمة الصحابة وجلال قدرهم ، ودون تقدير لعقل القارئ الذى لا يقبل حوارا غراميا في لحظة الموت الذى هو هادم[٤] اللذات، هازم والذى لا يترك مجالا للتفكير في الحب والغرام ، اذ أنه عندما يحل بساحة دار من الدور لا بد أن يذهل كل من كان هناك ، ولا سيما اذا كان الموت بطريقة تقشعر لها الابدان ، وينفطر منها الوجدان ، ولكن المؤلف لم يلتفت الى هذه المعقولية وعدمها بل كان مشغولا بأمر التقليل من شخصية ابن أبي بكر ، لذلك تراه يجرى على لسانه عبارات غريبة مريبة عند رده على اتهامات أسماء له قائلا :
" دعينا من الظلم والعدل ، فقد قتل عثمان ولا خيرة الا في الواقع ولم يعد بقاؤك في داره ممكنا والناس قد دخلوها وهموا بنهبها ، فأفصحي الان عن رأيك ٠٠٠٠

---

(١) جورجي زيدان — رواية عذراء قريش — ص ٩٠
(٢) جورجي زيدان — رواية عذراء قريش — ص ٩٠
(٣) جورجي زيدان — رواية عذراء قريش — ص ٩١
(٤) روى الترمذى وابن ماجه الحديث " أكثروا ذكر هاذم اللذات " أى قاطع اللذات.

ان الوقت ضيق والامر جلل ولا أستطيع البقاء معك الا قليلا ، قالت وماذا تريد مني ؟ فابتسم وقال : ألا تعلمين ما الذى أريده ؟ قالت نفسي تحدثني ... وسكتت ، قال : أرجو أن يكون قلبك يحدثك لا نفسك قولي حالا ... ... (١) "

حوار يستعصي على التصديق ، ويفقد المعقولية ، لانه لا يتناسب مع الفترة التي تصورها الرواية كلها ، كما لا يتفق مع اللحظة الحرجة التي تم فيها ذلك الحوار المزعوم ، ولكن هكذا يتفنن زيدان في تجريحه للصحابة وأبنائهم حتى يأتي الى القول باتهامهم جميعا بالتآمر ضد الخليفة المقتول ، حيث يجعل زوجة الخليفة عثمان تقول : " لقد خدعونا والله ، وغدروا بنا فأرسلوا اولادهم للدفاع عنه وبعثوا يقتلونه بواسطة (٢) آخرين ، ألم تر ابن أبي بكر وقد قبض على لحيته ... (٣) " .

عجيب هذا القول الذى لم يرد له ذكر حتى في أضعف الروايات التاريخية ، وغريب هذا الموقف الذى لم يدعمه الكاتب هذه المرة بمصدر مزيف أو مرجع متوهم ، وكأنه من المواقف المعلومة بالضرورة والتي لا تحتاج الى سند في الرواية ، ضعيفا كان ذلك السند أو قويا ، وقد يتراءى للقارئ العادى أن الكاتب قد أخذ هذا القول من كتاب الاغاني الجزء الخامس عشر ، لانه يجد في حاشية تلك الصفحة اسم مرجع من مراجع الكاتب المشهورة وهو كتاب الاغاني ، على حين أن المرجع المثبت في الحاشية لم يكن بالنسبة لاتهام نائلة للصحابة الاجلاء كما يزعم زيدان ، بل كان بالنسبة لفكرة أخرى هي وقوع نائلة على زوجها عندما اعتدى عليه المعتدون ، وبالنسبة لتعرض نائلة للاهانة من قبل الثوار ، ولم يشر ذلك المصدر الى اتهام زوجة عثمان رضي الله عنه للصحابة وأبنائهم كما جاء في رواية عذراء قريش ، هذا مع ملاحظة أن كتاب الاغاني لا ينبغي الاعتماد عليه في مثل هذه الامور لانه كتاب تسلية وامتاع فني أو ازجاء للفراغ .

---

(١) جورجي زيدان _ رواية عذراء قريش _ ص ٩١

(٢) كذا والصواب : بوساطة .

(٣) جورجي زيدان _ رواية عذراء قريش _ ص ٩٨

وقصارى القول أن اليد التي أثارت الفتنة يد خفية ، وأن أحداث هذه الفتنة لم تكن واضحة كل الوضوح ، مما جعل المؤرخين يميلون الى التأويل للاخبار الكثيرة المتضاربة المتعارضة أشد التعارض ، ونحن نعتمد على رواية من زامنوا الفتنة أو كانوا قريبين منها كرواية أبي سعيد (١) ، مولى أبي أسيد الانصاري لانه شهد الحادثة بنفسه ، ونقلها عنه أبو نضرة الذي كان يعرف أبطال القصة بل أن أبا نضرة كان قريبا من وقعة الجمل التي حدثت بعد سنة فقط من مقتل عثمان ولعله اشترك فيها ، كما نعتمد على رواية الاحنف بن قيس (٢) الذي كان مزامنا للفتنة أو قريبا منها ..

ومن رجوعنا الى روايتي أبي سعيد والاحنف بن قيس اتضح لنا أن الصحابة الاولين كانوا الى جانب عثمان بأنفسهم وأولادهم ، ولم يكونوا متظاهرين فقط بنصرته كما جاء في رواية زيدان ، واتضح لنا أيضا أنه لم يكن في ذهن طلحة والزبير الاستيلاء على الخلافة ، وأنهما ما كانا يطمعان فيها بعد عثمان والدليل على ذلك أنهما كانا يرشحان علي بن أبي طالب قبيل وفاة عثمان ، والدليل أيضا أن الثوار قد عرضوا على كل منهما البيعة بالخلافة فرفضها وتبرأ منها ثم انهما قد بايعا عليا بعد ذلك ، على حين أنه كان من الممكن أن يمتنعا عن البيعة بأية صورة من الصور طالما كانا يرغبان في الخلافة كما يزعم زيدان وكما تشير الروايات الضعيفة التي ركز عليها زيدان ، أما مسألة نقضهما للبيعة بعد ذلك فلا يعزى الى رغبتهما في الخلافة كما يزعم الزاعمون أو الى أنهما قد بايعا مكرهين كما يتوهم المتوهمون ، بل يعزى ذلك الى اعتقادهما بأن عليا قد بدل في موقفه ، اذ أنه لم يتخذ قرارا حيال قتلة عثمان ، ومن ثم رأيا ضرورة الخروج للمطالبة بدم عثمان ، وهذا هو الذي يفسر

---

(١) وردت رواية أبي سعيد في كتاب الطبري الجزء الرابع ص ٣٥٤ ـ ٣٥٦ طبعة دار المعارف ـ تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم • وفي كتاب ـ الرياض النضرة ـ للمحب الطبري ٢ / ١٢١ ـ ١٢٣

(٢) وردت رواية الاحنف بن قيس في تاريخ الطبري
كما وردت في مسند الامام أحمد ـ الحديث رقم ٥١١

لنا خروج السيدة عائشة رضي الله عنها ، وعلى فرض أنهم جميعا كانوا مخطئين في هذا الخروج على الامام بعد البيعة ، وكانوا مخطئين في تصورهم لتبديل علي وتحوله ، فلا يصح لمؤرخ أو كاتب قصة للتسلية وازجاء الفراغ أن يفسر ذلك الموقف بالرغبة في الاستيلاء على الخلافة ، وبالحقد والحنق على الخليفة ، انما يجب على ذلك المفسر ان يتذكر أن من يتحدث عنهم انما هم صحابة أجلاء ، وأنهم مجتهدون وكفى ، كما يجب على كل من يتناول هذه المسألة ألا ينسى أن هناك يدا خفية كانت تعمل على اضرام نار الفتنة وما فتئت تلاحقها حتى وصلت الى ما وصلت اليه ، ومن ثم نرى أن كلا من علي بن أبي طالب وطلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام وعائشة بنت أبي بكر كان طيب السيرة نقي السريرة ، وأن كلا منهم كان مخلصا مع نفسه ومع أصحابه ، وأن كلا منهم كان يعمل على اخماد نار الفتنة التي اندلعت بمقتل الخليفة عثمان بن عفان ، لكنهم اختلفوا في وسيلة الاخماد ، أتكون عن طريق الاخذ بثأر عثمان فورا بغض النظر عما يترتب على ذلك ؟ أم تكون عن طريق الكف عن المطالبة بدم عثمان الى حين يتم رأب الصدع وجمع شمل الجماعة التي تفرقت شيعا وأحزابا بعد مقتل عثمان ؟

ويبدو أن اليد الخفية قد استطاعت أن تستغل هذا الخلاف أسوأ استغلال ، ونعني باليد الخفية عبد الله بن سبأ وجماعته .

٦) تناقض فاضح :

الدارس لرواية عذراء قريش يجد الكاتب قد تناقض مع نفسه في مواضع عدة وذلك عندما جعل عذراء قريش تميل تارة الى جانب عثمان بن عفان وأتباعه ، وتارة الى جانب محمد بن أبي بكر الذى يعتبره الكاتب واحدا من المعتدين على الخليفة عثمان بن عفان المقتول ظلما ، فلو كانت أسماء تحب محمدا حقا لما التفتت الى عيوبه ومناقصه :

وعين الرضا عن كل عيب كليلة كما أن عين السخط تبدى المساويا

ولانها محبة والهة ، والحب يعمي ويصم كما قرر ذلك زيدان في رواية أرمانوسة المصرية

عند ما أرجع هزيمة المسلمين للروم عند فتح مصر الى انشغال أركاد يوس بحب أرمانوسة ، ثم لو كانت أسماء تحب مناصرة الحق وتأييد المظلومين لما عادت الى محمد بن ابي بكر مرة ثانية بعد أن رأت منه ما رأته في دار الخليفة عثمان كما جاء في رواية زيدان ، وبعد أن استمعت الى رأى زوجة الخليفة عثمان في محمد بن أبي بكر وغيره ، ولكن يبدو أن الحب يعمي ويصم ، ومن ثم بقيت أسماء متأرجحة العواطف مضطربة الافكار والخواطر ، حيث تركت أمر حبها وتركت زوجة الخليفة عثمان ومحنتها فوقفت الى جانب الامام علي بن أبي طالب لتؤيده وتؤازره عن طريق متابعة جميع مواقفه وتقديم ما تستطيع تقديمه من خدمات ، وسرعان ما تحولت من التحيز الى هذا أو ذاك لتصبح داعية سلام ووساطة خير ، وذلك يؤكد تناقض مواقفها أو تناقض الكاتب مع نفسه ، وتتمثل دعوتها للسلام في مواقف عديدة منها ذهابها الى السيدة عائشة رضي الله عنها أثناء موقعة الجمل لتقول لها : " ... اشفقي يا أماه على أولادك، احقني دماءهم ارحمي أبطالا يوحدون الله ، كفى ما أصابهم من البلاء ، مري بالكف عن القتال ، ان السلام بين شفتيك وانت أم المؤمنين وزوج رسول رب العالمين ، واعلمي أن طلحة والزبير اللذين أضرما نار الفتنة قد فرا من المعركة ، مري باللـه رجالك بالكف عن القتال انهضي وأطلي على الجندين وانظرى القتلى من الجانبين (١) " .

ثم يصور جورجي زيدان موقف السيدة عائشة من آراء داعية السلام أسماء قائلا " .... قالت وقد ملت الجدال : لقد قضي الامر ولم يعد الرجوع ممكنا ، فلا تلتمسي ذلك مني ، قالت ذلك وفي لحن كلامها وملامحها ما يزجر أسماء عن معاودة التوسل فصمتت وعادت عائشة الى استنهاض القبائل حتى اصبح كل من بقي من رجالها يدافع عن جملها ...(٢) " .

وهكذا يجعل المؤلف أسماء تقف موقفا وسطا فتدافع عما تراه صوابا وتدعو الى السلم والسلام ، بينما يجعل السيدة عائشة رضي الله عنها متهورة مخدوعة من

---

(١) جورجي زيدان ـ رواية عذراء قريش ـ ص ٢٢٥ ـ ٢٢٦
(٢) جورجي زيدان ـ رواية عذراء قريش ـ ص ٢٢٥ ـ ٢٢٦

طلحة والزبير ، بل يجعلها عنيدة مصرة على القتال ، ثائرة غاضبة على أسماء ، وكل ذلك يؤكد تناقض مواقف أسماء التي هي في الاصل انعكاس وتصوير لافكار زيدان التي غلب عليها جانب التكلف والانتحال ، لذا جاءت متعارضة متناقضة ، وأكبر تناقض وقع فيه هو ما جاء في تحديد عمر أسماء حيث ذهب مرة الى أن عمرها كان سنتين عند فتح عمرو بن العاص لمصر وذهب مرة ثانية الى أن عمرها كان سنة واحدة فقط ابان الفتح المذكور ، ويتضح ذلك من خلال قوله : " ... ... ولكن لم يكن يعرف والدها لانه تزوج أمها سبية من سبايا مصر يوم فتحها عمرو بن العاص سنة ١٨ للهجرة ، وأسماء حينذاك في السنة الثانية من عمرها ... ... (١) " .

فهذا تحديد لعمر أسماء عند زواج يزيد الاموي بأم أسماء ثم يأتي التحديد مرة ثانية في القول الذى أجراه زيدان على لسان أسماء عندما كانت تخاطب زوجة عثمان بن عفان (نائلة) قائلة لها : " اعلمي اني ربيت في دمشق الشام منذ طفولتي وقد احتضنتني تلك المسكينة وزوجها يزيد هذا معها وكنت اظنه والدى ثم علمت انها تزوجته في مصر على أثر قدوم عمرو بن العاص اليها وكان يزيد في جنده يوم الفتح فكانت والدتي نصيبه من الغنيمة وكنت أنا يومئذ لم أتجاوز العام ... (٢) " .

فهذا تناقض فاضح ودال على ضعف وسيلته في الاقناع بشخصية أسماء بل يشير هذا التناقض الى أن أحداث رواية زيدان كثيرا ما تكون ملفقة ومن ثم يضعف تسويغ مواقف شخصياتها التي تتميز بصفات غير متناسقة حتى في الذات الواحدة .

٧) لغة الرواية وسماتها :

تميزت لغة رواية عذراء قريش باليسر والسهولة في جميع جملها وفقراتها ، وامتازت بأناقة التعبير وجمال التصوير في بعض أساليبها وتراكيبها ، الا أن ذلك التصوير لم يكن ملتزما ، بل كان يأتي في شكل لمحات خاطفة وفلتات غير متعمدة ، من تلك اللمحات

---

(١) جورجي زيدان ـ رواية عذراء قريش ـ ص ٩

(٢) جورجي زيدان ـ رواية عذراء قريش ـ ص ٥٠

الخاطفة قوله : " وكان الشيخ اكثر الجميع عجلة يلتمس المسجد قبل أن تغيب الشمس فيفوت وقت الصلاة ورأى الشمس تسرع الى المغيب فخيل له أنها تسابقه فجعل يستحث ناقته جهد طاقتها غير ملقٍ بالا لجمال تلك الساعة وهي أجمل ما تكون الصحراء وقد استطالت الظلال حتى اختلط بعضها ببعض فلم تعد تتميز ظلال النخيل من ظلال البلسان أو السنط وامتزجت ظلال الاشجار بظلال الادميين أو النوق ، وقد غفل شيخنا — لعجلته ولهفته — عن شذى القصمين وأمثاله من نبات الصحراء ولم يستوقف سمعه شدو الطيور ولا نقيق الضفادع ...(١) " .

ومنها قوله : " .... فتفرس الشيخ في أولئك القوم فعلم أنهم قادمون من الشام الى المدينة فعجب لمرورهم بقباء وهي ليست في طريقهم اليها ونظر الى كبيرهم فاذا هو كهل عليه لباس عرب الشام : القباء والرداء والعمامة ، وبجانبه شاب حسن الهندام عليه عباءة من القصب ، وسيفه مرصع ووراءه خادم يحمل له الرمح والنبال ، وعلى مقربة منهما فتاة غضة الشباب أشرق وجهها صحة ونشاطا ، على رأسها كوفية شدت بعقال ، وقد ارسلت أطرافها الى ظهرها حتى تجلى نور وجهها وقد كسته حمرة متوردة من أثر التعب وركوب الجواد أياما في طريق الصحراء (٢) .

ففي الفقرتين عبارات منتقاة وكلمات متجانسة ، وصور جميلة محببة الى النفس صورة مغيب الشمس ثم امتزاج الظلال ببعضها ، الى جانب سباق الشمس للشيخ وجمله ، ثم صورة اشراق وجه الفتاة وكسوة وجهها بحمرة متوردة .

وتلك صور جميلة حقا ، لكنها مألوفة معروفة ، لا جدة فيها ولا طرافة بل انها قاصرة ضعيفة في بعض الحالات ، وعلى الرغم من ذلك لم تكثر في الرواية ولم تأت الا لماما ، لهذا قلنا ان لغة الرواية تأسر القراء بيسارتها وسهولتها لا بطرافة تصويرها أو جمال تعبيرها ، وقد كانت تلك اللغة فصيحة سليمة خالية من الاخطاء

---

(١) جورجي زيدان — رواية عذراء قريش — ص ٦

(٢) جورجي زيدان — رواية عذراء قريش — ص ٧

النحوية وغيرها سوى هفوات قليلة نعتقد أنها من الطباعة ، ومنها قوله : " فلم يعثر عليه أحداً (١) " والصحيح " فلم يعثر عليه احد " لان كلمة أحد فاعل مرفوع، ومنها قوله : " والله في خلقه حكمة (٢) " والصواب " ولله في خلقه حكمة " لانه يريد اثبات الحكمة لله دون سواه ، ولا يريد القسم على وجود مطلق حكمة بغض النظر عن صاحب تلك الحكمة ، أو المختص بها ، وبالطبع لا يفهم هذا التخصيص في تلك الجملة الا عن طريق تقديم الخبر وليس عن طريق القسم .

٨) نهاية الرواية ومدى تطابقها مع الاحداث :

لم تكن نهاية رواية عذراء قريش نهاية سعيدة ، بل كانت نهاية حزينة مؤثرة تقشعر لها الابدان ويكاد ينفطر منها الوجدان ، ويبدو أن المؤلف لم يكن راضيا عن هذه النهاية ، والدليل على عدم رضائه هو الاعتذار الذى وجهه للقارئ في آخر صفحة من الرواية قائلا :

" ... ... ويعز علينا أن تكون نهاية هذه الرواية محزنة وهي أول رواية ختمناها على هذه الصورة ، ولكن حوادثها قضت علينا بذلك ، وكيف يكون ختامها غير محزن وفتاتها التي هي مدار حديثنا قد تعلقت بمحمد بن أبي بكر الذى قضى التاريخ بموته على هذه الصورة فقد قضي عليها بالعذاب منذ أحبته وذلك شأن الخلق يسيرون في الحياة الدنيا لا يدرون مصيرهم ولا ما خبأته الاقدار لهم .... (٣) " .

فهذا الاعتذار والتسويغ يشير الى أن المؤلف قد درج على الخاتمة السعيدة في معظم رواياته ولم يجد مجالا لتلك الخاتمة السعيدة في هذه الرواية فكان لا بد

---

(١) جورجي زيدان — رواية عذراء قريش — ص ٨٣

(٢) جورجي زيدان — رواية عذراء قريش — ص ٣٠٤

(٣) جورجي زيدان — رواية عذراء قريش — ص ٣٠٤ المرجع السابق

من الاعتذار ، فالاعتذار اذن بالنسبة لمخالفة العادة التي درج عليها المؤلف وليس بالنسبة لمخالفة قاعدة فنية ، وذلك لان القواعد الفنية ترى أن هذه الخاتمة المحزنة مقبولة في هذه الرواية لانها تتناسب مع مجريات أحداث الرواية التي بدأت بالمكر والخداع ثم الحرب والضرب الى جانب الاضطرابات والمؤامرات التي أدت الى مقتل الخليفة عثمان والقرآن بين يديه ، رضي الله عنه وأرضاه .

. . .
:

٧- دراسة وتحليل لرواية (١٧ رمضان)

أ — اقسام الرواية
ب — زمن الرواية
جـ — شخصيات الرواية
د — مضمون الرواية
هـ — خاتمة التحليل وتشتمل على :

١ — صور قاتمة ومواقف مشوهة •
٢ — شخصيات الرواية بين الحقيقة والخيال •
٣ — التحليل النفسي لشخصيات الرواية •
٤ — العناية بتصوير المواقف الغرامية •
٥ — نهاية الرواية ومدى تطابقها مع مجريات الاحداث •

تحليـل روايــــة
١٧ رمضـــــــان

أ ـ أقسام الروايــــة :

تتكون هذه الرواية من قسمين كبيرين هما : القسم الغرامي الذى تحدث فيه الكاتب عن علاقة الحب والغرام الشديدين التي تمت بين شاب أموى وفتاة تريد الانتقام لابيها بقتل الامام علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، ثم يأتي القسم الثاني وهو عبارة عن الحوادث التاريخية التي جاء ذكرها في ثنايا الرواية وأثناء نمو الاحداث والمواقف الغرامية بطريقة أتاحت للمؤلف فرصة التحدث عن الطوائف والجماعات المختلفة التي اشتركت في الفتنة وعملت على اضرام نارها واشعال أوارها ، كما وصف المؤلف أثناء ذلك المدن والاحياء مبينا ما كان عليه الناس في تلك الفترة من فوضى واضطراب .

ب ـ زمـن الروايــة :

لا تمثل أحداث هذه الرواية فترة زمنية طويلة ، وذلك لانها بمثابة امتداد وتكملة لرواية عذراء قريش ، ولأنها تمثل أحداثا وفتنا اندلعت نيرانها منذ عهد الخليفة عثمان ولا سيما بعد مقتله سنة ٣٥ للهجرة وامتدت تلك الاحداث الى ١٧ رمضان سنة ٤٠ للهجرة ، فالفترة الزمنية التي تمثلها الرواية قصيرة جدا بالقياس الى رواية عذراء قريش أو فتاة غسان مثلا .

جـ ـ شخصيات الروايــة :

اشتملت هذه الرواية على مجموعة من الشخصيات الهامة والثانوية التي تآزرت وعملت على تصعيد أحداث الرواية والوصول بها الى النتيجة التي خطط لها المؤلف

ومن تلك الشخصيات :

(١) علي بن أبي طالب : وهو بطل هذه الرواية ومن ثم كانت معظم الاحداث تدور حول شخصيته أو تتصل بها من قريب أو بعيد ، وهو رابع الخلفاء الراشدين .

(٢) معاوية بن أبي سفيان : زعيم المطالبين بثأر عثمان بن عفان قبل التفكير في أمر الخلافة ، وهذا هو جوهر الخلاف بينه وبين علي وانصار علي وهو أول ملوك بني أمية . ؟

(٣) عمرو بن العاص : فاتح مصر وواليها في عهد عمر بن الخطاب ، ومندوب معاوية ابن أبي سفيان في التحكيم الذي استخدم فيه كل حيله ودهائه فكانت نتيجته كما كانت ...

(٤) قطام بنت عدي بن شحنة : بطلة القصة الغرامية التي جاءت في ثنايا الرواية والمعروفة بغادة الكوفة ، والتي أغرت المتآمرين ضد علي بجمالها وسحر عينيها بل ساعدتهم في عملية الفتك بالامام علي ، كما أنها ضللت العاملين على نصرة الامام علي بمعسول كلامها وماكر حيلها .

(٥) العجوز لبابة : مربية قطام وساعدها الايمن في جميع مواقفها الى أن لقيت حتفها داخل سجن عمرو بن العاص على رأي جورجي زيدان .

(٦) سعيد الاموي : بطل القصة الغرامية في الرواية ، وعاشق قطام المحتالة ، ثم أنه من أنصار الامام علي بن أبي طالب .

(٧) عبد الرحمن بن ملجم : شخصية تاريخية معروفة لارتباط اسمه بمقتل الامام علي .

(٨) الحسن والحسين : ابنا علي بن أبي طالب .

(٩) عمرو بن بكر : المتآمر لقتل عمرو بن العاص .

(١٠) البرك بن عبد الله التميمي : المتآمر لقتل معاوية بن أبي سفيان .

تلك هي الشخصيات الهامة في رواية ١٧ رمضان التي كانت لها أدوار بارزة واضحة في الرواية ، بل في كل موقف من مواقفها ، والشخصيات الثانوية كثيرة ، لا داعي

للحديث عنها لانها لم تكن ذات أدوار بارزة واضحة .

جـ ـ <u>مضمـون الروايـــة :</u>

بدأ المؤلف روايته بالحديث عن الخوارج مشيرا الى الامام علي الذي عزم علـى استئصال شأفتهم قبل خروجه الى معاوية ، وعند ذاك وجد المؤلف نفسه مضطـرا للحديث عن الكوفة عاصمة الامام علي لينتقل الى الحديث عن غادة الكوفة ومواقفهـا الغرامية والاجرامية المتمثلة في اغراء الشباب بجمالها ودلالها وسحر عينيها ليحققوا لها رغبتها في الفتك بالامام علي بن أبي طالب .

تحدث زيدان عن فتاة الكوفة الفتانة التي ذاع صيتها في الآفاق حديثا مسهبـا استغرق مائة وثمانيا وسبعين صفحة على التوالي من رواية ١٧ رمضان ، ومعظـم الحديث كان حول العلاقة التي تمت بين سعيد الاموى وقطام بنت شحنة بن عدى من قبيلة تيم الرباب (غادة الكوفة) وقد أسند المؤلف دور الوساطة لعجـوز محنكة اسمها لبابة مشيرا الى أنها قد استطاعت اقناع قطام بتعلق سـعيد (الشاب الاموى) بها ، وأوضحت لها أن سعيدا هذا كان يحبها منذ أعـوام لكنه لم يستطع التصريح بذلك لانه من المطالبين بدم عثمان ومن الناقمين على علـي ، بينما كان والد قطام من المؤيدين لعلي لكنه خرج بعد ذلك على علي ، ومن ثـم أصبحت الفرصة مواتية له كي يصرح بحبه لقطام بل يتقدم لخطبتها ، فلا بد اذن من عقد اجتماع بين قطام وسعيد ، وقد أسند المؤلف أمر تنظيم ذلك الاجتماع للعجوز لبابة ، وقد تم الاجتماع وتوصلوا فيه الى التزام سعيد بقتل علي بن أبي طالـب نظير الزواج بقطام فتاة الكوفة الفتانة ، ومن ثم كتب صك بذلك وقع عليه كل من سعيد وقطـام .

وتلك حوادث مختلقة ولا ذكر لها اطلاقا في المصادر التاريخية ، ولكن تخيلهـا المؤلف ليشوق القارئ ويدعوه الى متابعة الرواية التي تعلم القارئ خوض المعـارك الغرامية ثم تشككه عن طريق ذلك التعليم في شخصية اسلامية مهمة وهي شخصيـة

علي بن أبي طالب الذى أبرز المؤلف اتهامه بقتل عثمان بن عفان وقدمه بصورة الرجل المتواطئ في كثير من المواقف . ومن هنا بدأت العقدة والازمات في رواية ١٧ رمضان حيث تعمد المؤلف ايقاع البطل سعيد في حيرة من أمر جده أبي رحاب الذى طلبه بتلك الصورة المفاجئة ، واخيرا جاء الحل بعد صفحات عديدة متمثلا في وصية الجد لابنه كي يعمل على نصرة الامام علي ويحاول جاهدا اقناع كل من يحاربونه واثناءهم عن رغبتهم لانه برئ مما وجه اليه ، وقد دار حوار مطول بين الجد والحفيد وعني مؤلف الرواية بذلك كله حيث أثبت جميع أدلة الجد المقنعة وبراهينه الساطعة ،هذا على الرغم من أن الجد قد كان على دعوة بني أمية في المطالبة بدم عثمان ، ويبدو أن هذا هو السر في سرد تلك الادلة الكثيرة لاقناع القارئ بتحول الشيخ من دعوة الى دعوة ولتسويغ ذلك التحول ، الا أن القارئ يبقى متسائلا عن كيفية هذا التحول المفاجئ وعن سر التركيز على مثل هذه الاشياء التي لا تخدم الحدث الروائي ولا يتوقف تعليم التاريخ للناشئة على معرفتها .

ونحن نرى أن المؤلف بتركيزه على مثل تلك الامور انما يقدم الدليل المحسوس على أنه لا هم له الا اجراء وتصوير الامور التي تتفق مع هواه أو ترضي طوائف معينة وتثير بلبلة في صفوف المسلمين ، بدليل أنه لم يكتف بالاستنطاق بل كان يتدخل في كثير من الحالات ليسرد أفكاره الخاصة ، خذ مثلا لذلك حديثه عن الشيخ أبي رحاب بعد أن تحول عن دعوة بني أمية :

" ... ... وكان أبو رحاب مع شدة حبه لعثمان لم يغفل عما كان فيه من الخطأ الذى دعا الناس الى اضطهاده ، وكثيرا ما كان ينصحه بالاصلاح ومصانعة المسلمين فلم يصغ له الا قليلا وعلم أبو رحاب بعد ذلك أن جماعة من ذوى الاغراض كانوا يثنونه عن الاصغاء ويحرضونه على العداء حتى اذا قتل عثمان كان ابو رحاب وسعيد في جملة المطالبين بدمه ، ولكنهما ما لبثا أن عادا من وقعة الجمل حتى كف ابو رحاب عن المطالبة لانه تحقق أن أصحاب تلك الوقعة انما حاربوا عليا طمعا في الملك لا غيرة

علـى عثمـان (١) " ٠

ولا شـك في أن هذه الاشـياء التي سـردها المؤلف من ذاكرته انما هي معلومات عامة أتى بها لتحدد سـمة شـخصية وتوضح أبعادها ولا سـيما التحول الذى طـرأ فجأة ، وقد جاء المؤلف بذلك التحول ليحدثنا عن الصراع الذى وقع فيه الشـاب الاموى (سـعيد) بين الاسـتجابة لرغبة خطيبته والاسـتجابة لرغبة جده والعمـل بنصيحته ، وقد اسـتمر هذا الصراع واشـتد لكنه لم يصل الى حل طبيعي سـليم ، لهذا تعمد المؤلف حله بايقاع الشاب الاموى في التناقض الشديد حيث جعلـه يذعن لوصية جده ويعاهد الجد على أنه سـيدافع عن الامام علي الى آخر قطرة مـن حياته ، مع ملاحظة انه قد نسـي ما حدث بينه وبين قطام من اتفاق وتآمر على قتـل الامام علي ، فهذا تناقض واضح ، ولكن على الرغم من هذا التناقض وفق الكاتب في تصوير الحالة النفسية لسـعيد آنذاك حيث صـوره وهو غارق في هواجسه ، يفكر فـي عهده المكتوب وفي قلبه المفلول فترتعد فرائصه ويضطرب أمره ، ولا يهتدى الى حـل مقنع ، مما جعل المؤلف يسـوقه سـوقا ويأتي به الى الكعبة ليشـهد مؤامرة المتآمرين على قتل الامام علي ومعاوية وعمرو بن العاص ، فينسـى مشـكلته الى حين ، ويستغرق في التعجب مما رأى بل يظن أنه في حلم ، لغرابة ما رأى ثم لحدوثه في الليلة التـي أوصاه جده فيها بألا يقاتل عليا ، فما كان منه الا أن قرر العودة الى جده ليخبره بما رأى ، واذا بالجد يكرر الوصية مرة ثانية ، بل يلزم سـعيدا بالبحث عن ذلك الرجـل الذى انتدب نفسـه لقتل علي كي يرده عن غيه قائلا له : " ابحث عن هذا الرجـل وأرجعه عن غيه كما أرجعتك ، ولو أوتيت عمرا ثانيا لقمت في بني أمية وفي الخـوارج خطيبا أصرح ببراءة الامام علي على رؤوس الاشـهاد ، ولكن آه ان الساعة آتيـة لا ريب فيهـا ... ... (٢) " ٠

---

(١) جورجي زيدان — رواية ١٧ رمضان — ص ٣٣ — ٣٤

(٢) جورجي زيدان — رواية ١٧ رمضان — ص ٦٦ — ٦٧

ثم مات الشيخ أبو رحاب ولم يكن الحزن على موته شديدا لان أهله كانوا يتوقعون ذلك منذ أيام باستثناء سعيد الذى حزن لامتزاجه بالهواجس والاضطرابات والقلق الشديد مما سمعه من جده ، فأحس بأنه مقيد بعهود متناقضة ، ولم يكن أمامه الا السعي الى قطام واقناعها ببراءة الامام علي بن أبي طالب لتكف عن المطالبة بثأر والدها وأخيها ، وبذلك وحده يطيب له العيش في كنف قطام ليعملا سويا على تحقيق رغبة جده وتنفيذ وصيته ، لكن الامور لم تسر كما يريد ، بل سارت وفق خطة وضعها المؤلف لتساعده في اطالة السرد والتصوير حتى تتاح له فرصة التدخل والتفسير ، أو الافضاء بذات نفسه وأفكاره التي يريد بثها ، ومن ثم يأتي حديثه عن الموافقة الصورية التي تظاهرت بها قطام لتتمكن من الفتك بسعيد ورفيقه الجديد عبد الله الذى أوصاه جده بملازمة أخيه سعيد أينما توجه ومساعدته في الدفاع عن علي ، ومن ثم قدم المؤلف شخصية قطام وصورها بصورة الفتاة المحتالة الشريرة الماكرة الى جانب رجاحة العقل والقدرة على الحوار ، ويؤكد المؤلف هذه الفكرة بالاشارة الى أن قطام استطاعت ان تستخرج اسرار عبد الله وسعيد بدهائها ، كما استطاعت أن تحرضهما على السفر الى الفسطاط للبحث عن المتآمر على قتل علي عن طريق أنصار علي الذين أكد عبد الله أنهم يجتمعون سرا بالفسطاط كل يوم جمعة ، وفي الوقت نفسه قررت أن تبعث فورا الى عمرو بن العاص بخبر تلك الجمعية ليقبض على أبطالها ، فيكون من بينهم سعيد وصاحبه ، فيقتلهما عمرو بن العاص أو يسجنهما ، وبذلك يكون أمر المؤامرة مكتوما عن كل الناس عند قتلهما ، أما اذا سجنا فسيظلان في السجن الى ما بعد ١٧ رمضان على أقل تقدير ، وتكون الحيلة قد نفذت فيتحقق لقطام ما تريد وهو الانتقام لابيها وأخيها ..

وتلك صورة للمكر والدهاء الذى قد لا يتناسب مع طبيعة أمرأة في بادية الكوفة ، بل هي حيل يعجز عن حبكها الرجال ، وعلى الرغم من هذا نرى المؤلف يحاول اقناعنا بها أو بقبولها دون اقتناع ، ولم يكتف المؤلف بهذه الصورة الغريبة والمواقف العجيبة

بل أتبعها أمورا خارقة لعادات العرب ومخالفة لبيئتهم ، وذلك عندما أوقع عبد الله في الاسر ضمن الجمعية السرية في الفسطاط وأبقي سعيدا هائما على وجهه ليجمع بينه وبين فتاة سجينة في بيت منعزل في طريق عين شمس ـ اسمها خولة ـ قائلا إنها كانت على دعوة الامام علي مع أبيها ولكن أباها قد تحول وأصبح عدوا لعلي وأنصار علي ، فحبس بنته على تلك الصورة المرفوضة خوفا من أن تذهب البنت الى المجتمعين وتبلغهم بتوجه شرطة ابن العاص اليهم ، وسواء صدقنا ذلك أو لم نصدقه فان رواية ١٧ رمضان تحاول تركيزها في أذهاننا ، بل تذهب الى أبعد من ذلك فتقول ان الفتاة السجينة قد تعرفت على سعيد الاموى ، وقضيا وقتا في ذلك المكان المنعزل ، ثم اتفقا على نصرة الامام علي مهما كلفهما ذلك ، وبالفعل قامت الفتاة بدور بطولي حيث أنقذت سعيدا من الوقوع في أيدى الشرطة الذين دهموا مقر سكنه فيما بعد ، فاحتار سعيد ماذا يفعل بعد هذا أيبقى في مصر ليعمل على انقاذ أخيه عبد الله وفي البقاء خطر عليه وعلى أخيه ؟ أم يذهب الى الكوفة لانقاذ الامام علي ، وفي الذهاب خيانة لاخيه عبد الله الذى لولاه لما توجه الى مصر ولا رأى ما رآه •

وأخيرا أنقذه المؤلف من تلك الحيرة بالايعاز الى خولة كي تساعد سعيدا للمرة الثانية ، فأعطته جملا وعبدا ، وأكدت له ضرورة التوجه لانقاذ الامام علي فورا ثم تركه المؤلف يطوى الفيافي والقفار مع العبد بلال ، وانصرف للحديث عن قطام التي اطمأنت لحيلتها ولم يبق لها الا التعرف على المتآمر الذى نوى قتل علي لتساعده وتؤكد له أن قبيلتها ستنصره في ذلك العمل •

جمع المؤلف بعد ذلك بين قطام وبين المتآمر على قتل الامام علي وأدار حوارا تافها حول مهر قطام ، انتهى ذلك الحوار بتصريح قطام ـ دون حياء أو خجل ودون مراعاة لمواضعات الامة وتقاليد البيئة ـ قائلة : ان مهرى هو قتل علي بن أبي طالب قاتل أبي وأخي فوافق ابن ملجم على ذلك ، بل أكد لنا المؤلف أن ابن ملجم ما جاء الى الكوفة الا لهذه الغاية التي يزعم أنها سامية ونبيلة ، عند ئذ شعرت قطام

بأنها قد حققت هدفها بمجرد اللقاء بابن ملجم ، لكن سرعان ما ذهب هـذا الشعور عند ما علمت بنجاة سعيد من شرطة عمرو بن العاص ، فكان لا بد لها من أن تعمل على ايقاف تحركات سعيد ، ولم تجد عند ذاك من يسعفها الا خيال زيدان الذى أوحى اليها بارسال عبدها ليكون في انتظار سعيد عند مدخل الكوفة ، فيحول بينه وبين الدخول ، أو يحضره الى قطام ، وقد استرسل المؤلف في تصوير هذا الموقف ، وانتهى الى أن سعيدا قد اضطرب عند ما رأى عبد قطام واحتار بين الذهاب الى قطام ليمتع نفسه برؤيتها وسماع حديثها وبين الاسراع الى انقاذ الامام علي من المؤامرة التي باتت وشيكة الحدوث .

وأخيرا هداه تفكيره الى الجمع بين الامرين ، الا أن بلالا عبد خولة حاول اقناعه بعدم الذهاب الى قطام ، لاحساسه بأن في الامر خديعة ، ومن ثم قال لسعيد : انه رأى هذا العبد — عبد قطام — بالفسطاط في مهمة عادت بشر المواقب على عبد الله وسعيد ، فَبُغِتَ سعيد ، وسأل عبد قطام لكنه انكر ودخل في حوار مطول بينه وبين العبد بلال ، وانتهى ذلك الحوار الى كشف أمره وافتضاح سر قطام ، فما كان من سعيد الا أن شكر بلالا وحمد الله الذى كشف أمر قطام قبل انقضاء أجل المؤامرة ، وعلى الرغم من هذا بقيت عواطف سعيد متأرجحة بين ما انغرس في قلبه من الحب وبين ما انكشف له من الخديعة ، لكن بلالا أقنعه بضرورة التوجه الى الامام علي ، فتوجه وهو يقول في نفسه :

" ... (١) .. لقد نفذت حيلتك في أخي عبد الله ولكنها لن تنفذ في الامام علي ها أنا (ذا) أسير الساعة الى بيته ، وسأستعين به على قتلك وقتل تلك العجوز المحتالة وذلك العبد الشرير ... ... (٢) " .

---

(١) زيادة لازمة لصحة الاسلوب .

(٢) جورجي زيدان — رواية ١٧ رمضان — ص ١٧٠

قال سعيد ذلك دون أن يعلم أن المؤلف سيوقعه في مشكلة أخرى تحول بينه وبين تحقيق أمانيه التي لو تحققت لحدث انهيار في تخطيط رواية زيدان ، لذا كان لا بد من تدبير مؤامرة ضد سعيد وتنفيذها بوساطة قنبر (حاجب الامام علي) الذى حال بين سعيد وبين وصوله الى الامام علي قائلا له : " ... لقد كذب فألك أيها الوغد اللئيم ، وحاول سعيد الدفاع عن نفسه مبينا أنه ما جاء الا لانقاذ علي من الموت ، وسرعان ما أخرج قنبر الصك الذى تعهد فيه سعيد لقطام بقتل الامام علي ، فبهت سعيد وصمت ، وكان لا بد من حبسه عند قنبر مما أدى الى نجاح المتآمر في مؤامرته ، فأصاب المسلمين بسبب ذلك ما أصابهم ، ولم يكن سعيد يعلم بما حدث الى أن رأى قنبرا يبكي ويقول " ... ... أقتلوني أيها المسلمون ... اني جنيت على أمير المؤمنين ، ولم يفهم الناس قصده ... " .

تحول المؤلف بعد هذا الى العناية بموقف أبناء علي من قاتل ابيهم ، وقد بالغ في تصوير موقفهم حيث ذهب الى أن أبناء علي قد قطعوا لسان قاتل أبيهم ثم جعلوه في قوصرة وأحرقوه بالنار ، والى هنا يحس القارئ بأن الرواية قد وصلت الى نهايتها لكنه يدهش حينما يرى المؤلف يقدم مائة صفحة بعد تلك النهاية التي احس بها القارئ ، وقد تحدث في هذه الصفحات الجديدة حديثا مسهبا عن حب سعيد لخولة التي ساعدته في مهمته مبينا مدى كرهه لقطام التي كانت سببا في قتل الامام وقتل أخيه عبد الله ، وهذا ما كان يتراءى له قبل وقوفه على الحقائق المتعلقة بأخيه عبد الله .

وهذا الاسترسال في الرواية بعد توقف أحداثها يؤكد لنا عناية الكاتب بالجانب الغرامي أكثر من عنايته بالجانب التاريخي ، ولم يكتف بالحديث عن علاقة خولة بسعيد ، بل تجده يتابع خولة مبينا مواقفها من أبيها الذى كان ينوي تزويجها بابن ملجم ، لكنه عدل عن ذلك بعد قرار عمرو بن العاص بأن تزوج خولة للشاب الاموى عبد الله اذا صح ما ادعاه من أن هناك متآمرين يريدون اغتيال عمرو وغيره .

وبالفعل وقعت المؤامرة التي أشار اليها عبد الله في الزمن الذى حدد والاماكن التي عينت ، فكان لا بد من اعفائه واعطائه خولة كجائزة تقديرية ، ففرحت خولة بنجاة عبد الله من سجن عمرو بن العاص ، وفرح زيدان باللقاء بين خولة وعبد الله ،لان ذلك من شأنه أن يتيح له فرصة اجراء حوار مطول بين خولة وعبد الله حول امتناع خولة عن الاستجابة لرغبة عبد الله في المداعبة وغيرها بحكم أنها قد أصبحت زوجة له ، وقد انتهى ذلك الحوار باطلاع عبد الله على ما كان بين خولة وأخيه سعيد من حب فدهش وقرر التنازل فورا ، ولكن كيف يمكن اقناع عمرو بن العاص بهذا الوضع الذى قد يعتبره شذوذا وخروجا على عادات القوم وتقاليدهم ، وسرعان ما يأتي المؤلف بالحيلة التي تساعدهما على الخروج من ذلك المأزق ، لكنه يعمل من جانب آخر على ايقاعهما في مشكلة أخرى تتطلب سردا وتصويرا ، تلك هي وشاية قطام بهما عند عمرو بن العاص للمرة الثانية ، وقد جاءت قطام هذه المرة بنفسها لتنفيذ مؤامرتها وليس معها سوى العجوز الماكرة لبابة ، ثم بذلت كل جهدها في اقناع عمرو بن العاص بأن عبد الله وخولة يستوجبان القتل ولكن لما بدأ عمرو التحقيق في أمر عبد الله وخولة تدخل المؤلف محاولا ابعاد مشكلة الحب والغرام واستبدالها بمشاكل سياسية تتعلق بأمور الخلافة والخلفاء ، وهذا هو سر تركيز الحوار حول النقاط التي تكشف عن الضعف الذى اعترى بعض المسلمين آنذاك ، فأصبحت البنت تتهم أباها بالغدر والخيانة والمكر ، وأصبح الفرد يتهم الخليفة بقتل الخليفة السابق له .

ولا أحد ينكر ذلك الضعف الذى دب في أوصال الامة الاسلامية آنذاك لكننا ننكر كل الانكار الصورة التي رسمت بها تلك المواقف لانها توحي بخبث المصور وسوء نيته وتشير الى أنها صور مغرضة (١) يراد بها تشكيك الشباب الذين تكتب لهم مثل هذه الروايات ويقصد منها زعزعة ثقتهم في الرعيل الاول من المسلمين الذين يعتبرون مصدر فخر واعتزاز .

---

(١) راجع تلك الصور في رواية ١٧ رمضان ـ جورجي زيدان ـ ص ٢٥٩ ـ ٢٦٢ وغيرها .

وأخيرا نجح المؤلف في انقاذ خولة من مؤامرة قطام ، وبهذا تمكن من أن يحفظ لقصته الغرامية النمو والتماسك ثم التدرج في الوصول الى النهاية التي يريدها ، حيث جعل خولة تتوجه بأسئلة قوية الى قطام في مجلس عمرو بن العاص ، وكانت تلك هي القاضية ، فأردتها حبيسة في سجن عمرو بن العاص الى أن لقيت مصرعها بعد مخاطرات ومؤامرات كثيرة دبرها خيال زيدان ، واستغل عبد الله هذه الفرصة لاطلاع عمرو بن العاص على حقيقة أمره مع خولة واخباره بأن الزواج الذى كان هو السبب فيه لم ينفذ بعد ، لان هناك حبا متبادلا — من قبل — بين خولة وسعيد ، ومن ثم أعلن تنازله لاخيه أمام عمرو بن العاص ، وطلب منه أن يسمح له باستقدام أخيه سعيد ، وقد كان ، فتم الزواج في حفل بهيج ، وبهذا كانت نهاية الرواية نهاية سعيدة فهي شبيهة بنهايات الروايات السابقة لها باستثناء رواية عذراء قريش التي خالف فيها زيدان ما درج عليه .

هـ — خاتمة التحليل :

١) صور قاتمة ومواقف مشوهة :

لقد استغل المؤلف فرصة الفتنة التي اندلعت في عهد عثمان بن عفان واشتد اوارها في عهد علي بن أبي طالب ، فعمد الى تقديم صور قاتمة للمجتمع الاسلامي وقتذاك وقد ركز على تلك الصور أيما تركيز ، ظنا منه ان هذا التركيز يقدح في الاسلام الذى لا يضيره انحراف المنحرفين اذ :

لا يضير البحر أمسى زاخرا أن رمى فيه غلام بحجر

ولا ينقص من قيمته أو يقلل من قدره أى نوع من أنواع الفتن والاضطرابات ، وذلك لانه من لدن حكيم خبير ، وما الفتن والاضطرابات الا من صنع البشر ونتاج عقلهم المحدود المكدود ، فالصور التي قدمها زيدان وأمثال زيدان ليست صورا عن الاسلام بل هي صور عن مجتمع المسلمين في فترة معينة ، وهي مع ذلك صور مشوهة وملفقة في كثير من الحالات .

ومن تلك الصور القاتمة صورة الخوارج حيث صورهم المؤلف على النحو التالـــي :

" ٠٠٠ ان الخوارج عند أول خروجهم من طاعة علي على أثر رجوعهم من صفين نزلوا عند النهروان فرأوا رجلا يسوق بأمرأة على حمار فدعوه فانتهروه وأفزعوه ، وقالـــوا له : من أنت ؟ قال أنا عبد الله بن خباب صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا له أفزعناك ؟ قال نعم ، قالوا : لا روع عليك ٠٠٠ ٠٠٠ ٠٠٠ فأضجعـــوه فذبحوه فسال دمه في الماء ، وأقبلوا الى المرأة فقالت اني امرأة ألا تتقون اللـــه فبقروا بطنها ٠٠٠ ٠٠٠ (١) " .

ومن الصور القاتمة أيضا — والتي لا داعي لذكرها فضلا عن تثبيتها في اذهان الشباب — صورة أنصار علي بالفسطاط ، حيث قدمهم المؤلف في صورة المجرمين الذين يستعينون بكل شيء في سبيل الوصول الى هدفهم ، فكأنما الغايـــة عندهم تسوغ الوسيلة ، وتتضح هذه الصورة التي تشبه صورة الخوارج في كثير من الوجوه ٠٠٠ تتضح من خلال الحوار الذى دار بين عبد الله وبين أنصار علـــي عندما ذهب اليهم فجأة فوجدهم جميعا ملثمين ، فخاطبه واحد منهم مستفسرا عمـــا يريد فقال : " اني جئت أشاركم فيما انتم فيه ، قال : وما أدراك ما نحن فيـــه ؟ قال : علمت أنكم تدعون الناس الى نصرة الامام علي أليس ذلك ما تدعون اليه ؟ قـــال : وما شأنك وذلك ؟ قال شأني شأنكم لا تسيئوا الظن بي ٠٠٠ اني قادم من الكوفة لهذه الغاية ، فقال رجل آخر كيف تكون أمويا وتدعي نصرة الامام علي ؟ فاشتبــه عبد الله في صوت مخاطبه ، لعله صوت صديقه الغفارى الذى نزل عنده في ذلـــك الصباح ، فقال له ألســت أنت صديقي الغفارى ؟ أصدقني ولا تخف ، واني واللـــه جئتكم بخبر هام اذا اشركتموني في أمركم أطلعتكم عليه وتحققتم صدق قولي ، فقـــال الغفارى اذا كنت صادقا فيما تقوله تعال معي ومشى فتبعه الى الدكة في وســـط

---

(١) جورجي زيدان — رواية ١٧ رمضـان ص ٥١ — ٥٢

القاعة ورفع عنها الملاءة السوداء فاذا هي مصحف فوقه سيف مسلول وقال له ضع يدك على هذا السيف وأقسم بالله العظيم انك حليف للامام علي ، تنصر نصيره ، وتحارب عدوه ، فوضع عبد الله يده على المصحف والسيف فشعر ببرودة السيف فارتعدت أنامله ولكنه أقسم القسم الذى أراد وا ، ثم قاده بيده الى دكة أخرى رفع غطاءها وتناول قارورة فيها مسحوق أسود كأنه الكحل فاشتاق عبد الله لمعرفة ما فيها ، فقال وما هذه ؟ قال هذه قارورة فيها بقية من رماد ابن أبي بكر الذى احرقتموه بالنار ظلما فاذا شئت الهداية ونصرة الحق كما تدعي وجب عليك أن تكتحل بهذا الرماد وتبكي ذلك القتيل المظلوم وتعاهدنا على الاخذ بثأره ... (١) " .

ما هذا بتصوير فني أو تيسير لحقائق التاريخ ان هو الا تشويه متعمد وستار مسدل ليحول بين الشباب وبين روءية الصور المشرقة واستبانة المواقف الفاصلة الفاضلة .

ومن الصور القاتمة التي قدمها المؤلف للهدف السابق ذاته صورة أبناء علي وهم يريدون القصاص من قاتل والدهم ، فقد جاءت تلك الصورة شديدة القتام بعد أن أضاف اليها المؤلف الكثير من تخيلاته وبذل قصارى جهده في تشويهها وتحويرها ، حيث ذهب الى أن أبناء علي قد سملوا عيني ابن ملجم وقطعوا لسانه وبتروا يديه ورجليه ثم أحرقوه بعد ذلك ، ويتضح ذلك من خلال قوله : " وكان الحسن هو الذى أمر باحضار ابن ملجم ليقتله عملا بوصية أبيه ، فلما حضر بين يديه نظر الى ما حوله فرأى الناس ينظرون اليه بأعين تلتهب حنقا ، وكل يود أن يقتله بيده ، فلم يعبأ ابن ملجم بما يراه ، ولم يصبر حتى يخاطبه أحد منهم فنظر الى الحسن وقال : هل لك في خصلة ؟ اني والله قد أعطيت الله عهدا ألا أعاهد عهدا الا وفيت فيه واني عاهدت الله عند الحطيم أن أقتل عليا ومعاوية أو أموت

---

(١) جورجي زيدان — رواية ١٧ رمضان — ص ١٠٩

دونهما ، فان شئت خليت بيني وبينه فلك عهد الله عليّ إن أقتله (١) ثم بقيت أن آتيك حتى أضع يدي في يدك ، فقال الحسن : " لا والله حتى تعاين النار " وكان الناس قد جاءوا بالنفط والبواري والنار وقالوا نحرقه ، فقال عبد الله بن جعفر وحسين بن علي ومحمد بن الحنفية دعونا ننتقم منه بأنفسنا ، فقطع عبد الله بن جعفر يديه ورجليه فلم يجزع وجعل يقول : انك لتكحل عيني عمك بمكحول محص ، وجعل يقرأ " اقرأ باسم ربك الذى خلق " حتى أتى على آخر السورة وان عينيه لتسيلان على خديه ثم أمر به فمولج على لسانه ليقطعه فجزع فقيل له قطعنا يديك ورجليك وسملنا عينيك يا عدو الله فلم تجزع فلما صرنا الى لسانك جزعت قال " وما ذاك من جزع الا اني أكره أن أكون في الدنيا فواقا لا أذكر الله ، فقطعوا لسانه ثم جعلوه في قوصرة فأحرقوه بالنار ... (٢) " .

وبعد الموازنة بين هذا التصوير وبين ما جاء في كتاب ابن الاثير الذى رجع اليه المؤلف واعتمد عليه كما يزعم تبين لنا أن رواية ابن الاثير لا تصل بنا الى النتيجة التي قصد اليها جورجي زيدان ، بل لا تشير من قريب أو بعيد الى اتهام أبناء علي بأنهم أرادوا الانتقام من ابن ملجم بأنفسهم كما جاء في رواية ١٧ رمضان ، ولا تشير الى أنهم قد مثلوا به ، انما يذكر ابن الاثير أن الحسن قد قدمه فقتله ، وأخذه الناس فأدرجوه في حصير وأحرقوه بالنار (٣) ، ومن ثم لا نرى أى معنى لتركيز زيدان علي اقامة الحد في ابن ملجم سوى التشويه والتشكيك ، بدليل أنه عندما أراد التحدث عن ابن ملجم أشار الى أنه من أفاضل القراء وأنه كان صواما قواما ، ولا بد من أن يوازن القارئ عندئذ بين هذه الصفات وبين الصفات الاخرى التي ذكرها المؤلف لابن ملجم

---

(١) سقط من المؤلف سهوا كلمة (أو لا أقتله) لان المراد ان قتلته أو لم أقتله ، ولان رواية ابن الاثير باثبات الضد ، والكاتب قد أخذ القصة من ابن الاثير .

(٢) جورجي زيدان — رواية ١٧ رمضان — ص ١٨٨ — ١٨٩

(٣) ابن الاثير — الكامل في التاريخ — الجزء الثالث ص ٣٩٢ — طبعة دار صادر — بيروت

من أنه كان متآمرا ضد الخليفة والحكام والولاة ، وأنه لم يتورع من أن يجمل قتل الامام علي بن أبي طالب مهرا لفتاة الكوفة ، وغيرها من الصفات التي ذكرها المؤلف لابن ملجم ، ولكن لم ذكرها ولم التركيز عليها ؟ أهو التشويق أم التمزيق ؟ لا مسوغ يقنع بذكر تلك الاشياء لشباب ننتظر منه الاعتزاز بماضيه ، ولشباب لم ترسخ أقدامه بعد في دراسة تاريخ الاسلام .

٢) <u>شخصيات الرواية بين الحقيقة والخيال :</u>

جميع شخصيات رواية ١٧ رمضان شخصيات واقعية وذات أبعاد حقيقية وقد استمدها الكاتب من المصادر التاريخية كما حاول استخلاص بعض مواقفها من بطون الكتب التاريخية ، وهذا باستثناء شخصية قطام ، والعجوز لبابة ، ثم سعيد الاموى ، اذ لا وجود لهذه الشخصيات بسماتها التي برزت بها في رواية ١٧ رمضان ، لا وجود لها بهذه السمات في واقع الحياة ، أو في كتب المؤرخين ، فهي شخصيات خيالية جاء بها المؤلف لتنمية احداث القصة الغرامية التي يزعم انها تكملة لحلقات التاريخ المفقودة ، أو تغطية للجوانب التي أغفلها المؤرخون ، والواقع غير ذلك .

٣) <u>التحليل النفسي لشخصيات الرواية :</u>

لم يعن المؤلف في هذه الرواية بالتحليل النفسي لشخصيات الرواية بحيث يحاول استكشاف منابع السلوك الدفينة عند كل من المجرم المدواني والتقي المغلوب على أمره بحيث يكون ذلك حافزا على التزود من دروس التاريخ ، والاكثار من الوقوف عند سير الابطال او الصحابة الاجلاء ، لان في ذلك الوقوف ترياقا من داء العصر ، ولكن المؤلف لم يلجأ الى هذا التحليل على الرغم من أن هدفه الاساسي انما هو تشويق القراء الى مطالعة التاريخ وتقليب صفحاته ليجدوا بين طياته نفوسهم ونفوس الاخرين ، فما سر اعراض زيدان عن التحليل ؟

في تصورنا ان ذلك راجع الى ضعف في القدرة الفنية اولا ثم الى الهدف الذى لم يفصح عنه المؤلف وهو التمزيق لا التشويق كما يزعم ، لذا تراه يقدم معلومات جاهزة عن كل شخصية دون أن يترك الفرصة للقارئ كي يعمل ذهنه ليتعرف على الشخصية من خلال مواقفها وتصرفاتها ، خذ لذلك مثلا حديثه عن قطام حيث قال عنها : " وكانت قطام ذكية الفؤاد متوقدة الذهن ولو أنها كانت حسنة الخلق رقيقة العواطف واستخدمت ذكاءها وفطنتها في سبيل الخير لأتت بأعمال يعجز عنها أعاظم الرجال ولكنها خلقت شريرة شديدة الانتقام فاستخدمت تلك الجوهرة الثمينة في سبيل الاذى ، وذلك كثيرا ما يحدث بين الناس ... ... (١) " .

وتلك فقرة من شأنها أن تعطي جماع المواقف التي ستمر بها قطام ، وربما ادى ذلك الى صرف القارئ عن متابعة مواقفها في شيء من التأمل والتفكير لانه عرف سمات الشخصية واتجاهها العام والخاص من خلال المعلومات العامة التي تعجل المؤلف في الاتيان بها ، وهكذا كان شأنه عند الحديث عن جميع شخصيات الرواية ، هذا باستثناء بعض المواقف التي وفق فيها بعض التوفيق في تصوير الهواجس والخواطر التي سيطرت على عبد الله بعد سماعه وصية والده الاكبر أو جده أبي رحاب (٢) وغير ذلك من اللمحات الطريفة والفلتات الجميلة .

٤) العناية بتصوير المواقف الغرامية :

القارئ لرواية ١٧ رمضان يرى أن العنصر الغالب والمسيطر على جو الرواية انما هو عنصر الغرام الذى كان بمثابة العصا السحرية في يد زيدان ليحرك بها شخصياته وينمي أحداث روايته ، وهذا يدل دلالة واضحة على أنها لم تكتب الا لابراز هذه الجوانب الغرامية ليكون ذلك بمثابة التفسير أو التعليل لمعظم أحداث الرواية ، والعجيب ان الكاتب لم يفصح عن هذا التفسير جليا على لسان شخصية من شخصياته ،

---

(١) جورجي زيدان _ رواية ١٧ رمضان _ ص ١٥٢

(٢) جورجي زيدان _ رواية ١٧ رمضان _ ص ٥٣ _ ٥٥

وذلك عندما جعل سعيدا يرد على بلال بقوله " لا أخفي عنك بعد ذلك أن السبب في فشلي امرأة أظنك سمعت اسمها في هذا الصباح من فم ابن ملجم؟ قال بلال أظنها قطام بنت شحنة ، قال سعيد : نعم هي ـ قبحها الله ـ انها داهية محتالة ، فقد كانت سببا في قتل ابن عمي وقتل الامام علي وابن ملجم (١) ".

بهذه السهولة يعلل لمقتل الامام علي ، دون أن يكون ذلك راجعا الى خلاف سياسي أو فكري أو طمع في السلطة والجاه أو غير ذلك من الامور التي قد تذكر في هذا المضمار ، ولكن المؤلف يأبى الا أن يحصره في جانب الغرام والهيام كأنما العربي لا هم له الا شهوتا البطن والفرج ، من أجلهما يحارب ومن أجلهما يحيك المؤامرات ويتربص بأخيه الدوائر ، يا للعجب ، ويؤكد المؤلف هذا الزعم بمواقف غرامية عديدة أبرزها قوله بأن سعيدا قد وافق على الزواج بقطام بشرط أن يكون مهرها قتل الامام علي ، وهكذا فعل ايضا ابن ملجم ، بل ان سعيدا لا ينسى هذه الفكرة حتى في أحرج اللحظات لحظة موت الامام علي ، ثم لحظة احراق ابن ملجم ـ كما يزعم المؤلف ـ حيث يتحدث عن سعيد قائلا : " ولما اشتم سعيد رائحة القُتَر المتصاعد من بقايا ابن ملجم اشتفى غليله ولكن قوله : ان قطاما خطيئتي وان قتل علي مهر لها ظل يرن في أذنيه ..... (٢) " علما بأن حادثة احتيال قطام على عدد من الرجال كي يقتلوا الامام عليا ليكون ذلك مهرا لها حادثة غير واردة ولا حاجة تدعو اليها من الناحية الفنية ، وعلى فرض أنها ضرورية للتشويق المزعوم فان سرده لا يحتاج الى أكثر من بضعة أسطر ، وتصويره لا يتطلب أكثر من بضع صفحات ، فتركيز المؤلف عليها عن طريق تضخيمها واعادتها هنا وهناك خير دليل على أنه يهدف الى التمزيق لا التشويق ، ولنا عودة الى هذه المسألة في باب الشبهات ، ولكننا نختم هذا البحث بالاشارة الى أن المؤلف قد استرسل

---

(١) جورجي زيدان ـ رواية ١٧ رمضان ـ ص ١٩١

(٢) جورجي زيدان ـ رواية ١٧ رمضان ـ ص ١٨٩

في سرد الاحداث الغرامية والمواقف الاجرامية بعد أن توقفت الاحداث تماما في ص ١٩٤ وذلك دليل على عنايته الفائقة بالجانب الغرامي حيث تجده يتابع سرد المواقف الغرامية المتلاحقة من ١٨٧ ـ ٢٨٧ ، فكل جزء من أجزاء الرواية صالح للاستشهاد والاستدلال بأن الكاتب يعنى بالغرام أكثر من غيره .

٥) نهاية الرواية ومدى تطابقها مع مجريات الاحداث :

لقد كانت نهاية هذه الرواية نهاية سعيدة ، وتلكهي النهاية التي درج عليها جورجي زيدان في معظم رواياته ، وذلك لانه أنهاها بتنازل عبد الله لاخيه سعيد عن زوجته خولة ، مما جعل عمرو بن العاص يقول لسعيد : " طب نفسا يا سعيد ان خولة لا تزال بكرا ، وانما طلقها عبد الله صوريا كما تزوجها صوريا (١) " ولم يكتف بهذا انما اشار الى أن الحسن بن علي قد تنازل عن الخلافة حقنا للدماء (١) وهذا دليل على حرص المؤلف الشديد على النهاية السعيدة ، وهذه النهاية لا تتمشى مع مجريات احداث الرواية ولا تعتبر نهاية طبيعية لها ، انما تعمد المؤلف ان ينهيها بهذه الحالة تمشيا مع ما هو مقرر في التاريخ من جانب وتمشيا مع خط سيره العام الذى درج عليه في معظم الروايات التي كتبها عن تاريخ المسلمين أو تاريخ الاسلام كما يزعم .

---

(١) جورجي زيدان ـ رواية ١٧ رمضان ص ٢٨٦ ، ص ٢٨٧

ـ . : . ـ

٨- دراسة وتحليل
لرواية
(غادة كربلاء)

أ ـ أقسام الرواية
ب ـ زمن الرواية
جـ ـ شخصيات الرواية
د ـ مضمون الرواية
هـ ـ خاتمة التحليل وتشتمل على :

١) مزج الحقيقة بالخيال .
٢) ضعف الخيال أو التصوير الفني .
٣) التحليل النفسي لشخصيات الرواية .
٤) وسيلة التشويق في رواية غادة كربلاء .
٥) مظاهر المصادفة وأثرها .
٦) تناقض واضح فاضح .
٧) لغة الرواية ومدى سلامتها من العيوب والاخطاء .
٨) نهاية الرواية ومدى تطابقها مع مجريات الاحداث .

دراسة وتحليل لرواية
غادة كربلاء

أ ـ أقسام الرواية :

تتكون رواية " غادة كربلاء " من قسمين كبيرين هما :
القسم الاول : وهو القسم التاريخي الذى تحدث فيه المؤلف عن أخريات عهد معاوية بن أبي سفيان ومحاولته أخذ البيعة لابنه يزيد قبيل وفاته ، كما تحدث فيه عن بعض الحوادث التي وقعت في عهد يزيد بن معاوية ولا سيما خروج الحسين الى الكوفة ثم قتله وقتل أتباعه •
القسم الثاني : وهو القسم الغرامي المتمثل في قصة الحب المتخيل بين شخصيتين متخيلتين أيضا ، وهما عبد الرحمن الكندى وابنة عمه سلمى بنت حجر بن عدى حسب زعم المؤلف أو حسب تخيله •

ب ـ زمن الرواية :

لقد استغرقت حوادث هذه الرواية فترة زمنية طويلة تبدأ بأخريات عهد معاوية ابن أبي سفيان وتنتهي بوفاة يزيد بن معاوية بن أبي سفيان •

جـ ـ شخصيات الرواية :

اشتملت رواية " غادة كربلاء " على مجموعة من الشخصيات الثانوية والرئيسة وأهم شخصياتها الرئيسة :
١) الحسين بن علي بن أبي طالب الذى كان يرى أحقيته بالخلافة دون سواه ، وقد كان له مؤيدون وأنصار ولا سيما في الكوفة ، حيث دعاه أهلها ليبايعوه ، فكان ذلك سبب حبسه في كربلاء ثم قتله بسيوف أنصار يزيد بن معاوية ، وهو شخصية حقيقية وليست من خيال الكاتب •

٢) يزيد بن معاوية بن أبي سفيان ، الذى مهد له والده أسباب الملك ووطأ له أعناق الرجال قبيل وفاته ، والذى عرف بانغماسه في الملذات والملاهي وشخصيته حقيقية مستمدة من واقع الفترة التي أراد الكاتب أن يسجل أحداثها في قصة تاريخية ٠

٣) حجر بن عدى الكندى : من شيعة الامام علي ، وقد قتله معاوية بن أبي سفيان لتشيعه الشديد بإيعاز من زياد بن أبيه عامل معاوية على الكوفة ، وقد ركز المؤلف على خبر مقتله وجعله سببا باعثا على الانتقام الذى نسج حوله كثيرا من المواقف المتخيلة ، والامور المنتحلة وأياً ما كان الامر فشخصية حجر بن عدى شخصية واقعية أيضا ٠

٤) غادة كربلاء : بطلة هذه الرواية ، واسمها سَلْمَى بنت حجر بن عدى الكندى ، وقد شغلها المؤلف بالانتقام لابيها ، الى جانب حبها وتعلقها بابن عمها ، ومن ثم زج بها في مواقف غريبة وأحداث عجيبة ، وهي شخصية خيالية ، لا وجود لها في واقع الحياة ، لكن تخيلها زيدان وافترض وجودها لينسج حولها قصته الغرامية ، فجميع مواقفها إذن متخيلة أو منتحلة ٠

٥) عبد الرحمن الكندى : ابن عم سَلْمَى ، وخطيبها الذى حاول الانتقام لعمه حجر بن عدى بقتل يزيد بن معاوية قبل الزواج من ابنة عمه الا أن جميع محاولاته قد باءت بالفشل ، وهو شخصية خيالية لا وجود لها في تاريخ تلك الفترة ، وجميع مواقفها متخيلة أيضا ٠

٦) عامر الكندى : وهو الكفيل الذى أوصاه حجر علىى ابنته سلمى حسب ما جاء في رواية " غادة كربلاء " ولكن لا وجود لهذه الشخصية في واقع الحياة ، كما لا وجود لتلك الوصية في كتب التاريخ ، وقد تخيلها زيدان لتكتمل له الحبكة القصصية ٠

٧) شمر بن ذي الجوشن : قاتل الحسين بن علي بن أبي طالب في موقعة كربلاء ، والجاسوس الذي اكتشف مؤامرات عبد الرحمن وسَلْمَى في رواية " غادة كربلاء " بدافع الغيرة على عبد الرحمن والحقد على سَلْمَى التي لم تستجب لنداء قلبه ، فشخصيته ذات أبعاد حقيقية من حيث الاتصال بيزيد وأعوانه ، ومن حيث الاشتراك في موقعة كربلاء ، أما من حيث الغيرة على عبد الرحمن والحقد على سَلْمَى فلا وجود لها .

٨) عبيد الله بن زياد بن أبيه ، عضد يزيد بن معاوية ورفيقه وساعده ثم واليه على الكوفة حيث استطاع ان يخمد له الثورات والفتن التي اندلعت هناك ، فشخصيته من هذه الناحية شخصية حقيقية مستمدة من واقع الحياة ، أما من حيث التعلق بَسلْمَى والغيرة من يزيد عليها ، فلا وجود لها بهذه الصفات التي لم يذكرها أحد من المؤرخين .

٩) مسلم بن عقيل : ابن عم الحسين ومندوبه الذي بعثه الى الكوفة ليتثبت من ولاء أهل الكوفة ورغبتهم في البيعة للحسين ، وقد وجد تأييدا منقطع النظير ، ولكن سرعان ما اكتشف عبيد الله بن زياد أمره فقتله شر قتلة ، فشخصيته حقيقية دون ريب .

١٠) عبد الله بن الزبير بن العوام : صحابي جليل ، وقد اتهمه المؤلف بالرغبة في الاستئثار بالخلافة دون الحسين ، بل اتهمه بأنه هو الذي أوعز للحسين بالخروج من مكة والتوجه الى الكوفة حيث لقي مصرعه ، فخلا الجو لابن الزبير وشخصيته حقيقية أيضا .

١١) هانئ بن عروة : من وجهاء أهل الكوفة ، وقد استجار به مسلم بن عقيل عندما علم بوصول عبيد الله بن زياد الى الكوفة وتهديده الناس وقد كانت هذه الاجارة سبب تعذيب هانئ بن عروة وقتله بأمر من عبيد الله بن زياد على الرغم من العهد الذي أعطاه له ولقومه ، وشخصيته واقعية .

١٢) الشيخ الناسك الذى غلف المؤلف أمره وأسند اليه مواقف غريبة ثم أفصح عن حقيقته في آخر الرواية حيث أوضح انه " عدى " والد حجر الذى قتله معاوية ، فشخصيته إذن متخيلة من زيدان لتكتمل له الحبكة القصصية ، لكنها لم تساعد على الحبكة الفنية الممتازة بل دلت على الضعف والتكلف لانه لو وجد والد حجر وكان قادرا على القيام بتلك الادوار لما أوصى حجر عامرا بأن يرعى شؤون سلمى لأن جدها أولى بها من رجل غريب ، هذا مع ملاحظة أن الوصية ذاتها مستخيلة ، ولكنها لم تُسَوِّغْ التسويغَ الذى يجعلها مقبولة في مجال الفن والادب أو مجال الحقيقة والواقع .

د ـ ضمون الرواية :

بدأت رواية " غادة كربلاء " بمقدمة تاريخية مركزة شاملة ، حيث تحدث فيها المؤلف عن بني هاشم وبني أمية ، وأوضح أنهما فرعان لاصل واحد ، وان الرياسة في قريش جميعا كانت لهذين الفخذين ، الا أن بني أمية كانوا أكثر عددا ، ولما جاء الاسلام دعا الى نبذ العصبية ، لان الناس في نظر الاسلام سواء ، ولكن كاتب الرواية يفسر ذلك ويعلله بالنسيان ، ويرجع هذا النسيان الى دهشة العرب من النبوة ومن ثم انتقل الى الحديث عن بني امية فقط مبينا مكانتهم في عهد الفتح ثم في عهد أبي بكر الصديق رضي الله عنه ، حيث شكوا اليه قائلين : اننا لم ننل ما ناله المهاجرون من المناصب فأنفذهم في حروب الردة فأحسنوا الجهاد ، ولما جاء عمر رضي الله عنه بعثهم الى حرب الشام ففتحوها وظل معظمهم هناك ، بل أسندت ولاية الشام الى يزيد بن أبي سفيان حتى مات في طاعون عمواس ، فخلفه أخوه معاوية بن أبي سفيان الى أن اعلن الخلافة لنفسه سنة ٤١ ـ ٦٠هـ وعندئذ ترى المؤلف يتشاغل بالحديث عن معاوية مبينا قسوته ومركزا على كراهيته للذين لا يلعنون عليا ثم على قتله لشيعة علي وانصاره ، ومنهم حجر بن عدي الكندى ـ والد

سَلْمَى ـ بطلة هذه الرواية .

وتلك مقدمة تاريخية جيدة والبدء بها ضروري لمن يريد أن يعلم الشباب تاريخ أمته لانها بمثابة الخطوط العريضة أو القضايا المجملة التي يعقبها تفصيل بعد اجمال أو توضيح بعد ابهام ، فهل فصل المؤلف شيئا من ذلك التفصيل أو التوضيح عقب المقدمة الموجزة ؟

لقد انتقل المؤلف فجأة من تلك المقدمة المركزة الى الحديث عن أشياء لا تمت بصلة الى تلك المقدمة أو الى تاريخ الاسلام ، وذلك لانه أخذ يتحدث عن " دير خالد " مبالغا في وصف الدير وبيان أصله وما آل اليه أمره ، كما تحدث عن " غوطة دمشق " من خلال حديثه عن " دير خالد " ، ويبدو أن الاطالة في الحديث عن الدير كانت بمثابة التمهيد للوصول الى الاسرار والالغاز التي من شأنها أن تحرك أحداث الرواية ، ويتمثل أول سر في الضيوف الكرام الذين جاءوا الى الدير ومعهم فتاة بارعة الجمال ، وقد ارتاب رئيس الدير في أمرهم وشك في زعمهم بأنهم تجار فبقي أمرهم غامضا الى حين ، أما السر الآخر فقد جاء ماثلا في مواقف الشيخ الناسك صاحب الشخصية الغريبة حتى بالنسبة لرئيس الدير وقد استغرق الحديث عن هذا الناسك قرابة الصفحتين ، ثم جاء سر ثالث متمثل في شخصية الطارق المفاجئ الذي جاء فأزعج كل من في الدير ولا سيما الناسك وكلبه " شبوب " .

ثم دار حوار قصير بين الطارق الابرص ورئيس الدير ، كما دار حوار طويل آخر بين الضيوف الكرام ، وقد ألقى هذا الحوار الاضواء على الضيوف الغرباء حيث اتضح أن الفتاة هي سَلْمَى بنت حجر بن عدي الكندي الذي قتله معاوية بن أبي سفيان ، أما المرافقان فهما : عبد الرحمن ابن عمها وخطيبها ، ثم عامر الذي يعد وصيا على سلمى ، والذي دعاهم الى ذلك التنكر انما هو التفكير في تدبير مؤامرة لقتل يزيد بن معاوية ابن أبي سفيان ، أما الطارق المفاجئ فهو الجاسوس الذي يعني برصد تحرك اولئك المتآمرين .

انتقل المؤلف بعد هذا الى تفصيل قصة المتآمرين ، وقد اسرف في الحديث عنهم حتى وصل الى بيان كيفية خروجهم من الدير مشيرا الى أنهم قد ذهبوا الى قبر والد سلمى وجلسوا هناك ليستمعوا الى عامر الذي أخذ يحدثهم عن قتل حجر بن عدي بصورة تقشعر منها الأبدان مشيدا بموقف المغيرة بن شعبة الذي لم يرفع امر حجر بن عدي الى معاوية بن أبي سفيان ، حتى جاء زياد بن أبيه فاصطدم مع حجر وأرسله الى معاوية فقتله .

وقد تقيد المؤلف في هذا الجانب بالنص الذي جاء في كتاب ابن الاثير تقيدا يكاد يكون تاما ، هذا باستثناء الاضافات الخيالية التي جاءت في رواية زيدان ، مثل وصية حجر الموجهة الى عامر بخصوص ابنته " سَلْمَى " وما استتبعها من حوار بين عامر وسَلْمَى ، ومن مخاطرات ومؤامرات حيث لا ذكر لتلك الوصية في كتاب ابن الاثير الذي اعتمد عليه زيدان اعتمادا كبيرا ، وبالتالي لا وجود لتلك المخاطرات والمؤامرات ، بل لا وجود لشخصية اسمها سَلْمَى بنت حجر بن عدي ، ولكن المؤلف افترض وجودها ، واخترع حادث الاتفاق بينها وبين حبيبها على الانتقام لحجر بن عدي ، ولهذا ذهب بهما الى ذلك الدير ليكونا في انتظار يزيد الذي سيمر بالدير ابان رحلته للصيد ، عند ذاك يتمكن عبد الرحمن من الفتك به ، ومن هنا كان تشاغل المؤلف بالحديث عن موكب يزيد وهو في طريقه الى الصيد ، وعن أنواع الصيد ، مظهرا ما كان عليه يزيد من ترف وبذخ ، ولهو وعبث ، ثم انصراف عن شؤون الرعية ، وانتهى من ذلك الى الموازنة بين عهد يزيد وعهد الخلفاء الراشدين ، على حين أنه لا قياس بأية حال ، ثم انتقل فجأة ليتوكأ على عصا سحرية ، لها قدرة فائقة على تصعيد أحداث الرواية وتدرج مواقفها وتعقيدها ، حيث تحدث عن قذيفة الحب أو شرارته التي أصابت قلب رفيق الخليفة ورجله الاول عبيد الله بن زياد عند ما وقع بصره على وجه سَلْمَى بمحض المصادفة ، فشعر بجاذبية تشد قلبه

إليها وتثير عواطفه نحوها (١) ومن ثم امر رئيس الدير بأن يستبقيها عنده ريثما يعود .

أما سَلْمَى فقد شغلها المؤلف بالتفكير في أمر عبد الرحمن الذي ذهب وراء مركب الخليفة متحينا فرصة الانتقام منه والفتك به ، ولم تجد عندئذ من يسليها الا عامرا الذي اقترح عليها ضرورة الذهاب الى الشيخ الناسك الذي ادهشهما بقوله : الخطر على عبد الرحمن من ذلك الأبرص الذي خرج في أثره (٢) لذا شغل المؤلف نفسه وقراءه بالحديث عن حيرة سلمى وعامر في فصل كامل من ص ٦٤ ـ ٦٦ وعن حالتهما النفسية لحظة الانتظار في فصل كامل ايضا من ص ٦٦ ـ ٦٨ وفي الفصلين معا لم يجنح الى التصوير الفني البديع بل كان يرتكز على الاشارات العابرة واللمحات الفنية الخاطفة حتى انتهى الى الحديث عن الوقوع في الفخ وكان معتمدا على سرد محاولات عبد الرحمن في الانقضاض على الخليفة وما مني به من الفشل بسبب حراس الخليفة الأشداء وكلبه الامين .

عندئذ تشاءم الخليفة وانقبضت نفسه فقرر الرجوع عن تلك الرحلة وقد تعمد المؤلف ارجاعه عن طريق الدير ليتيح له فرصة رؤية سَلْمَى ذات الجمال البارع والفتنة الساحرة ، وقد تم اللقاء بين يزيد وسَلْمَى بحيلة غريبة دبرها المؤلف ، فافتتن بها يزيد ، وكان ذلك الاعجاب سببا في ابقاء نار الغيرة في قلب عبيد الله بن زياد الذي اشتدت غيرته وازداد حسده عندما شعر بانفراد الخليفة برئيس الدير ليحدثه بشأن تلك الفتاة .

أما سَلْمَى فلم تعرف شيئا عن هذه المنافسة بين الخليفة ورجله الاول ، كما لم تعرف شيئا عن خطيبها عبد الرحمن الذي ألقي القبض عليه ، ولما أخبرها عامر

---

(١) جورجي زيدان ـ رواية غادة كربلاء ـ ص ٣٠ ـ ٣٣
(٢) جورجي زيدان ـ رواية غادة كربلاء ـ ص ٦١

بذلك اشتد حزنها وازدادت كآبتها لكنها تصبرت وعللت نفسها بالاماني ، ولا سيما بعد أن أخبرها عامر بقرار سفره الى دمشق ليستمع الى أخبار عبد الرحمن ، فبقيت سلمى في الدير واذا بشمر ورئيس الدير يأتيان اليها ، ثم خرج الرئيس وترك شمرا مع سلمى محاولا اقناعها بالملاطفة حينا والتهديد حينا آخر ، وقد أفصح المؤلف هنا عن الدوافع الحقيقية التي جعلت شمر بن الجوشن يحيك المؤامرات ضد عبد الرحمن ، وعبر عن ذلك بقوله " ٠٠٠ ٠٠ ولكنه كان شديد الولع بسلمى منذ كانت في العراق ، وهو انما لحق بها الى الشام وأوقع بعبد الرحمن طمعا في الفوز بها " (١) لكنه عجز عن اقناعها بحبه اياها ، فانتظر عودة عامر الذي صرفه بلطف وبقي يفكر في طريقة للهرب من وجه هذا العاشق الحاقد ، وبينما هو كذلك اذا بمندوب الخليفة يأتي طالبا تجهيز سلمى لنقلها الى بيت الخليفة فازدادت حيرة عامر ولا سيما بعد التحول المفاجئ عند سلمى اذ أنها قررت قبول يزيد زوجا ، ودخل عامر معها في حوار وجدال لكي يثنيها عن هذا القرار ولكن دون جدوى ٠٠ فلجأ الى الشيخ الناسك يستفتيه فاذا به يطلب منه تركها وشأنها ، فعاد الى سلمى موافقا ومشجعا على الانتقام ، لأنه فهم من الناسك أن سلمى عزمت على الفتك بيزيد حينما تنفرد به في فراش الزوجية ، الا أن الموقف تعقد مرة أخرى وتأزم بسبب عودة شمر محاولا تجديد طلبه لسلمى ، ولما علم بأن سلمى قد جهزت لتذهب الى قصر الخليفة جن جنونه وتصاعد دم الحقد في رأسه فقرر أن يعمل ما في وسعه ليحول بين سلمى وبين تحقيق أمانيها ، فقفل راجعا الى دمشق ، بعدما تحرك موكب عروس يزيد الجديدة ووصل الى دمشق ، وكان المؤلف ـ في سرده للاحداث ـ برفقة الموكب ، حيث أتيحت له فرصة وصف مدينة دمشق وشوارعها الى جانب وصف قصر الخليفة وتسجيل مشاعر سلمى تجاه ما رأت قبالة ما كانت تتوقعه من مخاطر ومشاكل ٠

---

(١) جورجي زيدان ـ رواية غادة كربلاء ـ ص ٨١

ومنذ اللحظة الاولى وضعها المؤلف أمام المشاكل التي تحتاج الى رجاحة عقل وعمق تفكير ورباطة جأش ، حيث طلب منها الدخول الى الحمام وتغيير ملابسها بوساطة امرأة عجوز كانت في انتظارها ، لكنها استطاعت أن تقنع العجوز بتأجيل الحمام الى وقت آخر ، ومع ذلك لم تكن سلمى آمنة مطمئنة ، فتركها المؤلف على تلك الحال ، وأخذ يتحدث عن الجامع الاموى وأصله وعلاقته بكنيسة الرومان ، وعن أمور لا داعي لذكرها في رواية تتحدث عن تاريخ الاسلام .

ثم عاد الى سلمى ليعرفها بمداخل القصر ومخارجه ويجعلها تتفرغ بعد ذلك لمشاهدة التحقيق مع حبيبها وابن عمها عبد الرحمن من خلال كوة في مقصورة الخليفة، فسرت برباطة جأش عبد الرحمن الذى دار حوار عنيف بينه وبين يزيد مما جعل كل من في المجلس يتعجب من جسارة ذلك الأسير المقيد فأمهله يزيد الى الغد لعله يتراجع عن غروره ، وهذا التأجيل هيأ لسلمى أن تقول في نفسها : " اذا بقيت يا يزيد حيا الى الغد فاقتل عبد الرحمن " (١) وقد فاتها أن شمر بن ذي الجوشن كان وراءها بالمرصاد ، وبالفعل ظهر شمر فجأة في مجلس الخليفة ليبلغه بحقيقة هذا المجرم الذى تعرض لحياة الخليفة ، وانه على استعداد لان يواجه المجرم بكل ذلك، فاستدعى يزيد عبد الرحمن ليواجه شمرا ، فاعترف بنسبه وصرح بما كان يخفيه، ومن ثم أمر يزيد بقتله في صباح الغد وانتقل هو الى قصره حيث استقبلته سلمى على المائدة التي أعدها الخدم وأحضروا اليها ما لذ وطاب ، فشغل يزيد بكل ذلك وسحر سلمى وفتنتها ، ولم يفكر طويلا في قول شمر: " ان عروسك لا يركن الى قلبها فاحترس على نفسك منها " وندم شمر على عدم افصاحه للخليفة بأن سلمى هي بنت حجر بن عدى ، وأنها ذات صلة وثيقة بعبد الرحمن الذى أمر بقتله ، لذا كان لا بد

---

(١) جورجي زيدان ـ رواية غادة كربلاء ـ ص ١١٤

من تدبير مكيدة أخرى فذهب الى عبيد الله بن زياد وطلب منه ضرورة التوجه الى الخليفة في تلك الساعة المتأخرة من الليل واخباره بالخطر الذي يهدد حياته ، فاستجاب عبيد الله لهذا الطلب عندما تذكر ان سلمى بجانب يزيد "يمتع بصره وجسده منها" (١) فذهب وأبلغ الخليفة بالخطر الذي يهدده وبذلك انكشف مخطط سلمى حيث حصل يزيد على الخنجر تحت وسادته ، فهرع الى عبيد الله للتشاور في أمر هذه الفتاة المجرمة التي أرادت الفتك به ، وكان حائرا بين قتلها واستبقائها ، وأخيرا قرر استجوابها عن طريق عبيد الله بن زياد لعلها تعترف وتتوب ، وعدّ عبيد الله أمر الاستجواب فرصة ذهبية بالنسبة له ، اذ أنه سيتمتع لحظات بذلك الجمال الذي طالما تاقت نفسه الى التمتع به وبصاحبته ، فأخذ يحاورها وتحاوره ، ويداورها ويلاطفها كي تعترف وتتوب ثم تلعن عليا ، لكنه عجز عن حملها على ذلك ولا سيما بعد أن قال لها ان عبد الرحمن قد قتل ، فأيقن أن الكلام لا يجدي نفعا ، فعاد الى يزيد محاولا اقناعه بالعفو عنها لكنه رفض وأصر على قتلها فورا ، وحاول عبيد الله أن يذكره بحلم والده ودهائه ولكن دون جدوى ، وأخيرا أشار عليه أن يقتلها بالسم اذا كان لا بد من قتلها ، وعندئذ أخذ المؤلف يسرد قصة عجيبة — لا داعي لذكرها هنا — اذ أنها تتعلق باستخدام معاوية ابن أبي سفيان للسم في التخلص من أعدائه كما زعم زيدان ، وذكر منهم عبد الرحمن بن خالد بن الوليد ، والحسن بن علي عن طريق زوجته التي رغبها معاوية في ابنه يزيد ان هي قتلت زوجها الحسن كما يقول زيدان .

ثم انتقل المؤلف بعد هذا الى الحديث عن عبد الرحمن مركزا على خرافات المسيحيين وعقيدتهم في النساك ، وفي التداوي أو الشفاء عن طريق الجلوس تحت

---

(١) جورجي زيدان — رواية غادة كربلاء — ص ١٢٥

صورة القديس يوحنا (١) وهدفه من ذلك الحديث هو بيان ما قدمته الكنيسة والناسك من مساعدات لعامر في سبيل انقاذ عبد الرحمن وسلمى حيث استطاع الوصول الى سجن عبد الرحمن وفك قيوده بعد ضربة شديدة وجهها الى شمر، فانحلت العقدة وتكسرت قيود السجن، فحسب القارئ ان الخطر قد زال، ولكن الكاتب فاجأه بخطر آخر قائلا له : " ان هناك مشاكل عديدة واجهت عبد الرحمن وعامرا عندما كانا تحت السرداب يحاولان الفرار من السجن، فمن تلك المشاكل الاختناق الذى كاد يودى بحياتهما لولا المصادفة المجيبة التي حدثت آنذاك والتي كانت تتمثل في حفر قبر لسلمى التي حسب يزيد أنها قد ماتت من السم فأمر بدفنهما ليلا، فالحفر في ذلك السرداب كان انقاذا لحياة عبد الرحمن وعامر حيث دخل اليهما الهواء فتخلصا من الاختناق وعطس عامر عطسة دوت لها جوانب السرداب، وأجفل منها الحفاران فهربا خوفا من العفاريت، ومن ثم تطلع عبد الرحمن الى أن يلقى نظره على جثة سلمى، الا أن عامرا ألح عليه بالذهاب فورا لئلا يدركهما رجال الشرطة، فتوجها توا الى الناسك الذى رسم لعامر خطة الانقاذ، ليستأنسا برأيه ولما وصلا اليه طلب منهما الخروج من الشام والذهاب الى مكة والانضمام الى الحسين الذى كان هناك آنذاك، وبعد ذهابهما تفرغ المؤلف لسلمى التي كانت لعبة بين يديه أو دمية في روايته يحركها اينما شاء وكيفما أراد، غير آبه بما يضيف اليها من غرائب الامور، فتخيل أنها تحركت بعد فرار الحفارين وخلو المنطقة وتوجهت الى الشيخ الناسك الذى تعجب من أمر نجاتها ولم يحدثها بنجاة عبد الرحمن انما حرضها على الذهاب الى الكوفة، وقد جاء هذا التحريض استجابة لرغبة المؤلف الذى يريد أن يسرد على لسان سلمى أخبار الحوادث التي وقعت في الكوفة بسبب ضعف شوكة الامويين بها وتشيع معظم أهلها للحسين وأن يبين كيف استطاع عبيد الله بن زياد بمكره ودهائه أن يؤثر في

---

(١) جورجي زيدان — رواية غادة كربلاء — ص ١٤٦

شيعة الحسين الامر الذى جعل مسلم بن عقيل بن عم الحسين يستجير بهانىء ابن عروة من تلك الاهانة قائلا : انهم كادوا أن يفتكوا بعبيد الله بن زياد لكنه أقنعهم بأن هانئا حي ، أما مسلم بن عقيل فقد جمع ثمانية عشر ألف رجل من الشيعة وشدد الحصار على ابن زياد وجماعته ، ولكن سرعان ما انفك الحصار بخديعة من عبيد الله بن زياد وسرعان ما تفرق القوم عن مسلم فكان لا بد من فراره ولكن الى أين ؟

توجه به المؤلف ـ كما جاء ذلك في كتب التاريخ ـ الى منزل طوعة الكندية ، حيث تقيم سلمى ـ حسب رواية زيدان فقط ـ فشرح لها سبب فراره وما ينوى فعله في المستقبل ولكن فات عليه أن بلال بن طوعة قد أضمر له سوءا لما علم بوجوده في منزل والدته ، ففي الصباح الباكر حاصر دار طوعة عدد كبير من رجال ابن زياد ، ودارت معركة اشتركت فيها سلمى ـ حسب زعم زيدان ـ وأخيرا ألقي القبض على مسلم بن عقيل ، فأمر ابن زياد بقتله وقتل هانىء بن عروة على الرغم من أنه قد التزم بعدم قتله ، فخلا الجو للامويين بهذه الوسائل التي أعجبت المؤلف فأشاد بها (١) على حين أنه ليس من حقه أن يبدى رأيا طالما أراد أن يشوق القارىء الى مطالعة التاريخ فقط كما يزعم ، وهكذا انكسرت شوكة الحسين وهربت سلمى الى الناسك مرة أخرى ، واذا بالناسك يفاجئها بقوله إن عبد الرحمن لا يزال حيا فتهيجت أحزانها ، لكن الناسك حاول التخفيف عنها وحرضها على الذهاب للقاء الحسين ، واخباره بما حدث لمسلم بن عقيل لكيلا يأتي الى الكوفة فيلقى نفس المصير ولكن سلمى لم تتمكن من الوصول الى الحسين قبل وصول جماعة عبيد الله بن زياد اليه ، حيث تفاوضوا معه واذعن الحسين لقرارهم فأحست سلمى ـ كما يقول زيدان ـ بعجز الحسين وضعفه ، ومن ثم قررت الكف عن أمر الحسين ، لتنصرف الى التفكير والبحث عن حبيبها عبد الرحمن ،

---

(١) جورجي زيدان ـ رواية غادة كربلاء ـ ص ١٩٢

فكان لا بد لها من الدخول الى خباء النساء ، وقد أدخلها المؤلف بخياله لتكشف أحوال القوم بعد أن أجبروا على النزول في كربلاء ، لذا أخذ يجري على لسانها العبارات المرية ويحكي المواقف العجيبة مازجا الحقيقة بالخيال ، حيث قال ان الشيخ الناسك نصح الحسين وقال له : اطلب الرجوع فان قبلوا كان والا فانك .... وبكى بصوت عال وبكت سلمى ، وأردف الناسك قائلا : كان ابن زياد يقبل طلبك لولا شمر بن ذي الجوشن الذي استطاع أن يحصل على تفويض من ابن زياد بضرب عنق سعد بن أبي وقاص اذا رأى منه توانيا في قتالكم ، على أن يكون هو الامير ، ومن ثم بدأ التضييق على الحسين ومنع الماء عنه وعن الاطفال والمرضى ، وبالغ المؤلف في تصوير هذا الجانب ، وهكذا الى أن جاء صباح القتال وأبدى جماعة الحسين استبسالا وصمودا ، بل حدث تحول عجيب من بعض جماعة عبيد الله بن زياد حيث انضموا الى الحسين ، ومن اولئك " الحر بن يزيد " الذي حبس الحسين وجعجع به في كربلاء بأمر من عبيد الله بن زياد ،لكنه تاب وندم على فعله وانضم الى الحسين ليدافع عنه وهذا موقف جدير بالتصوير والتكبير ولكن زيدان لا يرضيه ذلك ، ولذا يكتفي بنقل فقرات مما ذكره ابن الاثير في هذا الصدد ، ليتحول الى غرائب الامور التي تهمه وهي : اختطاف الشيخ الناسك لسلمى فجأة من موقعة كربلاء التي كانت مصرة على الاشتراك فيها ، ثم الاستسقاء للطفل بالصورة الغريبة التي جاءت في الرواية ، ثم اضطراب سلمى وحيرتها بين الاستجابة لنداء العاطفة والغرام وبين الاستجابة لنداء المبدأ والعقيدة ، وأخيرا استجابت لمبدأ الانتقام ، ولعقيدة التشيع لآل البيت ، فبقيت حتى شهدت قتل الحسين ، وأجرى المؤلف على لسانها أخبار القتل والتعذيب (١) وعبارات الندب والرثاء للحسين (٢) .

---

(١) جورجي زيدان _ رواية غادة كربلاء _ص ٢٣٢ _ ٢٣٥

(٢) جورجي زيدان _ رواية غادة كربلاء _ص ٢٣٦

وقد بالغ في ذلك حيث جعل الشيخ الناسك يلقي بنفسه على جثة الحسين ، ويتمرغ في دمائها ، ويستحلفه بالله أن يقرئ حجرا السلام ، ويخبره بأنه قد صبر على قتله صبر الرجال وسيصبر حتى يلحق به ، بل يطلب منه أن يخبر جده رسول الله صلى الله عليه وسلم بما فعل المسلمون بعده . وقد استمعت سلمى الى كل ذلك ، وأرادت الاستفسار من الناسك ، لكن المؤلف حال بينها وبين الاستفسار حيث نقلها الى الكوفة مرة ثانية ، لتحكي لنا موقف عبيد الله بن زياد من رأس الحسين ومن أسرته ، وقد أثبت المؤلف هنا صورا لا داعي لذكرها على الرغم من أنها واردة في كتاب ابن الاثير .

ثم انتقل بها الى دمشق لتحكي لنا موقف يزيد من رأس الحسين ومن أسرة الحسين ، وليقول لنا إن سلمى قد تذكرت ليلتها التي قضتها في دار يزيد ، كما تذكرت موقفها وموقف ابن عمها عبد الرحمن ، فحارت ماذا تفعل اذا اكتشف يزيد أمرها ، وأخيرا استقر رأيها على الخروج من القصر بأية وسيلة أو حيلة ، واختار لها المؤلف الذهاب الى قبر والدها ، وهناك أدت المصادفة دورها مرة ثانية ، حيث السعال الذى كان سببا في انقاذ عبد الرحمن وعامر من الاختناق داخل السرداب واذا به يكون سببا في الجمع بين سلمى والشيخ الناسك الذى أقنعها بضرورة الارتحال الى دير بحيراء ليقيما هناك حتى يأتي الفرج .

ذهبا الى دير بحيراء ، وتفرغت سلمى لخدمة الدير ، وأعطيت اسما جديدا هو الأخت مريم ويقول المؤلف إنها قد وجدت في تلك الخدمة عزاء وراحة وسعادة لم تكن تشعر بها من قبل ، بل اتيحت لها فرصة الانتقام ، حيث كان يزيد متوجها الى حوران ، فمر بالدير ليقيم يوما أو يومين ، فكان الدير وكل من في الدير في خدمته ، وقد استرعت انتباهه آنذاك بصورة خاصة الأخت مريم ، لما بينها وبين سلمى من تشابه قوى ، وما كان يدرى أنها هي عينها ، فطلب من رئيس الدير أن يسمح للاخت مريم كي تصحبه في بقية سفره الى حوران ، فوافق الرئيس ووافقت سلمى ، لانها تريد

هذه الفرصة لتقتل يزيد ، وقد استطاعت أن تسقيه جرعة السم وهي تقول في نفسها " اني والله قاتلته بسلاحـه " .

ثم هربت سلمى مع الشيخ الناسك ـ بعد تقديم جرعة السم ليزيد ـ حتى وصلا الى البلقاء واختفيا في قصر مهجور ، وهناك تم اللقاء بينهما وبين عبد الرحمن وعامر بمحض المصادفة ، تلك التي عقد لها المؤلف فصلا خاصا أسماه " صدفة غريبة " وهي غريبة حقا ، ولا يصدقها العقل ، لكن خيال زيدان الذي درج على خلق غرائب الامور وتأليف المتناقضات يفرض علينا ذلك فرضا ، ليصل بنا الى الخاتمة السعيدة التي ينشدها في كل رواية ، وها هو ذا قد جمع بين الأحباء الاربعة في ذلك القصر المهجور ، بعد أن حقق لهم حلما طالما تاقت نفوسهم اليه ، بل كشف لهم عن سر خطير ، وذلك عندما أوضح لهم أن الشيخ الناسك يعتبر جدا لسلمى من جهة أبيها ، وعندما بين لهم سبب ارسال شعره بتلك الصورة الغريبة ، بل جعل الشيخ الناسك يخاطب سلمى وعبد الرحمن والوصي على سلمى (عامر) قائلا لهم : " .... أما وقد مات يزيد فقد آن لي أن اسلم الروح (١) " ثم يقول زيدان معقبا على قول الشيخ الناسك : وما إن أتم قوله حتى أسلم الروح فبكاه عبد الرحمن وعامر وسلمى ثم دفنوه ، وارتحلوا الى مكة حيث ابن الزبير ، وحيث لا سلطان للامويين فعقدوا لعبد الرحمن على سلمى وعاشوا في هناءة وسعادة " .

هـ ـ <u>خاتمة التحليل :</u>

١) <u>مزج الحقيقة بالخيال :</u>

يتضح من ذلك التحليل ـ الذي حاولنا به أن نتتبع جميع المواقف التي صورها زيدان في رواية " غادة كربلاء " ـ أن المؤلف لم يعن الا بتقديم النزر اليسير من الحقائق التاريخية ، اذ أن ثلاثة أرباع الرواية كانت تصويراً لاحداث خيالية ومواقف

---

(١) جورجي زيدان ـ رواية غادة كربلاء ـ ص ٣٢٠

غرامية مسفة لا وجود لها البتة في المصادر التاريخية المعتمدة .

والذي دعا المؤلف الى ذلك المزج انما هو استكمال حلقات التاريخ المفقودة كما يزعم ، ولعله هذا قد يكون مقبولا اذا تساوت فيه النسب أو تغلب فيه جانب الحقيقة على جانب الخيال ، لكن النسب لم تتساو عنده ، ولم يتغلب جانب الحقيقة على جانب الخيال ، لهذا نقول ان المؤلف لم يكن موفقا في عملية المزج هذه ، ويبدو أنه قد تعمد الارتكاز على جانب الخيال والمواقف الغرامية المسفة دون سواها بغية الدس والتشويه والبلبلة والتمزيق ، وليس بقصد الحث والتشويق على مطالعة التاريخ كما يزعم .

والذي يؤكد ذلك ما يلي :

أ ـ لقد التزم المؤلف جانب الحقائق التاريخية بالنسبة لمقتل حجر بن عدي وجماعته ، لكنه أضاف الى تلك الحقائق عددا كبيرا من المواقف المتخيلة ، مثل وصية حجر لعامر لكي يعنى بشؤون ابنته سلمى ، علما بأنه لا وجود لشخصية اسمها سلمى بنت حجر بن عدي ، ولا وجود لتلك الوصية في كتاب الطبري الذي تحدث بإسهاب عن خبر مقتل حجر بن عدي وأصحابه في حوادث سنة احدى وخمسين (١) كما لا وجود لتلك الاشياء في كتاب ابن الاثير الذي اعتمد عليه المؤلف اعتمادا كبيرا في تأليف روايته ، هذا مع ملاحظة أن المؤلف قد أخطأ في نقل بعض العبارات ، وقد أدى ذلك الخطأ المتعمد الى تشويه شخصية حجر بن عدي ، حيث ذهب زيدان الى أن حجرا عندما قدم للقتل قال لجلاديه : " ..... فانني ما توضأت ولا صليت " (٢) بينما النص عند ابن الاثير هكذا : " ...... فانني ما توضأت الا صليت " والفرق واضح بين دلالة التعبيرين .

وعلى فرض صحة عبارة زيدان أو عدم صحتها ، ثم على فرض تعمده لذلك

---

(١) ابن جرير الطبري : تاريخ الطبري ج ٥ ص ٢٥٣ ـ ٢٥٨ طبعة دار المعارف بمصر تحقيق ابو الفضل ابراهيم .

(٢) جورجي زيدان ـ رواية غادة كربلاء ـ ص ٣٤

الخطأ أو عدم تعمده اياه هل من ضرورة الى التوسع والمبالغة في خبر مقتل حجر بن عدى وأتباعه وما ترتب على ذلك من اختراع وصية انتقام وابتكار شخصيات لا وجود لها في واقع الحياة ؟ هل من ضرورة فنية أو تاريخية الى كل ذلك ؟

نحن نعتقد انه لا ضرورة تاريخية لأن مؤلف رواية " غادة كربلاء " لا يريد أن يكتب تاريخا إنما هو بصدد كتابة رواية فنية أو قصة تاريخية ، ونعتقد أنه لا ضرورة فنية الى ذلك لأن الادب الحق والاديب البارع هو الذى يعتمد على الانتخاب والاصطفاء للمواقف التي تشوق القارئ وتدعوه الى مطالعة كتب التاريخ بغية التوسع ولا تنفره منها ، كما تدعوه الى الوقوف طويلا عند الحوادث التي تتيح فرصة التفكير والتأمل لاستخراج الدروس والعبر دون أن يتعقد أو تتحطم مشاعره وتتبلبل أفكاره .

فهل حققت رواية غادة كربلاء شيئا من ذلك أو قريبا منه ؟

نستطيع أن نقرر — ونحن مطمئنون — أنها لم تحقق شيئا من ذلك ، لان كاتبها لم يعمد الى ذلك الاصطفاء الذى أشرنا اليه ، ولكنه ركز على المواقف التي تبلبل الافكار وتحطم المشاعر ، ثم مزج تلك المواقف بنفثات خياله الجامح ، ومن ذلك تصويره لمقتل حجر بن عدى بصورة بشعة ، ثم حديثه عما زعمه من محاولة سلمى الانتقام لابيها بوساطة الحب والهيام بابن عمها ، وكان في مقدور المؤلف أن يذكر بدلا من هذه المواقف المسفة والصور المنتنة مسائل أخر تتصل بحجر بن عدى وتعد عاملا مساعدا في تشويق القارئ الى مطالعة التاريخ ، بل الى دراسة شخصية حجر بن عدى دراسة مستقلة .

وقد وردت تلك المسائل في كتاب ابن الاثير الذى اعتمد عليه المؤلف اعتمادا كبيرا ، لكنه أعرض عنها ، لأنها لا تمت بصلة الى المواقف الغرامية المسفة ، ونذكر منها على سبيل المثال رأى السيدة عائشة أم المؤمنين في حجر حيث

قالت عنه : " انه كان مسلما حجاجا محتمرا " وأرسلت عبد الرحمن بن الحارث الى معاوية بن أبي سفيان فيه وفي أصحابه (١) ، كما قال الحسن البصرى : أربع خصال كن في معاوية لو لم تكن فيه الا واحدة لكانت موبقة : انتزاؤه على هذه الامة بالسيف حتى أخذ الامر من غير مشورة وفيهم بقايا الصحابة وذوو الفضيلة واستخلافه بعده ابنا سكيرا خميرا يلبس الحرير ويضرب بالطنابير ، وادعاؤه زيادا ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : الولد للفراش وللعاهر الحجر ، وقتله حجرا وأصحاب حجر ، فيا ويلا له من حجر ويا ويلا له من حجر وأصحاب حجر " (٢) .

ثم هناك قصيدة هند بنت زيد الانصارية التي ترثي فيها حجرا نذكر منها قولها (٣) :

ترفع أيها القمر المنير	تبصر هل ترى حجرا يسير
يسير الى معاوية بن حرب	ليقتله كما زعم الامير
تجبرت الجبابر بعد حجر	وطاب لها الخورنق والسدير

فاذا كانت كتب التاريخ (٤) تثبت هذا أفليس جديرا بكاتب القصة التاريخية أن يعنى به .

ب ـ ذكر المؤلف أن سبب مقتل حجر بن عدى هو تهوره وتحرشه بعبيد الله بن زياد ، وقد أخذ هذا التعليل من ابن الاثير لكنه اضفى عليه ظلالا وايحاءات عديدة ، على حين أن ابن الاثير قد ذكر عدة أسباب لمقتل حجر بن عدى (٥) في روايات

---

(١) عزالدين علي بن أبي الكرم ـ الكامل في التاريخ ـ المجلد الثالث ـ ص ٤٨٧

(٢) عزالدين علي بن أبي الكرم ـ الكامل في التاريخ ـ المجلد الثالث ـ ص ٤٨٧ المرجع السابق

(٣) عزالدين علي بن أبي الكرم ـ الكامل في التاريخ ـ المجلد الثالث ـ ص ٤٨٧ـ٤٨٨

(٤) راجع تاريخ الطبرى ـ المجلد الخامس ـ ص ٢٧٩

(٥) عزالدين على بن ابي الكريم ـ الكامل في التاريخ ـ المجلد الثالث ـ ص ٤٨٨

مختلفة ، ولم يشر الى أن هناك تهورا من حجر فكان الافضل أن يأخذ المؤلف ـ الذى يريد تشويق الشباب الى قراءة التاريخ ـ بأسباب أخر أو بسبب آخر غير هذا السبب الذى ذكره ليزعج به القارئ ، وفي أخبار ابن الاثير متسع ومجال للاصطفاء لمن يريد الاصطفاء والانتخاب .

جـ ـ استنطاق الشخصيات في كثير من الحالات بعبارات فيها الغمز واللمز والطعن ، ونأخذ مثلا لذلك ما أجراه على لسان عبد الرحمن وهو يخاطب سلمى بقوله : " أنا أسعى في استئصال شجرة فاسدة ، اني أسعى في انقاذ الاسلام من فساد تولاه ولا علاج له غير القطع ... "(١) على حين أن الفساد كان في نفوس بعض المسلمين ، وليس في جوهر الاسلام الذى هو نور من الله ، والله متم نوره ولو كره الكافرون .

د ـ تفسير تصرفات عبيد الله بن زياد وعدم مبالاته بالعهد الذى أعطاه لمسلم وهانئ بأنه أمر عظيم ودال على الحزم والدهاء تفسير مغرض ، والفكرة التي بنيت على أساس هذا التفسير فكرة خاطئة ، وهي أن الغاية تسوغ الوسيلة ، وتتضح هذه الفكرة من خلال القول الذى يمثل رأي زيدان صراحة ، وليس استنطاقا أو اجراء لعبارات معينة على لسان شخصية من الشخصيات ، وذلك عندما حكم زيدان على تصرفات عبيد الله بن زياد بقوله : " .... ولكنه في سبيل الغاية التي يهدف اليها يعد حزما ودهاء ، لان الدول في أول نشأتها لا يتأيد استقلالها وتنجو من الدعاة اوالمطالبين الا اذا صم اصحابها آذانهم عن نداء الضمير ، وجعلوا كل همهم في مصالحهم الخاصة ... " (١) .

عجيب قيام الدولة على الصولجان والجبروت والطغيان ، وعجيب عناية الحاكم بمصالحه الخاصة فقط بعد تجرده من الضمير أو عدم استجابته لندائه ، وما هكذا كانت الدولة الاسلامية الحقة بل كانت تقوم على الايمان وعلى تربية الضمير

---

(١) جورجي زيدان ـ رواية فتاة كربلاء ـ ص ١٩٢

لدى الحاكم والمحكوم على السواء : " كلكم راع وكل راع مسئول عن رعيته " .

هـ — اعتماده على أضعف الروايات في كثير من الحالات ، من ذلك قوله : ان الحسين قال لعمر بن سعيد بن أبي وقاص : " أما اذا أكرهتموني فأنا أنصرف عنكم أو آتي يزيد بن معاوية فأضع يدي في يده ... (١) " في حين أن ابن الاثير قد ذكر رواية اخرى غير هذه الرواية التي تدل على ضعف الحسين واستسلامه ، بل ذكر رواية تنقض هذه الرواية من أساسها فلماذا لم يأخذ بها الكاتب ، ألا يعتمد هو على الاصطفاء والانتقاء اللذين هما ميزتان من ميزات الادب الرفيع الصادق .

و — لا ذكر في كتاب ابن الاثير والطبرى للقول بأن الشيخ الناسك قد اتصل بالحسين بغية توجيهه وارشاده ثم أن زيدان الذى ذكر هذا القول لم يثبت المرجع أو المصدر الذى أخذ منه هذا القول ، وذاك تضليل وتشويه ، بل عقد فصلا كاملا (٢) لهذا القول المرتكز على خياله فقط .

ز — ويتضح مزج الحقيقة بالخيال اكثر ما يتضح في وصف جعفر الطيار بأنه ذو جناحين في الجنة عندما قال زيدان على لسان الحسين مخاطبا أهل العراق : " .... ألستُ ابْنَ بنتِ نبيكم وابنَ وصيِّه وابْنِ عمه وأوّلِ المؤمنين المصدق لرسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى آله بما جاء من عند ربه . أوليس حمزةُ سيد الشهداء عمي ؟ أوليس جعفر الطيار في الجنة بجناحين عمي ؟ " (٣) وقد أخذ زيدان هذا النص من ابن الاثير (٤) لكنه اضاف اليه كلمة " بجناحين " من خياله لحاجة في نفسه ، وهكذا كان دأبه في كثير من الحقائق وما ذكرناه في فقرات (أبجد هوز) نماذج تؤكد عناية الكاتب بهذا المزج غير الموفق .

---

(١) جورجي زيدان — رواية غادة كربلاء — ص ٢١٤
(٢) جورجي زيدان — رواية غادة كربلاء — ص ٢١٥
(٣) جورجي زيدان — رواية غادة كربلاء — ص ٢٢٣
(٤) عزالدين علي بن ابي الكرم — الكامل في التاريخ — مجلد ٤ ص ٦٢

٢) ضعف الخيال أو التصوير الفني :

معظم الاحداث التي تحدث عنها جورجي زيدان في رواية غادة كربلاء لم يجنح الى تصويرها تصويرا فنيا بحيث يمتع قراء الادب ويهز مشاعرهم فيحسون بسحر بيانه وروعة تعبيره وجمال تصويره ، انما اعتمد فيها على السرد التاريخي لحقائق ممتزجة بمواقف متخيلة وخاطرات منتحلة ، وهكذا كان ديدنه في معظم رواياته ، باستثناء اللمحات الخاطفة والحالات النادرة التي كان يأتي فيها بصورة فنية . ومعظم الصور التي جاءت في هذه الرواية عبارة عن تشبيهات باهتة الظلال لا تشير الى براعة أو طرافة ، ولا تدل على قدرة فنية ، ولكنها تشير الى التكلف ، وتدل على العجز عن التصوير الفني ، ذلك العجز الذى أفصح عنه المؤلف نفسه بقوله " .... ناهيك بما يراه حينئذ من جمال فمها وما فيه من المعاني التي تسلب القلوب ، مما يقصر القلم عن وصفه ويكل اللسان ، والجمال الذى يعبر عنه باللسان أو القلم ليس جمالا وانما هو صورة يمثلها الكاتب والمتكلم بألفاظه ، ولكن الجمال ما أعجزك وصفه وخانتك القريحة في التعبير عنه ، ذلك هو جمال سلمى عروس روايتنا ... " (١) .

نعم ذلك هو جمال سلمى الذى عجز قلم المؤلف عن تصويره ، والقارئ ينتظر ذلك التصوير والتعبير الادبي ، لانه لا يرى سلمى ، بل لا وجود لشخصية اسمها سلمى بنت حجر بن عدى ، بل هي شخصية متخيلة ومفترضة ، وتخيل صفاتها أو التعبير الادبي عن ملامحها وقسماتها أيسر وأهون من افتراض وجودها ، ولكن قريحة زيدان لم تسعفه في التعبير عنها ، فكان ذلك دليل نقص وأمارة عجز وقصور عن التصوير الفني .

ومن صوره الفنية في هذه الرواية تصويره لبزوغ الفجر في غوطة دمشق حيث قال : " فأرسلت أشعتها على تلك المغارس الواسعة ففزعت أطيارها وتناثرت عن الاغصان

---

(١) جورجي زيدان ـ رواية غادة كربلاء ـ ص ١٤

اسرابا تتسابق الى الخلاء البعيد وقد اتجه معظمها إليه كأنها تتلمس الشمس وهي ترحب بها بالزقزقة والتغريد (١) فالترحيب بالزقزقة والتغريد أمر جميل ومناسب مع تلك اللحظة ، ولكن لا معنى لتلمس الطيور للشمس ولا سيما بعد أن قال إنها قد فزعت من أشعة الشمس ، على حين أنها ليست بمفزعة أو مخيفة ، لانها أجمل شيء في الطبيعة لهذا قال عنها حافظ ابراهيم :

لاح منها حاجب للناظرين   فنسوا بالليل وضاح الجبين

ومحت آيتها آيته   وتبدت فتنة للعالمين

هي أم الارض في نسبتها   وهي أم الكون والكون جنين

هي طَلْعُ الروض نوراً وجَنَى   وهي نَشْرُ الورد طيبُ الياسمين

هذا مع ملاحظة أن الوصف الذي أتى به زيدان لم يكن وصفا وَظَفِياً ، وذاك عيب كبير كما سنعرف .

٣) <u>التحليل النفسي لشخصيات الرواية :</u>

من دراستنا لرواية " غادة كربلاء " اتضح لنا أن المؤلف لم يكلف نفسه عناء التحليل النفسي لشخصيات روايته بحيث تتحرك داخل الرواية تحركا طبعيا فيحس القارئ بأنها شخصيات ذات أبعاد حقيقية ، وأن كلا منها مزيج من الخير والشر ويتم التمييز بينهما عندئذ بوساطة المواقف والتصرفات ثم السمات التي من شأنها أن تعطي الشخصية الانسانية صفة فارقة ، لا عن طريق الملابس أو الحلي كما فعل زيدان ازاء تصويره لشخصيات رواياته ومن ثم جاء التصوير عنده ضعيفا أو بعيدا عن التحليل النفسي للشخصية .

نأخذ لذلك مثلا تصويره لسلمى (عروس الرواية) ولابن عمها عبد الرحمن ، ثم وصيها عامر حيث قال عنهم جميعا : " ويدل مجمل حالهم على أنهم تجار

---

(١) جورجي زيدان — رواية غادة كربلاء — ص ١٠

من العراق وقد جاءوا بهذه السلع ليبيعوها في دمشق " (١) ثم قال " ٠٠٠٠٠
أحدهم كهل في نحو الخمسين من عمره طويل القامة عريض الاكتاف ، خفيف المضل
واسع العينين اسودهما ، خفيف العارضين واللحية ، والثاني شاب لا يتجاوز عمره
بضعا وعشرين سنة ولكن من يراه يحسبه ابن ثلاثين لخصب جسمه ونمو عارضيه ولحيته ،
والثالث الفتاة ٠٠٠٠ ولم يكن في وجهها بدانة ظاهرة ولكن وجهها كان ناضرا وفيه
رونق ينطق بما وراء ذلك من الصحة وخاصة في تلك الساعة على أثر السفر ٠٠٠ " (٢) ٠

وهكذا كان موقفه من جميع شخصيات الرواية لا يذكر الا البدانة في الجسم أو النحافة ثم سعة العينين وخفة العارضين ، وكل هذا ليس من شأنه أن يرسم الشخصية رسما فنيا حتى يعطي معلومات ثابتة وافكارا محددة عن كل شخصية ،وتلك طريقة معيبة لانها لا تساعد القارئ في التعرف على الشخصيات من خلال مواقفها وتصرفاتها ، فضلا عن أن تشبع رغبته في التعرف على مصائر الشخصيات ٠

وسر جمال القصة أو الرواية انما يكمن في قدرة الكاتب على حث القراء وتشويقهم الى متابعة الشخصية في جميع مواقفها لمعرفة مصيرها أو نهايتها ٠

٤) وسيلة التشويق في رواية " غادة كربلاء " :

لما لم يعن زيدان بالتحليل النفسي كان لا بد له من الارتكاز على وسيلة أخرى تشوق القارئ ، وقد تمثلت هذه الوسيلة الاخرى في اعتماده على عنصر الغرام اولا ، ثم على الالغاز والاسرار ، حيث بدأ بتصوير حب عبد الرحمن لابنة عمه سلمى بنت حجر ، ثم وضع أمامه العقبات والعراقيل ، وقبل أن يعرف القارئ مصير هذه الشخصية أو نتيجة حبها لسلمى نرى الكاتب يصور عبيد الله بن زياد محبا لسلمى على حين غفلة منها ،وقبل أن ينمو هذا الحب ويترعرع يثني الكاتب بعلاقة حب آخر ، هو حب يزيد بن معاوية لسلمى ، ويتيح فرصة النمو لهذا الحب حتى اذا كاد يؤتي أكله اجتثه من اصله ،

---

(١) جورجي زيدان ـ رواية غادة كربلاء ـ ص ١٢

(٢) جورجي زيدان ـ رواية غادة كربلاء ـ ص ١٣

وجمل يزيد يصطدم بالمخاطرات والمؤامرات التي دعته الى أن يصدر قرارا باعدام سلمى على الرغم من تعلقه الشديد بها • ومن ثم أخذ القارئ ينصرف عن المتابعة ، لانه أيقن بفشل حب يزيد ، وتوقع موت سلمى ، الى جانب موت الحدث الروائي ، لكن المؤلف شده وجذبه الى المتابعة بوسيلة أخرى غير وسيلة الغرام ، وهي الحديث عن الاسرار والالغاز التي جاءت في ثنايا المخاطرات •

ومن تلك الاسرار قصة الشيخ الناسك وكلبه شيبوب وموقف كل منهما من سلمى وعبد الرحمن ، ومنها أيضا قصة الجاسوس الابرص ومؤامراته الى جانب حبه لسلمى ثم اصراره على الفتك بها وبعبد الرحمن ، وقد بقي أمر الشيخ الناسك لغزا مغلقا حتى آخر الرواية حيث أفصح الكاتب عن علاقته الحقيقية بسلمى بعد أن تم اجتماع الشمل • فوسيلة التشويق اذن كانت تتركز اساسا وتعتمد على الاسرار والالغاز ثم المواقف الغرامية ، وتلك وسيلة رخيصة لا تستهوي الا القراء العاديين أو أنصاف المثقفين •

٥) <u>مظاهر المصادفات وأثرها :</u>

كما كان للاسرار والالغاز أثر في تضخيم الاحداث وتصعيدها ثم تشويق القارئ الى المتابعة فقد كان للمصادفات أثر كبير في تصعيد أحداث رواية " غادة كربلاء " وتعقيد مواقفها ، وقد تمثلت تلك المصادفات في مظاهر كثيرة نذكر منها على سبيل الاستشهاد :

أ — رؤية عبيد الله بن زياد لسلمى بمحض المصادفة (١) ، وشعوره بجاذبية تشده اليها لمجرد نظرة لم يتبعها سلام أو كلام فموعد فلقاء ، فضلا عن دراسة الشخصية ثم التصرف على مناحيها ، وقد كان لهذه المصادفة أثرها الكبير في تصعيد الاحداث الى حين •

---

(١) جورجي زيدان — رواية غادة كربلاء — ص ٤٨

ب ـ افتتان يزيد بسلمى فجأة ، وذلك عند ما كان يجرى وراء كلبه الذى هرب منه الى الدير ودخل غرفة سلمى حسب زعم المؤلف (١) ، وكأنما هو كلب شرطة يريد التعرف على ذيول الجريمة التي ارتكبها عبد الرحمن واكتشفها الكلب فجأة ، وقد كان لهذين الموقفين اللذين تحققا عن طريق المصادفة أثر في تصعيد أحداث الرواية وتعقيد مشاكل سلمى التي وقعت في براثن قاتل أبيها وآسر حبيبها ، الا أن المصادفة هنا كانت من قبيل المصادفة المصطنعة والمتكلفة ، بل أن فيها كثيرا من التهافت والابتذال ، اذ أنه ليس من المعقول أن يجرى الخليفة وراء كلب بتلك الصورة ليقع في شراك الحب أو الغرام الذى يطرب لـه زيدان ، انه أمر غير معقول مهما كان ترف الخليفة وانصرافه عن شؤون الرعية ، وهو أمر غير سائغ ولا معلل تعليلا فنيا .

جـ ـ نجاة عبد الرحمن وعامر من الموت داخل السرداب ، فالمصادفة فقط هي التي جعلت الحفارين يحفران القبر لسلمى في لحظة فرارهما من السجن ، والمصادفة فقط هي التي جعلت الحفارين يهربان عند ما سقط مولاهما داخل السرداب الذى ما كانا يعرفان عن أمره شيئا (٢) ، وتلك مصادفة جميلة أنقذت أحداث الرواية ومواقفها من الموت وذلك بسبب إنقاذهما لبطلين من أبطالها .

د ـ اختطاف الناسك لسلمى من ميدان المعركة بصورة مفاجئة (٣) لم يتوقعها القارئ بل لم تملها منطقية الاحداث أو تسلسلها ، انما فرضتها المصادفة فقط .

هـ ـ جمع الشمل في ذلك القصر المهجور بمحض المصادفة ، بل بمصادفة غريبة مريبة وهناك مواقف أخر اعتمد المؤلف في تعقيدها وتصعيدها على المصادفة اعتمادا كبيرا وفاته أن الاعتماد على المصادفة من شأنه أن " يضعف جانب الابداع في

---

(١) جورجي زيدان ـ رواية غادة كربلاء ـ ص ٧٢
(٢) جورجي زيدان ـ رواية غادة كربلاء ـ ص ١٥٢
(٣) جورجي زيدان ـ رواية غادة كربلاء ـ ص ٢٢٩

القصة ويدل على ضعف في الحاسة الفنية عند الكاتب ، كما يبعد القصة عن الواقع المعقول فتتهافت وتبرد حرارتها ، وتبرز الصنعة المهلهلة فيها .. " (١) .

٦) تناقض واضح فاضح :

يزعم زيدان أن رواياته تعتبر مرجعا تاريخيا يمكن الاعتماد عليه كأى كتاب تاريخي ، ويعمل المعجبون به وباتجاهاته على ترويج هذه الفكرة ، فيقولون انه قد عني بالحقائق التاريخية في سلسلة روايات فنية لتاريخ الاسلام ، ويقولون انه كان يتوخى الدقة ويتحرى الصدق ، وبعضهم يلتمس له العذر عندما يجده مقصرا في الجوانب الفنية للقصة وحبكتها ، فيرجع ذلك التقصير الى انصراف الكاتب لعمله وانشغاله بحقائق التاريخ ، ولكن ماذا يقولون اذا تبين لهم أن ما قدم في سلسلة روايات زيدان لايدل على الدقة ، ولا يشير الى تحرى الصدق ؟ ولكنه يؤكد التسامح والتساهل ويومئ الى تعمد الدس والتشويه عن طريق مزج الحقيقة بالخيال ، بل ماذا يقولون اذا تبين لهم أن في بعض روايات زيدان تناقضا واضحا وخطأ صريحا ؟

من ذلك التناقض والخطأ ما جاء في رواية غادة كربلاء عن شخصي الزبير والحسين حيث قال عنهما المؤلف ما نصه : " .... لا أزيدكما علما بأن يزيدا هذا لما مات أبوه وقام يدعو الناس الى بيعته كان الحسين معه في المدينة وغيره من أبناء الصحابة ، وفي جملتهم عبد الله بن الزبير بن العوام ، وكان عامل يزيد على المدينة يومئذ الوليد ابن عقبة بن أبي سفيان (ابن عمه) فكتب الى الوليد يخبره بموت معاوية ويطلب اليه أن يأخذ البيعة من الحسين وعبد الله بن الزبير ، فوصله الكتاب وعنده مروان بن الحكم .... " (٢) .

---

(١) محمد يوسف نجم — القصة في الادب العربي الحديث — ص ١٨٢

(٢) جورجي زيدان — رواية غادة كربلاء — ص ١٥٥

ونلاحظ على هذا النص ما يلي :

أ ـ لا داعي لكلمة (معه) في قوله " كان الحسين معه في المدينة " وذلك لأن الضمير في معه يعود على يزيد ، ويزيد لم يكن في المدينة لما مات أبوه ، والروايات التاريخية كلها خير دليل على ذلك ، بل ان هذا النص نفسه يؤكد ذلك ، لانه لو كان يزيد في المدينة لما كتب الى عامله بالمدينة يخبره بموت معاوية ، ولما طلب منه أن يأخذ البيعة من الحسين وعبد الله بن الزبير ، فلا معنى اذن لايراد كلمة (معه) .

ب ـ مفاد ذلك النص بعد حذف كلمة معه : ان الحسين وابن الزبير كانا في المدينة لما مات معاوية بن أبي سفيان ، وتلك واقعة صحيحة ولا غبار عليها ، لكنها تتناقض مع مضمون النص الاخر الذى اتى به الكاتب بعد خمسين صفحة تقريبا حيث قال عن الحسين وعبد الله بن الزبير ما نصه : " فلما قتل علي وتولى الخلافة معاوية بن أبي سفيان لم يجسر ابن الزبير على مناجزته ، فلما مات معاوية كان ابن الزبير والحسين في الكوفة فطلبوا منهما البيعة ليزيد ـ كما تقدم ـ فأبيا ثم خرجا الى مكة وفي نفس كل منهما أن يطلب البيعة لنفسه " (١) .

وعجيب قوله " كما تقدم " ولان ما تقدم ليس فيه اشارة الى أن الحسين وابن الزبير كانا في الكوفة لما قتل معاوية ، لان ما تقدم يؤكد أنهما كانا في المدينة ، وعند ذاك طلب من عامل المدينة أن يأخذ منهما البيعة ليزيد ، فما هذا التناقض ؟ وما سببه ؟ أهو الدقة والتمحيص ؟ أم ماذا يا ترى ؟ ؟

ونأخذ مثالا آخر لتناقض الوقائع في رواية غادة كربلاء ، وذلك عندما كان المؤلف يتحدث عن سلمى التي وصلت الى معسكر الحسين فقال : " ان زينب أخت الحسين قد عرفت سلمى لاول نظرة " ولكنه سرعان ما عاد ونقض هذا القول دون أن يشعر بهذا التناقض ، ودون أن يحس بأنه قد أوقع القارئ في حيرة من أمره ، واليك النصين

---

(١) جورجي زيدان ـ رواية غادة كربلاء ـ ص ٢٠١

لتوازن بينهما :

" أما زينب فحين وقع نظرها على سلمى عرفتها واستغربت حضورها — على حين فجأة — في تلك اللحظة ، ولكنها لشدة ما عانته من الأهوال لم تعد تستبعد شيئا ٠٠٠٠ " (١) ثم قال :

" ٠٠٠٠ فتذكرت سلمى مقتل مسلم وحان لها أن تظهر نفسها وتنفذ الى حديث حبيبها ، فقالت : اني أعلم بمقتل ذلك الشهيد يا مولاتي فانتبهت زينب لنفسها وادركت أنها كان يجب أن تسألها عن حالها ، فقالت أظنك من أهل الكوفة ٠٠٠ فهل جئت منها قريبا ؟ ٠٠٠ " (٢) ٠

هذا مع العلم بأن زينب لم تلتق بسلمى في غير هذا الموقف حتى يقال إنها قد عرفتها حين وقع بصرها عليها ، واذا ثبتت المعرفة القوية نتيجة اللقاءات المتكررة فلا داعي اذن لقول زينب ٠٠ " أظنك من أهل الكوفة ٠٠ أجئت منها قريبا " وفي كلٍ تناقض ، وخاصة اذا علمنا بأن شخصية سلمى خيالية لا وجود لها في واقع الحياة، ولا علاقة لها بزينب الا في خيال زيدان أو في روايته التي لم يحكم نسجها بدليل هذا التناقض الواضح الفاضح ٠

٧) لغة الرواية ومدى سلامتها من العيوب والاخطاء :

لقد كتبت هذه الرواية بلغة بعيدة عن العامية وابتذالها ، فهي لغة فصيحة متميزة ببساطتها وسهولتها ، لانها لغة الصحفي الذى يخاطب مجموعات مختلفة من القراء ، فهو ينتقي ويختار العبارات التي تقرب من الافهام ، ولا يتوخى اصطفاء الكلمات المشرقة أو العبارات البيانية الجميلة التي تمتع قراء الادب الرفيع ٠

ويبدو أن استعداد زيدان البياني يقصر عن ذلك ٠٠ هذا بالاضافة الى انشغاله بما أسماه الحقائق التاريخية ، وهذا أكبر عيبه وأقبح مأخذ يوجه الى

---

(١) جورجي زيدان — رواية غادة كربلاء — ص ٢٠٦

لغة رواية غادة كربلاء ، الى جانب ما فيها من أخطاء وهنات نذكر منها ما يلـــــي :

أ ــ كلمة (طرقة) (١) : كلمة عامية بالاضافة الى أنها مبتذلة ، فالافضـل استعمال كلمة ممر صغير .

ب ــ وقع خطأ في كلمة الرهبان حيث جاءت هكذا : " وكان الرهبال يتوقعون قد وسهم في كل صباح ... " (١) ونحسبه من خطأ المطبعة ، ومثله كثير كما فـــي ص ١٤ ، ١٥ ، ٢١٣ .

جـ ــ عبارة (انذهل لجمالها) (١) : عبارة غير صحيحة ، اذ الصحيح أن يقـول : فذهل لجمالها لان هذا الفعل من الافعال الملازمة للبناء للمجهول ، مثـــل : صرع ، زهي ، عني .

د ــ استعمال كلمة يزيد منونة في قوله : " لا أزيد كما علما بأن يزيدا هذا لما مـــات أبوه " (٢) استعمال غير صحيح ، وذلك لان كلمة يزيد ممنوعة من الصـــــرف للعلمية ووزن الفعل ولا ضرورة الى صرفها في مجال النثر .

هـ ــ نصب كلمة (الساكنون) في قوله : " الوداع الوداع أيها الساكنين بلا حراك" (٣) ولا وجه لهذا النصب لان كلمة (الســاكنون) بدل من المنادى " أيها " فيجب أن يكون بالواو لا بالياء .

و ــ عبارة (فأخذوه الجلادون) (٣) : عبارة غير مقبولة عند النحاة ، وذلك لأنــــه جمع بين فاعلين لفعل واحد ، هما الاسـم الظاهر ثم الضمير ، وأكثر علماء النحـو يمنعون مثل هذا التعبير لكنه ورد في الحديث الشريف : " يتعاقبون فيكـــــم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار " كما ورد في لغة أكلوني البراغيث .

ز ــ استعمال كلمة " يزيد " منونة مرة أخرى (٢) ، ولا أظن أنه قد فات على زيدان ــ وهو العالم الكبير والمؤرخ الشهير ــ أن الصرف هو التنوين وأن المنع مـــن

---

(١) جورجي زيدان ــ رواية غادة كربلاء ــ ص ــ ٥٨ ، ٩ ، ٢٢٥

(٢) جورجي زيدان ــ رواية غادة كربلاء ــ ص ــ ١٥٥

(٣) جورجي زيدان ــ رواية غادة كربلاء ــ ص ــ ٢٣٨ ، ٢٤٢ ، ٢٤٩

الصرف هو عدم التنوين ثم الجر بالفتحة نيابة عن الكسرة الا في المواضع المنصوص عليها وقد أشار ابن مالك الى كل ذلك بقوله :

الصرف تنوين أتى مبينا معنى به يكون الاسم أمكنا

وقال : وجر بالفتحة مالا ينصرف ما لم يضف أو يك بعد ال ردف

وما أحسب زيدان لم يطلع على هذا ، ولكنها العجلة وعدم الدقة في بعض الحالات وأخيرا نشير الى تعبير " بالرغم منه " (١) فالافضل أن يقول : على الرغم منه .

٨) نهاية الرواية ومدى تطابقها مع مجريات الاحداث :

لقد كانت نهاية رواية غادة كربلاء نهاية سعيدة ، حيث تم جمع شمل الاسرة وتم زواج عبد الرحمن بسلمى في حفل بهيج ، على الرغم من المخاطر التي كانت تكتنف حياتهما في جميع مواقفهما ، ومن ثم يتضح لنا كيف كانت النهاية متهافتة مصطنعة ، اذ لو سارت الاحداث سيرها الطبيعي لما وصلت الى هذه النهاية ، ولكن الكاتب كان يلوى أعناقها لتسير في الاتجاه الذى يريده .

والذى ساعده على ذلك هو أن الشخصيات كانت بمثابة الدمى والتماثيل في يديه ، يحركها أنى شاء وكيفما شاء .

لهذا نستطيع أن نقرر ـ ونحن مطمئنون ـ بأن نهاية رواية غادة كربلاء لا لا تتطابق مع مجريات أحداثها .

. . . .
. .
.

---

(١) جورجي زيدان ـ رواية غادة كربلاء ـ ص ١٨٤

٩ـ دراسة وتحليل لرواية (الحجاج بن يوسف الثقفي)

أ ـ اقسام الرواية

ب ـ الزمن الذى تمثله احداث الرواية

جـ ـ شخصيات الرواية

د ـ مضمون الرواية

هـ ـ خاتمة التحليل وتشتمل على :

١) مزج الحقائق بالخيال •

٢) ضعف الخيال أو التصوير الفني •

٣) التحليل النفسي لشخصيات رواية الحجاج بن يوسف •

٤) وسيلة التشويق في رواية الحجاج بن يوسف •

٥) بين الصورتين الفنية والتاريخية لشخصيتي ابن الزبير والحجاج •

٦) عنصر الشر وأثره في تصعيد أحداث رواية الحجاج بن يوسف •

٧) المصادفة وأثرها في ربط مواقف رواية الحجاج بن يوسف وحل عقدها •

٨) الاستشهاد بالشعر في رواية الحجاج بن يوسف •

٩) لغة رواية الحجاج بن يوسف وسماتها •

١٠) نهاية الرواية ودلالاتها •

تحليـــل روايـــة
الحجـاج بن يوســف

أ - أقسام الروايـة :

تتكون هذه الرواية من قسمين كبيرين ، يعنى الكاتب في القسم الأول بالحديث عن حصار الحجاج بن يوسف لمكة المكرمة في عهد عبد الله بن الزبيـر ، متتبعا الاحداث التي وقعت آنذاك والتي أدت الى مقتل عبد الله بن الزبير وخلوص الخلافة لعبد الملك بن مروان ، ويصف من خلال ذلك كله مكة المكرمة والمدينـة المنورة مبينا عادات الناس وأخلاقهم ومعاملاتهم وأحوالهم العامة والخاصة في مكـة والمدينة .

أما القسم الثاني فيتمثل في القصة الغرامية التي كانت تدور حول حـب خالد بن يزيد بن معاوية ابن أبي سفيان لرملة بنت الزبير (أخت عبد الله بن الزبير) على الرغم من الخلاف الذى كان بين ابن الزبير وبني أمية ، وفي هذا دعم لفكرة الكاتب زيدان التي أخذ يقررها في كل رواية من رواياته ، وهي أن الحب يعمي ويصم ، وأن الحب هو السبب في تأليف ما نفر وتجميع ما تشتت ، وفي هذا ما فيه من الغمـز والطعن في تاريخ الاسـلام والمسـلمين ، اذ أنه يريد أن يسجل في أذهـان الشباب أن النصر أو الهزيمة في تاريخ المسلمين سببه الحب والغرام .

ب - زمن الروايــة :

تمثل أحداث رواية الحجاج فترة زمنية طويلة ، وذلك لانها تصور الحـوادث التي وقعت في الفترة من ٦٥هـ الى ٨٦هـ ، ولم يكن التصوير كاملا ولا شاملا لجميـع أحداث تلك الفترة بل كان محاولـة فقط من الكاتب ، وهي محاولة جادة لكنهـا غير موفقـة .

جـ ـ شخصيات الروايـــة :

لقد اشتملت رواية الحجاج بن يوسف على مجموعة من الشخصيات الثانوية والرئيســة ، وكلها كانت ذات دور بارز وواضح في تفاعل احداث الرواية وتصعيـــد مواقفها وأهم تلك الشخصيات هي :

١) عبد الله بن الزبير : وهو أبوخبيب (أو أبو بكر) عبد الله بن الزبير بن العوام ابن خويلد ، وأمــه أسـماء بنت أبي بكر الصديق ، ولقب بالعائذ ، لأنــه عـاذ بالبيت ، وبالمُحِلّ لانه نصب الحرب في قلب مكة واعتصم بالكعبة ، وهو أول مولود للمسلمين بعد الهجرة ، وكان رجلا شجاعا صدرا في الجهاد وشهد عـددا من الفتوح ، وقد قتله الحجاج بن يوسف سنة ٧٣هـ فشخصيته إذن شخصية واقعية .

٢) عبد الملك بن مروان بن الحكم : تولى الخلافة بعد مقتل والده سنة ٦٥هـــ ، وفي عهده ازدهرت دولة بني أمية ، وتأيد سـلطانها ، لأنــه استطاع أن يتغلب على مصعب بن الزبير في العراق وعلى أخيه عبد الله بن الزبير في الحجاز ، فدانت له الشـام ومصر والعراق بعد أن كان ملك بني أمية محصورا في الشام ومصر فقط . فشخصيته أيضـا شـخصية واقعية وذات أبعاد حقيقية .

٣) الحجاج بن يوســف الثقفي : نشـأ في اســرة مثقفة متعلمة ثم التحق بالجيش الاموى وما زال يترقى في مراتبه حتى عهد اليه عبد الملك بن مروان بقيـــادة الجيش لمحاربة ابن الزبير في مكــة فانتصر عليه وأصبح واليا على الحجاز والعراق ، وقد كان سـياسـيا ماهرا ، واداريا حازما لكنه كان قاسـيا شـديدا ، كمـا كان خطيبا بارعا فشخصيته حقيقيـــة .

٤) سكينة بنت الحسين بن علي بن أبي طالب : وهي شخصية حقيقية لكن المؤلــف بالغ في تصويرها حيث جعل لها مجلس سـمر وغناء وشـعر ، اسـتنادا الى مــا جاء في كتاب الاغاني وهو الى الادب والتسلية اقرب منه الى التاريخ .

٥) ليلى الاخيلية : وهي ليلى بنت عبد الله الرحال بن كعب بن معاوية الاخيل ، نشأت مع ابن عم لها هو توبة بن الْحُمَيِّر ، فأحبها ثم خطبها الى أبيها ، فرده أبوها وزوجها بعد ذلك لرجل من بني الادلع وقد رزقت منه ولدا ومع ذلك كان توبة يزورها حتى شكاه أهلها الى الوالي فأهدر دمه ، وقد كانت ليلى شاعرة ممتازة وكانت تفد على الحجاج لتمدحه ، فاستغل زيدان هذا الجانب •

٦) عزة الميلاء : كانت مولاة للانصار وهي أقدم من غنى الغناء الموقع من النساء في الحجاز ، وسميت بالميلاء لتمايلها في مشيتها ، وكانت جميلة الوجه ظريفة المعشر حلوة اللسان كريمة الخلق ، وكان أهل الوجاهة يوسطونها لاستطلاع حقيقة جمال الفتيات وصحتهن ، ولهذا جعل زيدان حَسَناً يؤجل سفره حتى يتصل بعزة الميلاء مستفسرا عن حبيبته سمية ، فشخصيتها شخصية حقيقية دون ريب •

٧) عرفجة الثقفي : شخصية خيالية أسند اليها المؤلف مواقف غريبة ومؤامرات عجيبة مما جعلها تتسم بالشر المستطير وعدم الميل الى الخير البتة ، وبذلك افتقدت التسويغ والاقناع الفني •

٨) سمية بنت عرفجة الثقفي : بطلة الرواية ، وهي شخصية خيالية أيضا •

٩) حسن : خطيب سمية ، وهو من أهل العراق حسب تخيل زيدان •

١٠) محمد بن الحنفية : أخو الحسين بن علي بن أبي طالب من جهة أبيه وشخصيته واقعية أيضا •

١١) المختار بن عبيد : من الطالبيين بدم الحسين ، والداعين الى بيعة ابن الزبير لهذا حارب الامويين في الكوفة وانتصر عليهم بعد أن قتل قتلة الحسين ، ثم ترك الدعوة الى مبايعة ابن الزبير وأخذ يدعو الى محمد بن الحنفية ، واتخذ له كرسيا عرف بكرسي المختار ، وقد اتخذ زيدان من هذا الكرسي لغزا وسرا عجيبا ليكون وسيلة تشويق للقارئ •

د — مضمون الرواية :

تصور هذه الرواية المعارك التاريخية التي دارت بين عبد الله بن الزبير والحجاج بن يوسف ، الا أن القارئ لها يجد عناية المؤلف بالجانب الغرامي ، حيث شغله بحب خالد بن يزيد بن معاوية لرملة بنت الزبير (أخت عبد الله بن الزبير) فتتبعه في كل مراحله وصور استمانة خالد بكل الوسائل لتحقيق مأربه ، وأوجد له تابعا وفيا هو ليلى الاخيلية التي سافرت من الشام الى المدينة بحثا عن رملة فاتصلت بعزة الميلاء في المدينة وفهمت منها أن رملة في مكة مع أخيها عبد الله بن الزبير ، وأنهم في أشد الضيق من الحصار ، وكان مع ليلى الأخيلية في تلك المهمة شاب اسمه حسن ، وهو من خاصة خالد بن يزيد . لكن حسنا هذا قد ظهر في رواية زيدان مشغولا بنفسه أكثر من انشغاله بموضوع خالد بن يزيد ، وقد اراد لما المؤلف ذلك ، حيث عقد علاقة حب بين حسن وبين فتاة من المدينة التقى بها في العراق يوم أن أنقذ والدها من الهلاك أثناء الحرب مع المختار بن عبيد ، فكان لا بد أن يتأخر حسن بالمدينة ، ولا يستجيب لرغبة ليلى الأخيلية في الذهاب الى مكة فورا لقضاء المهمة التي كلفها بها خالد بن يزيد ، تأخر ليبحث عن فتاة أحلامه المفقودة ، فذهب إلى عزة الميلاء ، وطمأنته على وجود الفتاة وأكدت له أنه لا يمكن رؤيتها الا في المساء ، لكنه لم يصبر فذهب الى منزل والد الفتاة ليقابله لعله يتذكر موقفه معه فيفي بوعده له ، وبالفعل قابله الوالد بترحاب مشوب بالمكر والخداع ، ومنطو على الرغبة في القضاء على حسن ، ويتمثل ذلك الخداع في أنه عندما علم بأن حسنا يريد السفر الى مكة توا لأمر مهم وافق على سفره وأهداه قباءه الاخضر ليرتديه عند خروجه من المدينة ، فودعه مطمئنا على أنه سيكمن له عند خروجه ويتعرف عليه بالقباء الاخضر فيرسل اليه سهما ويقتله ليستريح منه ، ولكن المصادفة تؤدي دورها فتحول دون وقوع هذا الشر على حسن ، وذلك لان حسنا قد توجه الى سوق النبال عند خروجه من منزل والد الفتاة (عرفجة) وهناك التقى بصديق له شغله عن أمر السفر كما شغله

عن القباء فنسيه في سوق النبال وذهب مع صديقه سليمان الى منزله ، ولما قرر السفر تذكر أنه في حاجة الى الذهاب إلى ليلى الأخيلية ليعلمها بذهابه ويودعها ، وفي الوقت نفسه تذكر عباءته ، وخشي التأخير إن هو ذهب الى سوق النبال ثم الى ليلى ، ولهذا قال له صديقه سليمان سأذهب أنا الى سوق النبال وآخذ العباءة ثم انتظرك بها خارج المدينة ، على أن تلحق بي هناك فأودعك ، وبينما كان سليمان في انتظار حسن وكان مرتديا عباءة حسن المهداة من عرفجة اذا بعرفجة يوجه سهما اليه ظنا منه أن ذلك هو حسن الذى يريد التخلص منه ، فوقع سليمان وأسرع اليه عرفجة ليشهد خروج أنفاس حسن الاخيرة ، وليأخذ عباءته بعد موته ، ولما دنا منه عرف أن المضروب هو ابنه سليمان ، وليس حسنا فصاح قائلا : " يا لتماستى وشقائي لقد فتكت بك يا ولدى وفلذة كبدى .... أظنني أستحق هذا القصاص وأما أنت فما ذنبك ؟؟ " (١) ، ويرد ابنه بصوت ضعيف قائلا : " لا تحزن يا أبي فقد ذهبت فداء لصديق لي هو أحق مني بالحياة " (١) ، ولكن لحسن الحظ لم تكن الضربة قاتلة ، وتلك مصادفة من مصادفات زيدان الحديدة التي كثيرا ما كان يعتمد عليها في حل العقد ، والا فالمتوقع أن تكون الضربة قاضية ، لانها كانت من حاقد حانق .

ولكن يبدو أن المؤلف قد تعمد ابقاء سليمان حيا ليحافظ على تدرج أحداث روايته ، ففي اثناء حوار سليمان ووالده حضر حسن وعرف الحقيقة ، فما كان من عرفجة الا أن اعتذر له ، ثم حرك المؤلف حسنا ليذهب الى مكان جمله كي يحضر ماء لسليمان ، واذا به لا يجد الجمل ، ومن ثم قطع المؤلف ترابط قصته الفرعية وأخذ يتجول مع حسن في وادى القرى وأسمعه كما أسمع القارئ معه الكثير من أخبار وأشعار المجنون مع ليلى وحديثا مستفيضا عن بني عُذْرَة (٢) ، كأنما كان بصدد تسجيل خواطر عامة عن طريق تداعي المعاني وليس بصدد كتابة قصة

---

(١) جورجي زيدان ـ رواية الحجاج بن يوسف ـ ص ٥٤ طبعة دار الاندلس ـ بيروت .
(٢) جورجي زيدان ـ رواية الحجاج بن يوسف ـ ص ٥٦ ـ ٦٤ طبعة دار الاندلس ـ بيروت

فنية لها بداية ونهاية وخط مرسوم ، وأخيرا يترك حسنا هائما على وجهه باحثا عن جمله ويتفرغ للحديث عن عرفجة ومكره وحيله باعتباره عائقا وقف في طريق الحبيبين ،ثم تفرغ بعد ذلك للحديث عن سمية فقدمها في صورة بطلة وفية مخلصة لحبيبها محتجة على والدها الذى بلغ منه الطمع حدا جعله يقدم ابنته ضحية على مذبح أغراضه فمات ضميره وأصبح لا يهمه ما يرتكبه في سبيل تنفيذ مقاصده وأغراضه ، وأهم تلـك الاغراض المهر الذى يتوقع أن يدفعه الحجاج لابنته ، ولهذا سلم بنته سمية لطارق ابن عمر عامل المدينة الذى كان على رأس حملة متوجهة لنجدة الحجاج .

يتحول المؤلف بعد هذا للحديث عن كرسي عرفجة الذى أخفاه عن الناس سنين عددا ،وأوهمهم به زمنا طويلا ، ويقول المؤلف ان عرفجة قد توجه بصندوقه الى محمد بن الحنفية قائلا له : أليس هذا كرسي الامام علي الذى انتصر بالمختار ، لكن ابن الحنفية لم ينخدع بقوله ، بل أمر باحراق الكرسي توا ، فخرج عرفجة آسفا متوعدا ابن الحنفية بالسوء عند الحجاج ، وأبى خيال المؤلف الا أن يجعل حسنا (حبيب سمية بنت عرفجة) يحضر هذا المشهد ، فيظن أن شوكة عرفجة قد انكسرت وأنه سيترك الطمع ، ولكن فاته ان عرفجة قد أرسل محبوبته الى الحجاج ضمن الحملة التي مرت في طريقها الى نجدة الحجاج ، ولهذا ذهب حسن الى مكة ـ وهو مطمئن بالنسبة للزواج من بنت عرفجة ـ لينتهي من المهمة التي انْتُدِبَ لها من قِبَلِ خالد بن يزيد ، وهناك التقى بابن الزبير الذى كان في حصار شديد مع خلاف تام بينه وبين قومه فعجب حسن لما رأى ، وانبرى في القوم خطيبا وداعيا الى مؤازرة ابن الزبير والعمل على نصرته ، ولكن دون جدوى ، حيث تفرق قومه عنه ، وقد سوغ زيدان فرار القوم ببخل ابن الزبير مستندا الى الرواية التاريخية التي تقول انه قد ذبح فرسه (١) ووزع لحمها على قومه مشيرا الى أن خزائنه كانت مطوءة قمحا وشعيرا وغير ذلك ليوحي الى القارئ بأن ابن الزبير كان بخيلا مقترا على أهله

---

(١) ابن الاثير ـ الجزء الرابع ص ١١٨ طبعة دار صادر ـ بيروت .

ونفسه ولذلك انفضوا من حوله •

وتلك فرية ليس فيها مرية ، لان ما جاء في رواية ابن الاثير الذى اعتمد عليه زيدان لا يشير الى شيء من ذلك ، فابن الاثير يقول ما نصه : " ... وأن بيوت ابن الزبير لمملوءة قمحا وشعيرا وذرة وتمرا ، وكان أهل الشام ينتظرون فناء ما عنده وكان يحفظ ذلك ولا ينفق منه الا ما يمسك الرمق ويقول : أنفس اصحابي قوية " (١) •

يقول المؤلف بعد هذا لم يبق مع ابن الزبير الا نفر قليل ومنهم حسن الذى انتهز فرصة وجوده وحاول الافصاح لابن الزبير عن مهمته وهي خطبة رملة بنت الزبير لخالد بن يزيد ، وعلى الرغم من أن الخلاف كان على أشده بين بني أمية وابن الزبير وافق عبد الله بن الزبير على مصاهرة خالد بن يزيد ، لكنه اجل البت في الموضوع الى أن تهدأ الاحوال ، ثم ودعه حسن وانصرف ليدبر أمر ابلاغ خالد بما أحرزه من تقدم في موضوعه وبينما هو كذلك اذا بوالد سليمان يخبره بأن سمية قد وصلت الى معسكر الحجاج ~~فجن~~ جنونه وقرر الذهاب فورا الى معسكر الحجاج لتخليص فتاة احلامه من بين فكي الاسد الهائج ، أو هكذا بدا الحجاج في رواية زيدان ، ولكن حسنا تراجع عن قرار الذهاب الى معسكر الحجاج ، وتريث الى أن يدبر أمر ابلاغ خالد بما تم في موضوعه ، فالتقى بليلى الاخيلية التي أكبرت نجاحه في مهمة خالد ، والتزمت بأن تساعده في الوصول الى سمية داخل معسكر الحجاج ، فاتفقا على أن يتبعها حسن باعتباره راوية لها فلا يشك في أمره ، وبهذا تمكنا من الوصول الى سمية والمحادثة معها ، وعند ذاك تأكد لحسن أن الحجاج لم ينل منها شيئا لانه أقسم الا ينزع السلاح عنه والا يقرب النساء أو الطيب حتى يقتل ابن الزبير كما تأكد لديه أن سمية قررت الانتحار اذا ما جاءت لحظة قضاء الحجاج وطره منها ، وبينما حسن

---

(١) ابن الاثير _ الجزء الرابع _ ص ٣٥٢ طبعة دار صادر _ بيروت •

غارق في التفكير في أمر تلك الحقائق اذا بخادمه عبد الله الذى أصبح أحد حراس الحجاج يخبره بأن عرفجة قد عرفه عند دخوله مع ليلى ، وأنه يتوقع أن يقوم عرفجة بتدبير مكيدة ضده ، لذا اقترح عليه عبد الله الاختباء في مكان قد جهزه له ريثما يدبر له طريقة للهروب مع سمية ، ولكن لم تنجح الحيلة ، اذ القي القبض عليه ، وقد استرسل المؤلف في ذكر الحوار الذى دار بين حسن وبين جنود الحجاج أثناء القبض عليه ، وأدى ذلك الحوار الى اثارة حسن فعمد الى الاطاحة برأس قنبر (عبد عرفجة) لوقاحته .

ولما مثل حسن أمام الحجاج استجوبه بنفسه ، ثم اشترك عرفجة في الاستجواب ليحطم أعصاب حسن ويوجه التحقيق الى الناحية التي يريدها ، الا أن حسنا قد صمد وأجاب اجابات فضحت خبث عرفجة ، وكشفت مكره وخداعه ، بل وجه اليه تهمة العمل ضد بني أمية ، لذا أجل الحجاج اعدام حسن ريثما تثبت له جريمة عرفجة فيقضي عليهما معا ، وفي فترة الانتظار تلك جعل الكاتب حسنا ينتقل هنا وهناك بتدبير من خادمه عبد الله ، ويذهب الى ابن الزبير قبيل مقتله بدعوة منه ليؤكد له موافقته على زواج خالد بن يزيد بأخته ، وليس للوساطة عند الحجاج من أجل الهدنة كما خطر لحسن ، ويبدو أن المؤلف قد ساقه سوقا الى ابن الزبير ليتمكن من سرد أحداث المعركة التي دارت بين ابن الزبير والحجاج حتى مقتل ابن الزبير ، الا أن سرده كان فيه كثير من الاجتزاء (١) والاختزال وفي تصويره ضعف وتحيز الى جانب الحجاج .

ومن ثم نستطيع أن نقول ان تلك الصورة لا تمثل الا وجهة نظر زيدان ، لانه ليس من المعقول أن يتحيز حسن في سرده لاخبار المعركة الى جانب الحجاج الذى يعتبره عدوا لدودا بالنسبة له ويسكت عن ابن الزبير الذى كان له موقف جيد معه .

ثم يعود حسن الى معسكر الحجاج ليضع نفسه في سجنه ، وقبل الدخول في السجن تاقت نفسه الى رؤية سمية فذهب اليها وقضيا لحظة من أحلى اللحظات

---

(١) جورجي زيدان ـ رواية الحجاج بن يوسف ـ ص ١٧٠ ـ طبعة دار الاندلس

العمر ، ولما عرف عرفجة ذلك طوّق الخباء بحراسة مشددة لكي يأتي الحجاج ويرى حسنا مع زوجته فيفتك به فورا وبذلك يكون عرفجة قد قضى على التهمة التي وجهت اليه ، ويكون قد محا أكبر دليل من أدلة اثباتها ، وقد جاء الحجاج فوجد حسنا على تلك الحالة وكاد أن يطيح برأسه في الحال لكنه كظم غيظه وتصبر ريثما تثبت له جريمة عرفجة ، وبالفعل تمكن حسن من اثبات الجريمة بدليل لا يقبل الشك ، لذلك أمر الحجاج بالاطاحة برأسيهما ، على أن يكون البدء بعرفجة ، وما ان جاء دور حسن حتى وصل البريد برسالة من عبد الملك بن مروان يحذر فيها الحجاج من الزواج ببنت عرفجة الخائن الملعون ، لان تلك الفتاة مخطوبة لشخص اسمه حسن ، وهو ذو مكانة في نظر الخلافة أو الدولة ، وعليه يجب على الحجاج أن يسلمه خطيبته فور وصول هذا الخطاب ، وان يزوده بما يحتاج اليه من مال ، وقد نفذ الحجاج تلك التعليمات ، أو هكذا كان وضعه في رواية الحجاج بن يوسف ، ومن ثم كانت نهاية الرواية نهاية سعيدة بالنسبة لحسن الذى سعد بزواجه بسمية وبالنسبة لخالد بن يزيد الذى ذهب المؤلف الى أنه قد جاء من دمشق وتزوج رملة بنت الزبير ، أما بالنسبة للقارئ فلم تكن النهاية سعيدة كما سنرى فيما بعد .

هـ ـ خاتمة التحليل :

١) مزج الحقائق بالخيال :

الدراسة والتحليل لرواية الحجاج بن يوسف يؤكدان لنا أن الكاتب لم يهدف الى تقديم حقائق التاريخ مجردة ، لكنه مزجها بفنه وأعمل فيها الكثير من تصوراته وتخيلاته ، ومن ثم جاءت الحقائق مشوهة تارة وبعيدة عن الواقع تارات ، ولا أدل على ذلك من الاشارة الى قصة حب خالد بن يزيد بن معاوية لرملة بنت الزبير ، على الرغم من الخلاف الذى كان بين بني أمية وابن الزبير .

ويبدو أن الكاتب لم يأت بهذه القصة التي لا وجود لها في كتب التاريخ الاصلية (١) الا ليشوه شخصية ابن الزبير ، أو ليؤكد فكرته التي يريد بثها من خلال جميع رواياته ، وهي أن ابن الزبير وغيره من الشخصيات الاسلامية التي استطاعت أن تصمد في المعارك البطولية انما كان وراء كل منهم امرأة ، أو كان عندهم موقفا غراميا ، لهذا يقول الكاتب انهم كانوا يقدمون بناتهم أو أخواتهم لاعدائهم ليتزوجوهن فتنكسر شوكتهم بسبب هذا الزواج ، أو يتزوجوا هم من الاعداء للغرض ذاته ، ومن ثم كان الخيط النفسي المستمر في جميع روايات زيدان أو العنصر الاساسي الدائم عنده هو عنصر الغرام .

والذى ساعد زيدان على انتحال قصة حب خالد هو ما جاء في كتب التاريخ من أن مروان بن الحكم قد تزوج أم خالد بن يزيد بن معاوية ليكسر شوكته ، ولكن فات زيدان أن هذا لا ينسحب على كل الناس لمجرد أنه وقع من مروان بن الحكم ، فقصة حب خالد لرملة بنت الزبير قصة مفتراة ، أو تخيلها زيدان ليشوق القراء ، ومثلها أيضا قصة حب الحجاج بن يوسف لبنت عرفجة ، فضلا عن أخذ البنت بالصورة التي قدمها زيدان في روايته ، ثم حرمان الحجاج منها عن طريق عبد الملك بن مروان الذى أرسل رسالة شديدة اللهجة يهدد فيها الحجاج ويمنعه من الزواج بسمية بنت عرفجة كما يقول زيدان (٢) الذى ألف الرسالة ـ من خياله ـ باسم عبد الملك الى الحجاج .

أما الحقائق المشوهة في هذه الرواية فكثيرة منها :

أ ـ تعليل فشل ابن الزبير وفرار أقربائه منه بالبخل أو التقتير الذى جعل أصحابه

---

(١) لقد راجعنا كتاب الكامل لابن الاثير الجزء الرابع ـ الصفحات : ٨٧، ١٢٥، ١٤٦، ١٤٨، ١٥١، ١٥٤، ١٦١، ٣٣٧، ٤١٧، ٤٦٤، ٥٨٧، ثم الجزء الخامس ص ٥٨٧ فلم نجد ذكرا أو اشارة الى أن خالد بن يزيد قد تزوج برملة بنت الزبير أو أنه حاول ذلك وبذل فيه ما بذل . كما راجعنا تاريخ الطبرى فلم نجد شيئا من هذا القبيل .

(٢) جورجي زيدان ـ رواية الحجاج بن يوسف ـ ص ١٨٤ ـ طبعة دار الاندلس ـ بيروت .

يحتجون بالجوع والعطش كما زعم زيدان (١) ونحن نعتقد أن هذا التعليل مفرض لكننا لا ننكر بخل ابن الزبير ولا سيما اذا وازناه بحكام بني أمية الذين كانوا يعطون الناس بسخاء ليشتروا طاعة الرعية والولاة ، ولم يكن البخل الذى اتصف به ابن الزبير أيام الحصار هو السبب في انفضاض الناس من حوله ، اذ أن التقتير وقتذاك كان مسألة تمليها الظروف وتفرضها سياسة الحرب ولا سيما اذا كانت الدولة محاصرة ، فالتقتير في تلك اللحظات يندرج في باب شد الاحزمة على البطون ، هذا مع ملاحظة أن ابن الزبير لم يحرم الناس حرمانا تاما ، بل كان يعطيهم بمقدار — كما تفعل الامم الحديثة — بل القديمة في ظروف الحرب — وقد أشار الى هذا الاعطاء ابن الاثير (٢) فابن الزبير ليس بمقتر في تلك اللحظات الا اذا انطبق عليه قول الشاعر :

يقتر عيسى على نفسه — وليس بباق ولا خالد

فلو يستطيع لتقتيره — تنفس من منخر واحد

ونحن نعتقد أن هذا لا ينطبق على ابن الزبير الذى كان يطبق معنى قوله تعالى : " ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا " .

ومن هنا يتضح لنا أن مسألة ارتباط أقربائه به أو فرارهم منه ترجع الى العقيدة والايمان بما يدعو اليه ابن الزبير أو عدم الايمان به ، والى مقدار الشجاعة أو الجبن المستولي على قلوب الرجال الذين كانوا يحسون بشدة الحصار ويسمعون دوى حجارة المنجنيق .

ب — ومن الحقائق المشوهة الصورة التي قدم بها الكرسي الذى كان المختار يستنصر به ، ونحن لا ننكر حصول المختار على كرسي زعم أنه كرسي الامام

(١) جورجي زيدان — رواية الحجاج بن يوسف — ص ١١٦ — طبعة دار الاندلس — بيروت .

(٢) ابن الاثير — الكامل — الجزء الرابع — ص ٢٥٨ — ٢٦٠

علي ، لان أخبار هذا الكرسي واردة في معظم المصادر التاريخية (١) ،لكننا نرفض التركيز على أمر الكرسي بالصورة التي جاءت في رواية زيدان لان المسألة لا تستحق الا الاشارة ببضعة أسطر ، لكن زيدان أبى الا أن يسلط الاضواء ويتحدث عنها في عدة صفحات وفي مواضع متفرقة (٢) ، بل انه لم يتقيد بنص ما جاء في كتاب ابن الاثير الذى اعتمد عليه ، ولكنه أضاف اليه شيئا من خياله الجامح فجاءت الصور مشوهة ، وتتمثل تلك الاضافة في قوله : " وصار يحمله في حروبه ويزعم ان جبريل يظهر له ويكلمه (٣) " على حين أنه لا وجود لمضمون هذه العبارة في الجزء الرابع لابن الاثير ، بل ان ابن الاثير قد أثبت عدة روايات لكيفية حصول المختار على هذا الكرسي وليس بينها اشارة الى أن المختار قد ادعى النبوة أو ما يشبه النبوة كما صرح بذلك زيدان (٣) بغية التشويه للحقائق •



والذى يؤكد قصده إلى هذا التشويه هو اعراض زيدان عن الاقوال التي أشارت الى موقف الناس آنذاك من كرسي المختار ، وخاصة موقف ابراهيم ابن الاشتر الذى سيره المختار لقتال عبد الله بن زياد ، وقد ذكر هذا الموقف ابن الاثير الذى رجع اليه زيدان لكنه لم يشأ أن يشير الى قوله : " وفي هذه السنة لثمان بقين من ذى الحجة سار ابراهيم بن الاشتر لقتال عبيد الله بن زياد ، ٠٠٠٠٠ وخرج معه المختار يشيعه ، فلما بلغ دير عبد الرحمن بن أم الحكم لقيه أصحاب المختار ومعهم الكرسي يحملونه على بغل أشهب وهم يدعون الله له بالنصر ، ويستنصرونه ، وكان سادن الكرسي هو حوشب البرسمي فلما رآهم المختار قال :

---

(١) ابن الاثير — الكامل — الجزء الرابع — ص ٢٥٨ — ثم تاريخ الطبرى ٠٠

(٢) جورجي زيدان — رواية الحجاج بن يوسف — ص ٢٠

(٣) جورجي زيدان — رواية الحجاج بن يوسف — ص ٩٥ ، ٩٦

أما ورب المرسلات عرفا   لنقتلن بعد صف صفا
وبعد ألف قاسطين ألفا

ثم ودعه المختار ... ... وسار ابراهيم فانتهى الى أصحاب الكرسي وهم عكوف عليه قد رفعوا أيديهم الى السماء يدعون الله ، فقال ابراهيم : " اللهم لا تؤاخذنا بما فعل السفهاء منا ، هذه سنة بني اسرائيل ، والذى نفسي بيده ، اذ عكفوا على عجلهم ، ثم رجعوا وسار الى قصده " (١) .

ولا شك في أن مفاد هذه العبارة هو الانكار والرفض لقصة الكرسي ، ثم الاستخفاف بعقول من انتحلوه بغية النصر بوساطته ، واننا لنجد هذا الانكار بصورة واضحة في الشعر الذى اثبته ابن الاثير عن هذا الكرسي ، حيث قال (٢) :

" وكان أول من سدنه موسى بن أبي موسى الاشعرى الذى كان يلم بالمختار لان أمه أم كلثوم بنت الفضل بن العباس ، فعتب الناس على موسى ، فتركه وسدنه حوشب البرسمي حتى هلك المختار وقال أعشى همدان شعرا في ذلك _ هو قوله :

شهدت عليكم انكم سبئية   واني بكم يا شرطة الشرك عارف
فأقسم ما كرسيكم بسكينة   وان كان قد لفت عليه اللفائف
وان ليس كالتابوت فينا وان سعت   شبام حواليه ونهد وخارف

فهذه الاقوال وغيرها من شأنها أن تحدد وتخص مسئولية الكرسي بالسفهاء من القوم لكن زيدان لم يشر الى شيء من هذه الأقوال ، لأنه يريد التعميم وعدم تحديد المسئولية ، ليكون ذلك وصمة عار في جبين العصر كله ، أو ليكون ذلك سمة وعلامة وظاهرة لتاريخ الاسلام والمسلمين .

ومن ذا الذى يقول ان تاريخ الامة لا يتكون الا من مجموعة سقطات وزلات لافراد غير مسئولين ؟؟

---

(١) ابن الاثير _ الكامل _ ص ٢٥٧ _ ٢٥٨

(٢) ابن الاثير _ الكامل _ الجزء الرابع _ ص ٢٥٨

٢) ضعف الخيال أو التصوير الفني :



الدارس لرواية الحجاج بن يوسف لا يجد فيها سمة من سمات الجمال الفني ، أو صفة من صفات الاسلوب الادبي الرفيع ، حيث لا تشبيه يتميز بطرافته ، ولا استعارة تهز المشاعر ، ولا كناية تمس شغاف القلوب ، الى غير ذلك من الخصائص الفنية التي يتوق اليها قراء الادب الرفيع ، وهذه هي السمة الغالبة على رواية الحجاج بن يوسف بصفة عامة ، أما من ناحية وصف المناظر والحوادث فان الكاتب كثيرا ما كان يلجأ الى التصوير ، الا أن تصويره كان ضعيفا تافها مما يؤكد عدم مقدرته على التصوير الفني ، ويشير الى أنه انما كان يكتب باسلوب الصحفي الذى يخاطب قطاعات مختلفة فيهما أنصاف المثقفين وغيرهم من الذين لا يطالبون الكاتب ببراعة الاداء وجمال الصورة بمقدار ما يطالبونه بالوضوح والابانة من أقرب وجوه الكلام ، أما الاديب المتذوق فقلما يجد بغيته في هذه الرواية من حيث التصوير الفني أو التعبير الادبي ، لانه لا يقبل الصور الضعيفة الباهتة أو السمجة المتكلفة .

ومن مظاهر ضعف الصورة الفنية في هذه الرواية حديث زيدان عن حسن عند ما افتقد جمله في وادى القرى بعيد رمي غرفجة لابنه سليمان بالسهم خطأ ، حيث حاول زيدان أن يصور مشاعر حسن في تلك اللحظة لكنه عني بتصوير ملامحه الظاهرية تصويرا متكلفا فقال : " ...... لا يبالي هل هو يسير على شوك أو يخوض في بحر لفرط قلقه ، ولو أتيح له أن يرى وجهه في مرآة في تلك الساعة لرأى عينيه محملقتين متسعتين وحاجبيه مرتفعين حتى تغضنت جبهته كأنه يريد أن يبتلع ذلك الشبح بعينيه (١) فأى مرآة تخطر بالذهن في ذلك الظلام الدامس وفي تلك اللحظة الحرجة ؟ بل كيف يكون الابتلاع بالعينين ؟ وعلى فرض صحة الابتلاع بالعينين فالصورة لم تخرج عن كونها حسية بصرية تحتاج الى صفاء المرآة في الظلام وليس الى

---

(١) جورجي زيدان ـ رواية الحجاج بن يوسف ـ ص ٥٦

النخي صفاء الذهن ورهافة الحس والشعور • ومثل هذه الصور كثيرة في رواية الحجاج بن يوسف ، لذلك حكمنا بضعف التصوير الفني في هذه الرواية •

٣) التحليل النفسي لشخصيات رواية الحجاج بن يوسف :

اتضح من تحليلنا للروايات السابقة أن زيدان لا يعنى بتحليل شخصياته العناية الكافية بحيث يجعل القارئ لرواياته يحس ويشعر بأن لهذه الشخصيات أبعادا حقيقية وحيوية دافقة تطالعه من ثنايا العبارات ، ومن خلال الاسطر والفقرات، ويبدو أن هذا هو الخط العام الذى سار عليه زيدان في جميع رواياته ومنها رواية الحجاج بن يوسف التي نحن بصدد تحليلها ويتمثل ضعف التحليل النفسي في هذه الرواية في مواقف عدة منها حديثه عن حسن الذى كان صاحب دور بارز في أحداث هذه الرواية ، فلم يقدم الكاتب للقارئ عن هذه الشخصية الا معلومات محددة حيث قال : " وكان حسن طويل القامة حسن الخلقة وفي وجهه دلائل المروءة وصدق المودة وعيناه تتقدان ذكاء وحدة " (١) علما بأن طول القامة وحسن الخلق ليس من شأنهما أن يجعلا الشخصية واضحة الملامح محددة الابعاد ولا سيما البعدين النفسي والاجتماعي وما هذا الا نتيجة العجز والقصور عن التحليل النفسي ، ولا أدل على ذلك من الاشارة الى موقف الكاتب مع حسن عند ما ذهب الى عرفجة لاول مرة ووجد باب الدار مفتوحا فدخل ولم يقرع الباب ولم يتكلم وقد وقع نظره على محبوبته سمية ، كما لم يتحدث الكاتب عن همس جفونه أو عن سحر تلك النظرة العجلى وتأثيرها في فؤاده ، بل اكتفى بجعل المحب (حسن) أعمى البصيرة والباصرة قائلا : " ولكن الشوق اعمى بصيرته فوقف مبهوتا وقلبه يخفق وأصبح بين عاملين متضادين : الشوق الذى يدفعه الى أن يشبع نفسه من رؤيتها ، والحياء الذى يدعوه الى الرجوع (٢) " •

فهل أشبع نفسه من تلك الرؤية ؟

(١) جورجي زيدان ــ رواية الحجاج بن يوسف ــ ص ١٩
(٢) جورجي زيدان ــ رواية الحجاج بن يوسف ــ ص ٢٣

الرواية تقول : لم يحدث شيء من ذلك ... لان المحب كان أعمى بصيرة وباصرة ، فتقهقر ورجع ، وقاده المؤلف من عصاه تاركا القارئ في حيرته وتساؤلاته فكان ذلك التقهقر والانقياد السريع سببا في هدم ما ذهب اليه المؤلف من أن حسنا كان متشوقا شوقا جعله يدخل دار محبوبته دون استئذان ، كما أكد ذلك التقهقر والانقياد تناقض الصورة الفنية عند الكاتب قبل تناقض العوامل النفسية عند حسن ، والغريب في الامر أن يأتي المؤلف بعد تجميده لشخصية حسن وهو في دار المحبوبة ليقول لنا : إن سمية " كانت جالسة بالباحة ولا تدرى حينما قرع حسن الباب هل دق قلبها ؟ وهل حدثتها نفسها أن الطارق حبيبها ، أو هي تذمرت من ذلك القادم لأنه كدر عليها مقامها في الخلاء (١) " فلم هذا التردد والقصة كلها خيالية ؟ أليس في مقدور المؤلف أن يرجح جانبا على جانب ؟ ثم يصور نفسية الفتاة وحَسَنٍ من خلال ذلك ؟

يبدو أن هذا الترجيح كان يحتاج الى موهبة قصصية وبراعة فنية لم يبلغها كاتبنا المتأثر بالاسلوب الصحفي الذى لا يعرف الخيال المجنح ولا يلج كتابه محراب الفن الادبي الرفيع .

ولنأخذ مثالا آخر يؤكد ضعف التحليل النفسي في رواية الحجاج بن يوسف ، ذلك هو موقف الكاتب من شخصية عرفجة الذى لا يقل دوره عن دور حسن ، حيث قال عنه : " ... ... رجل في نحو الخمسين من عمره ، قصير القامة ، نحيف الجسم ، يكاد جلده يلتصق بعظمه لخفة عضله ، أشمط شعر اللحية خفيفه ، وعلى رأسه عمامة صغيرة ، وعلى كتفيه مطرف التف به ... ... " الى آخر الصفات التي نجحت في تحديد الملامح الجسدية لشخصية عرفجة ، ولكن العمامة والمطرف لا دخل لهما في تحديد الحالة النفسية أو الاجتماعية لشخصية عرفجة .

---

(١) جورجي زيدان ـ رواية الحجاج بن يوسف ـ ص ٣٠

وليس معنى ما تقدم أن زيدان لم يحاول التحليل النفسي في هذه الرواية فالانصاف العلمي يقتضينا أن نشير الى بعض محاولاته في هذا المجال ، وهي محاولات لا بأس بها في هذه الرواية ، فمنها استسلام سمية لمناجاة جميلة وذات دلالات عميقة وآثار بعيدة ، وقد عبر المؤلف عن ذلك بقوله : " ... فجعلت تناجي نفسها قائلة : كيف تعلقت بهذا الرجل الغريب ، وفي تعلقي به خطر على حياتي وحياته ؟ أليس هذا أبي الذى رباني وكفلني ولا يريد لي الا الخير والسعادة ؟ أأعصاه وأطيع هواى ؟ أليس من العقل أن أخضع لرأى أبي ؟ نعم ... لا ... لا ... حسن حبيبي ... ولكن ماذا يربطني به ؟ الحب ... ما معنى الحب ؟ ... الخ " (١) إنها مناجاة ممتازة لولا إسراف الكاتب فيها .

٤) وسيلة التشويق في رواية الحجاج بن يوسف :

لقد اعتمد زيدان على عنصر الغرام من حيث هو وسيلة تشوق القارئ وتدعوه الى قراءة الرواية التاريخية مهما طالت فترتها وكثرت حوادثها ، وهذا هو سر العناية بالجانب الغرامي ، ومن ثم ظهرت قصة حب خالد لزملة بنت الزبير وما اكتنفه من صعوبات ،ثم قصة حب حسن لسمية بنت عرفجة وما صاحبه من مشاكل ومخاطر وتشريد وتعذيب ثم سجن وقتل والد سمية ، ولم تكن هذه هي الوسيلة الوحيدة في رواية الحجاج بن يوسف ، فقد استعان الكاتب بوسائل أخر تتمثل في الاسرار والالغاز ـ كدأبه في كل رواية من رواياته ـ وقد اشار الى هذا محمد يوسف نجم بقوله : " وكثيرا ما يلجأ الى السر وهو عنصر هام من عناصر التشويق عنده فيأتي بمسألة أو لغز أو شخصية غامضة ويماطل القارئ ويشوقه الى اكتناه الحقيقة والبحث عن السر ... " (٢) واللغز الذى استعان به زيدان في رواية الحجاج بن يوسف

---

(١) جورجي زيدان ـ رواية الحجاج بن يوسف ـ ص ٩٥

(٢) محمد يوسف نجم ـ القصة في الادب العربي ـ ص ـ ١٨٤

هو كرسي عرفجة الذي هو في الاصل كرسي المختار ولكن الكاتب لم يفصح عن هذا أو ذاك انما أخذ يُغلِّفُ هذا السر ويدثره بثوب كثيف ، وذلك في معرض حديثه عن عرفجة حيث يقول : " ... واتفق في ذلك الصباح أنه لم يكن في البيت أحد من الرجال غير عرفجة ، وكان مشغولا في حجرة خاصة له لا يدخلها احد غيره وفيها محفة من خشب مقفلة لا يفتحها سواه ، فاذا دخل تلك الحجرة أقفل بابها ولا يدرى أهل البيت ماذا يفعل هناك ؟ فيقضي فيها ساعة أو بعض الساعة ثم يخرج ويقفل الباب وراءه وكثيرا ما أحبت سمية أن تستطلع أمر تلك المحفة وتشاهد ما في داخلها فلم توفق الى ذلك ، لان المحفة من خشب متين لا منافذ للبصر فيه ... (١) " .

نعم لا منافذ للبصر فيه ، وبالطبع لا مجال لتعرف القارئ عليه ، هذا على الرغم من أنه شديد الميل الى اكتناه الحقيقة ، وكثير التطلع الى معرفة ذلك السر ، ولذا يظل يقلب الصفحة تلو الصفحة علة يعثر على تفسير أو توضيح ، لكنه لا يجد شيئا الا بعد الفراغ من قراءة تسعين صفحة تقريبا حيث يفصح الكاتب عن أمر الكرسي وحقيقته فتنحل عقدته ، ويبطل مفعوله وتأثيره في جذب القارئ وتشويقه ، ولكن يبقى عنصر الغرام يفعل في معظم القراء فعل السحر فيشدهم ويدعوهم الى متابعة الرواية حتى نهايتها .

٥) <u>بين الصورتين الفنية والتاريخية لشخصيتي ابن الزبير والحجاج :</u>

عندما نوازن بين الصورة الفنية التي رسمها جورجي زيدان لشخصية ابن الزبير وبين الصورة التاريخية التي جاءت في كتب التاريخ عن تلك الشخصية نجد البون شاسعا والفرق واضحا وذلك لان الكاتب لم يتناول شخصية ابن الزبير الا تناولا عابرا ، حيث اكتفى بالاشارة الى قصة العصافير التي كانت تقع على ظهره أثناء الصلاة ظنا منها بأنه

---

(١) جورجي زيدان — رواية الحجاج بن يوسف — ص ١١٢

حائط لسكونه وطول سجوده (١) " كما أشار الى أنه صوام قوام ، لكنه سرعان ما عاد وشوه هذه الصورة الجميلة ، أو أراد أن يهزها في أذهان الشباب بتعقيب غريب مريب حيث قال : " يجدر بمن كان مثل هذا أن يكتب له النصر " (٢) كما عمد الى تشويه الصورة بإضفاء صفة اليأس والقنوط الى ذلك العبد التقي الزاهد ، الذى كان قريبا من ربه بنوافله وصلواته وسجوده ، إذ " أقرب ما يكون العبد إلى ربه وهو ساجد " .

ولكي يقنع القارئ بأن اليأس قد استولى على عقل ابن الزبير ومشاعره .. عمد الى استنطاق ابن الزبير بالعبارات التالية : " ... ... فأرغب اليك أن توصيه بأختي خيرا وتقول له إن مصاهرته لآل الزبير جاءت متأخرة ولو عجل بها بضعة أيام لما استطاع بنو مروان الاستبداد بهذا الامر بما لا ينطبق على كتاب الله ولا سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم .... " (٣) .

ثم عقب على هذا الاستنطاق بقوله : " ولما قال ذلك ظهر الهياج في عينيه وخشن صوته فأتم كلامه قائلا : " كيف يسود العتاة الظلمة وكيف يتغلب قواد هم المنافقون الذين يرمون بيت الله بالحجارة فيغلبون رجالا يعبدون الله ويعملون بكتابه .... " (٤) فهذا تعقيب غير موفق واستنطاق متكلف اذ أنه ليس من المعقول أن تصدر مثل هذه العبارات عن صوام قوام عامل بكتاب الله الذى لا ييأس من عمل بمقتضاه ولكن كاتب الرواية يريد من القارئ أن يتجاهل كل ذلك ليصدق ما ذهب اليه هو من أن ابن الزبير قد يئس من الفوز والنصر فلجأ الى اسلوب الاحتجاج والانكار على الله ، ومن ثم وجه الكاتب النصح الى ابن الزبير على لسان حسن ، حيث

---

(١) جورجي زيدان — رواية الحجاج بن يوسف — ص ١١٢

(٢) جورجي زيدان — رواية الحجاج بن يوسف — ص ١١٣

(٣) جورجي زيدان — رواية الحجاج بن يوسف — ص ١٦٥ — ١٦٦

(٤) جورجي زيدان — رواية الحجاج بن يوسف — ص ١٦٥ — ١٦٦

قال له : " لا يخفى على مولاي أن النصر من عند الله يؤتيه من يشاء ولا غرابة في غلبة أهل الدنيا على أهل التقى فقد غلب معاوية الامام عليا ، صهر الرسول وابن عمه ، وقد قتل ابن زياد بالحسين وغيره ، ذلك لان الدنيا شيء والآخرة شيء آخر ، وقد انقضى العصر الذى ساد فيه الحق ، عصر الخلفاء الراشدين ، عصر الدين ، ذلك هو عصر التقوى ، وأهله من الصحابة يعرفون الحق ويرضخون له ، وما الحكم الان الا حكم دنيا فلا يتوخاه غير أهل الدهاء والسياسة (١) " وهذه كلمة حق أريد بها باطل ، أو تلك نصائح ما كان يجب أن تذكر الى جانب الصورة التي رسمت لابن الزبير في كتب التاريخ وفي مواضع متفرقة من رواية الحجاج بن يوسف ، لانها تفتقد المعقولية وتكشف عن خبث النية وسوء الطوية .

والذى يؤكد هذا الخبث وذاك السوء هو اعراض الكاتب عن تصوير شجاعة ابن الزبير وبسالته وصموده ، تلك الشجاعة التي تمثلت فيما يروى عنه من أنه " كان الحجر يقع بين يديه وهو يصلى فلا ينصرف " (٢) والشجاعة التي جعلت ابن الاثير يشبهه بالاسد عاديا حيث قال عنه : " فمرة يحمل ابن الزبير في هذه الناحية ومرة في هذه الناحية فكأنه اسد في أجمة (٢) " فليس مقبولا هذا الاعراض عن مثل هذه الصفات وليس مقبولا الاكتفاء بالسرد العابر للصفات التي تستهوى الكاتب وتوافق اتجاهاته ولكن لا بد من التصوير الفني الذى يتوخى فيه الابداع والصدق معا ، لتكون الصورة الفنية مشوقة ومكملة لحلقات التاريخ المفقودة لا مشوهة لحقائق التاريخ الثابتة ، ومن ثم نرى أن البون شاسع بين الصورة التي رسمها زيدان لشخصية ابن الزبير وبين الحقائق التاريخية أو الصورة الفنية الحقة .

أما بالنسبة لشخصية الحجاج بن يوسف فقد التزم المؤلف بشأنها ما جاء في كتب التاريخ من أخبار ومواقف دون تصرف فني حيالها الا بالنقص تارة والزيادة

---

(١) جورجي زيدان — رواية الحجاج بن يوسف — ص ١٦٦

(٢) ابن الاثير — الكامل في التاريخ — الجزء الرابع — ص ٣٥١ — ٣٥٥

تـــارات .

يتمثل ذلك النقص في جوانب كثيرة منها :

اغفال المؤلف للكثير من مواقف الحجاج التي اتسمت بالعنف والمتو وسفك الدماء ، مثل موقفه من أهل مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم عند ما زارهم بعيد انتصاره على عبد الله بن الزبير ، ومثل موقفه من أهل الكوفة عند ما بايع الناس بالكوفة لعبد الملك بن مروان ، وقد قيل انه أقام شهرا بالكوفة ، وانزل أهل الشام بيوت أهل الكوفة ، أنزلهم فيها مع أهلها ، وقد أشار الى هذا ابن الاثير ، الا أنه علق عليه بقوله : " هو أول من أنزل الجند في بيوت غيرهم ... ...، ومن سن سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها الى يوم القيامة ... (١) " ومن المواقف التي أعرض عنها زيدان بالنسبة لشخصية الحجاج موقفه مع أنس بن مالك الذى دخل عليه مرحبا فرد عليه قائلا : " لا مرحبا ولا أهلا بك يا ابن الخبيثة شيخ ضلالة ، جوال في الفتن ، مرة مع أبي تراب ومرة مع ابن الزبير ، ومرة مع ابن الجارود ... الخ " (١) ذلك الموقف الذى دعا عبد الملك بن مروان أن يكتب خطاب تهديد ووعيد الى الحجاج بن يوسف جاء فيه ما يلي : " ... أما بعد يا ابن أم الحجاج فانك عبد قد طمت بك الامور فعلوت فيها حتى عدوت طورك وجاوزت قدرك .. الى أن قال : ولولا أن أمير المؤمنين يظن أن الكاتب أكثر في الكتابة عن الشيخ الى أمير المؤمنين فيك لارسل من يسحبك ظهرا لبطن حتى يأتي أَنَسًا فَيَحْكُمَ فيك فأكرم أَنَسًا وأهل بيته ، واعرف له حقه وخدمته رسول الله صلى الله عليه وسلم ..الخ " (٢) ، وذاك موقف كان لا بد من الاشارة اليه أو تصويره في رواية الحجاج بن يوسف ، لانه يؤكد أن فوق الحجاج من يكبح جماحه ويحد من جوره وفساده ، ولكن زيدان يأبى

---

(١) ابن الاثير — الكامل في التاريخ — الجزء الرابع — ص ٤٨٢ ، ٣٨٦

(٢) ابن الاثير — الكامل في التاريخ — الجزء الرابع — ص ٣٨٦

ذلك ، ويأبى الا أن يصور الحجاج بصورة البطل المغوار الذى لا يشق له غبار ومن ثم لم يذكر له زلة أو سقطة في نظره الا في المواقف الغرامية التي بالغ في سردها ، فهي اذن تمثل الزيادات التي أضافها زيدان من عنده لتكتمل له الصورة الفنية لشخصية الحجاج بن يوسف ، ولم يقتصر على الزيادات فحسب ولكنه عمد الى التحوير في بعض الحالات .

ومن ذلك تحويره للخطاب الذى أرسله عبد الملك بن مروان الى الحجاج يعتب عليه ويؤنبه على سوء تصرفه مع انس بن مالك ، فقد جعل زيدان الغرض من هذا الخطاب العتاب والتأنيب بشأن بنت عرفجة ، حيث طلب منه التنازل عنها لحسن كما يزعم زيدان (١) في رواية الحجاج بن يوسف .

٦) عنصر الشر وأثره في تصعيد احداث رواية الحجاج بن يوسف :

كثيرا ما يلجأ زيدان الى الشخصيات الشريرة أو التي تمثل جانب الشر والخطر ، ولهذا العنصر أثره الكبير في تصعيد أحداث الرواية وصداه الخطير في تشويق القارئ وجذبه الى متابعة الرواية ، اذ أنه سيصبح متطلعا الى معرفة نهاية الشخصيات الشريرة ومدى تأثيرها في الشخصيات الخَيِّرَةِ من حيث عرقلة مساعيها أو الحيلولة بينها وبين تحقيق أهدافها .

والذى يمثل عنصر الشر في رواية الحجاج بن يوسف هو عرفجة (والد سمية) ويتمثل شره في مواقف كثيرة وأماكن متفرقة من الرواية .

منها محاولته الفتك بحسن الذى وعده بأن يزوجه ابنته سمية ، ولكن شاء الله نجاة حسن من تلك المكيدة فوقعت الضربة على سليمان بن عرفجة الذى ندم على فعلته قائلا : " لقد فتكت بك يا ولدى وفلذة كبدى ، أظنني استحق هذا القصاص

---

(١) جورجي زيدان ـ رواية الحجاج بن يوسف ـ ص ١٨٤

أما أنت فما ذنبك (١) " وهذا الندم يوحي للقارئ بأن عرفجة سيرتدع ويكف عن الشر ، ولكن سرعان ما يتبين له أن المؤلف انما أراد أن يزرع الشر في قلب عرفجة ويظهره بمظهر الانسان الحاقد المصر على الشر والحاق الاذى بالآخرين ، ومن ثم يحركه ويوجهه أنى شاء وكيفما أراد كأنما هو تمثال أو لعبة بين يديه ، حيث يجعله يتوجه الى محمد بن الحنفية بالكرسي المزعوم محاولا اقناعه بأفكاره ، لكن محاولاته تبوء بالفشل ، اذ أن ابن الحنفية أمر باحراق الكرسي بعد حوار طريف بينه وبين عرفجة ، وقد أدى ذلك الى ازدياد نسبة الحقد عند عرفجة ، حيث أضمر الشر والغدر بابن الحنفية عند الحجاج ، بينما توقع حسن أن يكون هذا الموقف سببا في كسر شوكة عرفجة وردعه عن الشر لكن الذى حدث غير ذلك ،

ثم اندلعت نيران الشر مرة أخرى في قلب عرفجة ، وذلك عندما جعله المؤلف يدبر أمر القبض على حسن لحظة دخوله معسكر الحجاج بوساطة ليلى الاخيلية ، وقد تم بالفعل القبض على حسن ، الا أن ذلك قد أدى الى قتل " قنبر " عبد عرفجة الذى لم يكن يهمه ولا يريحه الا موت حسن الذى يعتبره منافسا للحجاج في خطيبته سمية ، وبالتالي سيكون سببا في الحيلولة بينه وبين الاموال الطائلة التي كان يتوقعها من الحجاج كمهر لابنته سمية ، بالاضافة الى المكانة التي سينالها بسبب تلك المصاهرة ،

لذا ظل يتحين الفرص الى أن علم بدخول حسن خيمة ابنته سمية بمعسكر الحجاج فضرب الحصار على الخيمة لكي يأتي الحجاج ويجد الدليل المادى ، بل يرى بعينيه الجريمة التي لا تستحق الغفران ، ولا تحتمل التريث في قتل مرتكبها ، ولم يَدُر بخَلَدِ المؤلف عندئذ أو خَلَد عرفجة أن الحجاج ربما قتل سمية أيضا مع ذلك المجرم ، لانها تعتبر خائنة مثله ، هذا ما تقتضيه منطقية الحادث ، ولكن ما يريده

(١) جورجي زيدان — رواية الحجاج بن يوسف — ص ٥٤

زيدان غير ذلك ، ولا بد من تحقيق رغبته التي لا تترك الاحداث تسير في مسارها الطبعي ، ومن ثم كانت النتيجة هي النجاة لحسن وسمية والموت لعرفجة الشرير ٠

ومن هنا يتضح لنا أن عنصر الشر كان عاملا قويا في جذب القارئ وتشويقه الى معرفة مصير هذه الشخصية الشريرة ٠

هذا وقد كان الشر مسيطرا على عرفجة ومستوليا عليه أتم استيلاء ، الى درجة جعلتنا نتشكك من هذه الشخصية ، لان الشخصية الانسانية كثيرا ما تكون مزيجا من الخير والشر ، أما أن تكون شرا محضا فذاك أمر يقرب من المستحيل ، اذ لا بد لها من ومضة خير وبارقة أمل انساني ٠

٧) المصادفة وأثرها في ربط مواقف رواية الحجاج بن يوسف وحل عقدها :

لقد استعان زيدان بالمصادفة كثيرا في ربط أحداث روايته وتعقيد مواقفها ثم حل عقدها عن طريق المصادفة أيضا " وهذا الاعتماد يضعف جانب الابداع في القصة ويدل على ضعف الحاسة الفنية عند الكاتب ،كما يبعد القصة عن الواقع المعقول فتتهافت وتبرد حرارتها وتبرز الصنعة المهلهلة فيها ٠٠٠٠" (١) وقد كان لهذه المصادفات دور بارز في رواية الحجاج بن يوسف وتتمثل مظاهرها وآثارها فيما يلي :

أ ـ انقاذ حسن لعرفجة من هلاك محقق في حروب المختار ، وذاك أمر ما كان يتوقعه عرفجة ولا كانت تتوقعه سمية بدليل السرور الذى استولى عليهما آنذاك ،وقد أفصح عنه عرفجة باهدائه ابنته لحسن في تلك اللحظة تقديرا لشهامته واعترافا بنبله الذى كشفته المصادفة فقط ٠

---

(١) محمد يوسف نجم ـ القصة في الادب العربي الحديث ـ ص ١٨٢

ب ـ التقاء حسن بصديقه في سوق النبال مصادفة ، وقد كان لهذا اللقاء أثر كبير في تحويل مجرى الاحداث ، حيث نسي حسن عباءته وذهب مع صديقه الى منزله وأدى ذلك الى أن يرتدي الصديق العباءة ليكون في وداع صديقه خارج المدينة وليتوجه اليه سهم عرفجة الذي كان يقصد حسنا ويريد قتله •

جـ ـ نجاة سليمان من الموت بضربة أبيه الحاقد : وذاك أمر غير متوقع ، لان الضربة كانت من حاقد يحرص على توجيه ضربة قوية وتسديد سهم نافذ ، ولكن تشاء حبكة زيدان نجاة حسن بمحض المصادفة ونجاة ابن عرفجة ، وفي نجاتهما تنمية لاحداث الرواية دون ريب •

د ـ مرور سمية بحسن وهي في طريقها الى الحجاج : وتلك مسألة ما كانت لتخطر بذهن القارئ فضلا عن ذهن المحب التائه في بحور الشوق ، بدليل أنه لما علم بها مصادفة جن جنونه وأدى ذلك الى تصاعد أحداث الرواية وتعقيد مواقفها حيث اضطر حسن للذهاب الى معسكر الحجاج خلسة فكان ما كان •

هـ ـ ظهور عبد الله " خادم حسن " بمعسكر الحجاج حيث فوجئ حسن بذلك الظهور وخاصة عند ما رأى خادمه مرتديا ملابس حرس الحجاج ، وكان لظهور عبد الله اثر في انقاذ حسن في المرة الاولى كما كان سببا في اتاحة الفرصة لحسن كي يخرج من السجن ليذهب الى عبد الله بن الزبير بمكة ثم يعود ليذهب الى سمية حيث حوصر داخل خيمتها •

و ـ مجيء البريد مصادفة وفي اللحظة الحاسمة ، حيث وصل بعد أن حكم الحجاج على حسن بالاعدام وهو في ساحة الحكم ينتظر تنفيذ حكم الاعدام عليه ، واذا بالبريد يصل فجأة وعلى غير الصورة المعهودة ليسلم الحجاج خطاب تهديد من عبد الملك بن مروان ان هو تعرض لحسن بسوء ، ومن ثم كانت نجاة حسن من موت محقق وكانت نجاة سمية من الحجاج قبل أن يتخذها ، فما أجملها من مصادفة وما أروعها من حبكة خيالية •

وكل هذه المواقف وغيرها تؤكد لنا أثر الصادفة في تصعيد أحداث الرواية وتدريج مواقفها الى النهاية التي أرادها الكاتب .

٨) الإستشهاد بالشعر في رواية الحجاج بن يوسف :

القارئ لرواية الحجاج بن يوسف يجد المؤلف قد استشهد بالشعر في أماكن عدة ومواقف مختلفة (١) ، بل انه قد عقد فصلا خاصا بعنوان " مجلس الشعراء " تحدث فيه عن الشعراء الذين كانوا في مجلس سكينة بنت الحسين وأثبت بعضا من أشعارهم ، وقد كان موفقا في الاستشهاد بها ، اذ أنه أتى بكل مجموعة في المكان الذى يتناسب معها بالاضافة الى أنها قد أضفت على الرواية ثوبا من الجمال وأعطتها قبسا من روعة الادب والفن فسدت ثلمة وأكملت جانبا من نقص كبير في فنية الرواية ، هذا على الرغم من أنها كانت سببا من أسباب تفكك الاحداث في هذه الرواية بسبب الاطالة والانشغال بها اكثر مما ينبغي .

٩) لغة الرواية وسماتها :

تتميز لغة رواية الحجاج بن يوسف بيسارتها وقربها من الافهام ، وهي الى الاسلوب الصحفي أقرب منها الى الاسلوب الادبي الرفيع ، اذ أن القارئ لا يجد في الرواية صورة طريفة تهز مشاعره ، أو عبارة أنيقة تشنف مسامعه ، ولكن على الرغم من هذا كله نراها لغة فصيحة خالية من الاخطاء الا في حالات قليلة ، حيث لجأ فيها الكاتب الى العامية ، وذلك عندما أجرى حوارا بين سمية وجاريتها ، (٢) وثمة خطأ قد نحسبه من الاخطاء المطبعية ، وذلك عندما أراد المؤلف أن يسجل اعتراض ابن عمر على رمي الحَجَّاج للكعبة والحُجَّاج بالمنجنيق ، فقد كتبت العبارة

(١) جورجي زيدان ـ رواية الحجاج بن يوسف ـ ص ٤٣ ـ ٤٦

(٢) جورجي زيدان ـ رواية الحجاج بن يوسف ـ ص ٧٥

(ابن عمرو) (١) ،والصحيح ابن عمر ، لان الذى اعترض على الحجاج انما هو عبد الله بن عمر بن الخطاب ، وليس عبد الله بن عمرو بن العاص . ومن الاخطاء المطبعية أيضا قوله : " كأنه تذكر أمر يؤلمه " (٢) والصحيح : كأنه تذكر أمرا ، لان كلمة " امرا " مفعول به منصوب ، وغير ذلك من الاخطاء التي نميل الى أنها من المطبعة أو أنها زلات طفيفة وهنات خفيفة فلا تعتبر عيبا قادحا أو خطأ فادحا .

١٠) نهاية الرواية ودلالتها :

لقد كانت نهاية رواية الحجاج بن يوسف نهاية سعيدة ، وتتمثل تلك السعادة في زواج حسن بسمية بعد نجاته من موت محقق ، وعندما يصل القارئ الى هذه النهاية يتساءل قائلا : كيف انتهت شخصية حسن بهذه الصورة مع أن منطقية الاحداث تقتضي اعدامه واعدام محبوبته سمية بسيف الحجاج الذى يعتبر زوجا شرعيا لها حسب رواية زيدان ؟ ولا تفسير لهذه النهاية غير المتوقعة الا بالقول بأن المؤلف يميل دائما الى النهاية السعيدة ويريد الانتصار للخير على الشر ولكن في عالم الخيال لا الواقع ، اذ أنه لا وجود لشخصية اسمها حسن أو أخرى أسمها سمية والله أعلم .

— . . . —

(١) جورجي زيدان — رواية الحجاج بن يوسف — ص ١١٠

(٢) جورجي زيدان — رواية الحجاج بن يوسف — ص ١٢٠

١٠ـ تحليل رواية
(فتح الأندلس)

أ ـ أقسام الرواية
ب ـ زمن الرواية
جـ ـ شخصيات الرواية
د ـ مضمون الرواية
هـ ـ خاتمة التحليل وتشمل على :ـ

١) بين الحقيقة والخيال .
٢) مدى استكمال حلقات التاريخ المفقودة .
٣) تصوير دور اليهود في فتح الاندلس .
٤) تصوير عفوى لخبث اليهود ومكرهم .
٥) التحليل النفسي لشخصيات الرواية .
٦) وسيلة التشويق في رواية فتح الاندلس .
٧) العناية بالاديرة والرهبان .

تحليل رواية
فتح الاندلس

أ ـ أقسام الرواية :

تتكون رواية " فتح الاندلس " لجورجي زيدان من قسمين كبيرين أولهما : قسم تاريخي بحت يتمثل في تقديم لمحة موجزة عن حالة اسبانية قبيل الفتح الاسلامي ولمحات أخريات عن حضارة الاسلام والمسلمين في الاندلس ، أما القسم الثاني فهو القسم الغرامي الذى شغل حيزا كبيرا من الرواية ، حتى ليكاد يغطي معظم أحداث الرواية التاريخية .

ب ـ زمن الرواية :

تمثل أحداث هذه الرواية فترة زمنية محددة ، وهي فترة الفتح الاسلامي لاسبانية في أوائل القرن الثامن الميلادى ، كما تتحدث عن أخريات عهد القوط الذين سطوا على اسبانية في القرن الخامس الميلادى وفصلوها عن الرومانيين وانشأوا فيها دولة قوطية ...

جـ ـ شخصيات الرواية :

اشتملت رواية " فتح الاندلس " على مجموعة من الشخصيات الرئيسة والثانوية أهمها ما يلي :

١) طارق بن زياد : القائد الاسلامي الشهير ، الذى تم على يده الفتح الاسلامي سنة ٩٢هـ الموافق ٧١١م .

٢) رودريك ، أو لذريق : وهو ملك القوط ، وحاكم اسبانية قبيل الفتح الاسلامي وفي عهده ثردت الاحوال وساءت .

٣) الكونت يوليان : هو والد فلورنده ـ بطلة هذه الرواية ـ وحاكم سبته الذى ساعد العرب ابان الفتح الاسلامي .

٤) الفونس ـ خطيب فلورندة وابن غيطشه ملك الاسبان الاسبق .

٥) الأب مرتين : راهب كبير وواحد من مستشارى الملك رودريك .

٦) يعقوب : رجل يهودى ماكر وقد قام بدور الخادم لألفونس في هذه الرواية .

د ـ مضمون الرواية :

بدأت رواية فتح الاندلس بمقدمة موجزة تحدث فيها الكاتب عن كلمة " الاندلس" أو "وندلوسيا " وعن أصل القوط ودولتهم التي أنشأوها في اسبانية ، وعن عاصمتهم " طليطلة " كما تحدث عن رودريك أو لذريق ملك الاسبان قبيل الفتح الاسلامي ، مبينا كيفية وصول لذريق الى الملك ، واصفا قصره يوم الاحتفال بعيد الميلاد ، حيث كان أهل طليطلة مشتغلين بالتوجه الى الكنيسة لاداء الصلاة ولمشاهدة الرجل الذى انتزع الملك من غيطشة ملكهم السابق ، وفجأة تحولت مجريات الاحداث فانشغل المؤلف بالحديث عن فتاة من أهل البلاط الملكي ، ليكون ذلك الحديث تمهيدا لفتح باب الغرام والهيام الذى تمثل في الربط بين هذه الفتاة وبين ابن الملك السابق برباط الحب ، وقد أحكم المؤلف ذلك الربط ، بل جعل كلا منهما يتخلف عن الاحتفال العظيم الذى سيحضره الملك لذريق وأدار بينهما أحاديث الهوى والغرام في فصلين كاملين بعنوان : " لغة الحب " و " المحب كثير الشكوك " (١) ثم جاء عقب هذين الفصلين الذين لا علاقة لهما بفتح الاندلس فصل آخر عني فيه الكاتب بوصف موكب الملك لذريق مُركِّزاً على شارات النصرانية من كؤوس وصلبان ومشاعل وغير ذلك ، ثم عاد للحديث

(١) جورجي زيدان ـ رواية فتح الاندلس ـ ص ١٢ ـ ١٨

عن الروم والقوط ذاكرا ما تخيله من تشابه بين العرب والقوط في فتح مملكة الرومان ، على حين أن البون شاسع ولا قياس مع الفارق ، كما لم يفته الحديث عن الخبطأ الذى ارتكبه القوط بالتخلي عن مذهبهم ولغتهم ، ثم تحول بعد ذلك للحديث عن ألفونس وفلورندة قائلا : أن الراهب مرتين الذى كان يرافق الملك لذريق قد كشف أمر الحبيبين للملك الذى بدأ يحس بجاذبية تشده نحو الفتاة " .

ومن هنا ندرك كيف استطاع الكاتب أن يلجأ الى عنصر الغرام مرة ثانية ليجعله وسيلة لتصميم أحداث روايته وتعقيد مواقفها ، ومن ثم جعل الملك يستدعي فلورندة ليبادلها عبارات الغرام والهيام ، وقد أسهب المؤلف في سرد تلك العبارات التي تميزت بالاسفاف والابتذال ، بل بالنتن الذى يزكم الانوف ويؤذى المشاعر السوية .

هذا باستثناء تعقيب فلورندة على عبارات الملك الغرامية فقد تميز بالجودة ، حيث جاء في عبارات تدعو الى العفة وتحض على الدفاع عن الشرف ، ومن تلك العبارات قولها : " أما أنا فليس لي الا هذه الجوهرة أفتسلبني اياها ؟ وهل تظن أنك اذا أردت ذلك تستطيع فعله ؟ وارتعشت يداها وارتجفت شفتاها وابيضتا من شدة التأثر فاستطردت قائلة كلا لا يستطيع أحد أن يسلبني هذه الجوهرة فانها أثمن من خزائن العالم بأسره وهي سلاحي وترسي ودرعي ، وهي سبيلي الى السعادة الابدية ... (١) الا أن هذه العبارات لم تؤثر في ذلك الوحش الكاسر ، فاضطرت الفتاة الى اقناعه بأدلته وبراهينه قائلة له : " يقول جلالة الملك اني اتمسك بالاوهام الباطلة والاعتبارات الفارغة ، فما قوله اذا علم أن جلالة الملكة تراود شابا عن نفسه وتطلب اليه أن يعيش معها ويكون شريك حياتها " ، وقد ادرك الملك ما في هذه العبارة من تحقير له فهاج غضبه ولاح له أن يستخدم العنف ثم التعريض بمكانة

(١) جورجي زيدان — رواية فتح الاندلس — ص ٣٤

ألفونس ، لكنه عدل عن ذلك وأعطاها مهلة للتفكير .

أما ألفونس فقد ذهب ليستشير عمه المطران أوباس فيما جرى له مع الملك من أمور محيرة ، وقد أقنعه عمه بضرورة التريث بعد أن أطلعه على حقائق تاريخية مذهلة سماها زيدان " فلسفة التاريخ " وخصص لها فصلا كاملا بين فيه سبب محنة القوط وبلائهم ، وعزا ذلك الى ريكارد و الذى أضاع جنسيتهم وحل جامعتهم .

اتفق أوباس مع ألفونس على ضرورة استرداد ملك غيطشة ، ولكن ما السبيل الى ذلك ؟ وبينما هما يفكران في هذا الامر اذا بخطاب يصل من فلورندة تطلب انقاذها من الخطر الذى يهددها في قصر الملك ، وقبل أن يفرغ ألفونس من التفكير في كيفية أو وسيلة انقاذ فلورندة اذا بخطاب آخر يأتيه من الملك طالبا مسارعته اليه ليتولى قيادة كتيبة متوجهة الى مقاطعة من المقاطعات لاخماد ثورة وتمرد .

قرر ألفونس عدم الاستجابة لطلب الملك ، لكن عمه " أوباس " أقنعه ، أو لكن المؤلف وجهه الى ذلك والزم العم بانقاذ فلورندة من الملك الذى كاد ينال مأربه منها ، ولما كان — من ذلك — قاب قوسين أو أدنى فاجأه " أوباس " بطرق باب الغرفة الخاصة فانزعج الملك لذلك ، ولم يخطر بباله وقتئذ سوى غضب الله عليه ، حيث حسب ان الله قد أرسل اليه ملكا من ملائكته ليهلكه ، فوجل وخاف .

استطاع أوباس اذن بحيلته البارعة أن يخلص فلورندة ، لكنه وقع في شراك الملك الذى أمر بالقاء القبض عليه ، بل عقد جلسة خاصة بالاساقفة للنظر في محاكمة اوباس .

استغل المؤلف تلك الفرصة ، فأخذ يتحدث باسهاب عن كل ما يتعلق بالكنيسة والمجامع الدينية ، مبينا أنواعها ، وموضحا مهامها وتقاليدها المتبعة وربما كان للمؤلف عذر في هذا الحديث ، وذلك لانه كان يصور مجتمع إسبانية قبيل الفتح الاسلامي ، ولكن لا مسوغ لذلك الاسهاب والتطويل .

وعندما قدم أوباس للمحاكمة أجرى المؤلف حوارا طريفا بينه وبين الاساقفة من ناحية ثم بينه وبين الملك رودريك من جانب آخر ، وقد كانت مجريات الاحداث توحي

الى أن المؤلف لا يريد ذلك ، لذا كان لا بد من رفع الجلسة — في الرواية — الى وقت آخر ، لتتاح للمؤلف فرصة أكبر تمكنه من الحديث عن " ألفونس " ورفيقه يعقوب اليهودى .

استرسل المؤلف في سرد الاسرار التي تتعلق بشخصية يعقوب الذى يبدأ أمره يتكشف شيئا فشيئا من خلال تصرفاته الغريبة وعباراته المريبة حيث قال لصديقه : " سأتلو عليك يا مولاى ألفاظا غريبة لا بد لك من حفظها ، قال : لماذا ؟ قال يعقوب ان ما ستتعلمه الان من الالفاظ والإشارات انما هو مفتاح السر وطريق العمل ... (١) " ومن ثم أخذه الى وكر تحت الارض حيث التنظيم السرى لليهود ، وقد بالغ المؤلف في تصوير سرية هذا التنظيم وأتى بأمور تستعصي على التصديق ورموز أقرب الى رموز الماسونية منه الى أى شئ آخر ، حتى جعل القارئ في حيرة وتساؤل عن سبب الاتيان بهذا التنظيم في رواية تتحدث عن تاريخ الاسلام ، وزيدان لا يجيبه على هذه التساؤلات لكنه يعنى ويهتم ببيان حقيقة اليهود مشيرا الى صلتهم بيوليان ومؤازرتهم للعرب في فتح الاندلس ، ذاكرا اتصال يوليان بموسى بن نصير ، وما اتخذه موسى من الحيطة والحذر ، كما لم يفته الحديث عندئذ عن طارق بن زياد الذى واصل زحفه حتى وصل الى وادى لكة ، حيث التقى جيشه بجيش رودريك سنة ٩٢هـ فتم النصر للمسلمين .

ثم ماذا بعد هذا في رواية فتح الاندلس ؟

ثم انفرط عقد الحوادث في تلك الرواية ، فبدت الحبكة القصصية واهية النسج غير محكمة الاطراف ، حيث ظهر اضطراب الكاتب وحيرته بين العودة للحديث عن المحكمة التي رفعت جلساتها وبين الحديث عن الملك رودريك وهزيمته أو أوساس وتحوله المفاجئ .

---

(١) جورجي زيدان — رواية فتح الاندلس — ص ١٣٣

حاول المؤلف التوفيق بين هذا وذاك لكنه لم يفلح ، ولذلك انتقل فجأة الى الحديث عن الخمور وصناعتها وأسمائها في بلدة شريش ، على الرغم من أنه لا علاقة لهذا الحديث بفتح الاندلس ، لكن المؤلف آثر الحديث عن هذا الجانب ليجعله تكأة للحديث عن معاملة المسلمين لأسرى الحرب ، وذلك من خلال عرض قصة بعض مزارعي الكروم عندما افتقدوا ابنتهم ماريسة ، فذهب والدها للبحث عنها ، ولما سمع صوتها داخل خيمة العرب الذين كانوا في معسكر بالقرب من شريش قفز توا الى الخيمة ، فدار حوار بينه وبين قائد الجند تميز بصدق التصوير وروعة التعبير .

عاد المؤلف ـ بعد ذلك ـ الى الحديث عن فلورندة التي نسي القارئ أمرها لأن الكاتب ترك موضوعها وشغل بمسائل جانبية ، لكنه عاد الان ليقول ان فلورندة تمكنت من ارسال رسالة الى والدها بعد هروبها من قصر رودريك ولم يفصح المؤلف عن أثر تلك الرسالة لكنه شغل نفسه بأمر يهمه هو ، لذلك أخذ فلورندة وخالتها الى دير من الاديرة ليمكنها من الافضاء بكل اسرارها الى رئيس الدير ، وقد استغرق الحديث عن سر الاعتراف والرهبان أكثر من عشرين صفحة ، وفي ذلك ما فيه من الخلط لتاريخ الاسلام بتعاليم النصارى وأخبار الاديرة والرهبان وغير ذلك من الامور التي لا تمت بصلة الى تاريخ الاسلام .

ثم جاء الحديث عن الاضطراب في مملكة رودريك ، ولا سيما في مقاطعة " بوتيكه " التي أخفى الملك أخبارها عن رجال حكومته بايعاز من الراهب مارتين الا أن القائد " كوليس " علم بتلك الاخبار ، لذلك عاتب الملك في الجلسة عتابا جر عليه النَّقْمَةَ والبغضاء ، وأدى ذلك الى تعقد المواقف وتصاعد الحوادث ، حيث ثار الراهب مارتين وغضب على الملك الذى أصبح وحيدا حائرا لا يدرى ماذا يفعل ؟ وقد تركه المؤلف في تلك الحيرة لينتقل الى الحديث عن فلورندة قائلا ان رئيس الدير قد التزم بمساعدتها ومساعدة الاب أوباس ، وقبل اتصاله بالاب أوباس التقى بالأب

" مارتين " فوجده في قمة الغضب من الملك رودريك ، لذلك سهل له مهمة اتصاله بالاب أوباس ، بل طلب منه أن يحرض الاب أوباس ويدعوه الى رفع استئناف .

ولما عرض رئيس الدير فكرة الاب " مارتين " على الاب أوباس وأوضح له ان الملك رودريك في حالة ضعف ، وان دولته في طريقها الى التداعي والسقوط ، وتلك فرصة يجب أن يغتنمها للانتقام من ذلك الملك الجائر ، وهذا هو الذي كان يتوقعه قارئ الرواية ، بل هو ما تقتضيه منطقية الاحداث وتسلسلها الطبيعي ، ويبدو أن الكاتب لم يحافظ على هذا التسلسل بل عمد الى تحويل مجريات الاحداث ، وذلك باشعال نار الغيرة الوطنية في قلب الاب أوباس ، فبدا في الرواية نافرا من فكرة الانتقام حتى لا يكون ذلك سببا في سقوط الدولة وخروجها من أيدي أبناء جِلْدَتِهِ أو المشتركين معه في عقيدته الى أمة لا تمت الى أمته بصلة ، ولا تربطها بها عقيدة .

لذلك كله قال أوباس لرئيس دير الجبل : " نحن في موقف ينبغي أن ننبذ فيه الضغائن ونتحد على العدو المهاجم رغبة في سلامة المملكة ... (١) " فأثر هذا الكلام في رئيس دير الجبل ، وأحس بصغر نفسه ، بل تأكد له الضعف البشري ، فما كان منه الا أن خرج والحياء قد أخرسه والخجل ألجم لسانه ، أما أوباس فقد أرسل الى رودريك طالبا مقابلته ، ولما مثل بين يديه شرح له فكرة الاتحاد على العدو ، وبين له ضرورة نبذ الضغائن والاحقاد .

عندئذ استطاع رودريك أن يجهز جيشه ليخوض المعركة ضد المسلمين ، وفي ميدان القتال قام أوباس بدور بطولي محاربا ومحمسا جنود رودريك على الصمود ، ولكن على الرغم من ذلك كله انهزم رودريك شر هزيمة ففر ومن خلال عرض المعركة ونتائجها استطاع الكاتب أن يقدم تفسيرا للهزيمة ، حيث أرجعها الى عوامل ثلاثة هي :

---

(١) جورجي زيدان ـ رواية فتح الاندلس ، وكلمة « المهاجم » خطأ شائع ، والصواب : الهاجم .

١) اليهود الذين كانوا يعملون في تنظيماتهم السرية من أجل الاطاحة بالنظام الذى اضطهدهم وأجبرهم على اعتناق النصرانية وهجر اليهودية ٠

٢) الحب أو الغرام الذى ربط بين قلب فلورندة بنت يوليان (حاكم سبتة المتمرد على رودريك) وبين قلب ألفونس ابن الملك غيطشة الذى يقال ان رودريك قد انتزع منه الملك بمؤامرة دبرها مع بعض أساقفة النصارى ٠

٣) مساعدة يوليان التي شجعت العرب على الفتح والتوسع ٠

وبعد هذا التفسير أخذت اسرار الرواية تتكشف ، وطفقت ألغازها تسير في طريقها الى الحل ، وذاك أمر يوجب على الكاتب البحث عن الخاتمة السعيدة للرواية ، وقد تحقق له ما أراد ، حيث جعل فلورندة اسيرة عند المسلمين ، وجعل القائد بدرا الذى أسرها يعجب بها ويحارب من أجلها ، لذلك دارت معركة بالسيوف بينه وبين والد الفتاة (يوليان) أمام القائد الاعلى (طارق بن زياد) ولم يستطع أحد فض النزاع بينهما الا اليهودى سليمان الذى ذكّر يوليان بأمر جعله يلقى سيفه ويلجأ الى البكاء ، وبذلك تعقد الموقف وساد الجميع حزن واستغراب ، وعند ذاك دعاهم سليمان الى اجتماع عام يشرح فيه ذلك الموقف الغريب ويكشف عن سره العجيب ، فما هذا السر ؟

يتمثل ذلك السر في أن القائد الكبير الذى أسر فلورندة وأراد الاستئثار بها دون سواه هو طوماس بن يوليان ، فهو أخ شقيق لفلورندة ، ولما انكشف هذا السر ساد الجميع فرح وسرور بعد حزن وكدر ، وسعد ألفونس وفلورندة بما كانا يتوقان اليه ويكافحان من أجله ، وبقي يوليان وألفونس عونا وسندا لطارق بن زياد ، أما أوباس فقد فارقهم قائلا : " اتركوني أقض بقية هذه الحياة في العبادة والصلاة والانقطاع عن هذا العالم ، فقد رأيت من شروره ما كفاني " (١)

وتلك نهاية سعيدة ، وهي النهاية التي درج عليها زيدان في معظم رواياته ٠

---

(١) جورجي زيدان — رواية فتح الاندلس — ص ٢٨٧

هـ ـ **خاتمة التحليل :**

(١) **بين الحقيقة والخيال :**

لا مجال لانكار الحقائق التي اشتملت عليها رواية فتح الاندلس لجورجي زيدان ، ولكن لا بد من الوقوف عند تلك الحقائق للتثبت مما اذا كانت حقائق صرفة ، أو كانت مشوبة بشيء من الخيال . ومن خلال تحليلنا لهذه الرواية تأكد لنا امتزاج تلك الحقائق بالخيال حينا والخرافة أحيانا ، وعملية الفصل بين الحقيقة والخيال في هذه الرواية لا تحتاج الى صفاء ذهن أو رجاحة عقل ، اذ أن القراءة العابرة تكشف عن ذلك المزج المتعمد ، ومن الاشياء المستخيلة التي مزج المؤلف بينها وبين الحقائق التاريخية ما يلي :

أ ـ حب ألفونس (ابن الملك غيطشة) لفلورندة (بنت يوليان) ذلك الحب الذى أخذ يتدرج ويتعقد ، وطفق المؤلف ـ بسببه ـ يذيق كلا من الحبيبين صنوفا من التشريد وضروبا من التعذيب ، وهكذا الى أن أصبح ذلك الحب عاملا فعالا في انحياز القائد ألفونس بجنوده الى جانب الجيوش العربية مما أدى الى هزيمة القوط وانتصار العرب كما تقول الرواية ، على حين أن هذا الحب ونتائجه ما هو الا أمور متخيلة من زيدان ليستكمل بها حلقات التاريخ المفقودة ـ كما يزعم ـ وليشوق بها القارئ ويدعوه الى متابعة الرواية ، ذلك لان الانتصار الذى تحقق للعرب والهزيمة التي لحقت بالقوط لم يكونا نتيجة ذلك الحب المزعوم البتة .

ب ـ التنظيم السرى لليهود : ومن المواقف المتخيلة ايضا اتصال ألفونس بالتنظيم السرى لليهود عن طريق خادمه اليهودى يعقوب الذى أخذ يعلمه بعض الحركات والمصطلحات اليهودية ، بل ذهب به الى مقر التنظيم السرى ، ثم عناية المؤلف بكل هذا والحديث عن ذلك التنظيم اليهودى وأهدافه ومؤامراته (١) التي بدت كأنها جزء من تاريخ الاسلام الذى باسمه تم فتح الاندلس .

---

(١) جورجي زيدان ـ رواية فتح الاندلس ـ ص ١٣٦ ـ ١٣٧

والحق أنها بعيدة كل البعد عن تاريخ الاسلام المشرق الوضاء ، فهي ليست من تاريخ الاسلام في شيء وما هي الا مواقف يهودية مبالغ في تصويرها ، وكان قصد الكاتب من ذلك كله الاشارة الى الوضع المتردى الذى كانت عليه الدولة قبيل الفتح الاسلامي ، حيث ان القوط كانوا يضطهدون اليهود فدعاهم ذلك الاضطهاد الى العمل السرى ضد الدولة ولكن لا داعي لذكر ظلمهم هذا عند الحديث عن الفتح الاسلامي ، وتعمد ذكره يدل على المزج المتكلف للحقيقة بالخيال .

جـ ـ قصة القائد بدر : ومن المواقف المتخيلة التي جاءت متدثرة بثوب الحقيقة قصة القائد بدر الذى ذهب الكاتب الى أنه نشأ مع طارق بن زياد في بيت أبيه وهو يعلم أنه ليس أخاه ، لان رئيس قبيلتهم دفعه الى والد طارق ، وطلب منه الاعتناء بتربيته ، فتصاحب بدر وطارق وتحابا ، ثم أخذ بدر يرافق طارقا في حروبه حتى أصبح قائدا ماهرا ، وهذا أمر طبعي حدث ويحدث كثيرا في دنيا البشر ، فلا غرابة فيه ، بل الغرابة في المواقف التي اضافها زيدان بعد ذلك الى رفيق طارق وأحد قواده ، حيث ذهب الى أن بدرا هذا قد دخل في جدال عنيف مع قائده الاعلى طارق بن زياد الذى أنكر عليه أخذ بنت ضلت طريق منزل أهلها قائلا له : " لا يمكننا أن نعد هذه سبية وهذا أبوها شيخ قد طعن في السن ، وقد رأيت ما كان من لهفته عليها ، فهل يليق بنا أن ننغص عيشهما بلا حق ، والاسلام انما يدعو الى الرفق والعدل ، وأما السبايا التي تؤخذ بالحرب فهي حلال لأصحابها (١) " .

ولم يكتف المؤلف بتخيل هذا العتاب الذى لا وجود له في كتب التاريخ بل تخيل أيضا اتهام بدر ليوليان بأنه السبب في حرمانه من غنيمته

---

(١) جورجي زيدان ـ رواية فتح الاندلس ـ ص ١٧٢

رغبة منه في مرضاة أبناء عشيرته (١) ، وذلك أمر غريب مريب ، بل نستبعد حدوثه من مسلم نشأ نشأة طارق بن زياد ، وحارب ضمن جنوده باسم الاسلام الذى يضيء العقول ، ويهذب الطباع ، ويتسامى بغريزة الانسان الى المستوى الذى يليق بكرامته فلا يصبح عبدا لتلك الغريزة .

وتزداد غرابتنا عندما يتضح لنا أن المؤلف قد أضاف الى ذلك الموقف موقفين آخرين غريبين ، يتمثل أولهما فيما ذهب اليه من أن بدرا هذا قد قتل لذريق أو أجبره على الفرار والملاذ بالبحر ، ثم أسر فلورندة التي اسرت قلبه حالما وقع نظره عليها فأصرّ على عدم التخلي عنها لمّا تبين أنها ابنة يوليان ، وعندما أمره طارق بالتنازل عنها لم يستجب لرغبة قائده الاعلى ، ولكنه شهر سيفه قائلا : " انها اسيرتي في ساحة الوغى ، أخذتها بحد هذا السيف ، فلا أتخلى عنها لاحد ولو كان أمير المؤمنين الا أن يأخذها مني بالسيف كما أخذتها (٢) " أو هكذا أراد المؤلف أن يقول بلسانه .

وذاك موقف يستهوى زيدان وأضرابه ، لكنه لا يتناسب مع شخصية مجاهد في سبيل الله وحارب من أجل نشر مكارم الاخلاق التي بعث النبي عليه الصلاة والسلام ليتممها ، وكاتب القصة الفنية يصور الاحداث التي وقعت بالفعل أو يمكن وقوعها من الشخصية التي تنسب اليها ، الا أن كاتبنا لم يهتم بهذا الاتجاه في رواية فتح الاندلس ، بدليل أنه ذهب بعد ذلك كله الى القول بأن بدرا قد دخل في مبارزة مع يوليان أمام القائد الاعلى ودون انصياع لأوامره .

والاعجب من ذلك هو ما ذهب اليه المؤلف من تصعيد النزاع بين بدر ويوليان وعدم فض ذلك النزاع الا بوساطة اليهودى سليمان الذى استحلف

---

(١) جورجي زيدان — رواية فتح الاندلس — ص ١٧٢

(٢) جورجي زيدان — رواية فتح الاندلس — ص ١٧٩

يوليان بحياة " طوماس " فألقى السلاح ووقع على الارض يبكي وينتحب ،
فذهل الجميع لذلك الموقف الذى أصبح لغزا وطلسما من الطلاسم التي
يعتبرها زيدان وسيلة تشويق ، ولم يتضح أمر هذا اللغز الا بعد أن
تولى سليمان اليهودى تفسيره ·· نعم بعد أن تولى سليمان اليهودى تفسيره !!!

د ـ لذريق وفلورندة : ومن المواقف المتخيلة او الممتزجة بشيء من الحقيقة
موقف لذريق مع فلورندة ، فالموقف على صورته في رواية فتح الاندلس لزيدان
فيه كثير من عمل الخيال ، أما من حيث وروده في كتب التاريخ فهو وارد من
حيث هو أمر تاريخي أو حادثة للناس فيها آراء ومذاهب ، فبعض الدارسين
يرون أنها " قد تكون خرافة وقد تكون حادثة صحيحة ولكن مما لا ريب فيه أنها
لا صلة لها بفتح الإندلس (١) " ويقولون : " ان عداوة يوليان للذريق
ترقى الى العام الذى خُلِعَ فيه حَمُوهُ غيطشة ، قبل أن يكون الاتصال المزعوم
بابنته ··· (١) " بل يرون أن قصة ابنة يوليان مع لذريق تشبه قصة ابنة
قيصر الروم مع امرئ القيس (١) ·

وليس معنى هذا أننا نرفض أو ننكر قصة لذريق مع ابنة يوليان ، لكننا
ننكر المبالغة في تصويرها ، ونرفض العمل على تقريرها حقيقة ثابتة ، وان كنا
نقبلها من حيث هي موقف يشير الى الفسق والفجور اللذين كانا سائدين في
بلاد الروم والقوط ، ولا نظن أنها قد أحدثت تلك الضجة التي نقلها الينا
زيدان ، لان الناس قد ألفوا الفساد آنذاك ·

وهناك مواقف أخر عني المؤلف بمزجها بالخيال فجاءت بعيدة كل البعد
عن الحقيقة التاريخية الثابتة ·

---

(١) عمر فروخ ـ العرب والاسلام في الحوض الغربي من البحر الابيض المتوسط ـ
الطبعة الاولى ـ بيروت · ص ٧٩

٢) مدى استكمال حلقات التاريخ المفقودة :

كاتب القصة التاريخية أو الرواية التاريخية يتوخى دائما استكمال الجوانب التي أغفلها المؤرخون ، ويميل الى استجلاء المناحي التي من شأنها أن تشحذ همة الشباب وتدعوهم الى مطالعة التاريخ بغية التوسع والاستمداد من المراجع الامينة والمصادر الاصيلة ، وهذا ما حاوله جورجي زيدان في سلسلة روايات تاريخ الاسلام التي من بينها رواية فتح الاندلس ، لكنه في هذه الرواية لم يوفق الى تحقيق ذلك الاستكمال المنشود ، ويبدو أنه لم يكلف نفسه عناء هذا الاستكمال وذاك الاستجلاء اذ انصرف الى الحديث عن الهوى والشباب ومواقفهم الغرامية ، والى الحديث عن أمور لا تستهوي قارئ قصة فتح الاندلس أو قصة انتشار نور الاسلام الذى شق دُجُنَّات الظلام في الحوض الغربي من البحر الابيض المتوسط ، ومن ثم نستطيع أن نقول إن رواية فتح الاندلس لجورجي زيدان أشبه بقصائد الاطلال التي كان يقولها بعض شعراء الجاهلية في البكاء على طلل تقادم عهده ، وفي البحث عن غانية أو فتاة ، بل ربما امتازت قصيدة الاطلال على رواية فتح الاندلس لزيدان بما تتضمنه من إحساس وشعور بالألم المُمِضّ ، وهو إحساس لا وجود له البتة في الرواية المذكورة ، وكيف نتوقع بكاءً على الفردوس الاسلامي المفقود من كاتب مسيحي ؟

لم نكن نتوقع ذلك ، ولكن من حق كل قارئ أن يطالب كل من تصدى لكتابة قصة عن فتح الاندلس ببعث واحياء ما كان للاندلس الاسلامي المجيد من آثار باقية وبعيدة المدى في تاريخ الحضارة الانسانية ، وأن يطالبه بالكشف عن جوانب الجمال في تاريخ ذلك الفردوس الاسلامي المفقود ، اذ أنه " كان قطرا فريدا في بابه في دولة الاسلام : أهله مزيج من عناصر أوربية وأخرى شرقية ، وحضارته ثمرة تزاوج فكرى بين الشرق والغرب على نحو قل

أن نجد له مثالا في بلد آخر من بلاد الاسلام ، وتاريخه من هذه الجوانب عميق عريض تنفرد كل ناحية منه بخصائص ومميزات جديرة بالبحث والتأمل والاعجاب (١) " .

وتلك هي الحلقات التي تفتقر الى استكمال واستجلاء ، وهي الجوانب الجمالية التي تحتاج الى البحث والاحياء ، ورواية فتح الاندلس لجورجي زيدان لم تحقق شيئا من هذا الاحياء أو ذاك الاستجلاء ، هذا بغض النظر عن زعمه وزعم المروجين لرواياته ...

٣.) <u>تصوير دور اليهود في فتح الاندلس :</u>

لا شك في أن اليهود قد منوا باضطهاد وتعذيب في إسبانية من الحكام ورجال الدين المسيحي ، حيث " أقرت الكنيسة سياسة الاضطهاد هذه عام ٦١٦م (٦ قبل الهجرة) في أيام الملك سيسيبوت (٦١٢ – ٦٣١م) .. وقد أُعْطِيَ الْيَهُودُ مهلة سنة يصبأون في خلالها الى النصرانية ، والا أخرجوا من إسبانية بعد مصادرة أموالهم ، فأظهر تسعون ألفا منهم النصرانية ، ولكنهم ظلوا يختنون أولادهم ويضمرون اليهودية .... (٢) " .

وطبعي أن يؤدي ذلك الموقف الى أن يفكر اليهود في التخلص من الحكومة التي اضطهدتهم بتدبير انقلاب سياسي ، وقد يحول غضبهم عند ذاك – دون التفكير في نوعية البديل الذي سيأتي ، ومن ثم أخذ جورجي زيدان يصور لليهود مواقف بطولية في مقاومة من اضطهدهم ، ليخلص من ذلك كله الى أن اليهود قد ساعدوا العرب المسلمين في فتح الاندلس ، أو ليقول ان مؤامرات اليهود كانت السبب المباشر في تحقيق النصر لهم ، ويتضح هذا من خلال أقوال زيدان في أماكن متفرقة من رواية فتح الاندلس (٣) .

---

(١) حسين مؤنس – فجر الاندلس – الشركة العربية للطباعة والنشر – ط أولى ص هـ

(٢) عمر فروخ – العرب والاسلام في الحوض الغربي من البحر الابيض المتوسط – ص ٧٧

(٣) جورجي زيدان – رواية فتح الاندلس – ص ١٣٦، ١٥٢، ١٥٣، ١٥٤، ٢٠٩، ٢٤٤، ٢٤٥، ٢٤٦، ٢٦٠، ٢٧٥

وأصرح تلك الاقوال وأوضحها قوله على لسان أحد اليهود : " ... ان الخير الذى جاءنا به أخونا هذا من الاهمية بمكان عظيم ولا نظن العرب الا فاتحين هذه البلاد وبخاصة لأن يوليان معهم يدلهم على الطريق وطبعا سنكون نحن عونا لهم أيضا لاننا نخدم مصلحتنا ولا يغير ذلك شيئا من غرضنا الاول في جعل الحكم بيد مولانا الملك (١) " وقوله على لسان يهودى آخر " ..... وزد على ذلك أن مولاى الكونت يوليان عون لهم في ارشادهم الى المسالك فضلا عما سيلقونه من مساعدة اليهود المتسترين في أثواب النصرانية ... (٢) " الى غير ذلك من الاقوال ثم محاولات تصوير مؤامرات اليهود تحت الأنفاق والسراديب مع الاشارة الى فض المنازعات التي تعجز الحاكم أو القائد الاعلى .

وقد ركز زيدان على كل هذه الامور تركيزا يجعل القارئ لروايته يحس بأن الكاتب انما يريد الاشادة بدور اليهود ، والذى يؤكد ذلك أنه لم يذكر شيئا عن اضطهاد اليهود للطبقة الوسطى وتسلطهم عليها بالربا ، لان الحكومة كانت تأخذ منهم قروضا ثم تدفعهم الى تحصيلها من الشعب ، كما انه لم يشر الى عمل اليهود في النخاسة . هذا مع ملاحظة أن ما ذكره زيدان من مواقف لليهود لم يذكره الطبرى ولم يشر اليه ابن الاثير .

وعلى فرض ان اليهود قد قاموا بدور فهو ليس بالدور المباشر ، وليس بالسبب الذى يستحق التسجيل والاشادة ، وما قاموا به من عمل فهو لمصلحتهم الخاصة وليس من أجل الاسلام أو المسلمين ، والله سبحانه وتعالى أعلم بأحوالهم وأدرى بما يسرون ويعلنون عند ما قرر في محكم كتابه كراهية اليهود وعداوتهم للمسلمين بقوله : " لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا " .

---

(١) جورجي زيدان — رواية فتح الاندلس— ١٥٢ وكلمة «وبخاصة» خطأ، والصواب «وخاصة».

(٢) جورجي زيدان — رواية فتح الاندلس— ٢٠٩

واذا صح أن اليهود قد ساعدوا العرب فليس معنى ذلك أن العرب قد أصبحوا أدوات في يد اليهود يحركونها لتحقيق مآربهم . ذلك لان العرب الذين خرجوا من ديارهم للجهاد في سبيل الله لم يكونوا ليجعلوا من دينهم ومن أنفسهم وسيلة الى تحقيق أغراض قوم آخرين . ومن ثم نرى أنه لا مسوغ - من الوجهة الفنية - لتصوير دور اليهود في رواية فتح الاندلس لجورجي زيدان . ولا سند - من الوجهة التاريخية - لذلك التصوير .

٤) تصوير عفوي لخبث اليهود ومكرهم :

لا بد من الاشارة هنا الى أن القارئ لرواية فتح الاندلس لجورجي زيدان يمكنه أن يستشف من خلال تلك الصور خبث اليهود ومكرهم . وخاصة اذا أمعن النظر في عبارات مندوب التنظيم السرى اليهودى في موريتانية . حيث كان يقول في مواضع متفرقة : " فتظاهرت بالنصرانية وعمدت الى تجارتي اشتغل بها وأنا ارتحل في البلاد وأعود الى سَبْتَةَ وفي نفسي ما تعلمون من الغيظ بطائفتي ". (١) ثم يقول " وكنت مع ذلك من المقربين اليه (يوليان) يثق بي ويُسِرُّ إليَّ بأموره وأنا أُظْهِرَ الوِدَّ واغتنم الفرص لنيل بُغْيتي (١) " ويقول : " وهو يركن اليّ ويقربني منه لثرائي وسعة تجارتي لعله يحتاج الى مال أو مؤونة في أثناء الحصار وأنا أشد منه رغبة في ذلك التقرب كما تعلمون (٢) " ويقول : " ولا نظن العرب الا فاتحين هذه البلاد وبخاصة لان يوليان معهم يدلهم على الطريق وطبعا سنكون نحن عونا لهم أيضا لاننا نخدم مصلحتنا (٢) " .

وتلك صور تكشف عن خبث اليهود ومكرهم . وهي صور عفوية حيث لم يقصد المؤلف اليها ولم تكن ضمن خطته ومنهجه .

---

(١) جورجي زيدان - رواية فتح الاندلس - ص ١٤٨

(٢) جورجي زيدان - رواية فتح الاندلس - ص ١٤٩ ، وكلمة "رضاعة" خطأ كما سبق.

٥) التحليل النفسي لشخصيات الرواية :

لا ريب في أن منهج التحليل النفسي كثيرا ما يساعد كاتب القصة ــ وخاصة قصة الاندلس ــ على احياء البطولات القديمة وبعث المجود التاريخية من خلال التصوير ــ لا السرد ــ لجرأة طارق بن زياد ، واقدام عبد الرحمن الداخل وعزيمة الناصر ، وعبقرية المنصور ، وبذلك يقدم قصة رائعة للبشرية تتقلب فيها أحداث الزمان ، وتصطخب صروف الايام .

وجورجي زيدان الذى كتب رواية فتح الاندلس لم يأخذ بهذا المنهج ولم يجنح الى تحليل الشخصيات تحليلا يساعد القارئ على استخلاص الامثلة الرائعة للصبر حين الشدة وللتمسك بالعقيدة والسيف مصلت ، وعلى استخلاص الدروس والعبر من آثار الحقد الذى لم يسلم منه بعض النفوس الامارة بالسوء ، ومن آثار الانقسامات التي سببها الشره والطمع .

وفي الوقت الذى أعرض فيه زيدان عن هذا التحليل النفسي المفيد تجده يركز على وصف العرب بالانتهازية والضعف والخور وعدم الدراية بسياسة الامم ، وتلك فرية ينقضها سماحة حكم المسلمين بالاندلس ، وجمال مدنيتهم ، وآثار قرطبة واشبيلية التي لا تزال قائمة حتى اليوم خير شاهد على ما نقول .

وبالرجوع الى رواية فتح الاندلس لجورجي زيدان (١) يجد القارئ العديد من الشخصيات التي أعطاها المؤلف أحكاما عامة مستمدة من ذاكرته ومعلوماته الخاصة ، وهو في احكامه تلك كان يركز على السمات الخارجية للشخصية وعلى الملامح الظاهرية ، وهذا هو أكبر دليل على عدم عنايته بالتحليل النفسي في كثير من مواقف شخصيات هذه الرواية ، هذا باستثناء حديثه عن فلورندة في موقفها مع الملك (٢) الذريق ،

---

(١) راجع الصفحات ٣٩ ، ٤٢ ، ٢١٠ ، ٢١٦ ، ٢١١ وغيرها من رواية فتح الاندلس ــ لزيدان

(٢) جورجي زيدان ــ رواية فتح الاندلس ــ ص ٢٢

فانه قد أتاح في هذا الحديث فرصة للحوار بصورة تشف عن الحالة النفسية لفلورندة وتكشف عن منابع سلوكها الدفينة ، وبهذا أتاح المؤلف للقارئ فرصة استخلاص الدروس والعبر من خلال الموقف وتفاعله مع مجريات الاحداث ويا حبذا لو اتبع هذه الخطـــة في جميع مواقف رواية فتح الاندلس وغيرها .

٦) وسيلة التشويق في رواية فتح الاندلس :

الدارس لرواية فتح الاندلس لجورجي زيدان يدرك أن الكاتب قد حاول ـ في كثير من المواضع ـ جذب قرائه وتشويقهم الى قراءة روايته بوسيلتين غريبتين هما :ـ

أ ـ التركيز على عنصر الغرام في مواقف عديدة ، وفي صفحات كثيرة من الرواية (١) وبعناوين مختلفة مثل : " لغة الحب " و " المحب كثير الشكوك " وغير ذلك ، هذا مع ملاحظة أن الصور الغرامية التي جاء بها المؤلف في رواية فتح الاندلس لم تكن من قبيل الصور التي توحي بالحب الطاهر العفيف ، بل هي صور عارية تنكأ بقصد يد العهر والفجور ، وتتلاعب بعواطف الشباب الذى سُحِرَ معظمه بهذه الوسيلة الرخيصة ، وبذلك الاسلوب الذى يحمل في طياته سُمًّا قاتلا ، لكنه صادف هوى لدى البعض من ذوى النفوس المريضة .

ب ـ أما وسيلة التشويق الثانية التي تطالع القارئ لرواية فتح الاندلس لزيدان فهي الاسرار الغريبة والالغاز العجيبة التي طفق المؤلف يدور حولها من وقت لاخر ، ومن تلك الاسرار ما أفرد له المؤلف فصلا كاملا وعنوانا خاصا هو : " سر جديد " (٢) وأقل دلالة لهذا العنوان هو أن هناك سرا أو أسرارا قد سبقت هذا الســـر الجديد ، ثم تأتي بعده أسرار وألغاز مثل موضوع الحوار الذى دار بين أوباس ويعقوب اليهودى ، حيث قال له أوباس :

---

(١) راجع الصفحات : ٩، ١٠، ١١، ١٢، ١٤، ١٨ من رواية فتح الاندلس لزيدان

(٢) جورجي زيدان ـ رواية فتح الاندلس ـ ص ٥٧

" ... متى تغسل هذه اللحية يا يعقوب ؟ أما آن لك أن تغتسل ؟ فلما سمع يعقوب ذلك السؤال تبدلت سحنته بغتة وذهبت عنها ملامح المجون وبدا الجد في عينيه وقال : سيادتكم أعلم مني ... ولكنني أرجو أن يكون ذلك قريبا ، فلم يفهم ألفونس معنى هذا الجواب ، ولا سيما بعد أن رأى ذلك التغير في وجه يعقوب ، ولكنه صبر ليرى ما يبدو منه فسمع عمه يقول : ولكن غسل لحيتك يا صاح يكلف نفقات طائلة فهل تدفعها ؟ قال : نعم لا أدخر مالا ولا ولدا ولا نفسا في سبيل غسلها كما تعلم ، فلم يزد الامر لدى ألفونس الا غموضا وابهاما ، ولم يفهم لاستدعاء ذلك الخادم معنى ولا لتلك الالغاز مغزى .... (١) " .

وتلك اسرار وألغاز اعترف الكاتب بابهامها وغموضها ، بل عمل على زيادة ذلك الابهام والغموض باضافة اسرار جديدة تجذب القارئ وتشده الى متابعة قراءة الرواية كلما فكر في الاعراض عنها ، ونرى تلك الاسرار والالغاز متناثرة في الصفحات : ١٩ ، ١٢٢ ، ١٣٠ ، ١٣٤ ، ١٣٨ ، ١٤١ ، ٢٠٥ .

ومن ثم نستطيع أن نقول ان الاسرار والالغاز كانتا وسيلتين من وسائل التشويق عند زيدان ، لكنها وسيلة رخيصة في نظر النقاد .

٧) العناية بالاديرة والرهبان :

الدارس لرواية فتح الاندلس لجورجي زيدان يدرك للوهلة الاولى عناية الكاتب بالاديرة والرهبان ، كأنما كانت الكنيسة حجر الزاوية في ذلك الفتح الاسلامي ، أو كأنما كان بصدد كتابة رواية عن تاريخ المسيحية ، ومن ثم رأى لزاما عليه ان يركز على بعض مفاهيم وطقوس الرهبان والنصرانية بوجه عام .

وتتمثل تلك العناية بالاديرة والرهبان في صفحات متفرقة وتتناول جوانب عديدة أهمها ما يلي :

(١) جورجي زيدان — رواية فتح الاندلس — ص ٥٨ ، ٥٩

أ ـ الحديث عن الرهبان والاساقفة مع وصف الكنيسة الكبرى هناك ثم تبيين شارات النصرانية ص ١٨ ـ ٢٠

ب ـ الحديث المستفيض عن مذهب آريوس وبدعته الشهيرة ص ٢١ ٠

جـ ـ الاشارة الى صورة المسيح وهو مصلوب في عرش الملك رودريك ص ٢٤ ٠

د ـ الاشارة الى صورة العذراء على حائط القصر وهي تحمل طفلها ص ٤٥ ٠

هـ ـ التركيز على مواقف الذين يتمسحون بصورة السيد المسيح ويطلبون منه تحقيق آمالهم ٠

و ـ حديث مسهب عن تقبيل فلورندة لصورة المسيح وعما يسميه المسيحيون بسر الاعتراف ، وغير ذلك (١) ٠

ولكن ما سر هذه العناية بالكنيسة ورهبانها في رواية تؤرخ للاسلام وفتوحاته ؟ نحن نعتقد أن ذلك السر راجع الى أن كاتب الرواية مسيحي عجز عن أن يتجرد من التعصب لمسيحيته ولو لحظة تصويره لتاريخ الاسلام والمسلمين في سلسلة من الروايات ، ويبدو أن ولاءه للكنيسة يفرض عليه الاشادة بها من وقت لآخر ونشر تعاليمها ومبادئها ، وقد نجح في ذلك أيما نجاح ولا سيما في هذه الرواية التي كانت بمثابة معرض حافل بأفكار الكنيسة والرهبان وطقوسهم وشاراتهم ٠

* * * * *
* * *

هذا وسنقدم دراسات موجزة عن باقي الروايات في الباب الثالث إن شاء الله تعالى

---

(١) جورجي زيدان ـ رواية فتح الاندلس ص ـ ٦٢ ، ١٦ ، ١٠ ، ٢٦ ، ١٠ ، ٩٥ ، ١٠ ، ١١٢ ، ٢٨١ ، ٢٦٧ ، ٢١٠ ، ١٨١ ٠

الفصل الثاني

أحداث روايات زيدان وشخصياتها

١) أهمية الحدث الروائي ...

٢) أحداث روايات جورجي زيدان .

٣) عوامل تفكك الحدث الروائي عند زيدان .

٤) أدلة ضعف أحداث روايات زيدان .

٥) الاحداث المختلقة في روايات زيدان .

٦) أثر الاحداث المختلقة .

٧) طريقة زيدان في تصوير شخصياته .

٨) مدى فنية التصوير عند زيدان .

١ — أهمية الحدث الروائي

لا ريب في أن للاحداث أهمية قصوى في الرواية الفنية الجديرة بالبقاء، فهي لا تقل عن أهمية العنصر السائد في القصة، ومن ثم كان لا بد لكل كاتب روائي من العناية بالاطوار التي مرت بها أحداث روايته ليضفي عليها طابع الفن القصصي، ويكسبها أسباب الخلود والبقاء فتصبح قادرة على أسر القارئ واستهوائه، ولهذا قال بعض النقاد :

" .... ان تطوير (١) الحوادث هو الناحية الثانية التي تلي تلك في الاهمية، فهو الذى يبعث في القصة القوة والحركة والنشاط، وهو العصا السحرية التي تحرك الشخصيات على صفحات القصة وتسوق الحوادث الواحدة تلو الاخرى حتى تؤدى الى تلك النتيجة المريحة المقنعة التي تطمئن اليها نفس القارئ بعد طول التجوال، والتي تتفق مع منطق الكاتب ونظرته الخاصة الى الحياة .. والتطوير هو الدافع الملح الذى يحمل القارئ على تقليب صفحات القصة بلذة ونهم لكي يكشف النهاية التي تبلغها الحوادث في سيرها الحثيث .... (٢) ".

ولا بد من تطبيق هذا المقياس على روايات زيدان لاستبانة الطريقة التي انتهجها في تصوير أحداث رواياته، وللتأكد من مدى تصميد تلك الاحداث التي تعد حجر الزاوية في العمل الروائي .. وهذا ما سنكشف عنه في المباحث التالية :

---

(١) هذه كلمة عامية شاعت على ألسنة الكتاب والمؤلفين في العصر الحديث وليس لها أصل في العربية .

(٢) يوسف نجم — فن القصة — ص ٢٢

٢ ـ أحداث روايات زيدان

من تحليلنا لبعض روايات تاريخ الاسلام لجورجي زيدان اتضح لنا أنها جميعا تقرب من القصة التي يسميها النقاد " قصة الحادثة " لانها تتكون من أحداث تاريخية وقعت بالفعل ، وتولى المؤرخون القدامى تدوينها وتسجيلها في أسفارهم وكتبهم لكنهم أغفلوا جوانب منها ، فكانت هناك ثلمة ، وكانت هناك ثغرة ، بل افتقدت حلقات وضاعت عقود وجواهر تاريخية ثمينة ، ومن ثم حاول جورجي زيدان اكمال تلك الحلقات المفقودة عن طريق الخيال الذي ارتكز عليه ارتكازا شديدا مما جعله يميل الى تحوير بعض المواقف والاحداث .

وعلى الرغم من هذا التحوير جاء تصويره لتلك الاحداث ـ المحوّرة وغير المحوّرة ـ تصويرا ضعيفا مفككا ، اذ لم يرتبط بعضها ببعض ارتباطا قويا بحيث يحس القارئ بنموها وتدرجها الدائم ، وبالاضافة الى ذلك النمو المتعثر والتصعيد المتثاقل كانت النتيجة غير مقنعة وغير مريحة ، وهذا على الرغم من محاولة جورجي زيدان ومضاعفة جهده في استرضاء القارئ عن طريق تقديم العجيب والغريب من الاحداث ، ثم التركيز على الوصف والسرد التاريخي البحت لبعض المواقف والحوادث ، أو لبعض الدور والقصور ثم المدن والقرى .

فذاك السرد التاريخي الضعيف وتلك الاحداث الغريبة من شأنها أن تضعف روايات زيدان عندما تقاس بمعيار النقد الادبي الحديث ، وهذا هو السر في قول بعض النقاد عن أحداث روايات جورجي زيدان : " إنها تَرِدُ بطريق الوصف في صورة المقال التاريخي ، وهي تتكرر على الدوام في بداية كل رواية ... (١) " ولنأخذ مثلاً لذلك رواية " العباسة " أخت الرشيد حيث نجدها تبدأ على النحو التالي :

" وكانت عاصمة الاسلام في أيام الراشدين يثرب (المدينة) تبركا بقبر النبي صلى الله عليه وسلم فجعلها الامويون في دمشق مقر أحزابهم من قبائل العرب ، فلما أفضت الخلافة الى بني

---

(١) محمد حمد شوكت ـ الفن القصصي ـ ص ٦٠

العباس جعلوا عاصمة ملكهم على حدود بلاد الفرس ، وكانوا أولا في الكوفة اذ بايعهم أهلها ثم انتقلوا الى الانبار على الفرات ، وفيها توفي السفاح أول الخلفاء العباسيين ، وخلفه المنصور وأول شيء قام به قتل أبي مسلم ..... الخ (١) ".

وهكذا يستمر هذا الوصف التاريخي في شكل مقال تاريخي وطريقة السرد الضعيف الذي لا يبعث غابرا ولا يشوق قارئا ، فصورة المجال عند زيدان كثيرا ما تأتي في شكل " مقالات تنقل بصورها التاريخية في الرواية نقلا دون أن تتحول الى صور قصصية متمثلة وكامنة وراء القصة التاريخية ، وهي جزء من المنهج الوصفي التركيبي الذي يقوم عليه فن زيدان ..... (٢) " وهذا الاهتمام بالوصف التاريخي قد أدى الى عدم ترابط الاحداث الروائية في كل رواياته فغرابة الاحداث الى جانب عدم ترابطها أدى الى اضعاف الحدث الروائي عند زيدان ، ويبدو أن محاولة استرضاء القراء وتوفير عنصر تشويقهم قد حدا بالكاتب الى تقديم الكثير من الحوادث الغريبة والاسرار والالغاز العجيبة دون أن يفطن الى الآثار المترتبة عليها وأقلها اضعاف الحدث الروائي .

واذا كان ضعف الحدث الروائي يرجع في المقام الاول الى تلك الاسرار والالغاز العجيبة فما سر ذلك التفكك وعدم الترابط الذي نراه في معظم أحداث روايات زيدان ؟ أهو الانشغال بالوصف التاريخي للدور والقصور والمدن والقرى ؟ أم هو جهل الكاتب بأصول وقواعد القصة ؟ أم هو شيء آخر غير هذا وذاك .

وهذه اسئلة سنحاول الاجابة عليها في البحث التالي :

---

(١) جورجي زيدان — رواية العباسة — ص ٥

(٢) محمد حامد شوكت — الفن القصصي — ص ٦٠

٣ ـ عوامل تفكك الاحداث في روايات زيدان

ان ذلك التفكك في أحداث روايات زيدان يرجع في رأينا الى عاملين هامين :

اولا : عناية زيدان بمزج حقائق التاريخ وتحوير أحداثه ، ثم تقديم ذلك كله في صورة درس يلقى القاء أو في شكل حقائق مشوهة تسرد سردا ، دون عنايته ببعث التاريخ واحياء حوادثه ، ذلك لان العناية بالتاريخ من حيث هو درس يسرد والاهتمام به أكثر من غيره يعد حجر عثرة في طريق ترابط احداث القصة وتسلسلها ، اذ أن الكاتب ينصرف عندئذ عن تنمية الحدث وتصعيده الى التشاغل بالوصف التاريخي المسهب للمدينة التي تدور فيها الاحداث ، وربما استعان عند ذاك بخارطة توضح ما أثبته من وصف للمدينة أو المدن التي تدور فيها أحداث الرواية ...

ثانيا : ميل زيدان ـ في معظم الحالات ـ الى عرض معلوماته عن حضارة العصر الذى تدور فيه أحداث الرواية ، وكثيرا ما يبث من خلال ذلك كله أفكاره الخاصة وذاك يقتضي منه جهدا ووقتا ثم انصرافا عن تتبع سير الاحداث وتدرجها ، ومن ثم يعد الاهتمام بالافكار الخاصة والمعلومات العامة عن حضارة العصر عائقا ومانعا من تصعيد الاحداث في تدرج وترابط مثل الاهتمام بالوصف التاريخي للمدن وغيرها ، بل ان العناية بالافكار والمعلومات قد تؤدى ـ الى جانب تفكك الاحداث ـ الى تأرجح عناوين فصول الرواية ، فتبدو مضطربة بين دلالتها على الحدث الروائي وبين دلالتها على الحقائق التاريخية أو حضارة العصر الذى تدور فيه الاحداث .

هذان هما العاملان الرئيسان في تفكك أحداث روايات زيدان ، وهناك عوامل فرعية أهمها : الاسرار والالغاز ثم عدم اكتمال قواعد وأصول فن الرواية في البيئة العربية وقتذاك ، بل ان البيئة كانت خالية من الرواية بمفهومها ومقاييسها الحديثة ، ومن ثم يعد زيدان الرائد الاول في هذا المجال ، وهذه الريادة هي التي تشفع له عند التقصير في

الجوانب الفنية ، ولكنها لا تجدى نفعا عندما يكون هناك تزوير وتحوير وخلط وتشويه .

٤ — أدلة ضعف أحداث روايات زيدان وتفككها

المتتبع لروايات جورجي زيدان بالدراسة يتضح له أن هناك أدلة كثيرة متناثرة في ثنايا كل رواية تؤكد ضعف أحداثها ، وتكشف عن تفككها ، نذكر من تلك الروايات على سبيل المثال لا الحصر ما يلي :

رواية العباسة .. رواية الانقلاب العثماني .. رواية غادة كربلاء .. رواية عذراء قريش .. رواية الامين والمأمون .. ثم رواية فتاة غسان .

فمن دراستنا لهذه الروايات وجدنا فيها ما يلي :

أ — في رواية الانقلاب العثماني :

وجدنا الكاتب يتحدث حديثا مسهبا عن مدينتين كاملتين لا عن مدينة واحدة . وذلك لان أحداث الرواية كانت تدور فيهما ومن ثم جاء حديثنا زيدان في بدء هذه الرواية عن مدينة " سلانيك " حديثا مستفيضا ، ثم انتقل الى الحديث عن مدينة أخرى هي " الآستانة " ، لان أحداث الرواية قد انتقلت الى هناك علما بأن الكاتب قد وصف الآستانة قبلا ، وذلك في مطلع الرواية . وبعد الفراغ من الوصف التقريري لمدينة الآستانة انتقل الى وصف قصر السلطان عبد الحميد وصفا تقريريا أيضا وليس تصويريا كأننا أمام رحالة يسجل مشاهداته تسجيلا آليا ولسنا أمام أديب مفتن يعتمد على التصوير الذى يبعث الحياة ويدعو الى التأمل والتفكير .

ب — في رواية العباسة :

.. أما في رواية العباسة فقد كان الكاتب معنيا بوصف المدن والقصور والدور الى جانب عنايته بمعلوماته وآرائه الخاصة تجاه حضارة العصر ، وقد أدى ذلك

الى تأرجح عناوين فصول الرواية واضطرابها في دلالتها على الحدث الروائي أو دلالتها على حضارة العصر ، حيث جاءت العناوين في هذه الرواية على النحو التالي : مدينة بغداد . ابو العتاهية . غريبان . دار فتحاس . التلصص . العباسة . البغتة . دار الرقيق . الوان من الرقيق .. وغير ذلك . ونحن نرى أنه لا داعي لتلك العناية المتزايدة ـ في رواية تسجل تاريخ الاسلام ـ بالرقيق ودار الرقيق ، وبالجواري المولدات وطريقة اجتلابهن وبيعهن ثم تتبع عَرْضِهِنَّ بالصورة التي تخيلها الكاتب والتي تتفق مع هدفه الماثل في دغدغة العواطف الجنسية وتحريكها عند شباب المسلمين الذين يزعم المؤلف أنه يعلمهم تاريخ أمتهم المجيد ، على حين أن الصور التي رسمها المؤلف في هذه الرواية لا تدل الا على مهارة في وصف النساء وجمالهن ، وبراعة في تحوير الاحداث ، وذلك لا يمت الى تعليم التاريخ المجيد بصلة ما ، ذلك لأن معظم تلك الصور كانت صورا تتقزز منها النفوس السوية وتنفر منها الطباع السليمة ، بل أنها تقضي على تسلسل الاحداث وترابطها ، لان الكاتب عندئذ ينصرف عن الاحداث الاساسية للرواية ويُشْغَلُ بالجواري المولدات من البَصْرِيَّات والكوفيات ذوات الالسن العذبة والقدود المهفهفة والاوساط المخنصرة ، والاصداغ المزرفنة المكحلة وحسن زيهن وزينتهن وفيهن الطويلة البيضاء والسمراء اللمساء والصفراء المجزاء (١) الى غير ذلك من الصفات التي شغلت مؤلف رواية العباسة وصرفته عن تصوير أحداث القصة الاساسية تصويرا فنيا ، فأدى ذلك الى ضعف الاحداث أولاً ، ثم الى تفككها ثانيا .

جـ ـ في رواية الحجاج بن يوسف :

أما في رواية الحجاج بن يوسف ، فقد كان المؤلف مهتما بوصف مجلس سُكَيْنَة بنت الحسين ومجالس الشعراء ، ناسيا الاحداث الروائية التي يجب أن يعنى

---

(١) راجع رواية العباسة : ص ٣٧ ، ٣٨ ، ٣٩ ، ٤٠ ، ٤١ ، ٤٢ ، وغيرها .

بتصميدها وتماسكها ، ويبدو أنه ترك أمر الترابط والتصميد للمصادفات التي كانت تؤدي دورا خطيرا في معظم رواياته ، ففي الوقت الذي كان يتحدث فيه عن حسن مندوب خالد بن يزيد الذي بعثه ليخطب له أخت عبد الله بن الزبير تجده يتحدث أيضا عن حب حسن لسمية ومغامراته الغرامية ، وتراه يتتبع جميع مواقفه إبان بحثه عن حبيبته سمية ، وكل هذا قد يكون مقبولا الا أن القارئ يدهش عندما يجد الكاتب يزج به فجأة في ندوة شعرية لم يتهيأ بعد للاستمتاع بها وما ينشد فيها من أشعار ، بل إن حسنا نفسه لم يتهيأ لذلك لكنه كان دمية في يد الكاتب يحركها أنى شاء ووقتما أراد ، ولا تحركه الاحداث والمواقف ،والدليل على هذا هو قول المؤلف نفسه :

" فدخل حسن وهو يخشى فوات الوقت ولكنه لم ير حيلة فجلس في جملة الجالسين (١) " نعم لم ير حيلة لانه فوجئ بأمر ما كان يتوقعه ، فكيف اذن يكون التماسك والتدرج الطبعي لاحداث الرواية مع تلك المفاجآت المتكلفة .. التي لا تمت بصلة قوية الى الاحداث الاساسية للرواية ؟ وأين أحداث الرواية الاساسية من الحديث الطويل عن الشعراء ثم تحديد سحنة كل منهم وتبيين قسماته وملامحه ؟ هذا الى جانب الموازنة بين جمال هذا وذاك أو قبح أولئك وهؤلاء ، ثم اثبات مجموعة من الاشعار (٢) التي تشير الى طول باع الكاتب في ميدان الاستشهاد بالشعر بل تفرض معلوماته الخاصة على القارئ .

كما نجد في رواية الحجاج بن يوسف محاولة أخرى حسب الكاتب أنها تضفي على قصته روعة وجمالا فتستهوى القراء ، ولكنها كانت من الاسباب التي عصفت بترابط أحداث روايته وقضت على نموها وتصميدها ، تلك المحاولة هي ادخال قصة

---

(١) جورجي زيدان ـ رواية الحجاج بن يوسف ـ ص ٤٤

(٢) جورجي زيدان ـ رواية الحجاج بن يوسف ـ ص ٤٥ ـ ٤٦

جميل وشينة عن طريق الذهاب بحسن الى وادى القرى ليبحث عن جَمَلِهِ الذى يتوارى عن بصره وراء التلال لحظة تشاغله بمرفجة وابنه سليمان الذى أصيب بسهم من والده خطأً ومن ثم شُغِلَ حسنٌ والمؤلفُ في وادى القرى بحديث مطول عن جميل وشينة ، شغل أكثر من خمس صفحات (١) وأخيرا انتبه حسن فجأة لما هو فيه من ضياع الجمل وشرود الفكر ، ولما كان عليه صديقه سليمان من الجرح والالم ، ومن ثم قال للراعي دون مقدمات ـ أين الجمل يا أخا العرب ؟ فقد وعدتني باحضاره ، وتلك نقلة مفاجئة تتبعها نقلات أخريات دون أن يكون هناك مسوغ لهذه النقلات المفاجئات سوى عرض المؤلف لمعلوماته الخاصة واستعراضه لمضلاته ثم محاولة بث الافكار والنظريات المشبوهة ، وكل ذلك من شأنه أن يؤدى الى اضعاف الحدث الروائي وتفككه ٠

د ـ في رواية الامين والمأمون :

ثم ماذا في رواية الامين والمأمون من حيث تنمية الاحداث وترابطها ؟ لا شيء سوى التفكك والتدرج المتعثر ، ومرد ذلك الى انصراف الكاتب عن تنمية أحداث الرواية وتشاغله بالافكار والآراء الخاصة ثم الاكثار من الحديث عن المدن والدور والقصور ، حيث تجده يتحدث عن مدينة المنصور على النحو التالي :

" ٠٠٠٠ وكانت مدينة المنصور مستديرة الشكل حولها سور ضخم طوله ٠٠٠ر٢٠ ذراع وعرض أساسه ٩٠ ذراعا ، ثم يقل حتى يصير في أعلاه ٢٥ ذراعا وارتفاعه ستون وهو السور الاعظم ، يحيط به من الخارج فراغ عرضه مثل عرضه وحول الفراغ المذكور سور آخر يقال له الفيصل ، له أبراج عظام ، وعليه الشرفات المستديرة ٠٠٠٠ الخ (٢) " ويطول هذا الوصف الذى يقرب من وصف المهندس المعمارى

---

(١) جورجي زيدان ـ رواية الحجاج بن يوسف ـ ص ٥٦ ـ ٦٤

(٢) جورجي زيدان ـ رواية الامين والمأمون ـ ص ٨٨ ـ ٨٩

فيربى على المشرين سطرا . وطريقة تجعل القارئ يطوى الصفحة لينتقل الى ما بعدها بحثا عن أحداث الرواية التي يريد متابعتها ، ولكنه سرعان ما يصطدم بوصف آخر لقصر باب الذهب على النحو الذى تضايق منه قبلا ودون أن يشعر يجد المؤلف يقول له :

" فلما جاوزوا تلك الطاقات وصلوا الى باب آخر غير أبواب السور نفذوا منه الى الرحبة الكبرى في منتصف المدينة ، وفي وسط الرحبة قصر المنصور وهو الذى يسمونه قصر باب الذهب نسبة الى بابه المذهب ، وجانب القصر المسجد الجامع المعروف بجامع المنصور ، ومشوا في الرحبة مسافة كبيرة في خلاء لا بناء فيه حتى أقبلوا على القصر والجامع في وسط الرحبة وحولهما فناء خال من الابنية سوى دار من ناحية الشارع تؤدى الى باب الشام يقيم فيها الحرس الخاص وسقيفتين ممتدتين على عَمَدٍ مبنية بالآجُرّ والجصّ ... الخ (١) وهكذا يأتي الوصف بين الفينة والفينة لمدينة أو قصر أو لمعبد أو جارية .

ونحن عند ما نعيب على المؤلف هذا اللون من الوصف لا نعني من ذلك أننا نرفض عنصر الوصف في القصة ، ولكننا نرفض الاسراف الشديد في الوصف الى درجة تجعل الحوادث هامدة جامدة ، ونرفض الوصفَ غيرَ الوَظَفيّ ، الوصفَ الذى لا علاقة له بجو الرواية العام أو الخاص ولا أثر له في حوادثها ، أما اذا جاء الوصف ليساعد على تفسير الأحداث ، ويكشف عن الدوافع السلوك الكامنة خلفها ، ويزيح النقاب عن منابع هذا السلوك في البيئة أو الوراثة أو الثقافة أو الحياة في الاسرة أو المجتمع أو غير ذلك ، فانه يكون عندئذ وصفا وظفيا وهو غير مرفوض في هذه الحالة وان طال .

وقد أشار الى هذا الاستاذ محمد مندور في معرض حديثه عن عنصر الوصف في فن القصة حيث قال : " وفي فن القصة لا يقصد الوصف لذاته لانه وصف وظيفي(٢) فلا

---

(١) جورجي زيدان — رواية الامين والمأمون — ص ٩٠

(٢) هذا خطأ صرفي ، والصواب : " وَظَفيّ " ، كما تقدم قريباً .

يصف الكاتب من البيئة أو مشاهد الطبيعة الا ما له ارتباط بموضوع قصته وشخصياتها وله تأثير على تلك الشخصيات أو على موضوعه كأن يكون هناك تفاعل بين الشخصيات والبيئة التي يصفها الكاتب ، أو تأثير معين لمشاهد الطبيعة على سلوك تلك الشخصيات وهذا هو أسلوب الوصف عند كبار كتاب هذا الفن . فالكاتب الفرنسي " فلوبير " مثلا في قصته الرائعة " مدام بوفارى " نراه لا يلجأ الى الوصف الا لكي ينهض هذا الوصف بوظيفة معينة ، ففي موقف من مواقف قصة مدام بوفارى لهذا الكاتب ـ يصف الكاتب مشاهد الطبيعة التي أحاطت بحادثة سقوطها وصفا يوحي بأن الطبيعة قد تآمرت مع هذا الآثم على الفتك بعرض مدام بوفارى بعد أن دعاها هذا النبيل الى نزهة في غابة على ظهر الخيل . ثم توقفت الخيل عند الغروب أو قبله في مكان جميل بالغاية ، وهنا يأخذ الكاتب في وصف ذلك المنظر الطبيعي[1] مستهلا وصفه بقوله : " وامتدت الطبيعة الناعمة من حولهما ونحن نحس من خلال هذا الوصف كله انه يؤدى للقصة وظيفة معينة هي كيف أن نعومة الطبيعة واسترخاءها وقت الغروب فيما يشبه الاحلام قد كان من العوامل التي أضعفت من ارادة مدام بوفارى وانتهت بها الى الاستسلام لهذا الذئب ..... (٢) " فالاسراف في وصف المدن والقصور في روايات زيدان كان معوقا للنمو وترابط الاحداث وكان سببا في اضعاف عنصر التشويق عند القارئ واللهفة على معرفة تتابع حوادث القصة أو الرواية وما ستنتهي اليه .

وكما شُغِلَ زيدان بوصف الدور والقصور فقطع على القارئ تيار المتابعة شُغِلَ أيضا بالحديث المستفيض والمتكرر عن حضارة العصر ، ومثال ذلك : حديثه عن استعطاف عبادة لزبيدة ـ زوج الرشيد ووالدة الامين ـ باسم زوجها وآثاره لكي تتوسط عند ابنها في الافراج عن حفيد عبادة ، فالمتتبع لهذا الموقف في رواية

---

(٢) محمد مندور ـ محاضرات في القصة .

(١) خطأ مشهور وقع فيه الكتاب والأدباء جميعاً ، والصواب : الطبعي .

الامين والمأمون لجورجي زيدان يرى أن الكاتب كان يحاول من وقت لآخر فرض معلوماته عن حضارة العصر ، ويسرف في سرد تلك المعلومات فيقول مثلا :

" ... فدخلت في أثر الشاكري وهي تتوكأ على عكازها حتى تجاوزت الحديقة الى باب القصر ونزعت نعالها في الدهليز ، فانتهت فيه الى غرف ينتهي بعضها الى بعض والجواري المقدودات يخطرن بين يديها وهن ينظرن اليها ويعجبن من حالها ، أما هي فكانت تمشي مطرقة حتى افضى بها المسير الى قاعة كبيرة فاحت منها رائحة الطيب فلما أطلت على القاعة رأت سقفها قبة مصنوعة من خشب الصندل ومكسوة بالوشي وانواع الحرير بألوانه الزاهية يتدلى على جدرانها ستائر مطرزة بأبيات من الشعر ومعلقة بكلاليب من الذهب وفي الارض بساط واحد من السجاد الثمين وعليه الوسائد والكراسي مما يبهر النظر ، ولكنه لم يبهر عبادة لانها تعودت مثله في قصر ابنها أيام نعيمها ... الخ (١) " .

ونلاحظ أن هذا الحديث عن حضارة العصر — في الفقرة المذكورة وغيرها — كان طويلا ومملا ، كما كان ممزوجا بشيء من الوصف المجرد من الايحاء والتفسير للموقف الذى هو بصدد تصويره أو التعبير عنه ، وهو موقف استعطاف عبادة لزبيدة ، هذا باستثناء ما ينم عنه الجزء الاخير في الفقرة المذكورة . ومن لمحة خفيفة وتفسير باهت أو مألوف ، وذلك عند ما قال المؤلف : " ولكنه لم يبهر عبادة لانها تعودت مثله في قصر ابنها أيام نعيمها ... " .

٥ — الاحداث المختلقة في روايات زيدان

من تحليلنا السابق لروايات تاريخ الاسلام لجورجي زيدان اتضح لنا أنه كثيرا ما كان يعمد الى اختلاق الحوادث وتلفيق المواقف أو تحويرها في بعض الحالات ،

---

(١) جورجي زيدان — رواية الامين والمأمون — ص ١٧٤ — ١٧٥

وأبرز تلك المواقف اختلاقا وأظهرها تلفيقا هي حوادث الحب والغرام التي لم تخل منهـا رواية من رواياته ، ثم المخاطرات والمغامرات التي استتبعت ذلك الحب المختلق اختلاقـا والملفق تلفيقا ولسنا في حاجة الى أن نثبت نصوصا أو أمثلة من تلك الروايات لتأكيد هـذه الحقيقة ، وذلك لان الكاتب نفسه قد أشار الى تلك الحقيقة واثبتها في أكثر من موضـع حيث قال في مقدمة رواية الحجاج بن يوسف : انه يأتي بالوقائع التاريخية كما هي ثم يدمج في مجالها قصة غرامية ليشوق القارئ ويدعوه الى متابعة قراءة الرواية والتعرف على مصائـر شـخصياتها ٠

ثم اننا اذا أردنا اثبات نص للاستدلال والاستشهاد فماذا نثبت ؟ وماذا نترك ؟ وكل رواية من روايات تاريخ الاسلام لجورجي زيدان تشتمل على مئات من الصفحات التي ترسم مواقف غرامية مسفة ومنتحلة ، فالرجوع الى الروايات ذاتها خير دليل ، وتحليلنا لتلك الروايات يؤكد هذه الحقيقة اذ أن النظرة السريعة الى ذلك التحليل تشعر الناظـر بأن جُلّ مضمون كل رواية كان مُنْصَباً على الجانب الغرامي المتخيل ٠

وليست المواقف الغرامية وحدها من قبيل الاحداث المختلقة والمواقف المتخيلة بل هناك شيء من الاختلاق والانتحال في الحقائق التاريخية التي جاءت في تلك الروايـات وزعم المؤلف بأنها حقائق تاريخية صرفة نقلها من كتب التاريخ كما هي ونضرب مثلا لذلك بمـا يلـي :

أ ـ تصوير حال كرسي المختار بصورة لا تحدد الجناة ولا تخص المسئولية بالسفهاء مـن القوم على حين أن التخصيص قد جاء في بعض الروايات التاريخية التي أشرنا اليهـا في رواية الحجاج بن يوسف ، وقد أشرنا هناك الى أن زيدان يقصد الى هـذا التعميم ليكون ذلك وصمة عار في جبين العصر كلـه ٠

ب ـ تعليل فشل ابن الزبير وفرار أقربائه عنه بالبخل أو التقتير الذى جعل أصحابـه يحتجون بالجوع والعطش كما زعم زيدان (١) ٠

---

(١) جورجي زيدان ـ رواية الحجاج بن يوسف ـ ص ١١١

جـ - الايحاء للقراء بأن ابن الزبير وغيره من الشخصيات الاسلامية التي استطاعت أن تصمد في المعارك البطولية انما كان وراء كل منهم امرأة أو كان سندهم موقفا غراميا ، ومن ثم كان الخيط النفسي المستمر في جميع رواياته هو التركيز على عنصر الغرام وكان حديثه عن حب خالد بن يزيد بن معاوية لرملة بنت الزبير واقرار ابن الزبير لذلك على الرغم من الخلاف الذى كان بين بني أمية وابن الزبير .

د - استنطاق الشخصيات في كثير من الحالات بعبارات فيها الغمز واللمز والطعن .

هـ - المبالغة في تصوير مقتل حجر بن عدى الكندى ، والاشارة الى أن ابنته قد اتفقت مع حبيبها على ضرورة الانتقام لأبيها .

وغير ذلك من المواقف المنتحلة والحقائق المشوهة ، والتي لم تخل منها رواية من روايات زيدان ، وقد أشرنا اليها في حينها عند تحليلنا لكل رواية .

٦ - أثر الاحداث المختلقة

لا ريب في أن للاحداث المختلقة آثارا سيئة من الوجهات التاريخية والفنية والموضوعية لان فنية القصة تحتم على كاتب القصة أو الرواية وتقتضيه الاتيان بالوقائع التاريخية التي يحس القارئ بصدقها ، لأنها جرت في دنيا الواقع أو لأنها محتملة الجريان والوقوع ، أما اذا كانت غير محتملة الوقوع وغير مسوغة تسويغا فنيا فانها تصد المجرى الشعورى عند القارئ وتجعله يعرض عن متابعة قراءة الرواية ويشك في نهايتها وفي مصائر شخصياتها ، وبذلك يكون الكاتب قد أهدر جهده وأضاع وقته وأضعف فنه .

والاحداث المختلقة أو المواقف المحورة في روايات تاريخ الاسلام لجورجي زيدان لم تصد المجرى الشعورى عند القارئ فحسب ، ولكنها - الى جانب ذلك - جعلت الكثيرين ينظرون اليها نظرة ازدراء واحتقار ، ويحذرون الشباب من مغبة قراءتها ، وما ذاك الا أثر من الآثار السيئة للمواقف المنتحلة والاحداث المختلقة في روايات زيدان .

ولم تكن الاثار السيئة للاحداث المختلقة والمواقف المنتحلة محصورة في جانب صد المجرى الشعوري لدى القارئ أو الحيلولة بينه وبين المتابعة لمعرفة مصائر الشخصيات ، كما لم تكن محصورة في ذاك النفور وتلك الكراهية ، ولكن تمتد تلك الاثار الى الموضوع الاساسي للرواية فتشوهه والى الحقائق الفرعية المتصلة به فتمزقها عن طريق المزج بالخيال الجامح الذي يعتمد على قتنة الاستهواء وسحر التمويه ، وذلك من شأنه أن يهز الكثير من الحقائق والمسلّمات في ذهن شباب المسلمين الذين قد يطالعون تلك الروايات دون توجيه أو ارشاد فيحسون عند ذاك بالامتعاض والضيق من الانتساب الى تلك الامة التي بدت ممزقة الاوصال سيئة الخصال في روايات زيدان الذي كان يعتمد على مكر الحيلة وذكاء الدهاء وضاء الوسيلة ، ولهذا نرى أن للاحداث المختلقة آثارا سيئة أقلها تشويه الحقائق أيما تشويه ثم بلبلة الافكار لدى الشباب للابتعاد بهم عن الاشياء التي تَنْمِيهِمْ الى أمتهم وتنسبهم الى آبائهم ، وهم في أمَسِّ الحاجة الى هذا الانتساب وذاك الانتماء .

٧ ـ طريقة زيدان في تصوير شخصياته

تبين لنا من خلال التحليل لروايات زيدان أنه قد اتبع طريقة تكاد تكون مشتركة في تصوير جميع شخصيات رواياته ، ويتمثل ذلك التصوير في اعتماده في كل رواية على تصوير شخصيتين مثاليتين في فضائلهما يقوم بينهما حب عفيف طاهر يحاولان تتويجه بالرباط المقدس كما يحاولان الدفاع عن مبدأ أو هدف لهما في الحياة ، الا أن ذلك الحب وهذا المبدأ أو الهدف لا يسلمان من العقبات والحواجز التي تحول دون تحقيقهما أو تحقيق أحدهما ، اذ يقف في طريق الحبيبين منافس شرير يستعين بأحط الوسائل من كيد ونفاق ودس ووشاية لكي يفرق بين الحبيبين أو ليحارب الفكرة أو الهدف الذي يعملان من أجل تحقيقه ومن ثم يُضْطَرُّ المنافس الى الاستعانة بشخصيات أخرى تعارض الهدف أو المبدأ الذي يسعى اليه الحبيبان ويقفان كل جهدهما في سبيل تحقيقه .

ولسنا بحاجة الى أن نقف عند كل رواية لنرى كيف كان تصوير زيدان لشخصياتها ، ولذلك نكتفي بالاشارة الى الروايات التالية موضحين كيف سار المؤلف في رسم شخصياتها وهي :

أ ـ رواية العباسة أخت الرشيد :

الدارس لهذه الرواية يتبين له أن كاتبها قد ركز على شخصيتي العباسة وجعفر واعتبرهما الحبيبين المثاليين اللذين يحملان بكل جهدهما من أجل تحقيق ما يصبوان اليه ، ولكن المؤلف وضع في طريقهما العقبات والحواجز بوساطة منافس شرير هو الفضل بن الربيع الذى جعله زيدان بطلا شريرا يستعين بالدس والنفاق عن طريق الشاعر أبي العتاهية الذى وصفه بالنفاق وحب المال حبا يدعوه الى محاولة جمعه بالطرق المشروعة وغير المشروعة ، ثم صوّر الخليفة هارون الرشيد انسانا غرا ينخدع بأيسر ألاعيب هذا المنافس وأعوانه فيساعده ـ من حيث لا يشعر ـ على تحقيق مآربه الخبيثة المتمثلة في الكيد والانتقام والتنكيل بجعفر البرمكي للحيلولة بينه وبين تحقيق أهدافه ومراميه .

ب ـ رواية الانقلاب العثماني :

من دراستنا لهذه الرواية اتضح لنا أن الكاتب قد ركز على شخصيتين رئيستين وجعلهما حبيبين مثاليين أيضا ـ كما فعل مع العباسة وجعفر البرمكي ـ ثم وضع في طريقهما العوائق والحوائل التي تقف دون تحقيق ما يتطلعان اليه وذلك عن طريق المنافس الشرير " صائب " الذى استعان بشخصيات أخرى من أجل تحقيق مآربه ، ومن ثم نجد الكاتب يصور السلطان عبد الحميد مثل تصويره لشخصية الرشيد تماما ، حيث جعله غرا ينخدع بألاعيب المنافس الشرير بل أصبح دمية في يده يوجهها أنى شاء وكيفما أراد ليتمكن من تحقيق مآربه وتنفيذ مخططاته ضد عدوية : رامز وشيرين .

جـ ـ غـادة كربـلاء :

جاءت العناية في هذه الرواية بشخصيتي سلمى ـ غادة كربلاء ـ وعبد الرحمن الكندي ، اللذين تحابا وبذلا كل جهدهما من أجل تتويج ذلك الحب بالزواج بعد الفراغ من فكرة الانتقام لوالد سلمى الذي قتله معاوية بن أبي سفيان ومن ثم وضع المؤلف في طريقهما العقبات والمراقيل ، وحاول أن يزج بهما في مواقف غريبة واحداث عجيبة .

د ـ رواية الحجاج بن يوسف :

نجد التركيز في هذه الرواية على شخصيتي سمية وحسن اللذين تحابا منذ اللحظة الاولى التي تم فيها انقاذ حسن لوالدها من موت محقق ، ولهذا أخذ المؤلف ـ كعادته ـ يتحرك بحسن بين مكة والمدينة والعراق والطائف واضعا أمامه العقبات والمراقيل التي تحول بينه وبين تحقيق أهدافه .

وعلى هذا النمط يسير جورجي زيدان في كل رواية من رواياته لانه درج على الاتيان بقصة غرامية في كل رواية بغية تشويق القراء ـ كما يزعم ـ وتمزيق الحقائق وتشويهها كما يتبين للقارئ من أي لون كان .

٨ ـ مدى فنية التصوير عند زيدان

من خلال دراستنا لشخصيات روايات زيدان وتبيننا لطريقة تحليلها وتصويرها نستطيع أن نحكم على تلك الطريقة ـ التي اتبعها زيدان في تصوير الشخصيات ـ بأنها طريقة غير فنية ، لانها لم تقم على أصول فن القصة وقواعدها ، ولم ترتكز على طريقة ابتدعتها عبقرية قصاص ماهر .

ومعلوم أن لعرض القصة وتحليل شخصياتها أو تصويرها تصويرا فنيا طرقا كثيرة يصعب تحديدها ، اذ أن حرية المؤلف في هذا الجنس الادبي لا تحدها القواعد

كل التحديد ، ولكن عبقريته هي التي تعينه على الافادة من الطريقة التي يختارها أو علـى الانتفاع بكثير من الطرق التي يزاوج بينها في قصته ... (١) " .

وزيدان لم ينح هذا المنحى أو ذاك ، لانه كثيرا ما كان يعتمد على الصفات العامة لكل شخصية من شخصياته ، وهو يقرر تلك الصفات تقريرا كأنما هو بصدد تقديم أحكام ثابتة وآراء مقررة ، فعيب تصوير زيدان لشخصياته يكمن في عدم قدرته على سبر الاغوار النفسية لكل شخصية بحيث يكشف عن الخصائص المميزة لكل فرد عمن سواه ، ونأخذ مثلا لذلك وصفه للفضل بن الربيع (٢) بأنه صاحب مزاج صفراوى ، ولابي العتاهية (٢) بأنه منافق متكسب بالشعر ، وللخليفة الرشيد (٢) بأنه غر ، وللسلطان عبد الحميد (٣) بأنه غر أيضا ، وهلم جرا كأنما صنع لهذه الصفات قوالب يمكن أن تفرغ فيها الشخصيات في يسر وسهولة ، على حين أنها متباينة أشد التباين ومختلفة تمام الاختلاف ، وذاك يدعو الى سبر أغوارها عن طريق التحليل النفسي الذى يتيح للقارئ فرصة استخلاص الاحكام العامة التي جانب الدروس والعِبَر من خلال مواقف الشخصيات ، وعَرْض حديثها النفسي في بعض الحالات ، وبذلك يرتقي المؤلف بإنتاجه الادبي الى محراب الفن الاصيل أو ميدان العمل القصصي المتكامل ، لكنه لم يفعل فجاءت شخصياته ضعيفة التصوير فاقدة الروح والحياة ، اذ أن الشخصيات لا تحيا الا بتحليل عواطفها في مواقفها القصصية ، ومن خلال حوارها واستجابتها للحوادث ، ولنستمع الى زيدان وهو يتحدث عن العباسة عند ما التقت بحبيبها جعفر البرمكي وكانت تتنازعها عوامل الحب والخوف والعتاب والرجاء قائلا عنها : " وقد نسيت ما أعدته من عبارات الشكوى وذهب من مخيلتها ما تزاحم فيها من أسباب المخاوف وأحست بارتياح تعودته في ساعة اللقاء شأن الحُبّ فانه غالب على أسباب الشقاء في كل حال ، فالمحب مهما انتابه من المشاق أو اعترضه من العقبات اذا رأى حبيبه نسي كل شيء

---

(١) محمد غنيمي هلال ـ النقد الادبي الحديث ـ ص ٥٥٧.

(٢) جورجي زيدان ـ رواية العباسة

(٣) جورجي زيدان ـ رواية الانقلاب العثماني .

واشتغل به عن كل شيء ، والحب سعادة حقيقية لا يزيدها الشقاء الا تمكنا كالذهب لا تزيده النار الا صفاء ورونقا ... (١) ".

فذاك حديث عادى وسرد عابر لمعلومات خاصة وتقرير لاحكام موضوعية ،فلا يمكن أن يكون تصويرا لشخصية معروفة بقسماتها وملامحها ، أو بأنها العباسة أخت الرشيد دون سواها .

وهذا السرد العابر كثيرا ما تجده في روايات زيدان ولا سيما رواية العباسة كما في هذه الفقرة وفي فقرات أخريات منها : " ثم انتبهت العباسة لما يهددها من الخطر فافتتحت الحديث وغلب عليها الدلال فبدأت بالعتاب وهو فاتحة حديث المحبين أو هو حجة يتطرقون بها الى التشاكي ، وما التشاكي الا جلاء القلوب بالاحتكاك فيزداد تجاذبها وتذكو نيران الغرام فيها ... الى آخره .... (٢) ".

وذاك سرد يجعل القارئ في حيرة من أمر المؤلف أهو بصدد تصوير لشخصية تاريخية لها مواقفها العاطفية أم بصدد شرح لدوس في فلسفة الحب والغرام وتبيين لطرق اذكاء نار الغرام أم ماذا ؟

ومن تلك الفقرات أيضا حديثه عن الفضل بن الربيع الذى يعتبر منافسا شريرا وعقبة كأداء في طريق الحبيبين حيث قال عنه : " وفي أثناء ذلك تقدم أحد الخدم وقرع الباب ، وأول من نزل الفضل ، وكان طويل القامة رقيق العضل خفيف شعر اللحية اسمر اللون يخالطه صفرة ، ولا يزال في عنفوان الشباب وقد غلب عليه المزاج الصفراوى ـ على اصطلاحهم ـ فساعد على كتمان عواطفه والظهور بما يريده من التظاهر بالصداقة لاعدائه والسعي في الوشاية لهم،وأهلُ هذا المزاج من أقدر الناس على الكظم والتظاهر بما يشاءون من الاحوال وكتمان ما تكنه ضمائرهم فهم لذلك يصبرون على الضيم ريثما ينتهزون الفرص لتحقيق مآربهم ، فلا يخرجهم الغضب عن طوز العقل ، كما يفعل بأهل المزاج العصبي

---

(١) جورجي زيدان ـ رواية العباسة ـ ص ٥٧

(٢) جورجي زيدان ـ رواية العباسة ـ ص ٦٨

أو الدموى .. (١) " ونحن نرى أن هذا ليس بتصوير لشخصية انسانية ، بل هو تقرير وتفسير للامزجة وأنواعها ثم بيان مميزات كل نوع .. ومثل هذه الطريقة كان حديث زيدان عن شخصية الفضل بن الربيع في جميع مواقفه وعن شخصية هارون الرشيد في أكثر من موقف (٢) وعن شخصية المعلم فنحاس اليهودى تاجر الرقيق .

ولا تجد في كل تلك الاحاديث لونا من التصوير أو ضربا من التعبير الادبي ، ولكنك تجد أوصافا عامة وأحكاما ثابتة الى جانب الموازنات والمقارنات بين مزايا المزاج الصفراوى والمزاج العصبي .

لذلك كله نستطيع أن نقول ان تصوير زيدان لشخصياته لم يكن تصويرا فنيا ، ومرد هذا الى اعتماده على طريقة العرض الموضوعي المشوه في كثير من الحالات لانه اراد الوصف وتشويه حقائق التاريخ دون أن يسعى الى التحليل الانساني الكامن وراء التاريخ ، ومن ثم افتقدت شخصياته مقومات الحياة الفنية التي تنبعث من التصوير الفني عن طريق الاستبطان والتحليل النفسي ، أو عن طريق الحوار الفني الذي يكسب الشخصيات كثيرا من أبعاد الحياة .

---

(١) جورجي زيدان ـ رواية العباسة ـ ص ٣١

(٢) جورجي زيدان ـ رواية العباسة ـ ص ٦٨

الفصل الثالث

الحوار والعقد وطريقة حلها في روايات زيدان

١) أهمية الحوار الروائي .

٢) لغة الحوار أو العامية في الاجزاء الحوارية .

٣) طريقة حوار شخصيات زيدان .

٤) أدلة قصور الحوار عن احياء شخصيات زيدان .

٥) طريقة حل العقد في روايات زيدان .

٦) مصادر عقد روايات زيدان .

٧) خواتيم روايات زيدان ودلالاتها الفنية .

---

١) أهمية الحوار الروائي

الحوار في القصة أو الرواية ليس كالحوار في المسرحية من حيث الأهمية ، وذلك لأن المسرحية تعتمد اعتمادا كليا على الحوار ، ولا تنفك عنه حتى في لحظة عرض القصة التي تتضمنها المسرحية ، بينما يجمع كاتب القصة أو الرواية بين أسلوبي السرد والحوار ، ومع ذلك لا يمكن أن يعتبر الحوار أسلوب التعبير الاساسي في القصة أو الرواية ، اذ أن الاسلوب الاساسي في القصة هو أسلوب السرد الذي يتضمن قصصا وتحليلا ووصفا .

والحوار في القصة أو المسرحية يعتبر وسيلة فنية مهمة تجب الاستعانة بها - بنسب مختلفة - لتحديد أبعاد حياة الشخصيات ولا سيما البعد الاجتماعي ، اذ أن لكل طبقة اجتماعية أسلوبها في التعبير وطريقتها في الحوار ، ولذلك يعتبر الحوار هوية " بطاقة شخصية " يلصقها الكاتب على كل شخصية من شخصياته لتحدد وضعها الاجتماعي وروابطها بالبيئة أو المهنة ، كما يعتبر الحوار ركنا من أهم اركان العمل القصصي الناجح ويعد دعامة من دعائمه ....

٢) لغة الحوار أو العامية في الاجزاء الحوارية

اختلف نقاد الادب العربي حول اللغة التي يجب أن تكتب بها الاجزاء الحوارية أهي اللغة العربية الفصحى أم هي لغة الحياة اليومية " اللهجة العامية " ؟

وأكثر كتابنا (١) يميلون الى كتابة القصة أو المسرحية بالعامية ولا يحبذون فكرة الكتابة بالفصحى الا في حالات قليلة نادرة ، وحجتهم في ذلك أن الفصحى ليست لغة الحياة اليومية في مجتمعاتنا اليوم ، ومن ثم لا تستطيع أن تكون وسيلة فنية لتحديد بعد اجتماعي أو نفسي

---

(١) محمد مندور - الادب وفنونه - ص ١٢٠ طبع معهد الدراسات العربية .

لا ن أسلوب التعبير بالفصحى لا يتفاوت في نظرهم (٢) باختلاف الطبقة الاجتماعية أو المهنة أو البيئة ، بل يحدث ذلك التفاوت في لغة الحياة اليومية وهي العامية التي يتحدث بها الشعب في بيئاته وطبقاته الاجتماعية ومهنه المختلفة ، والتي تشتمل على رموز ومصطلحات تتحول " الى ما يشبه البطاقة التي تحدد البعد الاجتماعي أو النفسي لتلك الشخصية (٢) " .

وتلك حجج واهية ومرفوضة في نظرنا ، لأننا لا نسلم بعدم وجود التباين والاختلاف في أسلوب التعبير بالفصحى ، ذلك لان دراسة الاساليب عند كبار كتاب الادب العربي تؤكد لنا وجود الاختلاف في طريقة التعبير عند شخصين أو أشخاص عرفوا بالتضلع في العربية الفصحى ، ولا أدل على ذلك من قول النقاد " الاسلوب هو الرجل " فهم يريدون من ذلك أن الاسلوب هو المرآة التي تعكس علينا شخصية الاديب ، وتكشف عن ملامحه وقسماته ، وتبرز اتجاهاته الادبية والفكرية ، ولكنه قد لا يحدد البعد الاجتماعي تحديدا دقيقا ، وليس من الضروري أن يحدده ، لان مثل هذا التحديد قد يتم عن طريق الموقف أو عن طريق جزء من أجزاء الحوار ، وليس عن طريق الاسلوب فقط . ومن ثم نرى أن الدعوة الى كتابة بعض الاجزاء الحوارية بالعامية — في القصة أو المسرحية — دعوة مقبولة طالما كانت تلك الاجزاء بمثابة الوسيلة الفنية التي تساعد على تحديد البعد الاجتماعي ، أما الدعوة الى كتابة القصة كلها أو المسرحية كلها بالعامية فمرفوضة ، لانها دعوة مغرضة تريد النيل من تراثنا الادبي والفكرى ، وتريد لامتنا التخلف والتأخر ، ذلك لان استخدام العامية أسلوبا تعبيريا في القصة أو المسرحية يعد اسفافا وابتذالا للعمل الادبي وابعادا له عن لغة القرآن الكريم ثم اعراضا عن الارتفاع بمستوى لغة الحياة اليومية والمتكلمين بها الى المكان اللائق عن طريق المسرح والقصة والمقالة .

---

(١) محمد مندور — محاضرات في القصة —

(٢) محمد مندور — الادب وفنونه — ص ١٢٢

ثم ما يدعو اليه العرب اليوم من اتحاد وتآلف يفرض على كتابنا الابتعاد عن الدعـوة الى العامية التي تمزقهم شـر ممزق ، اذ أن لكل قطر عربي لهجته المحلية ولغة حياتـــه اليومية التي قد لا تكون مفهومة لدى أبناء هذا القطر أو ذاك .

ولا نريد الخـوض هنا فيما يقال من أن لغة القاهرة اليومية أو لهجتها العامية لهجة واضحة معروفة لدى العرب أجمعين بدليل اقبالهم عليها أشـد الاقبال في أقطارهـــــم المختلفة (١) كما لا نريد الالتفات الى الاحصاءات التي جمعتها الفرق التمثيلية المصريـــة أثناء عملها في مصر وفي الاقطار العربية الاخرى التي زارتها ، تلك الاحصاءات التي يستـنـد عليها أصحاب هذا الرأي قائلين : ان هذه الاحصاءات تفيد بأن المسـرحيات المكتوبة بعامية مصر تحظى ـ في جميع الاقطار العربية ـ بروّاد أكثر عددا من المسـرحيات المكتوبـــــة بالفصحـــى (٢) .

نعرض عن هذه المسـألة وتلك .. لاعتقادنا بأن اقبال الرواد على المسـرحيات التـــي تكتب بعامية مصر أكثر من غيرها لا يدل على أفضلية العامية على الفصحى ، ولا يشير الا الى أن حياة مثل تلك المسـرحيات أو نجاحها نجاح موقوت وسـرعان ما تموت تلك المسـرحية عقـــب استحسـان العوام لها مباشـرة .

هذا وقد دافع الدكتور محمد غنيمي هلال عن الفصحى ودحض فرية أولئك الذين يحكمـون بعجزها قائلا : " فالذي نعارضه كل المعارضة هو أن نحكم على الفصحى ـ من حيث هي ـ بأنها تعجز عن أن تسهم في هذا المجال تعللا بأن العامية ثرية بقرائن ألفاظها الحية في الاستعمال أو مراعاة لواقع الحال في حديث الشخصيات التي تتكلم العامية وينطقها الكاتب اللغة الفصيحة مما يسمونه واقعية الاداء ، ذلك أن الفرق شاسع بين معنى الواقعية الفني وواقعية اللغـة ، والخلط بينهما لا يصدر الا عن قصور شـنيع في فهم الواقعية ..... على أنه لا نزاع في أن

---

(١) محمد مندور ـ الادب وفنونه ـ ص ١٢١

(٢) محمد مندور ـ الادب وفنونه ـ ص ١٢٠

اللغة الفصحى أقدر وأثرى في تنويع الدلالات وتعميقها من اللغة العامية المحدودة في مفرداتها والمتصلة بالوقائع والمحسّات في حين تعجز عن المعاني العالية والافكار العميقة والخواطر والمشاعر الدقيقة ، وفي سبيل ذلك لا يصح أن نراعي التيسير على عامة الجمهور بل يجب أن نرقى بامكانياته (١) وبخاصة في أدبنا الذي لم يتجاوز كثيرا مرحلة النشوء والطفولة في الادب الموضوعي أدب المسرحيات والقصص فنحن في أشد الحاجة الى تزويد الفصحى في هذه المجالات كي يصبح أدبها موضوع دراسة ، ولئلا نحرم الجمهور تغذية فكره وامكانياته[1] الفنية فيما تقصر فيه العامية (٢) " .

وتلك دعوة عاد اليها الدكتور محمد مندور مؤخرا حيث أوضح في أخريات حياته ـ وفي محاضراته الاخيرة بمعهد الدراسات العربية ـ أنه " لا يقبل من أى كاتب أن يكتب الحوار بالعامية السطحية المبتذلة التي لا تتجاوز الثرثرة المتلعثمة " ثم قال : " وعلى أية حال فليست هناك ضرورة لاستخدام العامية كوسيلة (٣) للتعبير ، وانما يباح استخدامها على قدر كوسيلة[ع] فنية لتحديد أبعاد الشخصيات فحسب ... "

ومن ثم قلنا ان الدعوة الى كتابة الاجزاء الحوارية بالعامية دعوة قد تكون مقبولة أما الدعوة الى كتابة القصة كلها أو جلها بالعامية فهي دعوة مفرضة ومرفوضة .

٣) طريقة حوار شخصيات زيدان

من دراستنا لروايات زيدان اتضح لنا أنه كان يفر من أسلوب الحوار ولا يعتمد ـ في أغلب الحالات ـ الا على أسلوب السرد العلمي الميسر الذى قد يفيد القارئ بما يتضمنه من معلومات وحقائق تاريخية ، وعندما يلجأ الى الحوار نراه لا يتيح للشخصيات فرصة الحوار

---

(١) العبارة خطأ لان المصدر الصناعي لا يشتق من المصادر الاصلية ،والصواب امكاناته

(٢) محمد غنيمي هلال ـ النقد الادبي الحديث ـ ص ٦٨٢،٦٨٣ ،ط ثالثه .

(٣) تعبير خطأ لان الشيء لا يشبه بنفسه ،والصواب : " من حيث هو وسيلة للتعبير .. الخ "

المفتوح لكي تعبر كل شخصية عن نفسيتها ، لكنه يجرى على ألسنتها الحقائق والافكار عن طريق ذلك الحوار الذى قد يكون متكلفا .

ومرد هذا كله الى ما درج عليه زيدان من عدم الميل الى التحليل النفسي للشخصيات وانصرافه الى بسط حقائق التاريخ أو تشويهها ، ومن ثم لم ينجح الحوار عنده في اكساب شخصياته أبعاد الحياة ، بل أكسبها صفات عامة وسمات عابرة من خلال السرد الضعيف لحقائق التاريخ دون عناية بالتحليل الانساني الكامن من وراء التاريخ ، هذا باستثناء بعض الحالات في روايات زيدان حيث كان الحوار فيها جيدا ، وذلك مثل حوار زبيدة وعبادة فانه كان حوارا نابضا بالحياة ومحددا لأبعاد حياة الشخصيات المشتركة فيه ولا سيما عند قوله :
" ...... وظلت عبادة واقفة وزبيدة متشاغلة بجام من العاج فيه فتات المسك ، وقد تساقط بعضه فأخذت في التقاطه عن الوسادة ، فظنت عبادة أنها لم تنتبه لها فتنحنحت ، فرفعت زبيدة بصرها اليها باستخفاف وقالت : من أنت ؟ فاستأنست بذلك السؤال ومشت نحوها وهي تقول : اني جاريتك عبادة ، ولما وصلت الى وسط القاعة نظرت اليها زبيدة شزرا وقلبت شفتها السفلى ورفعت حاجبيها اشارة الاستهجان وقالت : عبادة ؟ وقد قيل ان ام الرشيد تطلب الدخول عليّ ، قالت : هي جاريتك يا مولاتي .... انظرى في وجهي فعسى أن شحوبه لا ينسيك صاحبته ، فضحكت زبيدة وقالت : عرفتك يا عبادة ألا تزالين على قيد الحياة؟ فاستثقلت عبادة هذا السؤال الذى ينطوى على الاحتقار ولكنها كظمت غيظها وقالت : بلى .. لا أزال على قيد الحياة لسوء حظي ، فقهقهت زبيدة وقالت : ذلك جزاء نكران الجميل يا عبادة، اجلسي ، فجلست وهي ترتعد من الغيظ ...... فقالت وقد جاشت أحزانها في صدرها وكاد الكظم يخنقها : قلت لك يا مولاتي أنني جئت مستعطفة ولا أستعطفك بحسنة أتيتها ، وانما أتقدم أليك بكرامة صاحب الاثار ...... الخ (١) " .

فالقارئ لهذا الحوار يدرك البعد الاجتماعي والنفسي لكل من زبيدة وعبادة دون عناء

---

(١) جورجي زيدان ـ رواية الامين والمأمون ـ ص ١٧٥ ـ ١٧٦

ود ون استعانة بشيء آخر غير هذا الحوار النابض بالحياة والمحدد لجميع جوانب شخصيتي زبيدة وعبادة ٠

ومن أمثلة الحوار النابض بالحياة أيضا ذلك الحوار الذي دار بين جعفر البرمكي والعباسة أخت الرشيد في مواقف مختلفة ، نذكر منه ما يلي : " ٠٠٠٠ الى متى هذا الحذر يا جعفر وقد آن لنا أن نعيش أو نموت ، فظنها تعرض بما يخشيانه من أمر الرشيد فتنهد وقال : ان الاقدار حكمت علينا بهذه المخاوف ، لانها جعلت بيني وبينك حجابا من شرف النسب فجعلتك من سادة بني هاشم وجعلتني من الموالي ، فقالت وهي تنظر اليه عاتبة : انه حجاب من الوهم الباطل فأنت أسمى نفسا وأرفع في عيني من كل بني هاشم ولكن ٠٠٠٠٠ وسكتت ، فقال : ٠٠٠ الخ (١) " ٠

ولا ريب في طرافة هذا الحوار وحيويته وقدرته على تحديد البعد النفسي لكلّ من العباسة وجعفر على السواء ثم قدرته على تصعيد الاحداث والتوجه بها نحو الذروة أو التعقيد والتأزم ثم الحل والانفراج ٠

وهناك أجزاء حوارية أخرى في روايات زيدان تتسم بمثل هذه القوة لكنها قليلة اذا ما قيست بالاجزاء الحوارية الضعيفة ، ومن ثم نرى أن الطابع العام لطريقة الحوار عند زيدان هو الضعف والتكلف ثم العجز عن احياء الشخصية ٠٠

٤) أدلة قصور الحوار عن احياء شخصيات زيدان

تبين مما تقدم أن الحوار عند زيدان لم يصبح وسيلة فنية تساعد على احياء الشخصية ، ولم يعمل على دفع الاحداث نحو الذروة ، ولكن ما الدليل على ذلك ؟

---

(١) جورجي زيدان ـ رواية العباسة ـ ص ٥٩ ـ ٦٥

هناك أدلة كثيرة تؤكد هذا القصور والعجز عن احياء الشخصيات في روايات زيدان نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر ما يلي :

أ - الحوار الذى دار بين الفضل بن الربيع وفنحاس في رواية العباسية ، حيث جاء على النحو التالي : " .... فتقدم الفضل ونظر الى العصابة فرأى عليها بيتا من الشعر بحروف من الذهب هو :

ليهمن حسن الخضاب زينا لِكَفٍّ   حسن كفي زين لكل خضاب

فأعجبه ذلك والتفت الى فنحاس وهو يقول : ما أجمل هذه العصائب لله در مخترعها ، قال : أظنك تعني مولاتنا علية أخت الرشيد ، فانها ابتكرت للحسان - حقا - وسيلة فعالة من وسائل الجمال ،قال الفضل : هل تعلم السبب الذى من أجله اتخذت هذه العصائب ؟ قال : كلا يا مولاى ، قال : أنا أخبرك عن السبب ... الخ (١) " .

تلاحظ أن هذا الحوار لم يكسب الجارية المتحدث عنها أى بعد من أبعاد الحياة ، لان الكاتب ركز على السرد التاريخي وركز على الوصف حيث لم يتح لهذه الجارية أن تفضي بذاتها وتكشف عن مكنوناتها ، انما جعلها دمية يحركها أنى شاء أو مشجبا يعلق عليه ما يشاء .

ب - الحوار الذى دار بين تاجر الرقيق " المعلم فنحاس " وبين أبي العتاهية والذى جاء فيه ما يلي : " أقبل المعلم فنحاس وهو يفرك عينيه ويمسح النوم عنهما ببطن كفه ، وحالما وقع نظره على أبي العتاهية عرفه فصاح فيه : ما وراءك يا أبا العتاهية وأغلق [الآخر] الباب وراءه وهو يقول : لقد جئتك مساء امس بمهمة وكنت نائما فانتظرتك الى هذه الساعة ولما استبطأتك جئت لايقاظك فأرجو الا أكون قد أزعجتك ، فقال فنحاس وهو يصلح لحيته وشاربيه ويقفل قميصه : ليس ثمة ازعاج قل ما الخبر ؟ (٢) " .

---

(١) جورجي زيدان - رواية العباسة اخت الرشيد - ص ٤١

(٢) جورجي زيدان - رواية العباسة اخت الرشيد - ص ٣٢

وليس ثمة اضافة وتنمية ، أو احياء لشخصيه فنحاس بهذا الحوار المتهافت والمرتكز على أوصاف عادية أو أوصاف عامة هي : فرك العين ، ومسح الرمض ، واصلاح اللحية ، وقفل القميص ...

وهناك أدلة كثيرة في ثنايا كل رواية من روايات زيدان تؤكد هذا العجز عن احياء الشخصيات ، وقد أشار اليها الدكتور شوكت بقوله :

" مثل هذا الاسلوب الوصفي العام ينطبق على وصف الجوارى (ص ٣٨) والجند (ص ٤٤) وخادم جعفر (ص ٥١) في رواية العباسة ، كما ينطبق على الشخصيات التاريخية والقصصية في الروايات الاخرى كأبي سفيان (ص ٧٢) وحسان بن ثابت (ص ٥٥) وخالد بن الوليد (ص ٣٠٥) في رواية فتاة غسان ، وعمرو (ص ٣٥٨) في رواية أرمانوسة المصرية ويزيد (ص ١٠٠) والحسين (ص ١٧٦) في رواية غادة كربلاء ، وأبي مسلم (ص ١٠١) في رواية أبي مسلم والامين (ص ١١٣) والمأمون (ص ٢٦٣) وابنة جعفر (ص ٤٠) ودنانير (ص ٤٢) وابن ماهان (ص ٦١) في رواية " الامين والمأمون " ، ووصف المعتصم (ص ٢٢٩) في رواية " عروس فرغانة " ووصف الخليفة (ص ٤٦) في رواية " عبد الرحمن الناصر " ، ووصف عبد الحميد (ص ٢٥) في رواية " الانقلاب العثماني " ، ووصف جوهر (ص ٥) ، والمعز (ص ٦) وأمير الامراء (ص ٧) وكافور (ص ٥٤) في رواية " فتاة القيروان " ، ووصف صلاح الدين (ص ٣) والعاضد (ص ١٥٠) وسيدة الملك (ص ١٥٠) وشجرة الدر (ص ٦) وبيبرس (ص ١٤) والمعتصم (ص ١٠٤) في رواية " صلاح الدين " ووصف الرشيد (ص ١١٤) وجعفر (ص ٥٥) والعباسة (ص ٥٦) في رواية " العباسة " ..... الخ " (١) .

ومن ثم نؤكد ما ذهبنا اليه من أن الحوار عند زيدان لم ينجح في اكساب الشخصية أبعاد الحياة الا في حالات قليلة ذكرنا بعضا منها فيما مضى .

---

(١) محمد حامد شوكت ـ الفن القصصي ـ ص

٥) طريقة حل العقد في روايات زيدان

اشتملت كل رواية من روايات زيدان على مواقف تاريخية حرجة وممتزجة بمواقف غرامية معقدة ، وكثيرا ما تتأزم المواقف وتحتاج الى حل طبيعي يؤكد التدرج والتسلسل ، لكن ذلك الحل لا يأتي في حالات كثيرة ، بل يأتي الحل الذى يتفق مع رغبة الكاتب في الاطالة عن طريق الانتقال من موقف الى موقف ومن حادثة الى حادثة تاركا حل العقد وانفراج الازمات للمصادفة في كثير من الحالات بل ان التعقيد نفسه يجئ وليد المصادفة أحيانا ، وليس معنى هذا أننا ننكر أثر المصادفة في الحياة الواقعية أو في دنيا البشر لكننا ننكر أن تكون المصادفة قاعدة عامة أو ضربة لازب في كل موقف من المواقف كما هو الحال في روايات زيدان .

ومن أمثلة تدخل المصادفة في تعقيد المواقف وحلها في روايات زيدان : انقاذ حسن من سيف الحجاج في رواية " الحجاج بن يوسف " بسبب الخطاب الذى وصل فجأة من عبد الملك بن مروان ودون توقع أو تمهيد ، ذلك الانقاذ الذى ما كان يستند الى سببية أو منطقية الاحداث .

ومن الامثلة أيضا اجتماع شمل عبد الرحمن وسلمى في ذلك المكان المهجور بمحض المصادفة في رواية " غادة كربلاء " ، ومنها أيضا افتضاح سر العباسة وجعفر البرمكي بمحض المصادفة عن طريق الشاعر أبي العتاهية ، ومنها أيضا كل موقف من المواقف السعيدة التي اختتم بها زيدان معظم رواياته ، اذ أن تلك المواقف لم تكن نتيجة طبيعية بحيث ترتكز على تدرج الاحداث وتصاعدها ، بل كانت نتيجة المصادفات التي وافقت رغبة الكاتب الملحة في خلق تلك النهاية السعيدة .

٦) مصادر عقد روايات زيدان

احتار بعض الدارسين في المصدر الذى استمد منه جورجي زيدان عقد قصصه الغرامية التي كانت تتدثر بها كل رواية من رواياته ، أهو روايات الغربيين وقصصهم أم هو الادب الشعبي العربي ؟ أم ماذا ؟

الراجح عندنا أن زيدان قد أخذ تلك العقد الغرامية من الادب الشعبي العربي ومن روايات الغربيين أيضا ، تلك الروايات التي اطلع عليها زيدان فتأثر بها والتي تُرْجِمَ عدد كبير منها في عهد النهضة العربية فأحدثت آثارا عند كثير من الكتاب وأصبحت تلائم روح العصر ومن ثم لا يمكن اغفال هذه الروايات عند الحديث عن المصادر التي استمد منها زيدان عقد قصصه الغرامية ، هذا وقد كشف زيدان نفسه عن أثر تلك الروايات في البيئة العربية وقتذاك حيث قال : " ...... أما أهل هذه النهضة فقد أكثروا من نقل الكتب عن الفرنساوية والانكليزية ..... الخ (١) " .

ولا بد من الاشارة بعد هذا الى أن مسألة استمداد زيدان لعقد قصصه لا تعتبر قضية شائكة ولا يترتب على تحديدها أو عدم تحديدها حكم ذو بال ، لان العقد في جميع روايات زيدان تكاد تكون متشابهة ، ولهذا قال الدكتور طه بدر : " وسواء أكان أخذ زيدان لعقدة القصة الغرامية من الكتاب الغربيين أم من القصص الشعبية العربية فان الواضح والمهم أن العقد في جميع روايات زيدان كانت متشابهة تمام التشابه بل انه كثيرا ما كان يحاول اخضاع هذه العقدة لموضوع تاريخي ومن هنا كان لا بد من أن يضيف الى بعض الشخصيات التاريخية مواقف غرامية معقدة بل انه يحاول أحيانا كثيرة خلق شخصيات خيالية لتقوم بتنفيذ تلك المواقف الغرامية ..... (٢) " .

٧) خواتيم روايات زيدان ودلالتها الفنية

الدراسة لروايات تاريخ الاسلام لجورجي زيدان تؤكد أن معظم تلك الروايات كانت تختم بالنهاية التي لم تكن نتيجة طبيعية في أغلب الحالات ، وتلك ظاهرة يلاحظها كل دارس

---

(١) جورجي زيدان ـ تاريخ آداب اللغة العربية ـ الجزء الرابع ـ ص ٢٣٠

(٢) الدكتور طه بدر ـ تطور الرواية العربية ـ ص ٩٩

أو قارئ لروايات زيدان ، ولكن ما دلالة هذه النهايات المتكررة ؟

من دراستنا لتلك الروايات نستطيع أن نستخلص دلالتين هامتين هما :

أ — حرص زيدان وميله الشديد الى النهاية السعيدة ولو لم تكن متفقة مع مجريات الاحداث ومتمشية مع طبيعة المواقف ، وذاك نقص فني يقلل من قيمة الرواية .

ب — استسلام زيدان — في بعض الحالات — لتحكم الحوادث التاريخية التي تفرض عليه حلا معينا لعقد قصصه الغرامية فتوجهه وجهة لا تتفق مع سياق القصة الغرامية وبذاك تكون النهاية نهاية غير متوقعة ، أو تصبح نهاية متكلفة متهافتة على الرغم من عملها على جمع شمل الحبيبين .

ثم ان بعض الدارسين يرون أن زيدان كان يلجأ الى الخاتمة السعيدة استرضاء لجمهور القراء الذين لا يبحثون عن الجمال الادبي ولا يسألون عن التحليل والاستنباط لأنهم يريدون التسلية والترفيه .

من أولئك الدارسين الدكتور محمد يوسف نجم الذى قال عن جورجي زيدان :

" وهو ينهي قصته بخاتمة سعيدة كالعادة ، مراعاة لشعور القارئ العامي الذى ترك قصصه المسلية كعنترة وألف ليلة وليلة والزير وحرب البسوس وغير ذلك ليقرأ هذا القصص الجديد (١) " .

وتلك حقيقة يؤكدها ما أشرنا اليه من قبل ، حيث أوضحنا في خاتمة التحليل لرواية " عذراء قريش " ان جورجي زيدان قد انزعج لما انتهت رواية عذراء قريش بخاتمة حزينة مؤثرة فاضطر للاعتذار الى القارئ بقوله :

" ويعز علينا ان تكون نهاية هذه الرواية محزنة وهي أول رواية ختمناها على هذه الصورة ولكن حوادثها قضت علينا بذلك (٢) " .

---

(١) محمد يوسف نجم — القصة في الادب العربي — ص ١٦٥

(٢) جورجي زيدان — رواية عذراء قريش — ص ٣٠٤

الباب الثالث

نقد و تقويم

الفصل الاول

شبهات وردها

شبهات رواية فتاة غسان

الشبهة الاولى : الزعم بأن محمدا صلى الله عليه وسلم قد أخذ تعاليمه عن الرهبان او تأثر بتوجيهات الراهب بحيراء •

الشبهة الثانية : السخرية والاستخفاف بوثائق العهد النبوى •

الشبهة الثالثة : وصف حادثة شق صدره صلى الله عليه وسلم بالغرابة •

الشبهة الرابعة : اثبات قصة الغرانيق بصورة موهمة ومثيرة للشكوك •

الشبهة الخامسة : ادعاء الخصومة بين خالد بن الوليد وابي عبيدة بن الجراح •

الشبهة الاولى

الزعم بأن محمدا صلى الله عليه وسلم قد أخذ تعاليمه من الرهبان او تأثر بتوجيهاتهم ولا سيما توجيهات الراهب بحيراء . وتلك فرية ليس فيها مرية لدى كل ذى بصر وفكر سليم ، ولم تأت هذه الفرية في رواية " فتاة غسان " بصورة مكشوفة مفضوحة ولكنها جاءت مغلفة وملفقة بعبارات الثناء على الراهب بحيراء عن طريق انطاق بعض الشخصيات حيث قال مؤلف رواية " فتاة غسان " :

" أما بحيراء فهو من نعم الله على بني الانسان ولا أظن أن الارض ستجود بعد بمثله .. (١) " . ثم جاءت الاشارة بعد هذا الى أن بحيراء كان يجلس مع التجار العرب أصحاب القوافل التجارية التي كانت تتجه نحو الشام ليعلمهم عبادة الله ويدعوهم الى نبذ عبادة الاصنام . ثم يذكر سفر محمد صلى الله عليه وسلم مع عمه أبي طالب قائلا : " ... وكان أبو طالب اذا خرج الى تجارة أو سفر اصطحب محمدا فينزل الاديرة ويجالس الرهبان والعلماء ... (٢) " ، ثم قال " ان الراهب بحيراء قد أنبأه بأمور كثيرة عن مستقبل حياته .. (٢) " واكتفى بهذا التعبير الموهم ، مطلقا العنان للايحاءات المختلفة التي قد تتسرب عندئذ الى ذهن القارئ الغافل أو السطحي التفكير ، وأظهر تلك الايحاءات شبهة استفادة النبي محمد صلى الله عليه وسلم من الراهب بحيراء الذى كان نعمة انسانية كبرى ، ولن تجود الارض بمثله فيما بعد والذى أراد بالعرب خيرا فعلمهم عبادة الله وحضهم على نبذ عبادة الاوثان ، ثم زعم بعد ذلك ان محمدا انما جاء هاديا لبني جلدته ومنقذاً لهم من الضلالة وعبادة الاوثان ..

وقد ركز مؤلف رواية " فتاة غسان " على كل ذلك ليشعر القارئ بأن ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم انما هو امتداد وتكملة لما بدأه الراهب بحيراء ابان اختلاطه

---

(١) جورجي زيدان ـ رواية فتاة غسان ص ٤١

(٢) جورجي زيدان ـ رواية فتاة عسان ص ٨٨

بالعرب اصحاب القوافل التجارية المتجهة الى الشام ومعهم محمد صلى الله عليه وسلم وعمه أبو طالب ، على حين أن دعوة محمد عليه الصلاة والسلام لم تكن خاصة بقومه أو بني جلدته بل هي للبشر كافة ، كما هو معلوم لدى زيدان وغيره ، ولكنها المكابرة التي جعلته يميل الى مثل هذا التعبير والتصوير التافه لدعوة هدت عروش القياصرة والاكاسرة ودكت حصونهم المنيعة .

فشبهة الاستفادة من الرهبان شبهة كان المستشرقون يرددونها وما زالوا حتى الان ، وقد عمد زيدان الى الزج بها في رواية " فتاة غسان " معتمدا على المكر والدهاء وبراعة الاحتيال ، وهي شبهة مردودة اذ أن محمدا صلى الله عليه وسلم لم يتأثر بكنيسة أو راهب " إن هو الا وحي يوحى " " وكذلك أوحينا اليك روحا من أمرنا ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الايمان ولكن جعلناه نورا نهدى به من نشاء من عبادنا وانك لتهدى الى صراط مستقيم : صراط الله الذى له ما في السموات وما في الارض ألا الى الله تصير الامور . " (١)

هذا والتاريخ لم يذكر الا وصية الراهب بحيراء لعمه أبي طالب لكي يحافظ عليه من اليهود ولا شيء بعد ذلك حيث قال له : " صدقت فارجع بابن أخيك الى بلده واحذر عليه يهود ، فوالله لئن رأوه وعرفوا منه ما عرفت ليبغنه شرا فانه كائن لابن أخيك هذا شأن عظيم فاسرع به الى بلاده " (٢) .

ومن ثم لا يصح الارتكاز على ما جاء في بعض الكتب " كتب الاخبار والقصص " من أقوال متهافتة واخبار متناقضة لا ترقى الى درجة من الصحة بل لا تتفق مع ما جاء في السيرة النبوية ولا يؤيدها قرآن أو حديث ، لكن ينسجها ويحيكها خيال كاتب روائي كزيدان .

---

(١) القرآن الكريم ـ سورة الشورى ـ الآية رقم ٥٢ ـ ٥٣

(٢) ابن هشام ـ السيرة النبوية ـ الجزء الاول ص ١٨٢

الشبهة الثانية : السخرية والاستخفاف بوثائق العهد النبوى

وتتمثل هذه السخرية في وصف جورجي زيدان لرسالة النبي صلى الله عليه وسلم التي بعث بها الى هرقل ملك الروم بأنها مختومة بالطين (١) ولكي يبعد التهمة عن نفسه تراه يشير في الحاشية الى المصدر موهما بذلك القارئ العادى وموحيا له بأنه قد أخذ هذه الفكرة من كتاب الاغاني " ط الجزء السادس " .

هذا وقد راجعنا كتاب الاغاني (٢) فلم نجد اشارة من قريب أو بعيد الى ختم الطين هذا ، كما رجعنا الى كتاب الوثائق السياسية للعهد النبوى (٣) فلم نجد شيئا من هذا القبيل أيضا ،وكل ذلك يشير الى التلاعب بالمصادر ويؤكد ميل مؤلف رواية " فتاة غسان " الى السخرية والاستخفاف بوثائق العهد النبوى ، على حين ان هذه الرسالة وغيرها تعد من الوثائق السياسية الجديرة بالاحترام والاعجاب ولذلك لا يمكن ان يفسر هذا الميل الى السخرية الا بشهوة التبشير تلك الشهوة التي أشار اليها الدكتور محمد حسين هيكل في حديثه عن رأى المستشرقين في قصة زينب بنت جحش حيث قال : " انها شهوة التبشير المكشوفة تارة والتبشير باسم العلم اخرى ، والخصومة القديمة للاسلام خصومة تأصلت في النفوس منذ الحروب الصليبية وهي التي تملي على هؤلاء جميعا ما يكتبون (٤) " .

ويبدو أن تلك الخصومة هي التي أملت على زيدان هذا النعت العجيب لرسالة سيد البشر الى هرقل ملك الروم ، النعت الذى لم يرد له ذكر في مصدره المزعوم أو في غيره من المصادر الموثوق بها ، بل ان زيدان قد تصرف بعض التصرف في الرسالة بالحذف .

---

(١) جورجي زيدان ـ رواية فتاة غسان ـ ص ١٨٢
(٢) ابو الفرج الاصفهاني ـ كتاب الاغاني ـ الجزء السادس ص ٣٢٧ ـ ٣٢٨ ط بيروت
(٣) د .محمد حميد الله ـ الوثائق السياسية للعهد النبوى والخلافة الراشدة ص ٨٠ رقم ٢٦ طبعة بيروت .
(٤) الدكتور محمد حسين هيكل ـ حياة محمد ـ ص ٣٢٥ ـ ٣٢٦

ترى ماذا حذف ؟ ولماذا حذف ؟ .. حذف جملة كاملة وهي جملة " صلى الله عليه وسلم " على حين أنها وردت — وغير مختصرة — في المصدر نفسه الذى زعم أنه أخذ منه وصف الرسالة بأنها مختومة بالطين وقد يقال انه لم يأخذ نص الرسالة من كتاب الاغاني انما أخذه من كتاب آخر فنقول : ولم العدول عن مصدر الى مصدر في هذه الرسالة دون سواها ؟ وعلام يدل هذا العدول ؟ .

الشبهة الثالثة : : وصف حادثة شق صدر الرسول (ص) بالغرابة

وقد جاء هذا الوصف صريحا وليس ضمنيا أو تلميحا ، حيث قال مؤلف رواية " فتاة غسان " .. " فاختارت له أمه مرضعا من أهل الطائف وأودعته فنشأ نشيطا ، وسمعت الناس يتحدثون عن طفولته اخباراً غريبة لم تسمع بمثلها .. (١) . والمؤلف قد أجرى هذه العبارة على لسان أبي سفيان في حين أنها لم ترد على لسانه في المصادر الموثوق بها كالطبرى وابن الاثير وسيرة ابن هشام ، بل ان كل كتاب من هذه الكتب قد ذكر قصة أبي سفيان مع هرقل باسلوب جميل مشوق مع التزام جانب الصدق واصابة كبد الحقيقة ، حيث ذكر ابن الاثير فيما ذكر قول هرقل لدحية الكلبي " اني لاعلم ان صاحبك نبي مرسل ولكني أخاف الروم على نفسي ولولا ذلك لاتبعته " (٢) . كما ذكر قول ضغاطر الاسقف الاعظم في الروم ! " والله ان صاحبك نبي مرسل نعرفه بصفته ونجده في كتابنا ثم أخذ عصاه وخرج على الروم وهم في الكنيسة فقال : " يا معشر الروم قد جاءنا كتاب من محمد يدعونا للايمان به واني أشهد ان لا اله الا الله وان محمداً عبده ورسوله . قال فوثبوا عليه فقتلوه " (٣) .

---

(١) جورجي زيدان — رواية فتاة غسان — ص ٨٧

(٢) كتاب الكامل — لابن الاثير — جـ ٢ ص ٢١١

(٣) كتاب الكامل — لابن الاثير — جـ٢ ص ٢١١ — ٢١٣

وزيدان لم يذكر شيئا من هذا ، ولا يريد ذكره كما لم يذكر قول هرقل لابي سفيان
" ... وسألتك عن أتباعه فزعمت أنهم الضعفاء والمساكين ، وكذلك أتباع الرسل .
وسألتك عمن يتبعه أيحبه أم يفارقه . فزعمت انهم يحبونه ولا يفارقونه ، وكذلك حلاوة الايمان لا تدخل قلبا فتخرج منه ، وسألتك هل يغدر ، فزعمت أن لا ، ولئن صدقت ليغلبن على ما تحت قدمي هاتين . ولوددت أني عنده فأغسل قدميه .. (١) " .

هرقل ملك الروم يود أن لو كان عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ليغسل قدميه . وزيدان يعرض عن هذا ليجرى على لسان أبي سفيان ذاك القول العجيب فما الباعث اليه؟ لا شيء سوى شهوة التبشير الذى يدعو الى التقول والتشكك في حادثة شق صدره صلى الله عليه وسلم وربما كان هذا التقول صدى لما كان يردده المستشرقون من انكار لحالة شق الصدر .. مما جعل بعض كتاب المسلمين يقفون من هذه الحادثة موقفا مريبا ، وذلك حيث عرض أحدهم تلك الاراء دون مناقشة او دحض ورفض لها مخالفا بذلك ما درج عليه في تأليف كتابه القيم . بل أشار الى أن الانكار ليس من المستشرقين وحسب انما هناك بعض كتّاب مسلمين ينكرون الحادثة فقال :" لا يطمئن المستشرقون ولا يطمئن جماعة من المسلمين كذلك الى قصة الملكين هذه . ويرونها ضعيفة السند ، فالذى رأى الملكين في رواية كتاب السيرة انما هو طفل لا يزيد عن سنتين الا قليلا وكانت كذلك سن محمد يومئذ ، والروايات تجمع على أن محمداً أقام ببني سعد الى الخامسة فلو أن هذا الحادث قد وقع وسنه سنتان ونصف السنة ورجعت حليمة وزوجها اذ ذاك به الى أمه لكان في الروايتين تناقض غير مقبول ، ولذلك يرى بعض الكتاب انه عاد مع حليمة مرة ثالثة ، ولا يرضى المستشرق سير وليم موير أن يشير الى قصة الرجلين في ثيابهما البيضاء (٢) ويذكر ان كانت حليمة وزوجها قد تنبها لشيء أصاب الطفل فلعله نوبة عصبية اصابته .. (٣) .

---

(١) كتاب الكامل ـ لابن الاثير ـ جـ٢ ص ٢١١ ـ ٢١٣
(٢) كذا وهو خطأ ، والصواب : البيض
(٣) الدكتور محمد حسين هيكل ـ حياة محمد ـ ص ١١١

فليغضب السير موير ، وليتعجب زيدان ، وليقل المستشرقون ما يقولون .. ولكن ما موقفنا من كل ذلك وما رأينا فيه ؟ هذا ما لم يلتفت اليه الدكتور هيكل الذى كان سباقا الى دحض مفتريات المستشرقين ورد كيدهم في نحورهم بكتابه الذى نحا به منحى جديدا في دراسة السيرة النبوية . أما زيدان فقد اكتفى بتلك الاشارة ليشكك القارئ المسلم ، هذا مع ملاحظة أن زيدان قد أثبت في الحاشية اسم ابن هشام ليوهم القارئ بأنه قد أخذ منه هذا النص ، في الوقت الذى لم يأخذ فيه من ابن هشام الا بضع جمل ليس من بينها ذلك الوصف المريب ، وهذا نوع من التمويه او التلاعب بالمصادر .

أما حادثة شق الصدر فهي ثابتة ومؤكدة بروايات الثقات من أمثال الامام مسلم الذى روى في صحيحه من طريق حماد بن سلمة عن ثابت عن انس بن مالك ان رسول الله صلى الله عليه وسلم أتاه جبريل عليه السلام وهو يلعب مع الغلمان فأخذه فصرعه فشق عن قلبه ..." (١) ثم ابن اسحاق الذى قال حدثني ثور بن زيد عن بعض أهل العلم ولا أحسبه عن خالد بن معدان الكلاعي ان نفرا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا له : يا رسول الله اخبرنا عن نفسك ، قال : نعم أنا دعوة أبي ابراهيم ، وبشرى أخي عيسى ، ورأت أمي حين حملت بي انه خرج منها نور أضاء لها قُصُورَ الشام واسترضعت في بني سعد بن بكر ، فبينا أنا مع أخ لي خلف بيوتنا نرعى بهما لنا اذ أتاني رجلان عليهما ثياب بيض بطست من ذهب مملوءة ثلجا ثم أخذاني فشقا بطني واستخرجا قلبي ... (٢) " .

أما الرد على اعتراضات المستشرقين وشبهات المتقولين فنكتفي فيه بالاشارة الى ما جاء في كتاب السيرة النبوية للدكتور محمد ابو شهبة (٣) حيث تناول المسألة في شيء من التوسع وقتلها بحثا ، فيمكن الرجوع الى كتابه المذكور .

---

(١) صحيح مسلم — بشرح النووى جـ ٢ ص ٢١٦ ط. حجازى .

(٢) سيرة ابن هشام — جـ ١ ص ١٦٦ ط. الحلبي

(٣) السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة — من ص ٢٠٧ الى ص ٢١١

الشبهة الرابعة : اثبات قصة الغرانيق بصورة موهمة ومثيرة للشكوك

ذلك لانه أجرى هذه القصة على لسان أبي سفيان بطريقة توحي للقارئ بأن قصة الغرانيق قصة ثابتة ، وتشعره بأن من واجب مؤلف روايات تاريخ الاسلام أن يعلم شباب المسلمين اياها وأن يركزها في أذهانهم دون سواها ، حيث جاءت على النحو التالي في رواية " فتاة غسان " لجورجي زيدان : " ٠٠٠٠ ثم علمنا ذات يوم أن محمدا ذكر آلهتنا فيما نزل عليه من كتابه فقال : " أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الاخرى تلك الغرانيق العلى ، وان شفاعتهن لترتجى " (١) ويشير في الحاشية الى الطبرى الذى لم يأت بالقصة على هذا النحو ولم يكتب النص بهذه الطريقة الموهمة وبيد وأنها مقصودة من مؤلف رواية فتاة غسان ليضيف الى القرآن ما ليس منه بحيلة قد تنطلي على أنصاف المتعلمين من أبناء المسلمين الذين سحرتهم روايات جورجي زيدان ، واستهوتهم بما فيها من قصص غرامية مشوبة بكثير من المفتريات التي تدثرت بثوب الحقائق التاريخية كقصة الغرانيق التي يقول زيدان انه اخذها من الكتب التاريخية ، هذا وقد وردت القصة بالفعل في كتب التاريخ ، ولكنها لم ترد على أنها حقيقة ثابتة ، بل أشارت تلك الكتب أو معظمها الى بطلان القصة وانتحالها ، وعلى الرغم من ذلك ركز عليها المستشرقون وأضرابهم ، وحاول زيدان ابرازها ، بل اتخذ منها تكأة للدس والتشويه ، حيث أضاف الى القرآن ما ليس منه كما رأيت في كتابته لقصة الغرانيق التي هي واضحة البطلان نقلا وعقلا بل ومستحيلة الحدوث ، اذ طعن فيها الكثيرون من المحدثين والمحققين ، مثل الامام القاضي عياض في كتابه الشفا (٢) وتوفر لدحضها الكثيرون من كتاب السيرة مثل الدكتور محمد أبو شهبة (٣) والدكتور محمد حسين هيكل (٤) ، وفوق هذا وذاك أن القصة مصادمة للقرآن الكريم الذى قال : " أن عبادى ليس لك عليهم سلطان الا

---

(١) جورجي زيدان — رواية فتاة غسان — ص ٩١
(٢) كتاب الشفا — جـ ٢ ص ١١٧
(٣) كتاب السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة ص ٣٧٥
(٤) حياة محمد — ص ١٦٠ — ١٦٧

من اتبعك من الغاوين " (١) وقال : " انه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون " (٢) وقال : " فبعزتك لاغوينهم اجمعين الا عبادك منهم المخلصون " (٣) .
ويجب أن نشير هنا الى عصمته صلى الله عليه وسلم من جريان الكفر على قلبه أو لسانه، ومن أن يشتبه عليه ما يلقيه ملك الرحمن بما يلقيه الشيطان ، حيث لا سبيل للشيطان عليه، ولا طريق له اليه ، أما آية الحج التي ركز عليها مثبتو القصة : " وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي الا اذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته فينسخ الله ما يلقي الشيطان ثم يحكم الله آياته والله عليم حكيم " (٤) فتبدو متعارضة مع ما ذكرنا ،ولكن اذا أمعنا النظر في تفسيرها لزال ذلك التعارض ، هذا وقد فسرها بعضهم على النحو التالي : " معنى الاية: وما أرسلنا من قبلك رسولا بشرع جديد كابراهيم وموسى وعيسى او نبيا جاء مجددا لشرع جاء به رسول قبله كانبياء بني اسرائيل الذين جاءوا بعد موسى مثل يوشع بن نون ، وكالب بن يوقنا ،وهزقيل ، الا تمنى هداية قومه وايمانهم ألقى الشيطان في سبيل أمنيته هذه العقبات ووسوس في صدور الناس فثاروا في وجهه وجادلوه حينا وحاربوه حينا آخر حتى اذا ما اراد الله هدايتهم أزال تلك الوساوس التي ألقاها الشيطان في نفوسهم ووفقهم لادراك الحق وادراك داعي الله ، وبذلك ينسخ الله ما القى الشيطان من الشبهات والعقبات، ويحكم آياته بنصر الحق وأهله على الباطل وحزبه وينشيء من ضعف أنصاره قوة ، ومن ذلهم عزا ، وتكون كلمة الله هي العليا ، وكلمة الذين كفروا السفلى ، ليجعل ما يلقي الشيطان في سبيل دعوات الانبياء فتنة لضعفاء الايمان ومرضى النفوس وقساة القلوب الذين لا يعتبرون ولا يتعظون وهم المجاهرون بالكفر " (٥) .

---

(١) سورة الحجر آية رقم ٤٢
(٢) سورة النحل آية رقم ٩٩
(٣) سورة " ص " آية رقم ٨٢/٨٣
(٤) سورة الحج آية رقم ٥٢/٥٤
(٥) الدكتور محمد أبو شهبة ـ السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة ـ ص ٣٨٦

الشبهة الخامسة

ادعاء الخصومة بين خالد بن الوليد وأبي عبيدة بن الجراح

جاء هذا الادعاء في فصل كامل من الرواية وعنوان مستقل هو " خصام أبي عبيدة وخالد " (١) وقد بالغ المؤلف في تصوير هذه الخصومة حيث أضاف الى كل منهما أقوالا لا تتناسب ومكانته فقال : " .... ثم دنا خالد فلما رآه أبو عبيدة عجب لأمره وناداه قائلا : " كف يا أبا سليمان قد فتح الله على يدي المدينة صلحا ، وكفى الله المؤمنين القتال " فصاح به خالد : وما الصلح لا أصلح الله بالهم ؟ وأين لهم الصلح وقد فتحتها بالسيف وخضبت سيوف المسلمين من دمائهم وأخذت الاولاد عبيدا واستوليت على الاموال ؟ فقال ابو عبيدة : " اعلم أيها الامير اني ما دخلتها الا بالصلح ، فقال خالد : انك لم تزل مغفلاً أني ما دخلتها الا بالسيف عنوة وما بقي لهم حماية فكيف صالحتهم ؟ فقال ابو عبيدة : اتق الله أيها الامير ، والله قد صالحت القوم ونفذ السهم بما فيه ، وكتبت لهم الكتاب ، فاعترضه خالد وارتفع الصياح بينهما ، وقد شخص الناس اليهما وأصحاب خالد لا يزالون يقتلون ويغنمون وكانوا قد دخلوا المدينة من الباب الشرقي وهم لا يعلمون بصلح ابي عبيدة ولكنهم اغتنموا الفرصة باشتغال توما ورجاله بالقصر والولادة . فقال ابو عبيدة : واثكلاه حقرت والله ونقض عهدي ..... " (١) .

هكذا يصور زيدان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأبطال المسلمين الاوائل ، ليوحي الى القراء من خلال تلك الصورة بأن الحرب كانت شهوة نفسية عند المسلمين وليقرر في أذهان الشباب فكرة خاطئة هي اشتغال المسلمين بالغنائم والسبايا واعراضهم عن السلم والسلام حتى ولو جنح اليه الخصم ، مدللا على ذلك بالخصومة المزعومة بين خالد وابي عبيدة ، حيث جعل أبا عبيدة يميل الى الصلح وجعل خالدا يرفض ذلك الصلح

---

(١) جورجي زيدان — رواية فتاة غسان — ص ٣٧٢ — ٣٧٣ ط ، دار الاندلس ببيروت

بل يعمل على نقض عهد صاحبه وقائده العام ٠

وتلك فرية ليس فيها مرية ، لانها لا تتفق مع ما دعا اليه القرآن الكريم وألزم المسلمين به حيث قال : " وان جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله انه هو السميع العليم " ولأنها تناقض ما هو معروف من أن الحرب في الاسلام انما شرعت لتكون وسيلة لدرء المفاسد واقرار السلام لا ارضاء لشهوة الفتح والاستعباد كما قد يرتسم في ذهن القارئ لحديث زيدان عن خصومة خالد وأبي عبيدة المزعومة ٠

وقد اعتبرنا تلك الخصومة من الامور المفتراة لانها لم ترد عند معظم المؤرخين ، ومنهم ابن الاثير الذى تحدث كثيرا عن فتوح الشام ، وقد أورد في ثنايا حديثه التاريخي مواقف حرجة كانت بمثابة العقدة القصصية التي من شأنها ان تشد القارئ وتشوقه الى مطالعة كتب التاريخ ، ولم يذكر أثناء ذلك شيئا من تلك الخصومة (١) ومعلوم أن ابن الاثير مؤرخ ثقة ، ومضمون ما رواه يختلف كل الاختلاف عن الفكرة التي قررها زيدان في رواية فتاة غسان ، وهذا من شأنه أن يجعلنا نشك في صحة ما قرره ، بل هنالك ما يجعلنا نرفضه رفضا باتا ، وهو عدم اتفاق المؤرخين على رأى محدد بالنسبة لدخول هذين القائدين الجليلين الى دمشق ففي الوقت الذى يقرر فيه الطبرى دخول أبي عبيدة صلحا ودخول خالد عنوة أو بالسيف حيث يقول : " ٠٠٠٠٠٠٠٠ ودخل خالد مما يليه عنوة ، فالتقى خالد والقواد في وسطها هذا استعراضا وانتهابا وهذا صلحا وتسكينا ، فأجروا ناحية خالد مجرى الصلح فصار صلحا ٠٠ (٢) تجد البلاذرى يقرر العكس تماما حيث يقول : " ان اسقف دمشق لما رأى أبا عبيدة قد قارب دخول المدينة برز الى خالد فصالحه وفتح له الباب الشرقي ٠ فدخل معه ، فقال بعض المسلمين والله ما خالد بأمير فكيف يجوز صلحه ٠ فقال ابو عبيدة : " انه يجير على المسلمين أدناهم " وأجاز صلحه وأمضاه ٠٠٠ " (٣) ٠

---

(١) ابن الاثير — كتاب الكامل في التاريخ — جزء ٢ ص ٤٠٧ — ٤١٠ ط بيروت ٠

(٢) ابن جرير الطبرى — تاريخ الطبرى — جـ٢ ص ٦٢٧ ط ٠ الاستقامة بالقاهرة ٠

(٣) احمد بن يحيى البلاذرى — فتوح البلدان — القسم الاول ص ٤٥ ط ٠ النهضة المصرية

أمعن النظر جيدا في هذه الرواية التي تنقض رأى زيدان من أساسه ، ثم ارجع البصر كرتين لترى كيف كانت اجابة أبي عبيدة لما ثار بعض المسلمين على صلح خالد وقالوا : والله ما خالد بأمير فكيف يجوز صلحه ؟ وأجاب أبو عبيدة : انه يجير على المسلمين أدناهم ، وتلك اجابة لا تدل على خصومة كما يزعم زيدان ولا توحي بشيء من ذلك ، بل تدل على روح سمحة واخلاق عالية ومن ثم نقول : والله ما خالد بأمير في فتح دمشق فكيف يجوز نقضه لعهد أمضاه قائده ؟ بل كيف يقول لقائده : انك لم تزل مُغفِلاً ؟ حاشاه ان يقول هذا ، ولكن تقوّل عليه زيدان وافترى .

أما بالنسبة لدخول القائدين الى دمشق فالراجح عندنا هو ما ذكره الطبرى من أن خالدا قد دخل دمشق عنوة بينما دخل ابو عبيدة صلحا ،وهذا هو الذى عليه اكثر الروايات التاريخية ، وهو الذى يتفق مع طبيعة كل منهما حيث كان خالد يحارب بينما ابو عبيدة يفاوض بطريقة تجنح الى السلم ..

ثم نعود مرة اخرى الى الخصومة المزعومة لنقول : على فرض أن خلافا قد وقع بين هذين القائدين ولم يذكره المؤرخون الثقات فهو ليس من قبيل الحلقات المفقودة التي يجب البحث عنها لاكمال العقد الفريد عن طريق الاسلوب القصصي الذى يرتكز على الخيال . وعلى فرض أن خبر الخصومة قد ورد في رواية ضعيفة ، فهو لم يرد بالاسلوب الذى جاء به في رواية زيدان .

واذا قيل ان زيدان إنما أراد بالخصومة التي تحدّث عنها ما دار من نقاش انتهى بعزل خالد بن الوليد نقول : ان هذه الحادثة أيضا لم ترد في كتب التاريخ بالصورة التي وردت بها في رواية جورجي زيدان ، حيث كان الحوار بين خالد وأبي عبيدة في رواية ابن الاثير على النحو التالي :

" ..... فكتب ابو عبيدة الى خالد فقدم اليه ، ثم جمع الناس وجلس لهم على المنبر فقام البريد فسأل خالدا من أين أجاز الاشعث فلم يجبه ، وأبو عبيدة ساكت لا يقول شيئا فقام بلال فقال : ان أمير المؤمنين امر فيك بكذا وكذا ونزع عمامته فلم يمنعه سمعا وطاعة ووضع قلنسوته ثم أقامه فعقله بعمامته وقال : من أين أجزت الاشعث ؟ من مالك اجزت أم من اصابة

أصبتها ؟ فقال بل من مالي ، فأطلقه وأعاد قلنسوته ثم عممه بيده ثم قال : نسمع ونطيع لولاتنا ونفخم موالينا . قال وأقام خالد متحيرا لا يدري أمعزول ام غير معزول ، ولا يعلمه ابو عبيدة بذلك تكرمة وتفخمة ، فلما تأخر قدومه على عمر ظن الذي كان فكتب الى خالد بالاقبال اليه فرجع الى قنسرين فخطب الناس وودعهم ورجع الى حمص فخطبهم ثم سار الى المدينة فلما قدم على عمر شكاه وقال : قد شكوتك الى المسلمين فبالله انك في امرى لغير مجمل ، فقال له عمر : من أين هذا الثراء ؟ قال : من الانفال والسُّهمَانِ ، ما زاد على ستين ألفا فلك ، فقوم عمر ماله فزاد عشرين ألفا فجعلها في بيت المال ثم قال : يا خالد والله انك عليّ كريم ، وانك اليّ لحبيب ، وكتب الى الامصار اني لم اعزل خالدا عن سخطة ولا خيانة ، ولكن الناس فخموه وفتنوا به فخفت ان يوكلوا اليه ......"(١) .

وتلك رواية لا تشير الى نفرة او خصومة بين صحابيين جليلين ، انما تشير الى مدى الفهم العميق لمعنى المحاسبة ولمعنى الطاعة ، كما تشير الى اجلال ابي عبيدة لابن الوليد الامر الذي جعله يخفي عنه خبر العزل تكرمة وتفخمة كما يقول ابن الاثير .

وكل هذا يصل بنا الى النتيجة التي لا محيص عنها وهي أن ما قد يتراءى من خلاف بين أبي عبيدة وابن الوليد فمرده الى الخلاف بين قوتين من نوعين ، أو الى الخلاف في تناول الامور على طريقتين ، ولم يكن قط خلافا بين قوة وضعف ، أو بين حرص وتفريط ، أو بين أثرة وايثار كما أراد زيد ان تقريره في أذهاننا بقوله : ان أبا عبيدة قد صاح في وجه صاحبه قائلا : واثكلاه لقد حقّرت والله ونقض عهدى وما هذا بصحيح إنْ هو الا شبهة من الشبهات التي ركز عليها المغرضون ، وقد رأينا وجه بطلانها .

---

(١) ابن الاثير — الكامل — جـ ٢ ص ٥٣٦ ، ٥٣٧ ط . بيروت .

شـــــــبهـات
رواية ــ عــذراء قريـــــــش

الشـبهة الاولى : تجريح الصحابة واتهام بعضهم بالحقد وتدبير الموءامرات •

الشــبهة الثانية : اتهام السيدة عائشة بالميل الى سفك الدماء والنزوع الى الشر •

الشـبهة الثالثة : وصف الخليفة عثمان بأنه رجل إمَّعَةٌ وذليل مســتسلم لابن عمه •

الشبهة الرابعة : افتراء عَلَى ابْنِ أَبِي طالب وتفسـير مغرض لاسـباب الفتنة •

الشبهة الخامسة : اتهام ابن أبي طالب بالتهاون في المطالبة بدم عثمان •

الشبهة الأولى

تجريح الصحابة واتهام بعضهم بالحقد وتدبير المؤامرات

يتضح هذا التجريح وذاك الاتهام في وصف الزبير بن العوام وطلحة بن عبيد الله وعمرو بن العاص بأن لهم مطمعا في الخلافة ، كل منهم يتطلبها لنفسه ، وقد ورد هذا الاتهام في صفحات مختلفة منها ص ٥٢ ، ٢٢٢ ، ٢٢٣ ، وهي تهم مفتراة وملفقة ، تدحضها أدلة كثيرة أهمها ما يلي :

أولا : ما جاء في رواية الاحنف بن قيس من أن طلحة والزبير قد رشحا علي بن أبي طالب حيث قال الاحنف : " فلقيت طلحة والزبير فقلت من تأمراني به وترضيانه لي ؟ فاني لا أرى هذا الرجل الا مقتولا ، قالا : علي ، قلت : أتأمراني به وترضيانه لي ؟ قالا : نعم ، فانطلقت حتى قدمت مكة فبينا نحن بها اذ أتانا خبر قتل عثمان ، وبها عائشة أم المؤمنين فلقيتها فقلت : من تأمريني أن أبايع ؟ قالت: عَلِيٌّ ، فقلت تأمريني وترضينه لي ؟ قالت : نعم ، فمررت على عَلِيٍّ بالمدينة ثم رجعت الى البصرة ولا أرى الامر الا قد استقام ، فبينا أنا كذلك اذ أتاني آت فقال : هذه عائشة وطلحة والزبير قد نزلوا جانب الحزيبة فقلت : ما جاء بهم ؟ قالوا : ارسلوا اليك يدعونك يستنصرون بك على دم عثمان فأتاني أفظع أمر أتاني قط ، فقلت إِنَّ خِذْلانِي هؤلاء ومعهم أم المؤمنين وحَوَارِيُّ رسول الله صلى الله عليه وسلم لشديد وان قتالي رجلا هو ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد أمروني ببيعته لشديد ، فلما أتيتهم ، قالوا جئنا لنستنصر على دم عثمان رضي الله عنه قتل مظلوما ، فقلت: يا ام المؤمنين أنشدك بالله أقلت لك من تأمريني به فَقُلْتِ علي فَقُلْتُ أتأمريني به وترضينه لي ؟ قُلْتِ نعم؟ ، قالت : نعم ولكنه بدّل فقلت : يا زبير يا حواري رسول الله صلى الله عليه وسلم يا طلحة أنشدكما الله أقلت لكما ما تأمراني ؟ فقلتما : عَلِيٌّ ، فقلتُ: أتأمراني به وترضيانه لي فقلتما نعم ، قالا : نعم ولكنه بَدَّل ، فقلت والله لا أقاتلكم

ومعكم أم المؤمنين وحواري رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا أقاتل رجلا هو ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أمرتموني ببيعته ... " (١) .

وقد روى الطبري ذلك عن يعقوب بن ابراهيم وهو ثقة ، لهذا نقول : ان هذه الرواية تؤكد أنه لم يكن هناك خلاف مسبق بين علي وبين الزبير وطلحة بحيث يحقدان عليه أو يحيكان المؤامرات ضده طمعا في الخلافة كما يفهم ذلك من تصوير زيدان ، وفي الوقت ذاته تدل تلك الرواية على أن الزبير وطلحة كانا يعتقدان أن عليا قد بدّل بعد خلافته ، أي أنه لم يقم بالشروط التي بويع عليها ، وذاك يسوغ لهما نقض البيعة ويدعوهما الى المطالبة بدم عثمان .

ثانيا : ما أشار اليه العديد من المؤرخين الثقات من أن هناك يدا خفية كانت تلعب من وراء الستار لتوقع الفرقة بين المسلمين ، فهي التي وضعت الكتب وسعت الى الوشاية بين هذا وذاك ، بل هي التي زورت الكتاب المرسل الى عامل عثمان على مصر ، فهذه اليد هي التي كانت تستعجل الامور وتتهم الصحابة لتوقع الفرقة بين المسلمين ، وقد اعتمد على أقوالهم أصحاب الاخبار الضعيفة التي ركز عليها زيدان لتكبر صورة التشويه عنده ، الصورة التي تجعل الامة الاسلامية سيئة الخصال ممزقة الاوصال .

ثالثا : ما فهم من أخبار الواقدي (٢) وابي مخنف (٣) من أن طلحة والزبير كانا يعملان على اضرام نار الفتنة ضد عثمان طمعا في الخلافة مردود للاسباب التالية :

أ — أبو مخنف شيعي متعصب ، فهو لا يتحرج من أن يظهر عثمان بمظهر الخليفة الذي كثرت سقطاته فاستحق ما استحق .

ب — الواقدي متحامل ولا يعرف الانصاف ، ومن ثم تميزت رواياته بالتشنيع على عثمان واظهار الصحابة بمظهر المتآمرين على عثمان مما جعل الطبري يتورع من نقل

---

(١) ابن جرير الطبري — تاريخ الطبري — ج ٣ ص ٥١٠ ، ٥١٢

(٢) البلاذري — انساب الاشراف — ج ٥ ص ٦٢ — ٧١

(٣) البلاذري — انساب الاشراف — ج ٤ ص ٤٣ — ٥٨ وج ٥ ص ٣٠ — ٣٦

الكثير من أخباره .

جـ ـ أهل الجرح والتعديل من المُحَدِّثين الذين تصدوا للكشف عن أحوال العلماء من حيث الثقة بأقوالهم أو عدمها يحذروننا كل التحذير من الواقدى ، فالنسائي والشافعي يتهمانه بالكذب والوضع (١) وهي أشد تهمة تلصق بمن يَرْوي الاخبار ، أما رأيهم في أبي مخنف وسيف بن عمر التميمي فهو التضعيف وعدم الاخذ بروايتهما ، بل يتهمون سيفا بالزندقة .

ثالثا : قليل من الروية والتفكير يجعلنا نبعد اشتراك طلحة والزبير وعائشة في اضرام الفتنة والثورة ضد عثمان طمعا في الخلافة أو غيرها ، اذ أنه لا يعقل أن يكونوا كذلك وهم الذين خرجوا على الخليفة علي بن أبي طالب يطالبونه بدم عثمان .

رابعا : مسألة نقض الزبير وطلحة لبيعة علي ترجع الى أنهما بايعا مكرهين فلهما الحق أن ينقضا البيعة ، هذا وقد فهم اكراههما على البيعة من رواية سيف بن عمر ، ونحن نأخذ برواية سيف على الرغم من اتهام المحدثين له بالزندقة ، لان المحدثين كانوا يتساهلون أحيانا في الاخذ عن الضعفاء ان كانت روايتهم تؤيد باحاديث صحيحة موثقة ، هذا وقد ثبت ان كلا من الزبير وطلحة قد بايع عليا وهو يقول : " اني انما أبايع مكرها " وزيدان انما ركز على هذا وذاك ليجرح الصحابة ويثير الشكوك والشبهات حولهم ، وقد رأينا وجه بطلان كل ذلك والله أعلم .

الشبهة الثانية

اتهام السيدة عائشة بسفك الدماء والنزوع الى الشر

الذى يتتبع مواقف السيدة عائشة في رواية "عذراء قريش" لجورجي زيدان يجدها جميعا تهدف الى تقديم السيدة عائشة في صورة امرأة تميل الى سفك الدماء وتنزع الى الشر .

---

(١) الشافعي ـ تهذيب التهذيب ـ ٣٦٤/٩ ـ ٣٦٨ ط دار المعارف العثمانية

ولا تصغي الى السعاة الذين يسعون الى السلم والسلام وفي مقدمة أولئك السعاة عذراء قريش بطلة الرواية .

هكذا كان الامر في رواية عذراء قريش لجورجي زيدان ، ولكننا عندما نعود الى كتاب الطبرى نجد الامر بخلاف ذلك ، حيث نجد الطبرى (١) يذكر عن محمد وطلحة ورجل آخر هو ابو عَمْرٍ وما خلاصته : ان كعب بن ثور قد ذهب الى السيدة عائشة فقال لها أدركي الناس فقد أبى القوم الا القتال لعل الله يصلح بك ، فركبت عائشة والبسوا هودجها الادراع ثم بعثوا جملها ، فلما برزت من البيوت وكانت بحيث تسمع الغوغاء وقفت فلم تلبث ان سمعت غوغاء شديدة فقالت ما هذا ؟ قالوا : ضجة العسكر ، قالت : بخير أو بشر ؟ قالوا : بشر ، قالت : " فأى الفريقين كانت منهم هذه الضجة فهم المهزومون " ثم ما لبثت أن علمت هزيمة أصحابها .

فهذه الرواية تنفي الزعم بأن عائشة كانت محرضة وكانت رافضة للسلم والسلام بل تؤكد براءتها ، اذ أن الطبرى قد أثبت في تلك الرواية أن السيدة عائشة قالت لكعب بن ثور : تقدم بكتاب الله عز وجل فادعهم اليه ودفعت اليه مصحفا ، وأقبل القوم وأمامهم السبئية يخافون ان يجرى الصلح ، فاستقبلهم كعب بالمصحف وعليٌّ مِنْ خلفهم يؤخرهم ويأبون الا اقداما فلما دعاهم كعب رشقوه رشقا واحدا فقتلوه ، ورموا عائشة في هودجها فجعلت تنادى : يا بني البقية البقية ، الله الله ، اذكروا الله عز وجل والحساب فيأبون الا اقداما .

امرأة ترمى في هودجها وتستصرخ قائلة : البقية البقية ، الله الله ، اذكروا الله عز وجل والحساب ، فهل يمكن أن توصف بأنها سفاكة دماء نزاعة الى الشر رافضة للسلم والسلام الذى كانت عذراء قريش داعية له في رواية جورجي زيدان ؟ ذاك أمر يستعصي على التصديق على الرغم من أن السيدة عائشة قد خرجت فعلا في موقعة الجمل .

---

(١) ابن جرير — تاريخ الطبرى — ج ٣ ص ٥١٨

الشبهة الثالثة

وصف الخليفة عثمان بأنه رجل إمعة وذليل مستسلم لابن عمه

كل قارئ لرواية عذراء قريش لزيدان يدرك أن المؤلف قد عني بتصوير مواقف الخليفة عثمان بن عفان أيام الفتنة وأثناءها وإبرازها بشكل يوحي للقارئ بأن الضعف قد دبّ في أوصال الخليفة والخلافة فأصبح الخليفة رجلا إمعة ومستسلما لابن عمه مروان بن الحكم (١) وهو غلام لا يفقه شيئا . ولم يكتف بهذا بل جعله أيضا رجلا ضعيفا يصغي الى الفتيات ويستمع الى آرائهن . ومن ثم أشار الى نصائح أسماء بنت مريم ـ تلك الشخصية الخيالية التي تسمى عذراء قريش ـ الموجهة الى الخليفة عثمان حيث قالت له حسب زعم زيدان :

" ... ... انني انما وقفت لأقول كلمة في صالح مولاى الخليفة ولو أدى بي ذلك الى احتمال غضبه وتوبيخه . اني يا أمير المؤمنين أرى في الاصغاء لقول ابن عمك هذا ايقادا للفتنة بعد أن نامت ومدعاة للقتال واثارة للحرب . فان استسلام أمير المؤمنين لمشورة مروان قد يؤدي الى شر عظيم ... ... " (٢) .

عجيب أن تجرى العبارات هكذا عن الخليفة عثمان ولا سيما على لسان شخصية خيالية لا وجود لها كانما ضعف الخليفة أمر مسلم به أو أنه من المبادئ الاساسية التي يجب على شبابنا أن يتعلموها . ويبدو أن زيدان قد أخذ خبر ضعف الخليفة من الرواة أو المؤرخين الذين لا يمحصون ولا يحققون في الاخبار التي ترد اليهم . " لأن الغالب في المؤرخين أنهم يستسهلون الرأى كلما كتبوا عن رجل اشتهر بصفة من الصفات . وهم على دأبهم هذا قد يستسهلون الرأى في تقدير سياسة عثمان بعد السنوات الاولى من خلافته على الخصوص فما كان عملا وتدبيرا فليس أسهل من اسناده الى أعوانه وما كان توانيا

---

(١) جورجي زيدان ـ رواية عذراء قريش ص ٥٧ ، ٦١ ، ٦٢

(٢) جورجي زيدان ـ رواية عذراء قريش ص ٦٢

وتفريطا فليس أسهل من اسناده اليه ، وان أسندوه اليه ليقولوا انه غلب عليه ..(١) "

ومن ثم أضفى أولئك المتساهلون على مروان بن الحكم كل صفات الكياسة وحسن التقدير والتدبير لامور الدولة فأصبح الرأس المدبر والعقل المفكر للخليفة الشيخ ، ولكن فات على أولئك أن مروان لم يكن له " من القوة ما اسبغه عليه المداحون بعد قيام الدولة الاموية ولم تكن له هذه القوة حتى في مطامع الملك وهَمِّ السيادة والرياسة ، فانه كان يزاحم معاوية فلم يستطع ان يبلغ معه كثيرا ولا قليلا ... ... وقد أودى حقه بحياته بعد أن صارت الخلافة اليه ذلك المصير الذي لا فضل له فيه ، فقد خشي أن يكبر خالد بن يزيد بن معاوية فينازعه سريره ، فلم تهده حيلته الى عمل يحتاط به لهذه المنازعة غير أن يتزوج أمه ليصغره ويلحقه بأتباعه ، وأمعن في هذه الحيلة لما كبر خالد فقال له على مسمع من اشراف القوم : مالك ولهذا يا ابن الرطبة .... فكان فيها حتفه ..... فمروان هذا ليس بالعون الغالب الذي لا يخالف ..... وغاية شأنه انه المأمور الذي لا يستعاض بمن هو أنصح منه وأقدر على الطاعة وأعرف بما كان وما هو كائن من أخبار العاصمة وأحوال الولايات ...(١) " .

وذاك من شأنه أن ينفي ضعف عثمان المزعوم ، ويدحض ما يقال من أنه كان إمعة وذليلا مستسلما لابن عمه مروان أو غيره .

الشبهة الرابعة

افتراءٌ علَى ابْن أبي طالب وتفسيرٌ مغرضٌ لاسباب الفتنة

ولم يأت هذا الاتهام بصورة واضحة مكشوفة ، بل جاء في ثنايا حوار دار بين عثمان ابن عفان وعلي بن أبي طالب ، حيث كان عثمان يدافع عن نفسه والصحابة في داره ، فعني زيدان بتسجيل ما دار في ذاك الاجتماع على النحو التالي : " ثم وجه عثمان خطابه الى الجميع وقال : " ألم نكن يعرف بعضنا بعضا في الجاهلية ، وقد كنا نسكن ارضا غير ذات زرع ولا ضرع ألم يكن فينا أناس يأكلون العقارب والخنافس ويفاخرون بأكل وبر الابل يموهونه بالحجارة في

---

(١) عباس العقاد – ذو النورين – ص ٢٤٣ من العبقريات الاسلامية – ط . بيروت .

الدم ويطبخونه فلما أنارنا الله بالاسلام واجتمعت عصبية العرب على الدين وطلبنا ما كتب الله لنا من الارض بوعد الصدق فابتززنا ملكهم واستبحنا دنياهم اليس ذلك مالا حلالا لنا فكيف نستوجب القتل أو الخلع عليه ، وأما اعالتي أقاربي فقد كان رسول الله يعطي قرابته ولكنني أراكم قد غركم قول ابن سبأ ،قال ذلك وقد أخذ منه التأثر مأخذا عظيما حتى رقصت لحيته ، فلما سمع علي قوله أغفل الجواب عن مسألة ابن سبأ لانها تتعلق به مخافة أن تسبب نفورا ....(١) " .

غريب اغفال علي الجواب وتهربه من مسألة ابن سبأ كأنما هو من انصاره أو مشترك في مؤامرة من مؤامراته ، وهذا ما توحي به تلك الفقرة ، بل هذا ما قصد اليه المؤلف وخاصة عند ما قال : " فلما سمع علي قوله أغفل الجواب عن مسألة ابن سبأ لانها تتعلق به " ليترك القارئ في حيرة وشبهة حول علي بن أبي طالب .

ثم نلاحظ أن المؤلف لم يشر ـ أثناء حديثه عن ذاك الاجتماع ـ الى غنى ابن عفان في الجاهلية وله هدف من وراء ذلك وهو اتهام المسلمين بالاعتماد على الغنائم دون سواها ، ومن ثم أرجع أسباب الفتنة الى المال ، وأكد ذلك بما رواه عن ابن أبي طالب من أنه قال لعثمان ابن عفان : " يخيل لي يا أبا عبد الله ان سبب هذه الفتنة انما هو ما ذكرت من استكثار المال فانه يفرق بين الاب وابنه وهذا ما حملني على كرهه حتى قلت : يا صفراء ويا بيضاء غري غيري ، ولكن ما لنا ولهذا الجدال .....(٢) " ثم أشار الى أنه قد أخذ هذا الحوار من ابن الاثير على حين أن ابن الاثير قد تحدث عن الفتنة واشار الى هذا الاجتماع بين عثمان وعلي (٣) لحسم الخلاف لكنه لم يرجع تلك الفتنة الى الاستكثار من المال أو غيره ،فضلا عن أن يجعل هم المسلمين الجري وراء الغنائم وابتزاز ملك الناس واستباحة دنياهم كما قرر زيدان في رواية عذراء قريش ، وهو أمر غير مستغرب من مسيحي متعصب ومبشر

---

(١) جورجي زيدان ـ رواية عذراء قريش ـ ص ٥٨ ط . بيروت .
(٢) جورجي زيدان ـ رواية عذراء قريش ـ ص ٥٨ ط . بيروت .
(٣) ابن الاثير ـ الكامل في التاريخ ـ جـ ٣ ص ١٦٤

لا يحلو له الا التركيز على ما يقال من أن أسباب الفتنة التي وقعت في عهد ابن عفان انما ترجع الى أن خلفاء المسلمين وأمراءهم قد ناموا أو استناموا واعتمدوا على ابتزاز أموال الناس عن طريق الغنائم أو الجزية بعد أن كانوا يأكلون المقارب والخنافس ويفاخرون بأكل وبر الابل وأصبح ابناؤهم مشغولين بالمواقف الغرامية المسفة ، وذاك تفسير مغرض دون ريب وادعاء باطل ، ولا سيما عند ما يقتهون بوصف أبناء الخلفاء بالانحراف والانزلاق الى مهاوى الرذيلة ودرك المواقف الغرامية المسفة حيث ادعى المؤلف وجود منافسة بين الحسن بن علي ومحمد بن أبي بكر الصديق حول أسماء بنت مريم ـ عذراء قريش ـ على الرغم من المحنة التي أحاطت بدار الخلافة في عهد ابن عفان ،وعلى الرغم من الخطر الذى كان يهدد دار الخلافة في عهد علي بن أبي طالب ٠

الشبهة الخامسة

اتهام علي بن أبي طالب بالتهاون في المطالبة بدم عثمان

لقد صور المؤلف مواقف علي بن أبي طالب بطريقة توحي للقارئ بأن ابن أبي طالب كان متهاونا في المطالبة بدم ابن عفان ، بل تجعل أصابع الاتهام تومئ اليه ، على حين أنه كان في مقدور المؤلف أن يركز على الاحداث التي تسوغ موقف ابن أبي طالب في عدم المطالبة بدم ابن عفان ، ولكنه أعرض عن ذلك لتتاح له فرصة اثارة الشبهات ونشر الشكوك وزرع الفتن معتمدا على مكر الحيلة ومضاء الوسيلة ٠

ونحن نرى ان الذى يسوغ موقف ابن ابي طالب في عدم المطالبة بدم ابن عفان هو ما يلي :

١) قول علي بن أبي طالب عند ما دخل عليه عدد كبير من الصحابة قائلين : " يا علي انا قد اشترطنا اقامة الحدود ، وان هؤلاء الثوار قد اشتركوا في دم هذا الرجل (عثمان) فقال لهم علي : يا اخوتاه : اني لست أجهل ما تعلمون ولكن كيف أصنع

بقوم يملكوننا ولا نملكهم ، ها هم اولاء قد ثارت معهم عبدانكم ، وثابت اليهم اعرابكم ، وهم خلالكم يسومونكم ما شاءوا فهل ترون موضعا لقدرة على شيء مما تريدون؟ ثم قال : والله لا أرى الا أمرا ترونه ان شاء الله فاهدأوا عني " (١) .

٢) خطاب علي للثوار بقوله : يا أيها الناس اخرجوا عنكم الاعراب ، ثم قال يا معشر الاعراب الحقوا بمياهكم ، فأبت السبئية الطاعة ، وأبى الاعراب معهم ، ودخل علي بيته (١) .

٣) الحوار الذى دار بين علي وطلحة والزبير وجماعة من الصحابة حيث قال لهم علي : دونكم ثأركم فخذوه ، فنصحوه بألا يطلب الثأر الآن ، وقال طلحة دعني فلآت البصرة فلا يفاجئك الا وأنا في خيل ، فقال حتى انظر في ذلك ، وقال الزبير دعني آت الكوفة فلا يفاجئك الا وأنا في خيل فقال حتى انظر في ذلك (١) . فهذا الحوار يدل على أن عليا كان على خلاف مع الثوار وانه قصد أن يأخذ الثأر منهم لعثمان ولكن اصحابه لم يوافقوه على ذلك ، بل انه يشير الى أن ابن أبي طالب وجماعة الصحابة الذين اتصلوا به رضي الله عنهم اجمعين ـ كادوا ان يصلوا الى اتفاق وسلام لولا تدخل الأيادى الخفية التي كانت تعمل بجهد من أجل توسيع شقة الخلاف وزرع الفتن والدسائس للنيل من الامة وزعمائها آنذاك .

---

(١) ابن جرير ـ تاريخ الطبرى ـ جـ ٣ ص ٤٦٣ ، ٥٠٢ .

شبهات

رواية العباسة

الشبهة الاولى : اتهام الرشيد بالاستهتار والمجون ،والاستبداد والظلم .
الشبهة الثانية : تفسير خاطئ ومغرض لقتل بني برمك .
الشبهة الثالثة : تشويه وتمزيق لشخصية العباسة اخت الرشيد .

الشبهة الاولى

اتهام الرشيد بالاستهتار والمجون والاستبداد والظلم

وقد ورد هذا الاتهام في مواضع متفرقة من رواية " المباسة اخت الرشيد " وصور مختلفة وطرق متعددة ، فطورا يجيء الاتهام ظاهرا سافرا ، وطورا يجيء متسربلا متدثرا ، ونرى لزاما علينا أن نثبت هنا بعض نصوص من الرواية تؤكد ما ذهبنا اليه ، فالذى يرجع الى رواية " المباسة اخت الرشيد " يجد الكاتب يتحدث عن الرشيد بلسان بعض الشخصيات قائلا : " ... عدونا مستبد ظالم له السلطة المطلقة ، وقد انغمس في ملذاته ، وتمتع بكل ما تشتهيه نفسه واصبح لا يبالي بسواه ... ... انه رجل لا شفقة عنده ولا رحمة ، لا يهمه سوى ملذاته (١) " . ثم قال : " .... فقال الفضل : كم يدفع أمير المؤمنين ؟ قال ألم يدفع ثمن الجارية ... ومائة دينار وهل تلك الجارية احسن من قرنفلة أو سوسنة ؟ وضحك فضحك الفضل حتى استلقى على ظهره .... " (٢) .

وقال : " ... ... وكان في قصر الرشيد ثلاثمائة قينة فيهن العوادة والجنكية والمزهرية والطنبورية وغيرها من المتقنات للضرب على آلات الضرب وان تفاوتن في المنزلة لديه بتفاوت الجمال ودقة الصنعة غير ألفي جارية لا يحسن الغناء وهن السرارى ... ... فلما انتظمت القيان للغناء دار الساقي بأباريق الشراب على الرشيد فشرب قليلا وهو محجوب عن القيان بستارة وعن الشعراء بستار وكان مع القيان بَرْصُوماً وأبو زكار ، وكان كلما غنت احداهن صوتا عرفها وطرب لها وناداها باسمها ثم صاح بالحاجب فأتى فقال له : " قل للحسن بن هانى" أن ينشد(٣) ما عنده ، فبلغه امر الرشيد فقال أبياتا كان قد هيأها فأنشدها انشادا على عادة الشعراء في مجالس الخلفاء فطرب الرشيد وصاح : وأنت يا ابن أبي حفصة فقال لبيك يا أمير

---

(١) جورجي زيدان ـ رواية المباسة اخت الرشيد ـ ص ٢١

(٢) جورجي زيدان ـ رواية المباسة اخت الرشيد ـ ص ٤٣

(٣) تعبير خطأ ، والصواب حذف " ان " .

المؤمنين ، وأخذ ينشد قصيدة نظمها في مدح الرشيد — ضمنها التعريض بالعلويين — ذكرته بما كاد ينساه من هواجسه فصاح فيه دع عنك هذا الآن ، قل لأبي المتاهية هل هو باق على الزهد في الشعر ، فأجابه ابو المتاهية : ان ما نسمعه يا أمير المؤمنين من أسباب الطرب يرمي الزهد بالمنجنيق ، فاستلطف الرشيد تعبيره وضحك (١) .

هكذا صوّر المؤلف هارون الرشيد ، وقد كان هدفه من كل ذلك سلب الرشيد من جميع خصائصه وفضائله لتستقر في اذهان الشباب — شباب المسلمين — صورة مشوهة لخليفة دانت له الرقاب باسم الاسلام حيث جعله شريبا سكيرا لا يصحو ليل نهاره واعتبره زير نساء ، وعابثا لاهيا لا تهمه دنياه ولا آخرته .

وتلك تهمة تستعصي على التصديق ، وفرية ليس فيها مرية ، اذ أن كل قارئ لرواية العباسة اخت الرشيد يبقى متسائلا : كيف يقال ذلك عن خليفة عرف بأدائه للفروض الدينية وتوقيره لشعائر الدين أيما توقير ، وعرف بأنه كان يحج عاما ويغزو عاما ؟ وكيف يقال ذلك عن رجل كان يبيح اللهو لكنه لا يشهد مجالسه مع اللاهين ، وكان يميل الى الفكاهة لكنه لا يقبل من ندمائه ان يتجاوزوا بها حدودها حتى تمس الفرائض والعبادات ، من ذلك ما رواه الطبري (٢) عن موقف الرشيد من ابن ابي مريم المدني الذي كان يسكن معه في قصره ويقبل منه ما لا يقبل من سائر جلسائه بل كان لا يصبر عنه ولا يمل محادثته ، وعلى الرغم من ذلك كان لا يسمح له أن يتجاوز بالفكاهة حدودها .

وكيف لخليفة مثل هارون الرشيد أن يلهو ويلعب وهو الذي يحمل أثقل الاعباء في توطيد ملك بني العباس ؟ بل كيف يمكن لمثل هذا الخليفة أن يعرف مجالس الانس واللهو الماجن ومن حوله عيون وأرصاد يحصون عليه الهفوات لتشويه سمعته في الاقطار الاسلامية وليفتحوا الباب لمكايد خصومه الالداء من أنصار بني أمية واشياع أهل البيت ؟ ثم كيف؟ وكيف ؟ وكيف ؟

---

(١) جورجي زيدان — رواية العباسة اخت الرشيد — ص ١٤١ — ١٤٢

(٢) ابن جرير الطبري — تاريخ الطبري — جـ ٨ ص ٣٤٩ ط . دار المعارف بمصر .

نحن نعتقد أن معظم ما قيل عن الرشيد انما هو افتراء ، ونسيج من خيال الأدباء والشعراء ولا سيما تصويرهم للرشيد بأنه كان يسكر حتى يثمل ، الى غير ذلك من صفات المجون والاستهتار ، ونرى أن شخصية الرشيد قد جمعت من عناصر الرواية والقصة ما لم تجمعه شخصية من الشخصيات السابقة له واللاحقة به ، ومن ثم كانت لشخصيته مجموعة من عناصر الذيوع والشهرة الشعبية كما في أقاصيص ألف ليلة وليلة ، فأصبحت مرمى لسهام المغرضين ، وغدت مادة للهو اللاهين من مؤلفي كتب التسلية او الامتاع والمؤانسة ، مثل : كتاب ألف ليلة وليلة ، وكتاب " اعلام الناس بما وقع للبرامكة مع بني العباس " وكتاب " مسالك الابصار " وغيرها من الكتب التي جعلت من الرشيد صورة للمرح والطرب أو الاستهتار والمجون ، ذلك لأن مؤلفي هذه الكتب ما كانوا يتغيون تسجيل التاريخ وتمحيص الحق انما أرادوا اثارة انفعالات عاطفية واحساسات جمالية ، وقد شهد بهذا ابو الفرج الاصفهاني صاحب كتاب الاغاني عند ما قرر في مقدمة كتابه الادبي النفيس أن الرونق الذى يروق السامع ويلهي الناظر هو الهدف الاصيل من وضع الكتاب ، حيث قال : " ... ... اذ ليس لكل الاغاني خبر ، ولا في كل ما له خبر فائدة ، ولا لكل ما فيه بعض الفائدة رونق يروق الناظر ويلهي السامع (١) " .

فليس من المعقول اذن ان نصدق كل ما رواه أولئك الرواة : وان نقبل كل ما صوره الادباء والشعراء عن طرب الرشيد ومجالس أنسه ولهوه ، لان تلك الروايات قد وصلت الى حد السخف والهزال ، ولان الرشيد كانت له ذووية محترمة وشخصية اسلامية قوية تأبى عليه الاسفاف والابتذال ، هذا الى جانب ما كان له من خصوم واعداء يرصدون اعماله ويرقبون تحركاته ، وهؤلاء لا يسرهم الا أن يشيع عن الرشيد أنه من أهل الخلاعة والمجون .

ونحن لا نريد أن نقول ان الرشيد كان مَلَكاً في دنيا البشر ، أو كان بشرا مبرأ من العيوب والمناقص ، اذ الحق الذى لا مراء فيه ان الرشيد قد عرف مجالس الانس ولكن في الحدود التي تسمح بها منزلة خليفة عظيم له سلطان في المشرق والمغرب ، وله خلق ينهاه عن التبذل ، وله دين يحميه من السقوط .

---

(١) ابو الفرج الاصفهاني ـ كتاب الاغاني ـ المقدمة ـ ص ٦ ط . دار الحياة بيروت .

ولا غرابة في أن يعرف الرشيد مجالس الانس وقد جلس على عرش العراق ، ولا غضاضة في أن يتخذ من الانس ساعة أو ساعتين وسيلة للتخفيف عن هموم الملك ومشاكله ومشاغله ولا سيما اذا كانت المملكة مترامية الاطراف ومكتظة بشعوب مختلفة العناصر واللغات ، منوعة المذاهب والغايات ، ثم لا لوم عليه ولا تثريب في الحب والعشق طالما كان حبه شريفا ، اذ الحب الشريف كان ولا يزال مثال كمال النفس وجمال المذهب كما كان دليل العفة والطهر والنقاء .

ومن هنا نستطيع ان نقول : ان الرشيد الذى عرفته كتب الادب وقصص جورجي زيدان غير الرشيد الذى عرفه التاريخ ، لأن كتب التاريخ لم تشر الى أنه كان ماجنا مستهترا أو كان صديقا للخمر كما فهم من قول أبي نواس : (١) .

ولاح لحاني كي يجيء ببدعة	وتلك لعمرى خطّة لا أطيقها
لحاني كي لا أشرب الراح انها	تورث وزرا فادحا من يذوقها
فما زادني اللاحون الا لجاجة	عليها لاني ما حييت رفيقها
أأرفضها والله لم يرفض اسمها	وهذا أمير المؤمنين صديقها

ونحن نستبعد أن يكون أمير المؤمنين في هذه القصيدة النواسية هو الرشيد ، ونرجح أن يكون المراد بذلك محمد الامين بن هارون الرشيد .

ثم ان كتب التاريخ لم تشر الى أن الرشيد " قد انغمس في ملذاته وتمتع بكل ما تشتهيه نفسه واصبح لا يبالي بسواه " (٢) كما زعم جورجي زيدان أو أنه " رجل لا شفقة لديه ولا رحمة ولا يهمه سوى ملذاته " (٣) كما جاء في رواية العباسة لزيدان ، ولم تشر أيضا الى أن اللهو والمجون قد بلغا به درجة تجعله يستسلم لزوجته زبيدة لتأمره فيستجيب لرغبتها حتى ولو تعارضت تلك الاستجابة مع ما جبل عليه جبابرة بني العباس من قوة الشخصية ونضج العطف

---

(١) الحسن بن هانئ ـ ديوان ابي نواس ـ ص ٤٣٤ ط . دار صادر ـ بيروت .
(٢) جورجي زيدان ـ رواية العباسة اخت الرشيد ـ ص ٢١
(٣) جورجي زيدان ـ رواية العباسة اخت الرشيد ـ ص ٢١

والحنان الابوى في قلبه ، فتراه يصغي الى زبيدة التي تقول له بعد قتله العباسة وجعفر البرمكي حسب ما جاء في رواية العباسة لزيدان : " اذا أردت محو العار الذى لحقنا فبادر الى ازالة اثره لان بقاء الصبيين وصمة باقية " (١) فتوجه توا للفتك بالغلامين البريئين الطاهرين اللذين زعم زيدان انهما ثمرة زواج غير شرعي وأطلق لخياله العنان في تصوير استقبالهما للرشيد الذى جاء ليقتلهما بل جعل الرشيد يبكي وعلى الرغم من ذلك أمر بقتلهما على ألا يرى ذلك بعينيه ولا يسمعه بأذنيه (٢) وتلك مسألة لم ترد في كتاب تاريخي موثوق به ، ولم تذكر الا في روايات ضعيفة مغرضة ، أو في روايات قصصية تهدف الى تشويه شخصية الرشيد بحيث تبدو متناقضة أشد التناقض : فمن حزم ويقظة الى ميوعة وتراخ ومن اصلاح وتدبير الى تعسف وتبذير ، ومن ورع وتقوى الى سكر وعربدة وانغماس في اللذائذ ، ومن رقة ودموع تنهمر أمام المواعظ الى غلظة وشراسة ودماء تسفك ظلما ، ومن ثم اصبحت شخصية الرشيد اسطورة تلتف حولها نوادر المجون والخلاعة ، وهناك عوامل كثيرة أدت الى ذلك " وكان أشدها وطأة وجرأة على تشويه تاريخه ، تلك النزعة الشعوبية التي أعمت جماعات من المؤرخين ومدوني الحوادث في العصور المتعاقبة فهجموه في شتى نواحيه ..... ولا نبعد عن الواقع اذا قلنا : ما علق بتاريخ زعيم أو كبير من عظماء الناس كما علق بسيرة هارون الرشيد من دس وافتراء وبهتان (٣) " .

هكذا وقد دافع عن الرشيد الكثيرون من الكتاب والمؤرخين المنصفين حيث قال عنه الدكتور الجومرد : " ... ... من كانت حالته على هذا الجانب من التقوى والايمان الصحيح لا يجوز اتهامه بشرب الخمرة ، وهي احدى الكبائر المحرمة ، وليس من الصواب الاعتقاد بصحة بعض الروايات الضعيفة التي تنسب اليه ذلك وتتهمه بالسكر والعربدة ... (٤) ".

---

(١) جورجي زيدان — رواية العباسة — ص ٢٤٢

(٢) جورجي زيدان — رواية العباسة — ص ٢٤٣

(٣) الدكتور عبد الجبار الجومرد — هارون الرشيد — ج ١ ص ٨ ط . بيروت .

(٤) الدكتور عبد الجبار الجومرد — هارون الرشيد — ج ١ ص ٢٣٣ ط . بيروت .

وقال عنه ابن خلدون : " ... ان حال الرشيد في اجتناب الخمر كانت معروفة عند بطانته وأهل مائدته ، ولقد ثبت أنه عهد بحبس ابي نواس لما بلغه انهماكه في المعاقرة حتى تاب وأقلع ، وانما كان الرشيد يشرب نبيذ التمر على مذهب أهل العراق ، وفتاويهم فيها معروفة ، وأما الخمر الصرف فلا سبيل الى اتهامه به ، ولا تقليد الاخبار الواهية فيها ، فلم يكن الرجل بحيث يواقع محرما من اكبر الكبائر عند أهل الله " (١) .

وابن خلدون انما قصد بمذهب أهل العراق في النبيذ رأى أبي حنيفة الذى يقول بحل نبيذ التمر ، والذى قال عنه احمد امين : " انه كان يتبع الصحابي الجليل ابن مسعود الذى كان يرى حل النبيذ (٢) " .

وحتى هذا النبيذ الحلال في مذهب اهل العراق لم يشربه الرشيد بمرأى ومسمع من الجميع بدليل ما رواه الطبرى من أن الرشيد كان يشرب هذا النبيد الحلال ويحتسيه في مجلس خاص مع نفر قليل جدا من أقرب جلاسه اليه ولا يراه أحد دون هؤلاء ... (٣) " . وبدليل قول الجاحظ " .... من أخبرك انه رآه قط يشرب الا الماء فكذبه ، وكان لا يحضر شربه الا خاص جواريه ... (٤) " . وقال الجومرد : " ان ما تناقلته كتب الادب من أنه كان يشرب الخمرة أو أنه كان يفقد شعوره مع المغنين فيزحف مثلا على سريره او يتفوه بكلمات ناشزة أو يظهر جواريه في مجلس شرابه الى آخر ذلك فكله مختلق ولا أساس له من الصحة قطعا .... (٥) .

وكل هذا يصل بنا الى دحض تلك الشبهة وازالة هذه الفرية الملفقة ضد الرشيد للنيل منه ومن الاسلام الذى كان يحكم باسمه ولتشكيك الشباب في تاريخ امتهم المجيدة .

---

(١) ابن خلدون - مقدمة ابن خلدون - جـ١ ص ٢٣٥ - ٢٣٦ ط . لجنة البيان العربي تحقيق عبد الواحد وافي .
(٢) احمد امين - ضحى الاسلام - جـ ١ ص ١١٩
(٣) ابن جرير الطبرى - تاريخ الطبرى - جـ ٨
(٤) الجاحظ - كتاب التاج - ص ١٣٧
(٥) عبد الجبار الجومرد - هارون الرشيد - جـ ١ - ص ٢٣٥

الشبهة الثانية

تفسير خاطئ ومغرض لقتل بني برمك

يتمثل هذا التفسير الخاطئ فيما ذهب اليه جورجي زيدان ـ في رواية العباسة أخت الرشيد ـ من أن قتل جعفر البرمكي والتنكيل بالبرامكة اجمعين انما يرجع الى الجريمة التي ارتكبتها العباسة مع جعفر ـ في نظر زيدان ـ حيث قال : بعد أن تحدث عن قتل جعفر والعباسة والغلامين " وأمر الرشيد منذ ذلك اليوم ألا يذكر البرامكة في مجلس ولا يستعان بمن بقي منهم في شيء أبدا (١) " .

معنى هذا انه غضب على البرامكة اجمعين ، لما وقع من جعفر ، على الرغم من أنهم لم يشتركوا معه في تلك الفعلة الشنيعة المزعومة ، فهذا تفسير غير مقبول عقلا ونقلا ، اذ أنه ليس من المعقول أن يكون الرشيد قد قتل طائفة كبيرة من البرامكة وشرد من بقي منهم لا لشيء الا لان جعفرا مس عرضه ، انما المعقول أن ينكل بالفرد المجرم عندما تثبت جريمته ، ومن المعقول عندئذ ان يمزقه اربا اربا ، ولا سيما عندما ترتفع درجة غضب الرشيد ، كما حدث له مع أخي رافع ـ بشير بن الليث ـ الذى أرسل اليه وهو في طوس بين الموت والحياة ، فقال له : " يا أمير المؤمنين قد كنت لك حربا وقد أظفرك الله بي فافعل ما يحب الله ، أكن لك سلما ، ولعل الله ان يلين لك قلب رافع اذا علم انك مننت عليّ ، فغضب وقال : والله لو لم يبق من أجلي الا أن احرك شفتي بكلمة لقلت اقتلوه . ثم دعا بقصاب فقال : لا تشحذ مداك اتركها على حالها ، وفصّل هذا الفاسق ابن الفاسق ، وعجّل لا يحضرنّ أجلي وعضوان من أعضائه في جسمه ، ففصّله حتى جعله اشلاء ، فقال عدّ اعضاءه ، فعددت له أعضاءه فاذا هي اربعة عشر عضوا ، فرفع يديه الى السماء فقال : اللهم كما مكنتني من ثأرك وعدوك فبلغت فيه رضاك فمكني من أخيه ...... (٢) " .

---

(١) جورجي زيدان ـ رواية العباسة اخت الرشيد ـ ص ٢٤٤

(٢) ابن جرير الطبرى ـ تاريخ الطبرى ـ ج ٨ ـ ص ٣٤٢ ط . دار المعارف بمصر .

يتضح من ذلك ان الرشيد لم يسأل ربه ليمكنه من قبيلة بشير بن الليث وأتباعه وأهله ، انما سأل ربه ان يمكنه من أخيه رافع فقط ، الذى كان حربا عليه ، وهذا يدل على أن الرشيد لم يأخذ الناس بأوزار ارتكبها أناس آخرون ، ويدحض ما يقال من أنه نكّل بالبرامكة وشردهم بسبب خيانة ارتكبها أحدهم . فالعقل يرفض هذا التفسير ويبحث عن تفسير آخر لذلك التشريد الجماعي .

أما من حيث النقل التاريخي فلم يرد في الكتب التاريخية الموثوق بها شيء من هذا التفسير المفرض ، وقد راجعنا في هذه المسألة كتابي الطبرى وابن الاثير (١) ثم مقدمة ابن خلدون التي تحدث فيها — ضمن ما تحدث — عمّا يعرض للمؤرخين من المغالط والاوهام ، حيث أوضح الخطأ الذى وقع بالنسبة لتعليل فتك الرشيد بالبرامكة فقال :

" ... ومن الحكايات المدخولة للمؤرخين ما ينقلونه كافة في سبب نكبة الرشيد للبرامكة من قصة اخته مع جعفر بن يحيى بن خالد مولاه ، وانه لكلفه بمكانهما من معاقرته اياهما الخمر اذن لهما في عقد النكاح دون الخلوة حرصا على اجتماعهما في مجلسه ، وأن العباسة تحيلت عليه في التماس الخلوة به ، لما شغفها من حبه حتى واقعها ، زعموا في حالة سكر ، فحملت ووشي بذلك للرشيد ، فاستغضب .... (٢) " ثم قال : " وانما نكب البرامكة ما كان من استبدادهم على الدولة واحتجانهم أموال الجباية ، حتى كان الرشيد يطلب اليسير من المال فلا يصل اليه فغلبوه على أمره وشاركوه في سلطانه ، ولم يكن له معهم تصرف في أمور ملكه ، فعظمت آثارهم وبعد صيتهم ، وعمروا مراتب الدولة وخططها بالرؤساء من ولدهم وصنائعهم واحتازوها عن سواهم ، من وزارة وكتابة وقيادة وحجابة وسيف وقلم ، ويقال أنه كان بدار الرشيد من ولد يحيى بن خالد خمسة وعشرون رئيسا من بين صاحب سيف وصاحب قلم ...... ومدحوا بما لم يمدح به خليفتهم وأسنوا لعفاتهم الجوائز والصلات واستولوا على القرى والضياع من الضواحي والامصار في سائر الممالك حتى آسفوا

---

(١) راجع الطبرى — المجلد الثامن — ص ٢٨٧ — ٣٠٢

(٢) عبد الرحمن بن خلدون — مقدمة ابن خلدون — الجزء الاول — ص ٢٢٩ — ٢٣١

البطانة وأحقدوا الخاصة ، وأغصّوا أهل الولاية فكشفت لهم وجوه المنافسة والحسد ،ودبت الى مهادهم الوثير من الدولة عقارب السعاية (١) " .

وعبارة ابن خلدون هذه من شأنها أن تؤكد ما ذهبنا اليه من دحض ورفض ذلك التعليل المفرض لقتل بني برمك ، فمن أين أخذه زيدان ؟ ولم اختاره دون سواه ؟ ألأنه أقوى مما قرره ابن خلدون وابن الاثير والطبرى ؟ أم لأنه صادف هوى ووافق رغبة جامحة في التمزيق والتشويه .

الشبهة الثالثة

تشويه وتمزيق لشخصية العباسة أخت الرشيد

يتمثل ذاك التشويه والتمزيق في اتهامات عديدة وجهها زيدان الى شخصية العباسة في مواقف مختلفة ، منها ما يلي :

١) الزعم بأن الرشيد قد عقد على جعفر البرمكي لمجرد اباحة النظر ..(٢) .

٢) تعليل ذلك العقد بحب الرشيد لجعفر والعباسة وعدم صبره على الابتعاد عنهما (٢) .

٣) القول بزواج العباسة سرا بعد أن نالت من البرمكي مأربها ... (٢) .

٤) الزعم بأن العباسة قد أخفت الغلامين اللذين كانا ثمرة ذلك اللقاء غير المشروع (٢) .

وتلك فرية ليس فيها مرية ، وشبهات واتهامات من شأنها ان تسيء الى الرشيد من جانب وتشوه شخصية العباسة من جانب آخر ، بل تمزقها وتلقي بها في مهاوى الرذيلة وبراثن العهر والفجور ، وهي بريئة من جميع تلك المفتريات .

والدليل على براءتها هو عدم ورود قصتها ــ على هذا النحو ــ عند جميع المؤرخين الثقات كالطبرى وابن الاثير ، والدليل أيضا هو ما روى عن ولي أمرها ــ الرشيد ــ الذى كان

---

(١) عبد الرحمن بن خلدون ــ مقدمة ابن خلدون ــ الجزء الاول ــ ص ٢٢٩ ــ ٢٣١

(٢) جورجي زيدان ــ رواية العباسة اخت الرشيد ــ ص ٢٣

أميرا للمؤمنين في زمانه ، والذى أجمع الرواة على أنه كان من أرق الخلفاء وجها وأكثرهم حياء وأخشعهم قلبا وأغزرهم دمعا عند الموعظة الحسنة .

هذا وقد جاء في الطبرى أن ناسكا قد تصدى للرشيد وهو في صيده فوعظه وأغلظ عليه فقال الرشيد يا هذا أنصفني في المخاطبة والمسألة ، قال الناسك : ذاك أقل ما يجب لك ، قال أخبرني أأنا شر وأخبث أم فرعون ؟ قال : بل فرعون ، قال : فأخبرني أأنت خير أم موسى بن عمران ؟ قال : بل موسى صفي الله وكليمه ، قال الرشيد : أفما علمت أنه لما بعثه الله وأخاه هارون الى فرعون قال لهما : " فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى " قال : نعم ، قال : هذا فرعون في عتوه وجبروته وانت جئتني وانا بهذه الحالة التي تعلم: أؤدى فرائض الله علي ، ولا أعبد أحدا سواه ، واقفا عند أكبر حدوده وأمره ونهيه ، فوعظتني بأغلظ الالفاظ واشنعها وأشنع الكلام وأفظعه ، فلا بأدب الله تأدبت ولا بأخلاق الصالحين أخذت ، فمن كان يؤمنك أن أسطو بك ، فاذا انت قد عرضت نفسك لما كنت عنه غنيا ، قال الناسك : أخطأت يا أمير المؤمنين ، وأنا أستغفرك ، قال : غفر الله لك ... (١) " .

رجل هذه حالته ، وتلك صفاته ، لا يمكن أن تصدر منه تصرفات لا يقبلها العقل ولا يقرها العرف ، بحيث يبيح لنفسه ما أحله الله ويحرم ذلك على رعيته ، بل على أقرب الناس اليه وآثرهم عنده ، وهو أخته العباسة ووزيره جعفر البرمكي ، فيضطر الى العقد لهما عقدا غير شرعي أو يسمح لهما بلقاء غير شرعي ، ويؤدى ذلك اللقاء المشروع الى الحمل وانجاب غلامين تحدث عنهما زيدان بصورة تجعل قلب كل قارئ ينفطر أسى وحزنا وألما من تلك الانحرافات المفتراة ، ولا بد من الاشارة هنا الى أن زيدان قد نقل هذه المفتريات من كتب الاخبار والاسمار التي أشرنا اليها قبلا ، وأوضحنا ان كتابها ما كانوا يتحرون الصدق ، ولا يبحثون عن الحق ، انما هدفهم تجميع الاخبار الضعيفة الى جانب الصحيحة ، وخلط الحق بالباطل ، وقد تنبه ابن خلدون الى هذه الاخطاء والاغلاط التي وقع فيها أولئك الرواة

---

(١) ابن جرير الطبرى — تاريخ الطبرى — جزء ٨ ص ٣٥٨ — ٣٥٩

وضعاف المؤرخين ، ودحضها بقوله :

" ٠٠٠٠ ٠٠٠٠ ومن الحكايات المدخولة للمؤرخين ما ينقلونه كافة في سبب نكبة الرشيد للبرامكة من قصة العباسة اخته مع جعفر بن يحيى بن خالد مولاه ، وانه لكلفه بمكانهما لمعاقرته اياهما الخمر اذن لهما في عقد النكاح دون الخلوة حرصا على اجتماعهما في مجلسه ، وان العباسة تحيلت عليه في التماس الخلوة به ، لما شغفها من حبه حتى واقعها ، زعموا في حالة سكر ، فحملت ووشى بذلك للرشيد فاستغضب • وهيهات ذلك من منصب العباسة في دينها وأبويها وجلالها ، وانها بنت عبد الله بن عباس ليس بينها وبينه الا أربعة رجال ، هم أشراف الدين وعظماء الملة من بعده ٠٠٠٠٠٠٠٠ ابنة خليفة واخت خليفة ، محفوفة بالملك العزيز والخلافة النبوية ٠٠٠ ٠٠٠ ٠٠٠ فأين يطلب الصون والعفاف اذا ذهب عنها ، أو أين توجد الطهارة والزكاء (١) اذا فقد من بيتها ، أو كيف تلحم نسبها بجعفر بن يحيى وتدنس شرفها العربي بمولى من العجم ٠٠٠ ٠٠٠ وكيف يسوغ من الرشيد أن يصهر الى موالي الاعاجم على بعد همته ، وعظم آبائه ؟ ولو نظر المتأمل في ذلك نظر المنصف ، وقاس العباسة بابنة ملك من عظماء ملوك زمانه لاستنكف لها عن مثله مع مولى من موالي دولتها ، وفي سلطان قومها ، واستنكره ولج في تكذيبه • وأين قدر العباسة والرشيد من الناس ٠٠٠٠ (٢) " •

فهل كانت نظرة جورجي زيدان الى مسألة العباسة نظرة منصف محايد أم كانت نظرة مغرض يهدف الى التشويه والتمزيق ؟ ان تحليل الرواية يؤكد الثانية لا الاولى •

---

(١) ورد في جميع النسخ " والذكاء " بالذال • وهو خطأ ، وصوابه " الزكاء " بالزاى بمعنى الصلاح والاستقامة من زكا الرجل يزكو اذا صلح ، وقد أشار الى هذا الدكتور عبد الواحد وافي •

(٢) عبد الرحمن بن خلدون — المقدمة — الجزء الاول — ص ٢٢٩ — ٢٣٠

شــــبهــــات

في رواية شــارل وعبد الرحمـــــن

أ ـ كذب وافتراء ، وتلفيق وتزويــر .

ب ـ توســيع شــقة الخلاف وتكبير صورة النزاع .

جـ ـ جموح في الخيال ومبالغة في التصوير .

د ـ ارجاع عامل النصر والفتح الى الحب والغــرام .

أ - كذب وافتراء وتلفيق وتزوير :

معلوم أن تاريخ الاندلس كان حافلا بالمجود والبطولات ، مليئا بضروب من الفتن والمنازعات : انه صراع بين المسلمين ونصارى الشمال ، وصراع بين الاجناس والقبائل ، وصراع بين المقائد والمذاهب ، ثم صراع بين الحياة والموت وبين المآذن والنواقيس .

ومن ثم أصبح جميع القراء يتوقعون أن يجدوا في القصة التي تكتب عن شارل مارتل وعبد الرحمن الغافقي صحائف من ذهب ، تتجلى فيها مدنية العرب ، معجزة من المعجزات وآية من الآيات الباهرات ، لكنهم منوا بخيبة الامل في روايات زيدان ، حيث لم يجدوا شيئا من ذلك ، ولكنهم وجدوا أباطيل وسخافات ، وشبهات ومفتريات منها :

١) الزعم بأن القواد وأمراء الجند من المسلمين كانوا مشغولين بحب فتيات النصارى ، ومفتونين بجمالهن ، والقول بأن ذلك الحب قد ملك مشاعرهم وصرفهم عن أمر الفتح فتركوا جنودهم في ساحة القتال وأخذوا يبحثون عن فتيات احلامهم .

ويتمثل هذا الزعم الباطل والادعاء الكاذب في قول زيدان : " وفي الصباح قام المسلمون للصلاة ، ثم نفخ في النفير فتأهبوا للسير وساروا كأنهم بحر يتلاطم بالامواج وفيهم الفرسان والمشاة وبينهم الرماحة والرماة ... وقائد الفرسان العام هانئ ، قد ركب جواده ولبس خوذته والتف بعباءته ، وقوضوا الخيام ، ولم يتركوا منها الا ما وضعوا فيه غنائمهم ، ومعها الامير بسطام وبعض رجاله ، ونفر من رجال القبائل الاخرى فبات هانئ تلك الليلة وقد عادت اليه هواجسه وعاد الى التفكير في مفارقة المعسكر بضع ساعات ، ولا خطر على الجند في غيابه للاسباب التي قد مناها ، على أنه ظل مترددا في الذهاب خشية الفشل وحياء من عبد الرحمن . فأصبح في اليوم التالي وخرج على قدميه وقد تراكمت عليه الهواجس وهو يفكر في حاله وحال حبيبته مريم وحال الجند . وبينما كان

يتمشى في سهل خارج المعسكر رأى رجلا بلباس عربي قادما من عرض المعسكر يهرول نحوه ويشير اليه فوقف ، فلما دنا الرجل منه تفرس هاني فاذا هو ملثم فناداه فمد الرجل يده الى جيبه واخرج منديلا وسلمه الى هاني فلم يكد هاني يستلم المنديل حتى شم منه رائحة مريم ...... (١) " .

ويستمر المؤلف في هذا التصوير المسف والحديث المفترى وينهي هذا الفصل كله بالحديث عن هاني مبينا مدى انشغاله بمريم وتعلقه بها ـ حسب زعم المؤلف ـ ثم يأتي بفصل آخر بعنوان " البحث عن مريم " وفي هذا الفصل يفصح عن زعمه بأن قواد المسلمين آنذاك كانوا في انشغال تام بفتيات النصارى ، وذلك من خلال الحوار الذى أجراه بين هاني وبين الامير بسطام حيث قال :

" ..... فقهقه بسطام وهو يمسح لحيته من بقايا طعام تساقط عليها كأنه على المائدة وقال : مالك وللغنائم .. ألم تشغلك تلك النصرانية عنها ؟ دع الحرب واذهب الى الخباء فانك أولى بمباشرة النساء ، ولكنك ستذوق عاقبة غيك قريبا (٢) " .

وتلك تهمة تستعصي على التصديق ، لانه لا ذكر لها في كتب التاريخ ، وعلى فرض ورودها في كتب الاخبار الضعيفة ، فما الداعي الى ذكرها في رواية تعنى بتاريخ الاسلام ؟ وتهدف الى تشويق الشباب الى مطالعة تاريخ آبائهم وأجدادهم لا تنفيرهم منه ؟

واضح أنه لا داعي سوى التزوير والتشويه ! ..

ب ـ توسيع شقة الخلاف وتكبير صورة النزاع :

وذلك بالتركيز على ما قد يحدث ـ عادة ـ بين أي جند من جنود البشر من خلاف ونزاع خفيف طفيف ، ثم توسيع شقة هذا الخلاف وتكبير صورته والخلوص من

---

(١) جورجي زيدان ـ رواية شارل وعبد الرحمن ـ ص ٦٩

(١) جورجي زيدان ـ رواية شارل وعبد الرحمن ـ ص ٦٩ المرجع السابق

ذلك الى أن قواد المسلمين وجنودهم في فتح الاندلس كانوا يهتمون بالغنائم اكثر من اهتمامهم بما عداها ، وكانوا يقتتلون عند توزيعها ، كأن لم تكن ثمة قاعدة أو قانون ينظم توزيع الغنيمة ـ عند المسلمين ـ ويعالج النفوس المريضة فيجعلها تمتثل عند المغنم ، فلا تتكالب فضلا عن أن تحقد أو تغدر .

وهدف الكاتب من ذلك التركيز هو وصف حروب الاسلام بأنها حروب للغنائم وليس لنشر نور الاسلام وتبديد دياجير الشرك والكفر ، بدليل أنه جعل القائد العام لجند المسلمين ـ هانئا ـ يحقد على بسطام الذى كان مسئولا عن الغنائم قائلا :
" ... ... وقد عزم على أن يقتل بسطاما اذا رأى مريم عنده ، ومع سرعة الجواد كان يحسبه واقفا ، وكان في المعسكر مضارب قليلة للغنائم وحولها الحراس من رجال بسطام وغيرهم ولما أشرف عليهم هانئ رآهم يختصمون ويتضاربون وقد علا ضجيجهم فلما رأوه تقدم بعضهم وهم يستغيثون فصاح فيهم : ما الخبر ؟ فقال أحدهم نشكو اليك ظلم الامير بسطام فصاح أين بسطام ؟ أين هو ؟ ولم يتم كلامه حتى خرج اليه بسطام وهو يترنح ترنح السكران فلما رآه هانئ لم يتمالك ان صاح فيه : ما هذه الجرأة على اغتصاب أموال المسلمين ؟ قد أمنك الامير على الغنائم فاستأثرت بها وسطوت على حقوق المسلمين .. لقد صدق القائلون انك لست مسلما ... (١) " .

أيكون غير مسلم ويعتمد عليه الخليفة المسلم في أمر الجند والغنائم .

ج ـ جموح في الخيال ومبالغة في التصوير :

وذلك باضفاء صفات البطولة والرجولة الفائقة على الفتاة النصرانية مريم التى زعم المؤلف أن هانئا شغل بها وترك المعسكر من أجلها ، ولم يكتف المؤلف بهذا ولكنه جعل مريم تقتل بسطاما خصم هانئ بعد المرور بها في مواقف لا تتناسب

---

(١) جورجي زيدان ـ رواية شارل وعبد الرحمن ـ ص ٦٩

ـ اطلاقا ـ مع فتاة مثلها ، حيث قال المؤلف : انها قد ركبت جوادا أدهم يشبه جواد هانئ ، وانها اشتركت في معركة المسلمين ضد الافرنج وسمّت نفسها هانئا ، أو سماها المؤلف وقال انها كانت سببا من أسباب النصر في تلك المعركة ثم جاءت بعد ذلك لتحاسب حبيبها المسلم وهو القائد العام لجند المسلمين أمام الخليفة عبد الرحمن . يا للعجب ، والاعجب أن تلك المحاسبة أجريت على النحو التالي : " ... فلما رآه هانئ وأقبل نحوه وتفرس في وجهه فرآه قد تلثم تحت الخوذة بلثام أسود ورأى من خلال العباءة ثوبا اسود فصاح فيه : " يا أهلا بالفارس الذى يسمى نفسه هانئا " فظل الفارس ساكتا ينظر من خلال اللثام فابتدره الامير عبد الرحمن قائلا : انك لذو فضل على هذا الجند ... . بالله ألا رفعت لثامك وعرفتنا بنفسك ، فرفع الفارس يده الى الخوذة فبان من تحتها ثوب أسود (١) فعرف هانئ للحال انه ثوب مريم ، فلم يتمالك ان صاح " مريم .. مريم " فمد الفارس يده الى الخمار فأزاحه فبان من تحته وجه فتاة يتدفق حيوية وجمالا ، وقد زاده التلثم دقة فتورد وأبرقت العينان ولا تسل عن هانئ حينما علم بما أظهرته مريم من البسالة التي تندر بين النساء فقال وهو لا يستطيع امساك نفسه : مريم أهذه الفعال فعالك يا حبيبة ؟ عهدناك ربّة اللطف والجمال ولم يخطر لنا أنك ربة الجواد والسيف . قالت انك ترى مريم واقفة بين يديك ويدى الامير عبد الرحمن . ويحك ما الذى جرى أين كنت ؟ ما هذا ؟ ماذا أرى ؟ ثم قالت لم أفعل أمرا يستحق الثناء واذا فعلت شيئا فما هو الا لأني تسميت باسم الامير هانئ .. فالامير هانئ هو الذى فعل ذلك ... ... فلما ذكرت مريم أنها قتلت بسطاما صاح الامير عبد الرحمن : بسطاما ؟ قالت : نعم .. قتلته وقد قصصت عليك السبب الذى دعاني الى قتله فاما أن تعذرني فيه أو تقتلني بسببه فاني بين يديك .. فتصدى هانئ للجواب قائلا : ان قتله مقدر منذ أيام ولو لم تقتليه أنت

(١) الخوذة دائما توضع على الرأس والثوب يكون على الجسد .. فكيف يكون تحت الخوذة ؟؟

لقتلته أنا ، واذا أراد الامير عبد الرحمن ان ينتقم له فلينتقم مني ٠٠ فقال الامير عبد الرحمن : لا أريد الانتقام له ولكنني أخشى أن يترتب على مقتله اضطراب في صفوف الجند لما تعلمون من ٠٠٠ ٠٠٠ ثم انتبه لوجود ميمونة هناك فتوقف عن اتمام الحديث وحوّل الموضوع ٠٠٠ (١) " .

حوار متكلف منتحل ، وتصوير تافه لا يبصر القارئ المسلم بحقيقة يجدر الالمام بها ، ولا يحيي في نفسه مجود أمته وبطولات أجداده ، ولا يجلي أمام ناظريه محاسن الدين الاسلامي ، ولكنه يجعله يمتعض ويتقزز من هذا التصوير .

وشتان بين هذا التصوير وبين التصوير الذى يأتي من كاتب مسلم ، بل أين هذا التصوير من قول كاتب غير عربي وغير مسلم يتحدث عن معارك المسلمين في عهد عبد الرحمن الغافقي قائلا :

" وتقدم المسلمون الى الغزو فرحين مستبشرين ظانين أنهم سيلاقون من النصر ما لاقوا في معركة وادى لكة ، وتوقعوا أن يزوا فرنسة (٢) الجميلة من كاليه الى مرسيلية (٣) ، وقد سقطت فريسة في أيديهم ، وفي الحق أن مصير أوربة (٤) كان في الميزان حتى لقد عدت هذه الموقعة من المواقع الخمس عشرة الفاصلة في حياة البشر ، وكان السؤال العظيم الذى كان جوابه في شفار السيوف وأسنة الرماح هو : أتصبح أوربة (٤) مسيحية أم مسلمة ؟ أتكون نوتردام التي لم تبن بعد كنيسة أم مسجدا ؟ أترد د كنيسة سنت بول تراتيل المسيحية أم تدوى بها أصوات المصلين المسلمين ؟ ٠٠٠٠٠٠٠٠ (٥) " .

---

(١) جورجي زيدان ـ رواية شارل وعبد الرحمن ـ ص ٨١ ـ ٨٤
(٢) في الاصل " فرنسا " وهو خطأ صوابه ما فعلنا .
(٣) في الاصل " مرسيليا " وهو خطأ ، صوابه ما فعلنا .
(٤) في الاصل " أوربا " وهو خطأ .
(٥) استلنلي لين بول ـ قصة العرب في أسبانيا ، ترجمة علي الجارم ـ ص ٣٧

استانلى

د - ارجاع عامل النصر والفتح الى الحب والغرام :

وقد جاء هذا الادعاء في مواضع متفرقة من الرواية أبرزها ذلك الحوار الذي لا يتناسب مع شخصية الامير عبد الرحمن الغافقي عندما اختلى بامرأة - كما يزعم زيدان - بعد أن ذكرت أن لديها سرا تريد أن تقوله للامير على انفراد حيث قالت :

" اعلم أيها الامير أنك تخاطب امرأة غير عربية وغير مسلمة ولكنها من أشد الناس غيرة على العرب والمسلمين ، واستأذن مولاي الأمير بالاقتصار على ما عرفه من أمري لاسباب ستتضح له قريبا ان شاء الله " . ثم قال الامير عبد الرحمن بعد حوار طويل : " ارى ابنتك من الجمال فيما ليس بعده غاية وهي في سن الزواج وأنت وحيدة فلماذا لم تزوجيها بشاب تعيشين في حمايته ، ولا ريب عندي انك تجدين من الطلاب من تقربه عينك لما هي عليه من الجمال والهيبة فالتفتت سالمة وقد انقشعت مظاهر الكآبة عن محياها وتحول انقباضها الى الانبساط وقالت : " أما هذا السؤال فلا بأس من الجواب عليه ... " فاستبشر عبد الرحمن وقال : " ما هو " قالت : " ان الابنة مخطوبة منذ طفولتها " قال عبد الرحمن : لمن ؟ قالت لرجل مسلم يغار على الاسلام والمسلمين ويكره الظلم والظالمين ، باسل شجاع واسع الصدر كريم النفس " قال عبد الرحمن : وما اسمه ؟ قالت : لست على يقين من معرفة اسمه الان . قال عبد الرحمن : " وهل تعرفه ابنتك ، قالت : لا اعرفه انا ولا تعرفه هي ولا يعرفه احد سوانا ، فدهش عبد الرحمن وقال : " كيف يكون ذلك يا سالمة ؟ يظهر انك تمزحين او تداعبين بالباطل ، قالت : " اقسم بالرب المعبود انني أقول الصدق فقال عبد الرحمن : وكيف تكون ابنتك مخطوبة لرجل لا تعرفون له اسما ولا لقبا ؟ قالت : أما لقبه فاننا نعرفه . قال عبد الرحمن : وما هو ؟ قالت : يلقب بفاتح بلاد الافرنج بالسيف .. ومؤيد الاسلام فيه بالحق

والعدل • ففهم عبد الرحمن أنها تريده هو ، اذ لا يصدق ذلك اللقب على ســواه ، ولذلك أراد أن يتحقق من ظنه فقال وهو يتجاهل مرادها : ومتى يكون الزواج ؟ وأين ؟ قالت يجوز الزواج في أى وقت يريده الخطيب ولكنه لا يكون وراء نهر لــــوار.وأدرك عبد الرحمن ان المراد بتقييد الزواج بذلك المكان هو تعجيل الفتح •••• (١) " •

والحقيقة التاريخية تقول انه لا علاقــة لهذا الحوار بشـخصية الامير عبد الرحمن بل هو كذب وافتراء على الرجل الذى قال عنه بعض المؤرخين الثقات :

" ••• ثم ان عبيدة استعمل على الاندلس عبد الرحمن بن عبد الله ، فغــزا افرنجة وأوغل في أرضهم وغنم غنائم كثيرة ، وكان فيما أصاب رِجْلٌ من ذهب مفصصـــة بالدر والياقوت والزمرد فكسـرها وقسـمها في الناس ، فبلغ ذلك عبيدة فغضب غضبـا شـديدا فكتب اليه يتهدده ، فأجابه عبد الرحمن وكان رجلا صالحا : أما بعد فان السماوات والارض لو كانتا رتقا لجعل الله للمتقين منها مخرجا ••• (٢) " •

رجل هذه سـيرته لا يمكن ان يقال انه شـغل بفتاة عن مهمته العظيمـــة ، ورجل هذه صفاتـه لا يتناسـب ان نتخيل ـ عند تصوير شـخصيته ـ أنه اختلـــى بامرأة أو اشـترك في ادارة حوار غرامي مسـف أو غير مسـف •

ولكن مؤلف الرواية يأبى دائما الا تصوير قادة المسلمين بهذه الصور كي ينـزل بدرجاتهم العليا في نفوس شـباب الاسـلام الى الحضيض •

---

(١) جورجي زيدان ـ رواية شـارل وعبد الرحمن ـ ص ٣١ ـ ٣٢

(٢) ابن الاثير ـ الكامل ـ المجلد الخامس ـ ص ١٧٤

شبهات
في رواية أبي مسلم الخراساني

أ ـ غرام عجيب وحب غريب .

ب ـ العناية بتصوير الدسائس والمؤامرات .

جـ ـ فرية ليس فيها مرية .

د ـ صور تتقزز منها النفوس .

هـ ـ اشادة بالاديرة والرهبان .

أ — غـرام عجيـب وحـب غريـب :

ركز زيدان في هذه الرواية على عنصر الغرام — جريا على عادته — الا أن الغرام الذى صوره هنا كان غراما عجيبا وحبا غريبا ، اذ أنه لم يكن من نوع الحب الذى انتحله وأضافه الى أبناء العرب المسلمين في رواياته السابقة ، حيث جعلهم يشغفـون بالنساء والفتيات وينسون أهم واجباتهم ، أما هنا — في هذه الرواية — فقد صور قصة حب مات في مهده لكنه بعث بعد فوات الاوان ، اذ قتل بطل ذلك الحب وهـو أبو مسـلم الخراسـاني الذى ربطه المؤلف بجلنار ليتخذها وسـيلة لتحقيـق مآربـه الخبيثـة .

ومن ثم صور المؤلف أبا مسـلم بطلا مغوارا ، وداهية محنكا لا يأبه بمواطـف جلنار ، بل لا مأرب لـه في النساء ، لانه يخشـى ان يقفن حائلا بينه وبين ما يطمح اليه . وقد جاء هذا التصوير في مواقف متعددة ومتفرقـة في الرواية (١) نثبـت بعضا منها على سـبيل الاسـتشهاد والتمثيل . كذلك الذى اجراه زيدان علـى لسـان ابي مسـلم في حوار تم بينه وبين جلنار حيث يقول :

" ..... لا تقولي حبي ، بل قولي حب دعوتي ومصلحة خراسان ... فزاد استغرابها لتنصله من الحب الى هذا الحد ، وشعرت انها تتكلم في واد وهو فـي واد فقالت ! بل في حبك أيها الامير ،قال : وما الباعث الى ذلك والحب في شـل هذه الحال ينتهي بالزواج وأنا لا مأرب لي في النساء على الاطلاق بل أنا أعـد الـزواج جنونا وقد تزوجت امرأة ويكفي للانسان ان يجن في زمانه مرة واحدة ، واعلمـي يا جلنار أني لو كنت ممن يتفرغـون للنسـاء ما اسـتطعت القيـام بالدعـوة التـي أنا قائـم بها ..... (٢) " .

---

(١) راجع رواية ابي مسلم الخراساني الصفحات : ٤٣٦ ، ٤٤٤ ، ٤٤٦ ، ٤٥٠ ، ٤٥١ ، ٤٦٥ ، ٤٥٧ ، ١٦٧ وغيرها .

(٢) جورجي زيدان — رواية أبي مسلم الخراسـاني — ص ٣٦

والغريب أن ينسب المؤلف هذا النص الى ابن الاثير ، ولا ذكر له في الكتاب المشار اليه بل لا ذكر لتلك المواقف الغرامية كلها ، انما هي فرية خيالية محضة قصد بها الكاتب التشويه عن طريق التصوير الادبي .

"والله محل وحلفة" القاموس

ب ـ العناية بتصوير الدسائس والمؤامرات :

ان القارئ لرواية ابي مسلم الخراساني لجورجي زيدان لا يجد فيها تصويرا لومضة خير أو بارقة أمل في نشر الحق وحماية منتداه ، كأنما الامة جردت آنذاك من كل الفضائل ، أو كأنما طبع الناس في تلك الفترة بطابع واحد هو طابع الغدر والخيانة ، وتدبير الدسائس والمؤامرات ، والاعجب من هذا هو تسجيل ذلك كله بدقة ومهارة ليكون تاريخا للاسلام ، والاسلام منه براء .

ومن المؤكد ان قصد الكاتب من تجميع هذه السقطات والزلات ـ التي هي سقطات أفراد انحرفوا أو قواد ابتعدوا عن منهج الاسلام ـ هو التشنيع على الاسلام والمسلمين وتنفير أبناء المسلمين مما يسمى بالتاريخ الاسلامي ، لانه في نظر زيدان ـ مجموعة سقطات وزلات ، كما ظهر في روايته هذه وغيرها من الروايات .

ومن تلك الدسائس ما رواه الكاتب من أن جلنار أعانت أبا مسلم في قتل نصر بن سيار وقتلت ابن الكرماني بعد أن صارت زوجة له ، وغير هذا من الدسائس التي ركز عليها زيدان في هذه الرواية (١) تركيزا شديدا ليشوه بها تاريخ الاسلام والمسلمين ، ويستخف ببطولاتهم وقد أفصح عن هذا الاستخفاف بقوله على لسان جلنار ـ :

---

(١) راجع رواية ابي مسلم الخراساني ـ الصفحات : ٣٥ ، ٦٥ ، ١٦٧ ، ٢٠٥

" ... آه يا صالح لقد طال سجني في هذا الدير ونفد صبرى وقلبي يحدثني بخير عند خروجي منه وقد تراكمت عليّ الاحلام على غير المعتاد ، ولا أظن أبا مسلم باقيا كما كان ، فقد رأيته في منامي جاثيا بين يدى يلتمس العفو عما اقترفه نحوى وهو يبكي ويتوسل .... تأمل يا صالح تأمل يا صالح ... رأيت أبا مسلم بطل المسلمين يبكي بين يدىّ ... ... (١) " .

وجورجى زيدان عندما يقول : تأمل يا صالح كأنما يخاطب جميع الحاقدين على الاسلام والمسلمين ويقول لهم : انظروا الى أبطال المسلمين ، ها هم أولاء متناحرون ومصيرهم البكاء بين يدى الفتيات انها لسخرية ما بعدها سخرية ، لكنها لم تكن مكشوفة بل جاءت متدثرة بثوب الفن ومتلفعة برداء القصة ، فلا يلتفت الى خطورتها الكثيرون حتى تحقق أقل هدف من أهدافها وهو التشكيك في التاريخ الاسلامي ، أو خلق الضيق والامتعاض من ذلك التاريخ .

جـ ـ وفرية ليس فيها مرية :

وهي ما أجراه زيدان على لسان أبي مسلم الخراساني من أن العرب ـ كل العرب ـ كانوا يحتقرون غير العرب ويسومونهم سوء العذاب ، ثم يفتخرون عليهم بالنبوة ، حيث قال أبو مسلم مخاطبا الدهقان : " أنت تعلم يا أعظم الدهاقين أن العرب يفاخروننا بالنبوة لان النبي منهم وقد احتقرونا وأذلونا وعاملونا معاملة الرق ولو استطاعوا ألا يبقوا منا أحدا لفعلوا ... ... (٢) " .

على حين أن التعصب الذى كان في عهد بني أمية للعرب ـ إن صح ـ إنما كان من بعض الحكام الامويين وليس من العرب أجمعين ، وكان ذلك التعصب لاطماع سياسية ومآرب

(١) جورجي زيدان ـ رواية ابي مسلم الخراساني ـ ص ٢٤٦

(٢) جورجي زيدان ـ رواية ابي مسلم الخراساني ـ ص ١٩

شخصية لم يحض عليها الاسلام ولا هو من منهج الاسلام في شيء ، اذ أن الاسلام كان للبشر كافة ونبي الاسلام عليه الصلاة والسلام قال : " لا فضل لعربي على أعجمي الا بالتقوى " • فهل يصح بعد هذا أن ينسب ذلك الافتراء الى تاريخ الاسلام وهو مناقض ومناهض لمنهج الاسلام ، واذا سلمنا بأن ذلك التعصب كان من العرب أجمعين ضد جميع الاعاجم فهو خطأ العرب الذين عادت اليهم نزعاتهم الجاهلية وليس خطأ الاسلام الذى لم يكن في يوم دينا خاصا بالعرب •

وتتكرر هذه الفرية في مواقف أخرى من الرواية ، وذلك في حوار بين ابنة الدهقان ووالدتها حيث قال لها والدها : " ••• وهذا يدلك على احتفاظي بك وسعيي في راحتك لان نصرا هذا لا يلبث أن يغلب على ما في يده ويخرج من هذه البلاد مدحورا لضعف حاميته وانحطاط دولة بني أمية على الاطلاق • وقد أصبح أهل خراسان كافة ناقمين عليها بعد ما ظهر لهم من ايثارها العرب على الفرس ومطالبتهم بالضرائب الفادحة بغير الحق • حتى طلب عمالها الجزية من المسلمين على غير القواعد المرعية في الاسلام •••• (١) " •

وعجيب أخذ الجزية من المسلمين ، ومع ذلك فهو ليس من تاريخ الاسلام انما هو ـ ان صح ـ من انحرافات بعض المسلمين الذين انحرفوا عن منهج الاسلام وتنكبوا طريقه •

د ـ <u>صور تتقزز منها النفوس :</u>

ومن الامور التي تؤكد تعمد المؤلف الدس والتشويه والافتراء ؛ تركيزه على كثير من الصور التي تقشعر لها الابدان ، وينفطر من رؤيتها الوجدان • وتلك الصور في مجموعها لا صلة لها بالاسلام أو بتاريخ الاسلام ، ولكنها تصرفات فردية

---

(١) جورجي زيدان ـ رواية ابي مسلم الخراساني ـ ص ١٢

ونزوات ذ روية لأُناس يكيد ون للاسلام والمسلمين ٠

ومن تلك الصور ما وصفه المؤلف نفسه بأنه منظر تتقطع له الاكباد حيث قال :

" فبغت المنصور لتلك الضوضاء واستغرب جسارة الداخلين عليه بغير استئذان وأراد أن ينادى الحرس ليسألهم عن ذلك فاستوقف انتباهه منظر تتقطع له الاكباد : رأى جلنار أقبلت على أبي مسلم وهو مطروح في أرض القاعة والدم يسيل من جوانبه وقد توسط البساط معارضا وجهه نحو المنصور كأنه يتوعده ، وقد انتثرت قلنسوته عن رأسه فبان شعره وتلوث بالدم ، فلما رأته على تلك الحال صاحت "أبا مسلم" فالتفت ونظر اليها بعينين تكادان تجمدان من الاحتضار وقال بصوت مختنق : سامحيني يا جلنار ٠ ثم أرتج عليه واخذ يبكي بكاء الطفل فسقطت وقد أغمي عليها فاشتغل الحضور بهما ٠٠٠ ٠٠٠ ٠٠٠ (١) " ٠

وتلك صورة لدار الخلافة الاسلامية ، صورة ترتكز على حقيقة مبالغ في تصويرها ، اذ أنه من الثابت أن المنصور قد قتل أبا مسلم الخراساني ، الا أن قتله لم يكن بهذه الصورة ، ولا علاقة لتلك الفتاة بدار الخلافة ، كما لا علاقة لذلك اليهودي الذى قال زيدان : ان المنصور قد زوّر كتابا باسمه الى أبي مسلم وختمه بخاتمه حتى يتمكن من احضار أبي مسلم اليه فيفتك به أو يغدر به كما يحلو لزيدان ، ولم يثبت تاريخيا أن المنصور قد زور كتابا باسم يهودى أو غيره الى أبي مسلم ، وما له وللتزوير؟ وهو الذى كان يقول لمندوبه الذى أرسله الى أبي مسلم ما نصه :

" ٠٠٠ ٠٠٠ ٠٠٠ فان أبى واستكبر فقل له : يقول لك أمير المؤمنين لست من العباس واني برىء من محمد أن مضيت شاقا ولم تأتني ، ان وكلت أمرك الى أحد سواى ، وان لم أل طلبك وقتالك بنفسي ، ولو خضت البحر لخضته ، أو اقتحمت النار لاقتحمتها وراءك حتى أقتلك أو أموت قبل ذلك ـ ولا تقولن له هذا الكلام حتى

---

(١) جورجى زيدان ـ رواية أبي مسلم الخراساني ـ ص ٢٥١

تيأس من رجوعه ولا تطمع منه في خير ... ... (١) " .

وزيدان لا يركز على مثل هذه المواقف وغيرها من المواقف التي تكشف عن سيرة رجل في أمة أو امة في رجل ، وتوضح للقراء كيف يكون البذل والجهد ؟ وكيف تصنع البطولات ؟ وكيف تساس الامم والشعوب ؟ وتقام المفاخر ؟

ولا نريد أن نقول ان سيرة أبي جعفر المنصور سيرة ممتازة مبرأة من العيوب والمناقص ، مع أنه غير معصوم ، لكننا نريد أن نقول ان الكتابة المنصفة وغير المتحيزة تستخلص لنا من سيرة جبار بني العباس قصة حية فيها التشويق والاثارة وفيها الدروس والعبر ، وقد قال عنها الدكتور الجومرد :

" قصة أبي جعفر المنصور قصة حية من أقاصيص أيام العرب المتقدمة بما واكبها من روائع ومآس ، ومسرات وأحزان ، ودماء ودموع ، ولذة وشقاء ، وخير وشر فيها الحقيقة للباحث والعبرة للمفكر والقدوة للناشئ والهداية للمدلج السارى (٢) " .

ثم قال عن أبي جعفر : " وقد ملأت أخباره كتب التاريخ والادب ومعاجم السير فاختلفت عليه الآراء واصطرعت الاهواء وأصيبت الحقيقة من جوانبها بأسهم لم يخل بعضها من حقد متعصب أو دس مغرض ، فزيد في مثالبه وأخطائه ، واستخف ببعض عظائمه ومكارمه ... ... (٢) " .

لذلك اشتملت رواية أبي مسلم الخراساني ـ لجورجي زيدان ـ على كثير من المثالب والمناقص وتناثرت في جميع صفحاتها صور تتقزز منها النفوس كما أشرنا ، ومن تلك الصور أيضا صور تفوح من تسجيلها روائح الحقد والكراهية ، وهي الصور التي سجلها زيدان فقال : ان أبا مسلم قتل والد محبوبته جلنار بعد أن استنفد أغراضه منها ، بل كان يفكر في قتلها بعد أن قتلت له خصمه الذى هو زوجها ، ثم أشار

---

(١) ابن الاثير ـ كتاب الكامل في التاريخ ـ

(٢) عبد الجبار الجومرد ـ أبو جعفر المنصور ـ المقدمة .

المؤلف الى أن أبا مسلم كان مستعدا لقتل أبيه وأمه وصاحبته وبنيه لا دنى شبهة أو اذا وقف أى من أولئك في طريقه أو حاول الحيلولة بينه وبين تحقيق مآربه " .

ونثبت هنا طرفا من الحوار الذى أجراه زيدان بين أبي مسلم وجلنار بعد أن قتل والدها لنؤكد أنه كان يمنى بالصور التي تتقزز منها النفوس أكثر من غيرها أو دون سواها .. حيث قال :

" ... ... ولم يجبها على بكائها الا بقوله : قلت لك انه "قد سبق السيف المزل " واذا كنت لا تصدقيني فأريك أباك رأى العين ، ثم صفق فدخل غلام فقال ائتني بالدهقان ، فلما سمعته يقول ذلك انتعشت آمالها وتوهمت أنه لا يزال حيا فأتبعت الغلام بنظرها فرأته دخل دهليزا في جانب القاعة ثم عاد وفي يده طبق كبير فوقه غطاء وتقدم به حتى وضعه بين يديها وكشف الغطاء فرأت رأس أبيها في قاع الطبق وقد تجمد الدم حوله وتلطخت لحيته وشارباه واشتبك شعر رأسه وتلوث بالدم وعيناه لا تزالان مفتوحتين واتفق اتجاههما نحوها كأنهما تنظران اليها ... ... (١) " .

فمن ذا الذى يقول : ان مثل هذه الصور مطابقة لما جاء في كتب التاريخ ،ومن ثم يمكن الاعتماد على الرواية التي تشتمل عليها كالاعتماد على أى كتاب تاريخي ؟ لا أحد يقول بهذا غير زيدان ، ونحن نرى أن صوره هذه وغيرها صور منفرةومثبطة للهمم بالاضافة الى تشويهها للحق ، واتسامها بالكذب والافتراء .

هـ ـ اشادة بالاديرة والرهبان :

لم يكتف جورجي زيدان في طمسه معالم الصورة المشرقة للتاريخ الاسلامي بما قدمه من دس وافتراء ، ومن صور ـ عن زعماء المسلمين ـ تتقزز منها النفوس ، بل عمد الى تقديم صور مثالية فاضلة للكنيسة ورهبانها لتكون هذه الصور في الطرف المقابل

(١) جورجي زيدان ـ رواية أبي مسلم الخراساني ـ ص ١٥٩ ، وكلمة " تصدقيني " خطأ والصواب : " تصدقينني " - لأن الفعل غير منصوب ولا مجزوم.

(هامش بخط اليد على كلمة "المزل": العزل)

لصور تاريخ الاسلام كما رسمها هو في سلسلة روايات تاريخ الاسلام .

وتتمثل تلك الصور المثالية للكنيسة في اشادته بالاديرة ورهبانها بطريق مباشر وغير مباشر ، حيث جعلها ملجأ الضعفاء وملاذ التائهين والخائفين ونصير المظلومين رجالا ونساء ، وذلك عندما جعل جلنار تفر مع صديق لها اسمه صالح الى دير المذارى خوفا من أن يعلم أبو مسلم الخراساني بأمرهما فيفتك بهما ، ومن ثم كانت الفرصة مواتية لزيدان كي يتحدث عن سر الاعتراف عند النصارى فقال :

" ... ... وتذكر الاعتراف الشائع عند النصارى ، وأنه سر مقدس لا يبوحون بمولو هددوا بالقتل ... ... فقال صالح : أشكرك يا حضرة الاب المحترم على تفضلك فانى لا احتاج الى طعام أو شراب وأنا جئتك بسر أريد أن استودعكه وأستشيرك بشأنه وقد علمت انكم معاشر القسس من رجال الله ومستودع أسرار خلقه ... ... (١) " .

يفهم من هذا القول أنه لا يوجد بين المسلمين من يحفظ السر كقسس النصارى ، وانهم لم يفكروا في انشاء مستودعات للاسرار ، ولم يقيموا مؤسسات لسر الاعتراف والا فلم التمويل على الكنائس وقسسها ورهبانها في رواية تتحدث عن تاريخ الاسلام وليس عن تاريخ النصرانية ؟ هذا بالاضافة الى أن المسلمين ليسوا في حاجة الى تلك المؤسسات طالما كانوا متمسكين بالهدى القويم الذى يجعل المعترف أو المقر بذنبه يبحث عن وسيلة التطهير والتكفير عن خطيئته ، ثم ان الاسلام يحض على الستر يقول رسوله " اذا بليتم فاستتروا " من ستر مؤمنا فقد ستره الله " " اذا لم تستح فاصنع ما تشاء " .

ولكنها العصبية المسيحية ، والروح العدائية التي يكتب بها جورجى زيدان عن الاسلام وعظماء الاسلام .

---

(١) جورجى زيدان ـ رواية أبي مسلم الخراساني ـ ص ٢٢٢

شبهات
في رواية الأمين والمأمون

أ _ اتهام بالغدر ونقض العهد •

ب _ حب وغرام مسف •

جـ _ ظاهرة التحامل على العرب •

د _ صور خيالية مفرضة •

أ) اتهام بالغدر ونقض العهد :

تشتمل رواية الامين والمأمون على أباطيل عديدة ومفتريات كثيرة أبرزها تشويه سمعة المسلمين ، واتهامهم بأن دولهم لم تقم الا على الغدر ونقض العهد ، لا فرق في ذلك بين صحابي جليل أو أمير لاه من أمراء بني العباس ، أو خليفة مفترى عليه كالرشيد ، وقد أجرى زيدان هذه التهمة على لسان شخصية من شخصيات روايته حيث قال ما نصه :

" ... ... تريدون انشاء الدول بدون نكث ولا غدر ، ولم نر صاحب دولة استغنى عن ذلك حتى أبو مسلم الخراساني لو لم يغدر لم يغلب ، والمنصور لو لم يغدر به لم تثبت دولته ، والرشيد لو لم يغدر بجعفر كان في خطر على خلافته ، بل أرجع بذلك الى صدر الاسلام ترعليا وأبناءه لم يفشلوا في سياستهم الا لانهم توخوا الحق والوفاء وبالغوا في البعد عن الغدر والدهاء ولو لم يمكر معاوية ويغدر لم ينشىء دولة ولا أقام سلطانا ... ... (١) " .

وهذا النص يمثل فكر زيدان ، وهو فكر خطير ، وتكمن خطورته في القاعدة العامة التي قررها ، وهي أن جميع الدول ما قامت الا على الغدر ونكث العهد ، وهو يعني بالدولة الدولة الاسلامية ، لانه بصدد الكتابة عن تاريخ الاسلام ، وذلك تعميم مرفوض ولا سيما بالنسبة لتأسيس دولة الاسلام الاولى ، اذ أنها ما كانت تعرف الغدر ولا نقض العهد .

وخطورة ثانية في فكر زيدان الذى أفصح عنه بتلك الفقرة ، وتكمن هذه الخطورة الثانية في وصفه لصحابي جليل ومن كتاب الوحي بأنه ماكر غدار ، اذ أنه لا يجوز لمسلم أن يرسل الحكم هكذا في جانب صحابى جليل ومجتهد كبير ، فما بالك

---

(١) جورجي زيدان ـ رواية الامين والمأمون ـ ص ٢٥٠

بالنصراني الذى يتطاول ليقرر مثل هذا الحكم .

ب) حب وغرام مسف :

وقد عني المؤلف بعقد علاقة حب أو غرام مسف بين بنت الوزير جعفر البرمكي وبين رجل اسمه بهزاد ، ثم جعل المحب يكافح — بسبب هذا الحب — ويعمل للانتقام لجعفر — والد محبوبته — بقتل الامين بن الرشيد ، ومن ثم يدخل بهزاد في منافسة خطيرة بينه وبين ابن الفضل بن الربيع ويقاتل من أجل ميمونة بنت جعفر البرمكي .

وينتهي المؤلف من تصويره لتلك المغامرات الغرامية الى أن الحب هو الذى غير وجه التاريخ في عهد بني العباس ، حيث أدى ذلك الحب الى قتل الامين ، ثم الى قتل ابن وزيره الفضل بن الربيع ..

وقد شغل الحديث عن هذا الحب صفحات عديدة من رواية الامين والمأمون (١) علما بأنه لا علاقة لذلك الحب بتاريخ الاسلام البتة ، وعلى فرض صحته أو وروده في الاخبار الضعيفة فمن ذا الذى يقول : ان تاريخ الامة لا يتكون الا من مجموع سقطات وزلات لاناس غير مسئولين أو غير مؤمنين حقا .

جـ) ظاهرة التحامل على العرب :

وثمة ظاهرة غريبة في رواية الامين والمأمون وهي ظاهرة التحامل على العرب ووصفهم بالاستبداد وسوء التصرف مع الاجناس الاخرى التي تربطهم بها رابطة الاسلام قبل كل شيء ، الاسلام الذى يزيل الحقد والغدر من النفوس المؤمنة حقا .

---

(١) راجع رواية الامين والمأمون — لجورجي زيدان — الصفحات: ٣٦ — ٥٠ ، ٢٥٤

وقد تكون هناك نفوس مريضة لم يهدها الله بعد ، الا أن انحرافها لا يمكن أن يكون سمة غالبة على الامة كلها ، ولا يعتبر نقصا يلحق بعقيدتها أو فكرها الديني .

هذا وقد أراد زيدان الايحاء للقارئ بهذا النقص ، وتعميقه في ذهنه عن طريق التصوير الفني الذى يأسر الالباب ، وعن طريق الزعم بأنه انما يؤرخ للاسلام .

ويتضح هذا التحامل في مواضع متفرقة من الرواية .

ومن ذلك ما جاء في الرسالة التي انتحلها زيدان ونسبها الى شخص مزعوم اسمه " بهزاد " بهزاد الذى كان يحب ميمونة بنت جعفر البرمكي ، ونثبت هنا طرفا من تلك الرسالة .. قال :

" ... ... من المحب الذى تسمونه بهزاد الى ميمونة بنت جعفر ابن يحيى المقتول ظلما ... أما بعد فقد كنت عازما على أن اكتب اليك بلسان أجدادنا العظام لو كنت تفهمينه ، ولكن قضت ظروف الزمان أن نتفاهم بلغة أمة ظلمتنا وغلبتنا على أمرنا بالغدر والخيانة ، فقتلت رؤساءنا واستخدمت قوادنا وحكماءنا واستبدت في شؤوننا ، وسيأتي يوم نقلب لهم فيه ظهر المجن ونأخذ بالثأر ... فيعلم الظالمون أى منقلب ينقلبون ... وكنت أحب أن أراك قبل سفرى وأودعك شخصيا ... ... (١) " .

قد يقال ان زيدان انما أراد بهذه الفقرة تصوير دور الشعوبيين في بذر جذور الخلاف بين الامة وقتذاك ، نقول ان هذا صحيح ولكنه جعل هذا التصوير تكأة للنيل من العرب والمسلمين على السواء ، والدليل على ذلك أنه لم يأت بما يوحى بامتعاضه وكرهه لدعوة الشعوبيين ومواقفهم ، بل كان يظهرهم في مواقف القوة ، وكأنما أراد أن يقول : فلتنطلق دعوة الشعوبيين طالما كان حكم العرب آنذاك باسم الاسلام لا باسم النصرانية ، هذا على الرغم من أنه قد أجرى حوارا مطولا بين الفضل وبهزاد انتهى بهما الى أن " الخلافة لا بد لها من السيادة ، وهي لا تكون الا في آل

---

(١) جورجي زيدان ـ رواية الامين والمأمون ـ ص ١٤٣ ـ ١٤٤

النبي من بني هاشم (١) " •

ومن ثم كان الشرط على المأمون ان يجعل ولاية العهد لعلي بن موسى الرضا فتنتقل الخلافة بعد موت المأمون من العباسيين الى العلويين •

د) صور خيالية مفرضة :

وقد اشتملت هذه الرواية على صور خيالية كثيرة لا تمت الى الحقيقة التاريخية بصلة ، بل ان بعضها قد تعدى طور المعقولية وخرج عن اطار الفن •

من تلك الصور ما أضافه الى بهزاد قائلا : " انه قد ذهب الى بغداد واحضر رأس أبي مسلم الخراساني ورأس جعفر البرمكي وقدمهما الى فاطمة بنت أبي مسلم في شكل تتقزز منه النفوس السوية " •

وقد صور زيدان كل ذلك غير مبال بمشاعر القراء حيث قال :

" ••• ••• فجلس معتدلا والتفت الى العبد فانصرف من الغرفة فلما خلا بالعجوز أخذ يعالج الصندوق حتى فتحه وأخرج جمجمة وضعها بين يديها وقد فاحت رائحة التراب المتعفن فنظرت بعينين محلقتين وصاحت : " هذا هو رأس أبي مسلم •• هذا هو رأس والدي البطل •• انك أحييته يا بني •• وأخذت تقبل الرأس وقد شرقت بدموعها ••• (١) " •

ثم قال زيدان عن بهزاد مرة اخرى :

" ••• ••• وحينما تذكر رأسا آخر في ذلك الصندوق مد يده الى الصندوق وهو يقول : " وهنا رأس آخر نحن ناقمون على قاتله وأخرج يده وهو قابض على ذلك الرأس من شعرات في ناصيته يعس الدم عليها ، وقد جف جلد الوجه واسود والتصق بالعظم حتى يحسبه الناظر اليه عظما أسود •• فنظرت فاطمة الى ذلك

---

(١) جورجي زيدان ـ رواية الامين والمأمون ـ ص ١٩٢

الرأس فلم تعرفه فقالت رأس من هذا ؟ ... قال هو رأس جعفر القتيل الثاني فصاحت : رأس جعفر ؟ جعفر بن يحيى ؟ قال : نعم . يا أماه ... انه رأس جعفر المقتول غدرا ، وحدثته نفسه ان يبوح لامه بحبه ميمونة ولكنه رأى ان يؤجل ذلك الى وقت آخر فظل ساكتا وهو يراجع ما سمعه من الغرائب في تلك الساعة .... قالت وكيف عثرت عليه يا بني ؟ قال : ألم تعلمي أن الرشيد غدر به وقتله ولم يكتف بقتله بل قطع يديه قطعتين نصب كلا منهما على جسر من جسور بغداد ونصب الرأس على جسر ثالث .. فظلت هذه القطع معرضة للحر والبرد والشمس والمطر حتى سافر الرشيد الى الرى بعد سنتين وعند رجوعه عزم على الاقامة في الرقة .. فمر ببغداد وأمر بانزال جثة جعفر واحراقها ... ... (١) " .

ما هذا ؟ وما الباعث اليه ؟ هل من ضرورة فنية تدعو الى ذلك ؟ نحن نرى أن الباعث الى ذلك انما هو تشويه تاريخ الاسلام والمسلمين والقول بأن ما أقاموه من دول لم يقم على الحق والعدل ، بل قام على الغدر والخيانة ، وقد أشرنا الى هذا الاتهام في بداية حديثنا عن شبهات رواية الامين والمأمون وبينا انه كذب وافتراء وتلفيق وتزوير ..

---

(١) جورجي زيدان ـ رواية الامين والمأمون ـ ص ١٩٢

شبهات في رواية
عروس فرغانه

أ) انصراف واعراض عن تصوير الفتح الاسلامي .

ب) العناية بالمواقف الغرامية لا التاريخية .

جـ) وفرية ليس فيها مرية .

د) استخفاف بالحجاب .

هـ) التركيز على عادات المجوس وتعاليمهم .

أ) انصراف واعراض عن تصوير الفتح الاسلامي :

الامانة والانصاف يقتضيان من كاتب رواية عروس فرغانة أن يوجه عدسته المصورة الى الفتح الاسلامي هناك ليلتقط صورا وضيئة ومواقف نبيلة ، تؤكد أنه يهدف الى كتابة قصة تاريخ الاسلام ، أو تشير الى هذا الهدف المزعوم ، الا أن الذى حدث غير ذلك اذ أن الكاتب أعرض اعراضا تاما عن ذكر أثر الاسلام في فرغانة وما جاورها من بلدان وأمم وشعوب ، فاكتفى باللمحة الخاطفة التي لا تعطي حقيقة فضلا عن أن تبعث غابرا وتحيي مجد أمة سادت ثم بادت ، والغريب أن اشارته العابرة لم تعد السطرين أو الثلاثة الاسطر ولم تتكرر بعد . وتلك الاشارة هي قوله :

" فلما شرع العرب في الفتح الاسلامي فتحوا الشام والعراق ومصر وفارس في بضع عشرة سنة لكنهم لم يستطيعوا الوصول الى فرغانة الا في أواخر القرن الاول للهجرة ، فتحها قتيبة بن مسلم فاتح تركستان سنة ٩٤ هـ ، ولم يستعمروها أو يقيموا فيها الا بعد ذلك بأعوام عديدة وكانت تابعة لولاية خراسان تؤدى لها الجزية والخراج ... ... " .

فهل يمكن الزعم بأن فقرة كهذه تكفي لاعطاء فكرة أو حقيقة عن الفتح الاسلامي لفرغانة أو ما جاورها ؟ وهل يمكنها أن تكمل حلقة تاريخية مفقودة ؟

المؤرخون يقولون لا .. لا ... لا يمكن أن تعطي فكرة متكاملة أو غير متكاملة عن تاريخ تلك الفترة ، أما نقاد الادب فانهم يرفضون مثل هذه الصورة الباهتة الظلال .

ب) العناية بالمواقف الغرامية لا التاريخية :

ازدحمت هذه الرواية وحشدت بالمواقف الغرامية (١) التي تشير الى عناية الكاتب بهذا الجانب أكثر من غيره وتفصح عن أنه يريد أن يجعل الغرام سببا في كل

---

(١) راجع رواية عروس فرغانة ـ لجورجي زيدان ، الصفحات ١٣ ، ٢١ ، ٦١ ، ٧٠ ، ٨١ وغيرها .

تحول تاريخي ـ باستثناء ما صوره عن أبي مسلم الخراساني ـ ومن ثم اخذ يعبث بجيهان .. عروس فرغانة ويوجهها أنى شاء ، حيث عقد علاقة حب بينها وبين شاب وسيم اسمه ضرغام .. الذى أصبح فيما بعد رئيس حرس المعتصم وصاحبه ، بل كشفت حوادث الرواية عن أنه أخ للمعتصم من جهة أبيه ، كما عقد علاقة حب بينها وبين الافشين (قائد جند المعتصم) وقد جاءت هذه العلاقة في صورة تقشعر منها الابدان وينفطر لها الوجدان ، حيث كانت نتيجة خيانة الافشين لوصية والد الفتاة واسترسل المؤلف في ذلك كله استرسالا دعاه الى أن يعقد فصلا كاملا بعنوان " غرام العجائز " بين فيه غرام الافشين وتعلقه بجيهان ، وكاد أن يضع فروقا دقيقة بين غرام الشيوخ وغرام الشباب ، ثم عقد علاقة حب عجيب بين الفتاة المذكورة وبين بابك الخرمي فجعل بابك أسير ذلك الحب ورهن اشارة المحبوبة بعد أن قدمه في مواقف مزرية .

فما هذا بتاريخ الاسلام ، ان هو الا تصوير لما يعتلج في وجدان زيدان وابراز لما يدور في مخيلته ثم محاولة الصاق التهم والمفتريات بالاسلام عن طريق هذه الصور الخيالية والاسلام منها براء .

ج) <u>وفرية ليس فيها مرية :</u>

وتلك الفرية هي الزعم بأن المعتصم قد أقام كعبة خاصة في سامرا بدلا عن الكعبة المشرفة ، ثم التعليل المغرض لهذه الكذبة الواضحة ، وهو ما ذهب اليه زيدان من أن المعتصم لم يشيد تلك الكعبة الا ليقطع علاقته بالعرب وليحرمهم من الكسب المادى الذى كان يأتيهم عن طريق الحجاج ، وكأنما الكعبة المشرفة لم تنشأ الا للكسب المادى وأى عاقل يقبل هذا التعليل ؟ أو يصدق تلك الفرية .

ونص تلك الفرية هو ما أجراه زيدان على لسان ضرغام وسامان أثناء الحوار بينهما حيث قال :

" ... ... يظهر أنك سألت عني باسمي القديم ضرغام ، وأنا لا يعرفني أحد بهذا الاسم ، انما اسمي الآن الصاحب ... قل أين جيهان ؟ وماذا جرى لكم ؟ مالي أراك رث الثياب على هذه الحال ؟ وكانا قد انتهيا من الصحن الى بناء مربع بشكل الكعبة ، كان المعتصم قد بناه ليحج الناس اليه بدل حجهم الى كعبة مكة ، حتى لا يبقى له حاجة الى العرب ولا الى بلادهم ... (١) " .

ومهما بلغ الاستهتار بالمعتصم وبلغ به الانحراف ما بلغ فانه لن يفكر في هذا العمل الذى يتعارض كل المعارضة مع قواعد الدين الاسلامي ، ولم يقل بهذا القول واحد من المؤرخين . فمن أين جاء به زيدان ليلصقه بالمعتصم ؟

ولا يمكن الدفاع عن هذه الفكرة بأنها انما جرت على لسان شخصية من الشخصيات المعادية للمعتصم ، نرفض هذا الدفاع لان العبارة جاءت على لسان المؤلف ذاته ليوضح بها حالة شخصيتين ويبين مكان حوارهما ، وهذه نفثة من نفثات يراعه المسموم ، وضربة من ضربات معوله الهدام ، والمتفنن في توجيه ضربات صريحة مكشوفة تارة وضربات عنيفة متوارية تارات ، وذلك مثل توجيه السباب والشتائم للمعتصم على لسان شخصية من الشخصيات حيث قال :

" ... ... قال حماد بل أنا زعيم أصحابه ولم أكن لاكاشفك بذلك وأدخلك هذا المكان لولا ثقتي بك ... ولتعلم عاقبة ظلم صاحبك .. قال ضرغام أظنك تعني أمير المؤمنين قال حماد : أعني أمير الاتراك والفراغنة ، واذا احرجتني قلت انه أمير الكافرين مثل أخيه المأمون ... ... (٢) " .

صحيح ان هناك محنا وانحرافات ومخالفات في عهد المعتصم ، لكنها لم تكن انحرافات للمسلمين أجمعين بحيث تعم وتسجل لتحسب على المسلمين كلهم ، ولم تحمله تلك الانحرافات قط على التفكير في استبدال الكعبة المشرفة بأخرى في سامراء

---

(١) جورجي زيدان ـ رواية عروس فرغانه ـ ص ١٠٩
(٢) جورجي زيدان ـ رواية عروس فرغانه ـ ص ١١٥

أو ستر من رأى .

د) استخفاف بالحجاب :

وبدلا من أن يصور الكاتب أثر الاسلام والمسلمين في مجتمع الاتراك والفراعنة أخذ يستخف بما يحض عليه الاسلام من ستر للمرأة وصيانة لعرضها وكرامتها ، عن طريق ابعادها عن المثيرات والشبهات ، وتجنيبها المخاطر والمزالق التي تكمن وراء تكشفها وتبرجها ، واذا بزيدان يسخر من كل ذلك بجملة واحدة تمثل رأيه الشخصي الذى أخفاه ثم أسنده الى شخصية من شخصيات رواية " عروس فرغانة " حيث قال :

" ... وأصبح همها أن ترقب ما يبدو منه نحو حبيبها من ترحاب أو ميل ، فلما رأته يرحب به فرحت وكانت بجانب التمثال فاستندت على المضادة وتشاغلت بمسح ما على التمثال من غبار مخافة أن يبدو ارتعاشها ، ولم تغط وجهها لان نساء تلك البلاد لم يكن يعرفن الحجاب يومئذ ولا سيما جيهان ، فكانت تستنكف من تغطية وجهها وتعد الحجاب جبنا وضعفا ... ... (١) " .

عجيب ، أن يعد الحجاب جبنا وضعفا فما الشجاعة والقوة اذن ؟ السفور والتبرج أم ماذا ؟ ثم ما الباعث الفني لمثل هذا التصوير ؟ ألا يمكن الاستغناء عن هذه الصورة باعتبار ان ظاهرة التكشف ظاهرة معروفة مألوفة عند أهل تلك البلاد ؟ نعم كان من الممكن الاستغناء عن كل هذه الصور المادية التي لا تفيد شيئا في تدرج الحدث وتصاعده على أن تنصرف العناية عندئذ الى تصوير الحالة النفسية للفتاة عند رؤيتها لحبيبها مع والدها ، الا أن هذا بالطبع لا يتيح فرصة الافصاح أو التصريح بالفكرة التي تقول : ان الحجاب جبن وضعف ، والسفور والتبرج شجاعة وقوة .

---

(١) جورجي زيدان _ رواية عروس فرغانة _ ص ٣٩ _ ٤٠

هـ) **التركيز على عادات المجوس وتعاليمهم :**

معلوم أن السلسلة التي تنضوي تحتها هذه الرواية هي سلسلة روايات تاريخ الاسلام لكن القارئ لهذه الرواية لا يجد حديثا أو تصويرا لدعوة الاسلام وتعاليمه السمحة ، ولكنه يجد في كل فصل وفي كل ملزمة حديثا مستفيضا وتركيزا قويا (١) على تعاليم المجوس وعباداتهم وعاداتهم ، ومن ذلك قوله :

" ... ... لا ينبغي لكما أن تمالقا في الحزن على أخينا الراحل فان " أورمزد " معهم لانه كان تقيا محسنا وسنوقد النيران على اسمه ثلاثة أيام ونجعل وقودها الند والصندل ولا يخفى عليكما ان روح والدكما لم تفارق هذا المكان بعد ، ولا تفارقه الا بعد ثلاثة أيام تحزنا(ع) ها بالبكاء والنواح ... ... وقد أوصى والدكم بتوزيع الحسنات والمبرات ... وهو لا ريب عندي من أهل النعيم ، ولذلك فان روحه بعد أن تقضي ثلاث ليال حول الجثة سوف تصعد الى الاماكن المباركة فتلاقي ضميره في صورة حورية تقص عليه اعماله الحسنة وتقوده الى النور الابدي ومع ذلك فاننا سنوالي الصلاة على نفسه طوال السنة فلا تجزعا ... ... (٢) " .

هذا بالاضافة الى اتهام الافشين (قائد جند المعتصم) بالمجوسية والمالأة للمسلمين فلم كل هذا ؟ وما الباعث اليه ؟؟ وما علاقته بعد ذلك بتاريخ الاسلام والمسلمين .

---

(١) جورجي زيدان - رواية عروس فرغانة - ص ٣١ ، ٣٢ ، ٣٧ ، ٤٦ ، ٥٥ ، ٦١ .. الخ .
(٢) ~~المصدر السابق~~ هذا خطأ والصواب: تحزنانها، أو تحزنان فيها .

شبهات في رواية

أحمد بن طولون

أ) اشادة بالكنيسة وقسسها

ب) تعليم الشباب طرق الغرام واساليبه

جـ) فرية وتشنيع بالمسلمين

د) تصوير ضعيف لشخصية احمد بن طولون

أ) <u>اشادة بالكنيسة وقسسها :</u>

لقد بالغ مؤلف هذه الرواية في تصوير الكنيسة ورهبانها مبالغة شديدة ولم يكتف بالتصوير واللمحات الخاطفة في الاشادة بها وبهم ، بل عقد فصولا قائمة بذاتها لتلك الاشادة ، ومن تلك الفصول ما يلي :

" الكنيسة " من ص ٩ ـ ١٢ و " الاعتراف " من ص ١٣ ـ ١٨ و " كنيسة شبرى " من ص ٤٨ ـ ٥٠ و " دير القلمة " من ص ٦٠ ـ ٦٣ و " دير أبي مقار " من ص ١٢٩ ـ ١٣٢ و " البطريرك ميخائيل " من ص ١٣٢ ـ ١٣٤ و " عيد الشهيد " من ص ٤١ ـ ٤٢ .

فالنظرة السريعة الى هذه العناوين وحدها تكفي لتأكيد انصراف الكاتب عن موضوعه الاساسى الذى هو استجلاء تاريخ الاسلام ، وتشير الى اشتغاله بأمور لا تمت بصلة الى تاريخ الاسلام ، ذلك لان جميع المواقف التي صورها زيدان في هذه الفصول كانت خاصة بالنصارى وعاداتهم وتعاليمهم ، لان الكنيسة ما كانت تقدم للمسلمين شيئا الا في أوائل عهد الاسلام حيث كان النصارى الاول يستضيفون المسلم الذى يمر بهم لمدة يومين أو ثلاثة أيام ، وذلك تنفيذا لما روى عن النبي صلى الله عليه وسلم من أنه " ضرب على نصارى أيلة ثلاثمائة دينار كل سنة وان يضيفوا من مرّ بهم من المسلمين ثلاثا وألا يغشوا مسلما " .

ولكن زيدان حينما تحدث بكثرة (١) عن الاديرة لم يكن هدفه الكشف عن هذه الضيافة بل كان يرمى الى الاشادة بالكنيسة ورهبانها والاشارة الى أنها ملاذ التائهين ومستودع اسرار الحائرين ، كما كان هدفه التعريف بتلك الكنائس كأنما هو بصدد الكتابة لشباب النصارى عن تاريخهم ، وليس لشباب المسلمين ، ومن ذلك قوله :

---

(١) راجع رواية احمد بن طولون ـ الصفحات : ٥٦ ، ٧ ، ٥٩ ، ١٣ ، ١٩ ، ٢٤ ، ٢٧ ، ٣٩ ، ٤٦ ، ٦٢ ، ٨٨ ، ١٣٠ ـ وغيرها .

" أما دير أبي مقار فهو عبارة عن السور الذى ذكرناه وفيه خمسة أبنية : ثلاث كنائس ، وبناء لسكن الرهبان ، وقضاء حوائجهم من اعداد الطعام وتناوله ، وبرج عال يقال له القصر ، وفيه ذخائر الدير من الكتب أو الآنية القديمة ، ويتخلل هذه الابنية نخيل وبعض النباتات التي يحتاجون اليها في طعامهم والكنائس المشار اليها هي : (١) كنيسة أبي مقار - على اسم صاحب الدير (٢) كنيسة الشيوخ (٣) كنيسة أبزون ، والبناء الذى فيه مساكن الرهبان دار واسعة تحيط بها غرف بعضها للنوم ، وفيها غرفة مستطيلة للطعام ، وحجرة كبيرة للطحن ... ... أما القصر فانه مكون من طبقتين : الطبقة السفلى أقبية معقودة فيها خزائن الكتب ... ... وفي الطبقة العليا ثلاثة معابد ... ... (١) " .

ما هذا ؟ وما علاقته بتاريخ الاسلام ؟

نحن نرى أنه لا علاقة لذلك كله بتاريخ الاسلام الا في خيال زيدان الذى استطاع ان يربط بين هذه الكنائس وبين انشاء جامع أحمد بن طولون ربطا محكما ، حيث جعل مهندسه نصرانيا ، ثم جعل ابن طولون يحار عند التفكير في بناء المسجد فيشترط تشييده بلا أعمدة معللا لذلك تعليلا عجيبا حيث قال :

" سبب ذلك انما هو رفقي بأهل الذمة من سكان هذا البلد ، لاني لما عزمت على بنائه سألت المهندسين عما يحتاج اليه من الاعمدة فقدروا لسه ٣٠٠ عمود فهذه لا أقدر أن أجدها في غير الكنائس فاذا فعلت فاني أستنفد أعمدة الكنائس في الارياف والضياع ، وهذا ظلم لا أرضاه ، وأحسبه لا يرضى الله وأنا أحب أن أبني مسجدا لا يشوب بناءه ظلم ، وقد تعذب قلبي في هذا الامر فلم أجد وسيلة الا أن أجعل هذا الجامع بدون أعمدة ... ... (٢) " .

---

(١) جورجي زيدان - رواية احمد بن طولون - ص ١٣٠ - ١٣١

(٢) جورجي زيدان - رواية احمد بن طولون - ص ١٠٧

وتلك مسألة لا وجود لها في كتب المؤرخين الثقات .

وان تعجب فعجب قول المؤلف ان ابن طولون انما أراد بذلك التخلص مما وقع فيه عمرو بن العاص حيث قال على لسان شخصية من شخصيات روايته : " ان والينا عمد الى هذه الطريقة حتى يتجنب ما وقع فيه عمرو ... . (١) " .

مفاد هذه العبارة أن ابن العاص قد ظلم الكنائس ورهبانها عندما بنى مسجده بالاعمدة أو عندما أحرق مكتبة الاسكندرية بأمر الفاروق كما يقال .

ولا بد من الاشارة هنا الى أن الكنائس التي يتشدق زيدان بالاشادة بها قد ساءت أحوالها منذ وقت مبكر ، فأصبحت لا تقوم بواجب الضيافة المنوطة بها في أول عهد الاسلام ، وخرج أمرها عن الجد المستحسن الى اللهو المعيب ، لما شاع فيها من التبطل وشرب الخمر ، اذ أنها " كانت مأوى أهل البطالة والعبث والمجون والخمر وكان لرهبانها أخبار لا يستحب ذكرها وعجائب من اللهو لا تنقضي .... "(٢) .

ب) <u>تعليم الشباب طرق الغرام وأساليبه :</u>

لقد حشد زيدان في هذه الرواية عددا كبيرا من الحوادث الغرامية ذات المواقف المسفة ولم يكن هدفه منها علاج مشكلة أو حل عقدة ، بل أراد استثارة غريزة الشباب وتحريك شهوة المراهقين منهم مستغلا ضعف ثقافة الكثيرين وجهلهم بالغاية التي كان يرمي اليها من رواياته .

فالقارئ لهذه الرواية يجد الكاتب يعنى برسم وتوضيح طرق الغرام وأساليبه كأنما نيطت به مهمة تعليم الشباب ذلك الغرام ، أو كأنما أراد أن يكتب رواية غرامية

---

(١) جورجي زيدان — رواية احمد بن طولون — ص ١٠٣

(٢) محمود محمد شاكر — أباطيل وأسمار — ص ١٢٩

صرفة ،والا فما معنى عقد فصل كامل بعنوان " المشاكاة " ؟ أتنحصر الحلقة التاريخية في هذه المشاكاة وأمثالها ؟ أم ماذا ؟ ثم ماذا في فصل المشاكاة؟ فيه الكثير من الاسفاف والابتذال ، ومن ذلك ما عبر عنه زيدان بقوله :

" ... ... فالتفتت اليه دميانة ونظرت اليه نظرة عتاب وقالت: لا تقل يا سيدتي فقال سعيد : وماذا أقول اذن ؟ قالت دميانة : " قل يا دميانة ... هذا يكفي " فلما سمع سعيد قولها تهلل وجهه فرحا وقال : هل تأذنين بذلك؟ هل تأذنين أن أسميك باسمك فقط ؟ قالت دميانة بشرط ان تأذن لي أن أدعوك سعيدا . قال سعيد : أنت صاحبة الاذن الاول ويكفيني حظا أنك أذنت أن أكون في خدمتك ... ... ثم يقول : " أخشى يا دميانة أن أكون قد تسرعت في فهم مرادك هل تعنين ما فهمته ؟ أم غلب عليّ الوهم ففهمت ما أتمناه ؟ فتنهدت تنهيدا عميقا وقالت : أبعد ما تراني فيه من دلائل الـ ... تغالطني وتطلب مني زيادة الايضاح ؟ أشفق على عواطفي واكتف بما تراه من اضطرابي ... نعم انك قد فهمت مرادي كأنك تقرأ افكاري ، ولا عجب فانك مقيم " في قلبي ، فلم يتمالك أن صاح من الفرح والدهشة " مقيم في قلبك ؟ حبذا المقام ان لم اثقل عليك . ماذا أقول يا دميانة ، وقد غلبتني على أمري وضيقت عليّ ابواب الكلام فأعترف بعجزي عن الخوض في هذا البيان واكتفي بعبارة بسيطة (١) فأقول انني أحبك حبا يكفي للتوفيق بين الملكية واليعاقبة ونزع ما بينهما من الضغائن أو التأليف بين الاقباط والمسلمين حتى يصيروا أمة واحدة ... ... (٢) " .

عجيبة هذه المكاشفة المفضوحة في رواية تتحدث عن تاريخ الاسلام حيث لا رابطة تجمع بين هذا الغرام وتاريخ الاسلام سوى التأليف المزعوم بين الاقباط والمسلمين حتى يصيروا أمة واحدة .

---

(١) كذا وهو خطأ شائع صوابه : يسيرة .

(٢) جورجي زيدان ـ رواية احمد بن طولون ـ ص ٢١ ـ ٢٢

هذا وان زيدان لم يقدم ـ في مجال تعليم الشباب أساليب الغرام ـ تلك الفقرات فقط ولكنه ذكر أشياء كثيرة نعرض عن ذكرها لتدنيها وكثرتها ، ولكن نشير الى بعض الصفحات التي اشتملت عليها وهي ص ١٥ ، ٢٠ ـ ٢٣ ، وغيرها .

جـ) فرية وتشنيع بالمسلمين :

تتمثل هذه الفرية فيما ذهب اليه زيدان من أن المسلمين في أول الاسلام كانوا يحتقرون الفرس أقل مرتبة . ونحن نرى ان المسلمين في أول الاسلام ـ ان صح التعبير ـ كانوا يركزون على ميزان واحد في التفاضل بين الناس ... ذلك هو الايمان في مقابلة الكفر ، والتقوى في مقابل الانحراف والانزلاق . هذا وقد قال الرسول عليه الصلاة والسلام " لا فضل لعربي على أعجمي الا بالتقوى " فكيف يقال أو يقول زيدان ان العرب كانوا يحتقرون الاعاجم من أول الاسلام الى أن ضعف شأنهم وخرجت مقاليد الدولة من أيديهم ؟

صحيح أن تلك النظرة نظرة عربية ، لكنها جاهلية ، حيث أبطلها الاسلام وعالج النفوس منها ، فالعودة اليها تعتبر انتكاسا ورجعة الى حالة المرض لاسباب خارجة عن المنهج الاسلامي الذى أراد زيدان النيل منه والتشنيع عليه ، والاذاعة بالمسلمين ولا سيما عند ما قال ما نصه :

" ... ... وفي الصباح لبثا ينتظران ما يكون فما لبثا ان سمعا بهجوم الجند على البلد وان المسلمين دخلوا منازل النصارى بحجة التفتيش عن ضائع أو هارب وانما يريدون النهب ومنهم من صدّق دعوى الجند ومنهم من ظنها ذريعة للنهب (١) " .

المسلمون يحتقرون الاعاجم والمسلمون يستغلون أمر أحمد بن طولون بتفتيش البيوت فيتخذونه ذريعة للنهب . عجب .. عجب .. ماذا ينهبون ؟ ولماذا ينهبون ؟

---

(١) جورجي زيدان ـ رواية احمد بن طولون ـ ص ٩٦ ـ ٩٧

ثم لم لا ينهب النصارى ؟ ولم لا يقال انهم يحتقرون غيرهم ويكيدون ويدسون ؟ يدو أن الكنيسة قد زودتهم بالعصمة التي تجعلهم فوق مستوى المسلمين ؟ أم ماذا يا ترى ؟

د) تصوير ضعيف لشخصية احمد بن طولون :

على الرغم من أن احمد بن طولون هو بطل الرواية لم يعن به جورجي زيدان عنايته بالمعلم حنا (١) أو البطريرك ميخائيل (٢) ومن ثم كان تصوير ابن طولون تصويرا ضعيفا لا يعكس الا موقفه من الاقباط وتسامحه معهم ، الى جانب حديث طويل عن موكبه بملابسه الفاخرة والكشف عن جمال وجهه وبيان ما فيه من دلائل الصحة (٣) كأن لم تكن ثمة ناحية اخرى تستحق التكبير والتصوير ، وتتصل بتاريخ الاسلام والمسلمين في عهد ابن طولون .

وهذا الضعف في التصوير لم يأت اعتباطا أو بمحض المصادفة ، ولكنه كان هدفا من أهداف زيدان ، اذ أنه يشير من خلال هذا التصوير الى ضعف المسلمين وضعف حكمهم ، ومن ثم ينفذ الى التقليل من شأن الاسلام والمسلمين ، والى تنفير أبناء المسلمين من تاريخهم الاسلامي الذي يوصف بأنه تاريخ مجيد في كثير من فتراته . والله أعلم .

---

(١) جورجي زيدان _ رواية احمد بن طولون _ ص ٦٦ _ ٦٩

(٢) جورجي زيدان _ رواية احمد بن طولون _ ص ١٣٢ _ ١٤٥

(٣) جورجي زيدان _ رواية احمد بن طولون _ ص ٨٠ _ ٨١

شبهات في رواية
عبد الرحمن الناصر

أ) دعوة متسترة الى السفور والتبرج .

ب) تشويه وتمزيق لشخصية عبد الرحمن الناصر .

جـ) طعن في فقهاء المسلمين .

د) غرائب ودسائس .

أ) دعوة متسترة الى السفور والتبرج :

لم يكتف زيدان بسخريته من الحجاب في رواية عروس فرغانة ، لكنه عاد هنا ليكرر السخرية تأكيدا لها ودعوة الى السفور والتبرج ، وقد ركز الناشر اللبناني على هذه الدعوة المتسترة المفرضة فأبرزها ووضحها بوضع صورة فتاة جميلة مشمّرة الساعدين كاشفة الوجه وقد عبث النسيم بشعرها ، والدرّ من فمها الندى تكشف وبان ، ثم وضع تحت هذه الصورة ـ التي حاولنا ابرازها بتلك الكلمات ـ ما يلي : " فقالت عبارة بألفاظ رخيمة لها وقع على النفس اشد من وقع معانيها :لا أرى مبررا لتغطية الوجه الا ضعف النفس ، واني على رأى عائشة بنت طلحة فقد كانت تجالس الرجال ولا تحجب وجهها عنهم ، ولما سئلت عن ذلك قالت ان الله تبارك وتعالى وسمني بميسم جمال أحببت أن يراه الناس ويعرفوا فضله عليهم فما كنت لاستره ... (١) " .

معنى هذا أنه من الواجب على كل فتاة جميلة ان تكشف جمالها للناس ـ كل الناس وألا تحرمهم من المنحة الربانية ، هكذا دون التفات الى ما قد يترتب على ذلك التكشف من عواقب وخيمة ، ومن تدرج في السقوط الى بؤرة الرذيلة والفساد ، اذ أن النظر الى ذلك الجمال والتمتع به يغرى ويدعو الى ما هو أكبر ، والا لما قال الشاعر :

حوراء ان نظرت اليـ ... ـك سقتك بالعينين خمرا

ولما قيل :

فيها جنى ابن العبد حلو شبابه ... راح وريحان ووجه أقمر

ومن ثم نرى ان تلك الدعوة لا تقر بحال الا عند من يستجيبون لدعوة ابي نواس المفرضة المسفة ، التي عبر عنها بقوله :

---

(١) جورجي زيدان ـ رواية عبد الرحمن الناصر ـ ص ١٣، وكلمة « مبررا » خطأ شائع والصواب « مسوغا »

خطّ في الارداف سطر من بديع الشعر موزون

لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون

هذا وقد اكثر زيدان في هذه الرواية من الاستشهاد بالابيات المسفة الساقطة التي تحرك الغرائز الدنيا ، وذلك يؤكد أنه انما أراد الدعوة الى السفور والتبرج والانحلال والفساد . وان شئت فقل : انما أراد أن يبيح كل محرم ، وكل عرض وكل شرف يقدسه الاسلام .

ب) <u>تشويه وتمزيق لشخصية عبد الرحمن الناصر :</u>

لقد أغمض كاتب رواية عبد الرحمن الناصر جفنيه عن مخازي المسيحيين ومآسيهم في الحروب — في عهد عبد الرحمن وقبل عهده — وكفّ بصيرته ، فأبعد قلمه عن تصوير بطولة القائد العربي المغوار عبد الرحمن الناصر ، وأعرض عن الحديث عن صمود ذلك المسلم أمام جموع المسيحيين المدججة بالسلاح والعتاد ، واخذ يركز على سقطات عبد الرحمن الناصر وزلاته وهفواته ، ليقول لشباب المسلمين : ليس جديرا بكم أن تفاخروا أو تفتخروا بأولئك الذين شغلتهم الفتيات ، وأغرتهم ملذات الدنيا وشهواتها ، فبالغوا في تشييد الدور واقامة القصور ، بل انصرفوا الى الطرب والغناء ، وغير ذلك من الامور التي عني زيدان بابرازها ، ولا مجال لابراز شيء من الامور الحميدة والصفات المجيدة كأن لم يكن للرجل الا هذه الجوانب التي تقلل من شأنه وتحط من قدره .

وقد ذكر المؤلف تلك الجوانب في مواضع عديدة من الرواية (١) نذكر بعضا منها على سبيل الاستشهاد لا الحصر في قوله :

" ... وهي الزهراء اذ لم يكن أعز منها على قلبه ، ولا يريد أن يدع سبيلا لسوء الظن بينه وبينها ، نظرا لولعه بها وشدة تعلقه بحبها ، وقد

(١) راجع الصفحات : ١٩ ، ٢٠ ، ٣٣ ، ٥٤ ، ٥٥ ، ٧٢ ، ٩٤ ، ٩٧ ، ١٠٦ ، ١١٣ ، ١١٤ ، ١١٥ ، ١١٨ ، ١٢٣ ، ١٢٨ ، ١٣٠ ، ١٣٨ ، ١٤٣ ، ١٤٤ ، ٢٠١ ، ٢٠٢ ، وغيرها .

أنفق الاموال في تشييد تلك القصور لاجلها ٠٠٠ (١) " وقولــه :

" ٠٠٠ ولكن هل يجوز في الاسلام اقتناء التماثيل ؟ فقال ياسر : ذلــك سـبب نقمة بعضهم على أمير المؤمنين ٠٠ ولكن الحوض جاءه هدية من ملك عظيـم وهو لا يرى ضررا من اقتنائه أو لعل الترف والانغماس في الحضارة سهلا عليـــه ذلك ٠٠٠٠ (٢) " ٠ وقولـــه :

" ٠٠٠ ٠٠٠ وكانت قد أصلحت القانون فتناولته واعتدلت في مجلسهـا وجعلت تعزف عليه عزفا لم يسـمع الناصر مثله ، وكان قد اسـتخفه الطرب وهاجـه الشـراب فجعل يحرك يديه ورجليه ويزحف عن سـريره فاغتنمت عابدة تلك الفرصـة وغنت صـوتا لابراهيم بن المهدى أحسـنت توقيمه وأداءه فلم يتمالك الناصر أن صاح من الطرب ٠٠٠ (٣) " وقولـــه :

" ٠٠٠ ٠٠٠ فغنته صوتا آخر على لحن زاده طربا وأشـار الى الجـوارى ان يسـقينه فدارت الاقداح وسـعيد يظهر أنه يشـرب ولا يشـرب وكذلك عابـدة ولما أحس سـعيد أن الشـرب أخذ من الناصر اشـار الى عابدة ٠٠٠٠ (٤) " ٠

هكذا يتهمه بشـرب الخمر والانغماس في الترف والملذات والانشغال بالطرب والغناء ، ولم يكتف بهذا ، بل طعن في عرضـه ، وذلك عندما أقام علاقـة خبيثـة بين زوجته " الزهراء " وابنه عبد الله قائـلا :

" ٠٠٠ ٠٠٠ فرأى الزهراء واقفة وبجانبها شـبح لم يعرفه حتى نبهه ياسر الى سـحنته فعرف انه ابنه عبد الله ، فهاج الدم في عروقـه ، وأوشـك ان يصـرخ فيه لو لم يمسك نفسـه خشية الفضيحـة ٠٠٠ " (٥) ٠

---

(١) جورجي زيدان _ رواية عبد الرحمن الناصر _ ص ٩٧
(٢) ============= ======== ص ١٠٦
(٣) ============= ======== ص ١١٣
(٤) ============= ======== ص ١١٤
(٥) ============= ======== ص ١٢٣

ثم يؤكد زيدان هذه الصورة المتحللة والفرية المتآكلة بالحوار الذى أجراه بين عبد الرحمن الناصر وزوجته الزهراء ، ومما جاء في ذلك الحوار :

" قال الناصر : مع من كنت مختلية هذا المساء .... الخ (١) .

ويقول المؤلف بعد هذا ان الناصر قد استعان بالمنجمين ليعرف كيف كان وصول ابنه عبد الله الى زوجته الزهراء : " فعاد الى المبخرة ووضع عليها قطعة أخرى من البخور ونظر الى دخانها وقال : هو بعينه ، وعليه ملابس النساء ، والزهراء الى جانبه تحادثه ... ... (٢) " .

والاعجب من هذا كله هو اختلاء المنجم سعيد الوراق بزوجة الخليفة بحجة أنه يعلمها العزف والغناء العراقي بأمر الخليفة ، ثم تهديد المنجم للزوجة بالعبارات التاليـة :

" ... ... لست لصا ، انما اللص من يخون ولّي نعمته ويختلى بالغرباء يأتى بهم الى قصر الخليفة في أثواب النساء ... ... (٣) " .

وهكذا حتى ينتهي الامر باختطاف سعيد زوجة الخليفة ، ثم تعريضهـا للعذاب والهلاك ، ويعلل المؤلف كل هذه الامور الخيالية او الخرافية بأن سعيدا كان يحب الزهراء قبل الناصر ، لكنه استأثر بها بما لديه من نفوذ ، فبقي سعيد حاقدا حانقا على الناصر ودولته بسبب تلك الفتاة قائلا :

" ان الغرض الذى حملني على هذه الرذائل من أشرف الاغراض ، بل هو أشرفها جميعا ، لان عليه يتوقف عمران هذا الوجود ، بل هو سنة من سنن الله في خلقه وفضيلة من أكبر الفضائل ... ... وأما سواى فانه يرتكب الرذائل في سبيل اغراض تخالف سنة الوجود وقد نهى عنها الشرع والعرف ، كم من رجل ارتكب الغدر والفتك والقتل التماسا لمنصب الملك والخلافة وهذا المنصب نفسه

---

(١) جورجي زيدان ـ رواية عبد الرحمن الناصر ـ ص ١٢٨
(٢) ======== ============ ـ ص ١٣٨
(٣) ======== ============ ـ ص ١٤٣

مشوب بأمثال هذه الرذائل ، لان طالب الملك متى تأله حلّل لنفسه كل محرم، وساعده الناس على التمادي في الأثرة ... ... (١) " .

ثم يجري حوارا بين عبد الرحمن الناصر وبين سعيد على النحو التالي :

" ... ان ذلك السبب هو الحب . هذا هو الذي حملني على ارتكاب ما ارتكبته فهل في الحب عار ؟ قال الناصر : ولكن الله ينهى عن التمدّي على نساء الاخرين قال سعيد : نعم ياسيدي ولكن الحق الطبيمي (٢) في الحب للمحب الاول خلافا لما هو جار في أعمال الناس فان القوي يفوز بما يريد ، والضعيف يذهب حقه هباء (٣) " .

ما هكذا تكتب الروايات التاريخية التي تهدف الى تشويق الشباب الى مطالعة التاريخ ، وما هكذا كانت سيرة الناصر التي صورها زيدان بأنها انحصرت في دائرة الحب والغرام ، واللهو والعبث ، أين مواقفه الحاسمة وحروبه الطاحنة وصده لهجمات المسيحيين الذين عرفوا بأنهم " كانوا جفاة أميين ، وكانت أخلاقهم على اتساق مع أميّتهم ،وما كان يتوقع من هؤلاء الجفاة المتوحشين الا التمصب والقسوة فانهم لم يؤمّنوا مستجيرا ، ولم يتركوا فارًّا ولم يبقوا على جريح ... (٤) " .

أما كان جديرا بزيدان أن يصور هذا الجانب ، تقريرا للحق وتشويقا للقراء ؟ ولم لم يحذ حذو " ستانلي " الذي لم يكن عربيا ولا مسلما ، كما لم يكن متعصبا للعرب ، لكنه كان لهم منصفا ، وعلى تاريخهم أمينا ، حيث كتب قصة مصغرة عن الاندلس لكنها اشتطت على شيء من الانصاف ، كقوله عن الامير عبد الرحمن الناصر :

" استطاع الامير مستعينا بالصقالبة ان يطهر البلاد من عصابات السوء وان يسل منها روح التمرد ، ثم ان يشمل حربا ضروسا على نصارى الشمال

---

(١) جورجي زيدان — رواية عبد الرحمن الناصر —ص ٢٠٢
(٢) خطأ شائع والصواب : طبمي
(٣) جورجي زيدان — رواية عبد الرحمن الناصر —ص ٢٠٣
(٤) ستانلي لين بول — قصة العرب في أسبانيا —ص ١١٤

ويعود مظفرا منصورا ، فقد كانت مملكة الاسلام في أيامه مهددة بخطر أشد من خطر الفوضى والثورات ... ... (١) " .

يبدو أن زيدان لا يريد لمثل هذه الحقائق أن تظهر لانه مسيحي متعصب ينظر لاعمال المسيحيين بعين الرضا ، ولاعمال المسلمين بعين السخط . فلا غرابة اذن في أن نجد في روايته تمزيقا للشخصيات وتشويها للحقائق .

جـ) طعن في فقهاء المسلمين :

في الوقت الذى أعلى فيه زيدان من شأن القسس - الذين هم فقهاء المسيحيين - عمد الى التقليل من شأن فقهاء المسلمين ، والطعن في سلوكهم ، حيث اختار فقيها من كبار فقهاء قرطبة ، هو ابن عبد البر الكسياني ، وجعله وصوليا يتقرب الى الحكام بطرق مشروعة وغير مشروعة ، ويطمع في أن ينال حظوة لديهم ، ولما افتضح أمره اشترك في تدبير المكائد ضد الخليفة ، ... الى غير ذلك من الصفات الدنيئة التي أضافها زيدان الى الفقيه ابن عبد البر ، ليقول لشباب المسلمين : هكذا كان فقهاؤكم بينما كان القساوسة يسمون الى السلام والوئام .

هذا واليك بعضا مما جاء عن الفقيه ابن عبد البر في رواية عبد الرحمن الناصر لجورجي زيدان .. قال :

" ... فلما سمع الامير عبد الله كلام الفقيه اعتقد في اخلاصه لكنه لم يقتنع بانتقاده فقال : أراك تقول ما تقوله نتيجة غضبك لنفسك فلا ينبغي لك أن تجعله ذريعة للطعن على ولي العهد ... ... (٢) " . وقال :

---

(١) ستانلي لين بول - قصة العرب في أسبانيا - ترجمة الجارم - ص ١١٠

(٢) جورجي زيدان - رواية عبد الرحمن الناصر - ص ٤٤

" ... فقطع الامير عبد الله كلام الفقيه وقال : دع هذا الحديث أيها الفقيه وحدثنا بما يفيد ، انى اراك قد تطاولت في طعنك الى والدنا الخليفة عبد الرحمن صاحب هذه الدولة ، وهو الذى أقام بنيانها ، وحارب الكفار وغلب الاعداء ونصر الدين ... (١) " .

وقال : " ... فأعجب الامير عبد الله بما تضمنه حديث سعيد من الاخلاص والحزم وصدق النصيحة ، لانه ظل يعد نصيحة الفقيه ابن عبد البر مشوبة بالغرض بسبب نقمته على أخيه الحكم وهو الذى حرمه من منصب القضاء ... ... (٢) " .

وقال : " ... ... قالت الزهراء احسب ان هذا الفقيه هو الذى أغراك على أبيك انتقاما لنفسه من الفشل الذى أصابه يوم ذلك الاحتفال ... اذ امتنع عليه الكلام ... ... (٣) " .

ذلك ما أراد جورجي زيدان تقريره في أذهان الشباب عن فقهاء المسلمين في تلك الفترة ، على حين أن ابن الاثير يبعد الفقهاء عن السلبية أو الانزلاق ، فيشير الى أنهم كانوا يتصدون للحاكم عند ما ينحرف أو ينشغل بالدنيا وملذاتها فينصحونه ولا يتملقونه أو يسترضونه على حساب الدين والخلق القويم .

ومن ذلك ما رواه عن الفقيه القاضي منذر بن سعيد البلوطى ، الذى قال للخليفة عبد الرحمن الناصر :

" ... ... والله ما كنت أظن أن الشيطان — أخزاه الله — يبلغ منك هذا المبلغ ولا أن تمكنه من قيادك هذا التمكين مع ما آتاك الله وفضلك به ، حتى أنزلك منازل الكافرين . فقال له عبد الرحمن : انظر ما تقول وكيف أنزلنى منزل الكافرين ؟ فقال : قال الله تعالى : " ولولا ان يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفا من فضة ومعارج عليها يظهرون ولبيوتهم أبوابا وسررا

(١) جورجي زيدان — رواية عبد الرحمن الناصر — ص ٤٥
(٢) ======== ============ ص ٧٣
(٣) ======== ============ ص ١٦٠

عليها يتكئون وزخرفا " الى قوله : " والآخرة عند ربك للمتقين " • فوجم عبد الرحمن وبكى وقال : جزاك الله خيرا واكثر في المسلمين مثلك • وأخبار هذا القاضي كثيرة حسنة جدا " (١) •

وواضح ان هذه الاخبار الحسنة التي يشير اليها ابن الاثير لا تروق لجورجي زيدان ،ولا تصلح مادة لقصته التي تقوم على الخيال المحض وتشتمل على طعون كثيرة في طوائف وجماعات متعددة وليست طائفة الفقهاء فقط •

د) غرائب ودسائس :

لقد جمع زيدان في هذه الرواية بين غرائب الامور وعجائبها ، مما لا يقبله العقل ولا يقره العرف أو الشرع ، وذلك مثل تدريب سعيد للفتاة التي تحبه ولا يحبها — تدريبها على عمليات الفتك والانتقام — وذلك لكي تنتقم له من عدوه، ثم العمل على قتلها بعد استنفاد الاغراض منها ، وغير ذلك من الامور التي تقشعر لها الابدان •

وغرض الكاتب من ذلك كله هو الاتيان بالمكائد والدسائس التي تشوه صفحة التاريخ الاسلامي ، والنصوص التي تؤكد ميل الكاتب الى هذا الغرض كثيرة في رواية عبد الرحمن الناصر كقوله :

" قال سعيد هل تطيعينني حتى الموت ؟ قالت عابدة : حتى الموت،سعيد،، قال سعيد : لا أعني ان تعرضي نفسك للموت بل أعني اذا اقتضت الحال ان تقتلي أحدا بيدك ••• هل تفعلين ، قالت عابدة : اذا كان ذلك في استطاعتي فعلته ، قالت ذلك وقد أحست بقشعريرة خفيفة وسكتت ••• ••• (٢) " وقوله :

---

(١) ابن الاثير — الكامل — المجلد الثامن — ص ٦٧٤

(٢) جورجي زيدان — رواية عبد الرحمن الناصر — ص ١٧

" وقد جرت عادة الخلفاء وولاة العهد في الاسلام ان يوسعوا لاخوتهم وأعمامهم أبواب الرزق ، ويعطوهم الجوارى والسرارى ويخصوهم بالاقطاعات الواسعة ويفرضوا لهم الرواتب الباهظة ، ويهدوا اليهم الهدايا الثمينة تعويضا لهم عما خسروه من حق الملك ، وخوفا من نقمتهم ... ... (١) " .

وتلك دسيسة عجيبة ، وتعميم غريب مفروض ، نعم غريب ان تكون عادة الخلفاء في الاسلام تبادل السرارى والجوارى مع إخوتهم واعطاء اخوانهم الاقطاعات الواسعة والهدايا الثمينة ، فهذا تعميم مرفوض ، لانه لا ينطبق اطلاقا على الخلفاء الراشدين ، ويتعارض مع ما عرف عنهم ، ولا ينطبق ايضا على الخليفة الاموى الزاهد عمر بن عبد العزيز ، لكنه قد ينطبق على بعض خلفاء بنى أمية وبنى العباس وليس معنى ذلك الانطباق انه عادة خلفاء الاسلام .

وعلى هذا النحو تتوالى الدسائس وغرائب الامور في رواية عبد الرحمن الناصر لتشوه صفحات التاريخ الاسلامي ، وتشوق الشباب الى مطالعته من خلال روايته التى اشتملت على صورة تطبع في نفوسهم أسوأ الآثار عن حكام المسلمين .

---

(١) جورجى زيدان - رواية عبد الرحمن الناصر - ص ١٨

شبهات في رواية
الانقلاب العثماني

أ) حشد المناظر البشعة والمواقف المسفة .

ب) عناية بالمواقف الغرامية ومغامراتها .

جـ) أقاويل وأباطيل .

د) دور اليهود .

أ) حشد المناظر البشعة والمواقف المسفة :

الذى يتبادر لقراء رواية الانقلاب العثماني هو أن الكاتب انما أراد أن يقدم صورة للخلافة العثمانية في مرحلتي : القوة والضعف ، على حين أنه لم يصور سوى عهد عبد الحميد الذى اتسمت فترته ببعض الاضطراب .

ولم يكن ذلك الاختيار — من جورجي زيدان — اعتباطا أو بمحض المصادفة بل كان اختيارا متعمدا وأمرا مدبرا ، والدليل على ذلك هو قطعه لسلسلة التاريخ القديم الذى كان يتحدث عنه ومسارعته الى الكتابة عن عهد عبد الحميد بسبب اعلان الدستور ، ليشيد به ، ويقول — تعريضا بنظام الخلافة — انه الحياة وانه النظام الذى لا يعدله نظام ومن ثم يوحى للقارئ بأن ما كان يركز عليه عبد الحميد ومن لف لفه شيء عتيق لا يصلح لتنظيم المجتمع وتوجيه الانسانية ، على حين انه لا عيب في ذلك النظام الذى أراد عبد الحميد الحكم باسمه ، لكن العيب في بعض أعوان عبد الحميد ولم يرد الكاتب الايماء الى هذا أو الايحاء بسببه ، بل أراد ان يقول لشباب المسلمين ان نظام الخلافة الاسلامي بشع الوجه كريه المظهر فى شتى عصوره .

ونحن لا نريد أن نبرئ عهد عبد الحميد أو نزيده من المناقص والعيوب لكننا نعيب على الكاتب تركيزه على الاخطاء دون سواها ، واهماله للجوانب الحميدة ، وانصرافه عن الشخصيات الاسلامية التى كان من الممكن ان تقدم نموذجا انسانيا راقيا ، تتجسد فيه معاني النبل والاخاء والتعاون ، وهي كثيرة في التاريخ الاسلامى — القديم والوسيط والحديث ، ولكن لا أثر لها ، بل لا وجود لها في سلسلة روايات تاريخ الاسلام — لجورجى زيدان .

لذا نرى ان المؤلف انما تعمد اختيار بعض الاخطاء ليحشدها في رواية الانقلاب العثمانى وغيرها ، وليقول للقراء ان ذلك هو الطابع الغالب على تاريخ الاسلام والمسلمين .

ب) العناية بالمواقف الغرامية ومغامراتها :

لقد شغل الغرام حيزا كبيرا من رواية الانقلاب العثمانى ـ لجورجى زيدان ، وكان ذلك الغرام بين رامز ـ أحد أعضاء جمعية الاتحاد والترقى ، وبين شيرين ابنة خالته وعضده الايمن فى أعماله التحررية .

ولا غرابة فى حب رامز لابنة خالته أو أية فتاة أخرى ، لكن الغرابة فى الاتيان بهذه القصة الغرامية فى مجال رواية تتحدث عن تاريخ الاسلام والمسلمين ثم الغرابة ـ بعد ذلك ـ فى الاسراف فى تصوير العقبات التى كانت تعترض هذا الحب وفى موقف والد الفتاة ، حيث جعله المؤلف رجلا نفعيا لا يأبه بمواضعات الخلق أو القانون ، ولذلك حاول اقناع ابنته بقبول " صائب بك " أحد انصار السلطان عبد الحميد ، واضطر للجمع بينه وبينها فى خلوة شغلت المؤلف فخصص لها فصلا كاملا بعنوان " الخلوة (١) " وقد أجرى فى هذا الفصل حوارا يفقد المعقولية ويدل على التهافت على الرغم مما اكتنفه من تهديد ووعيد ، ودسائس ومكائد ...

وهكذا الى أن ينتهى الامر بانتصار رامز وحبيبته على صائب وجماعته ، ثم تفوز جمعية الاتحاد والترقى وكأنما كان فوزها مرهونا بنجاح حب رامز وشيرين .

جـ) أقاويل وأباطيل :

ليكشف الكاتب النقاب عن مساوئ عهد عبد الحميد ـ فى نظره ونظر أمثاله ـ عمد الى الخيال وتعمد تمزيق شخصية عبد الحميد شر ممزق ، حيث تعرض لنسائه فقال ما نصه : " ويسرنى ان أبشركم بأمر وفقنا اليه ، ولم يكن فى الحسبان ، وذلك أن احدى القوادات من نساء السلطان عبد الحميد فرت

---

(١) جورجى زيدان ـ رواية الانقلاب العثمانى ـ ص ٦١

من القصر ، وهي شديدة النقمة على عبد الحميد وتريد قتله .... (١) " .

ولم يكتف المؤلف بهذا بل جعل أرواح الناس وأعراضهم وأموالهم - في عهد عبد الحميد - في أيدى الجواسيس ، يضعون من شاءوا ويرفعون من شاءوا (٢) ، وقد جاءت هذه الصورة بعد الحكم على عبد الحميد بأنه خليفة الرسول (ص) وذلك على لسان شخصية من شخصيات الرواية قائلا : " ثم هم كيف يستطيعون مقاومة خليفة الرسول (ص) ؟ (٣) " .

وواضح انه لم يجعل عبد الحميد خليفة للرسول (ص) الا ليقول لشباب المسلمين هذا هو خليفة الرسول ، ويقول : بئست الخلافة وبئس الخليفة ، ونحن نرى أن هذا الكلام ناشئ عن مرض قلبي سببه الرئيس ان مسيحيي لبنان - وجورجي زيدان منهم طلبوا من عبد الحميد انشاء دولة مستقلة في لبنان للمسيحيين فرفض وكان ذلك بوساطة سفير فرنسة .

كذلك طلب اليهود منه أن يبيعهم فلسطين على ان يسددوا ديون تركية جميعها ويعطوه مائة مليون جنيه استرليني فوق ذلك فقال كلمته الخالدة : " ان فلسطين ملك لشعبها العربي وليست ملكي ، فكيف أبيع ما لا أملك " ؟

وقد شوه تاريخ عبد الحميد على أيدى الكتاب اليهود والمسيحيين بهذا السبب ، ولان الصليبية والصهيونية عملتا على القضاء على النظام السياسي الاسلامي " الخلافة " وتفتيت دولة المسلمين ، وألبوا العرب على الاتراك حتى انتهى عهد الخلافة في تركية على يد عميلهم كمال اتاتورك ، واستطاعوا بعد الغاء الخلافة ان يفعلوا بالعرب والمسلمين ما شاءوا من تفريق وتمزيق واستعمار .

---

(١) جورجي زيدان - رواية الانقلاب العثماني - ص ٣٠٣
(٢) جورجي زيدان - رواية الانقلاب العثماني - ص ٤٠
(٣) جورجي زيدان - رواية الانقلاب العثماني - ص ٣١

شبهات في رواية
فتاة القيروان

أ) العناية بالغرام لا التاريخ
ب) التشكيك في نسب المعز لدين الله
جـ) تحوير وتحريف وتخريف
د) دور اليهود

أ) العناية بالغرام لا التاريخ :

من دراستنا لهذه الرواية اتضح لنا أن نسبة العناية بالجانب الغرامى كانت أكبر من نسبة العناية بحقائق التاريخ ، اذ أن ثلاثة ارباع الرواية كانت تصويرا لحب فتاة القيروان وتوضيحا للعقبات التي كانت تعترض ذلك الحب وتحول دون تحقيقه .

وهدف المؤلف من هذه العناية هو تفسير أحداث التاريخ وتسويغ وقائعه تسويغا غراميا ، وتلك مسألة لا تستند الى حجة ، ولا تمت الى الحقائق التاريخية بصلة ، لان ما ذكره جورجى زيدان من حب حسين بن جوهر الصقلى لفتاة القيروان ثم حبها وتعلقها بسالم لاحسين _ كل ذلك _ كان خيالا محضا جاء به المؤلف ليشوق القارئ الى أحداث التاريخ ثم يمده بالتفسير الذى يريد الترويج لـه .

وقد كان غرام فتاة القيروان غراما عجيبا ، حيث جعلها تستهوى الخليفة المعز لدين الله ، وتشغل جوهرا وابنه ، ثم تتخذ رهينة لتهديد والدها (حاكم سجلماسة) اذا ما فكر في الغدر بالدولة ، بينما اتخذها سالم _ حبيبها الاول _ وسيلة للاطاحة بنظام الفاطميين ، وفى الوقت نفسه انزعجت زوجة الخليفة المعز لدين الله من وجود هذه الفتاة فى القصر خشية ان يقع الخليفة فى شراكها .

فما الذى يستفيده القارئ من هذه المواقف المسفة المضطربة ؟ ثم ما علاقة ذلك كله بتاريخ الاسلام ؟ ولماذا يتغلب هذا الجانب الغرامى على الحقائق التاريخية (١) ؟

---

(١) راجع رواية فتاة القيروان _ ص ١٢ _ ٣٥ ، ٦٥ _ ٨٥ وغيرها .

ب) التشكيك فى نسب المعز لدين الله :

عمد المؤلف الى التشكيك فى نسب الخليفة المعز لدين الله ، وأجرى هذا التشكيك على الكثيرين من حكام المسلمين ، وكان هدفه من ذلك تمزيق الشخصيات الاسلامية وتشويه تاريخها ، وقد جاء ذلك التشكيك على لسان شخصية من شخصيات الرواية وفى مواطن عديدة (١) منها قوله :

" ... ... لم أستغرب من قولك الا اعتقادك ان النسب الذى يدعيه هؤلاء لانفسهم صحيح ، ... ... أنا أعلم الناس بأنسابهم ولكن الانسان اذا تغلب انتحل النسب الذى يريده (١) " .

ونحن نرى انه لا مسوغ لهذا التشكيك من الناحية الفنية أو الواقعية، اذ أنه من الممكن تصعيد الاحداث والكشف عن نوايا اعداء المعز بغير هذا التشكيك ، كما أنه لا وجود لهذا التشكيك فى الكتب التاريخية التى تحدثت باستفاضة (٢) عن شخصية المعز لدين الله ، من ذلك قول ابن الاثير :

" ... ... فى هذه السنة توفى المعز لدين الله ابو تميم معد بن المنصور بالله اسماعيل بن القائم بأمر الله أبي القاسم محمد بن المهدى أبي محمد عبد الله العلوى الحسينى بمصر ... ... " .

وواضح انه قد ذكر سلسلة لا تدع مجالا للتشكيك ، بل تجعل التشكيك أمرا غير مقبول فنيا أو واقعيا .

---

(١) راجع رواية فتاة القيروان — ص ـ ٣٧ ، ٤١ ، ٤٤ ، ١٣٨

(٢) ابن الاثير — الجزء الثامن : ص — ٥٥٦ ، ٥٥٧ ، ٥٩٠ ، ٥٩١ ، ٥٩٨ ، ٦١٠ ، ٦١٢ ، ٦١٦ ، ٦٢٠ ، ٦٢٣ ، ٦٢٤ ، ٦٣٨ ، ٦٣٩ ، ٦٤٣ ، ٦٤٧ ، ٦٥٦ ، ٦٥٧ ، ٦٦٣ .

ج) تحويـر وتحريـف :

لقد ذهب زيدان الى أن حاكم سجلماسه هو الامير حمدون والد فتاة القيروان التى أحبت سالما فخطبت له ثم تنازل عنها لما خطبت لابن جوهر الصقلى قائد المعز لدين الله ، لكنه لم يتنازل الا بعد اقتناع الفتاة بأنها ستذهب الى قصر المعز لتدبير مكيدة للفتك بجوهر وابنه ثم بالمعز نفسه ، ثم تعود بعد ذلك الى حبيبها الحقيقي الذى تهيم به وتحبه حبا مفرطا ، أو هكذا صورتها رواية زيدان ، وقد اعجب والدها بهذا التدبير ، كما يشير قول زيدان :

" فتصدى والدها عند ذلك وسره اقتناع ابنته فقال بورك فيك يا ابنة صاحب سجلماسه .... انهضي الان وارجعى الى قصر المعز ومتى سئلت عن الرضى بالخطبة فقولى انك رضيت لان اباك وامير المؤمنين رضيا أفهمت ..؟ .. (١) " .

على حين انه لا ذكر لكل هذه المواقف فى جميع كتب التاريخ ، بل ان ما جاء فى كتب التاريخ عن صاحب سجلماسة يختلف تماما عما جاء فى رواية زيدان مايؤكد ميل زيدان الى التزوير والتحوير ، أو التخريف والتحريف ، ونذكر هنا قول ابن الاثير عن صاحب سجلماسة :

" ... أشار المعز لدين الله على جوهر وأصحابه بالرحيل الى سجلماسة ، وكان صاحبها محمد بن واسول ، قد تلقب بالشاكر لله ، ويخاطب بأمير المؤمنين ، وضرب السكة باسمه ، وهو على ذلك ست عشرة سنة ، فلما سمع بجوهر هرب ثم أراد الرجوع الى سجلماسة ، فلقيه أقوام فأخذوه أسيرا وحملوه الى جوهر ، ومضى جوهر حتى انتهى الى البحر المحيط فأمر ان يصطادوا له من سمكه فاصطادوا له ، فجعله فى قلال الماء وحمله الى المعز وسلك تلك البلاد جميعها فافتتحها .. (٢) " .

---

(١) جورجى زيدان ـ رواية فتاة القيروان ـ ص ٤٥

(٢) ابن الاثير الكامل ـ الجزء الثامن ـ ص ٥٢٤ ـ ٥٢٥

هذا النص لم يشر الى أن صاحب سجلماسة هو الامير حمدون انما قرر في وضوح وقال بعبارة صريحة ان صاحب سجلماسة هو محمد بن واسول ولم يقل ان له بنتا شغلت جوهرا فخطبها لابنه حسين .

د) دور اليهود :

أبى خيال الكاتب الا ان يزج باليهود في روايته ويعطيهم دورا ايجابيا ثم يجعلهم بعد ذلك اصحاب الفضل الاول في ازالة الدولة الاخشيدية واقامة دولة الفاطميين مقامها . بل ادعى ان اليهود هم السبب في انقاذ حياة الخليفة المعز لدين الله من هلاك محقق . وكان ذلك الهلاك قاب قوسين أو أدنى . ولولا وصول رسالة اليهودى ابن كلس لهلك الخليفة . وقد عبر زيدان عن هذا بقوله :

" قالت لمياء : ان يعقوب بن كلس اليهودى المقيم بمصر أرسل تلك الرسالة المستعجلة الى سيدى المعز لدين الله . فهو صاحب فضل كبير .... أليس كذلك ؟ فحنت أم الامراء رأسها اذعانا للحق وقالت : نعم انه صاحب الفضل الاكبر ولولاه لنفذت حيلة ذلك الشرير ... ... (١) " .

وذاك فضل مزور ومفترى . ولا ندرى ما الباعث عليه . ولا الموجه اليه ؟ بل لا ندرى ما الذى جعل اليهودى ابن كلس يحرص على حياة حاكم من حكام المسلمين فى دولة أخرى ليس هو من رعاياها ؟ لكننا وجدنا زيدان يعلل ذلك بقوله :

" ... وكان يعقوب قد أخلص النية للمياء لانها وقعت من نفسه موقعا عظيما واعجب بما رآه من صدق غيرتها ومروءتها وهو شريكها في غرضها السياسي فقد كان يرى ابدال الدولة الاخشيدية بالفاطمية . ليس حبا في الشيعة او انتصارا للحق ... ... لكنه كان ذا مقام عند كافور . وكان يتوقع حدوث انقلاب ولا سيما

---

(١) جورجى زيدان - رواية فتاة القيروان - ص ١١١

بعد مرض كافور ... وهو يعلم تغير قلوب الاخشيدية واضطراب احوالهم ، فرأى أن يصادق الفاطميين فيمسك الحبل من الطرفين .... الخ (١) " .

ثم يتحدث المؤلف بعد هذا عن دور الطبيب اليهودى " شالوم " الطبيب الخاص بكافور الاخشيدى ، وهكذا يعنى بأدوار اليهود كأنما كانت الفترة التى عني بتسجيل أحداثها مقفرة من جميع الاحداث الهامة ..

...

(١) جورجى زيدان ـ رواية فتاة القيروان ـ ص ١٢٥

شبهات فى رواية

صلاح الدين الأيوبى

أ) تلفيق وتزوير

ب) استخفاف وسخرية

جـ) افساد للمجتمع وتجن على التاريخ

د) اعراض عن تصوير حروب صلاح الدين للصليبين .

أ) تلفيق وتزويـــر :

ذهب جورجي زيدان — في رواية صلاح الدين الايوبي — الى أن الخليفـــة العاضد لما ضعف أمره واستولى عليه المرض استدعى صلاح الدين اليه وأوصـــاه بأهله خيرا ولا سيما اخته حيث قال على لسان الخليفة ما نصـه :

" هذه يا صديقي اختي سيدة الملك التي بعثت تخطبها وهؤلاء أبنائـي وكبيرهم داود هذا ... ... اني تارك أمرهم اليك خوفا من أن يصيبهم مكروه بعدي وأشهد عليك الله ان تأخذ بناصرهم ، فهل تعدني أنك فاعل ... (١) " .

لهذا عني زيدان بتصوير استجابة صلاح الدين لهذا الطلب والتزامـــه بالعهد الذي نقضه بعد سويعات — حسب زعم زيدان — حيث قال ان صلاح الدين حاصر قصر الخليفة بعد وفاته مباشرة واخذ كل من فيه وما فيه ، فأهدى وباع ، وأطلق وأعتق ، ولم يحتفظ الا بسيدة الملك .

وما ذكره عن استيلاء صلاح الدين على القصر صحيح ووارد في كتب التاريخ لكن لا ذكر لتلك الوصية ولا اشارة في كتب التاريخ الى سيدة الملك هذه ، بل لا وجود لتلك الوصية البتة ، والدليل على ذلك هو قول ابن الاثير :

" ولما اشتد مرض العاضد ارسل الى صلاح الدين يستدعيه فظن ذلـــك خديعة فلم يحضر اليه ، فلما توفي علم صدقه فندم على تخلفه عنه ... ... (٢) " .

معنى هذا ان الوصيـة التي ذكرها زيدان ما هـي الا تلفيق وتزويـــر ، أو وهم وخيـال ، ومن ثم نستبعد ما أراد زيدان الايحاء بـه ، وهـــو أن صلاح الدين قد نقض العهد وخان الامانة ولم يرع حقوق الاوصياء الابرياء .

---

(١) جورجي زيدان — رواية صلاح الدين الايوبي — ص ١١٨

(٢) ابن الاثير — الكامل — الجزء ١١ ص ٣٧٠

ب) استخفاف وسخرية :

جاء فى كتاب ابن الاثير ان العاضد قد أرسل الى نور الدين يستغيث به ويعرفه ضعف المسلمين عن دفع الافرنج ، وارسل فى الكتب شعور النساء وقال " هذه شعور نسائي من قصوري يستغثن بك لتنقذهن من الفرنج ٠٠٠ (١) " ٠

ولم يشر ابن الاثير ـ عند ذاك ـ الى أن نور الدين قد سخر من المسلمين أو من خليفتهم العاضد ، ولم يشر الى هذا احد سوى زيدان الذى أراد الاستخفاف والسخرية من المسلمين ، حيث وجه عدسته المصورة الى هذا الموقف وسلط عليه الاضواء ، ثم عنى بالتكبير بعد التصوير ، حيث نسج الكثير من القصص الخيالية والحكايات الخرافية حول تلك المسألة ٠

ومن تلك الخرافات ما جاء فى رواية جورجى زيدان من ان شابا صغيرا كان فى قصر نور الدين عند عرض شعور نساء خليفة المسلمين عليه فتألم لمنظر الاستجداء بشعور النساء ، لذلك طلب من نور الدين ان يعطيه خصلة من تلك الشعور ، ولما تفرس فيها قال : " ان صاحبة هذا الشعر الجميل لا تمتهن وهي اما بنت الخليفة او اخته فاني معيده اليها ٠٠٠ ٠٠٠ (٢) " ٠

وتذهب الرواية بعد هذا الى أن الشاب قد تمكن من اعادة الشعر الى صاحبته وهي أخت الخليفة وكان ذلك سببا في نشوء علاقة حب وغرام بين الشاب واخت الخليفة ، الا ان هذا الحب قد اصطدم بعقبات واخطار كشفت عن بطولة ذلك الشاب ، وهو عماد الدين الذى كان أحد جنود صلاح الدين ٠ وهذا جانب خيالي محض ، لم يقصد به زيدان الكشف عن بطولة نادرة او مواقف نبيلة ، انما أراد السخرية والاستخفاف كما قلنا ، وليس أدل على ذلك من قوله على لسان

---

(١) ابن الاثير ـ الكامل ـ الجزء ١١ ص ٣٣٦ ـ ٣٣٧

(٢) جورجى زيدان ـ رواية صلاح الدين الايوبي ـ ص ١٥٤

نور الدين في الحوار الذى أجراه بين نور الدين وبين أبي الحسن الذى كان يطمع في الخلافة :

" ... ... ولكن قوما يبلغ بهم الذل حتى يستشفعوا بشعر نسائهم لا يرجى منهم وفاء (١) " .

جـ) <u>افساد للمجتمع وتجن على التاريخ :</u>

نرى أن جل ما صوره زيدان فى رواية صلاح الدين الايوبى انما هو تخطيط وتوجيه للمجرمين كى يبرعوا في ارتكاب جرائمهم ، وفي ذلك ما فيه من افساد للمجتمع واثارة للرعب بين أفراده ، ثم اساءة وتشويه لتاريخ الاسلام والمسلمين ، عن طريق القول لشباب المسلمين هذا هو تاريخكم المجيد بما فيه من فتن ومنازعات وجرائم ومؤامرات .

هذا وقد استمد الكاتب كل تلك المواقف الاجرامية من طائفة الحشاشين على حين أن جماعة الحشاشين جماعة ضالة منحرفة ، وطائفة غير متمسكة بشيء من تعاليم الاسلام فمن التجنى على التاريخ اعتبار تاريخ هذه الطائفة المنحرفة تاريخا للاسلام ، ومن الحيف والظلم للمسلمين اعتبار هذه الفئة جزءا من المسلمين ثم تصيد أخطائها ومواقفها التي تتقزز منها النفوس وحشدها فى رواية تتحدث عن تاريخ الاسلام ليكون ذلك هو الطابع العام لتاريخ الاسلام .

ونكتفي هنا باثبات بعض تلك الامور التي ركز عليها زيدان ، والتي يكشف عنها بقوله :

" ... ... فلم يصبر راشد الدين عليه فقال : يظهر انك خائف ، لا تخف يا بنى ... انك شاب شهم ، ولست من طبقة أولئك الزعانف الجهلاء ، أنا لا

---

(١) جورجى زيدان ــ رواية صلاح الدين الايوبى ــ ص ١٥٤

أكلفك ان تقول شيئا ، وانما أسألك شعرة من شعرك وهي تنبئني ، واشار الى عبد الرحيم ان يأتيه بشعرة من ذؤابة عماد الدين ، فجاءه بها فتناولها بين السبابة والابهام وجعل يخاطب الشعرة قائلا : ياشعرة عبد الجبار قولى أين كان صاحبك حينذاك ؟ ومن هو ؟ فقالت عند يوسف صلاح الدين وهو من رجال خاصته . فلما سمع عماد الدين ذلك أوشك ان يسقط على الارض من الارتماد ... " ثم قوله :

" ... ... ولا تسل عن دهشته حين أفاق من غيبوبته وفتح عينيه فقد رأى نفسه في حديقة كالجنة بما يصفونها ... ... فنهض ونظر الى نفسه فرأى عليه ثوبا يشبه اثواب الامراء لم ير على السلطان صلاح الدين أحسن منه وعلى رأسه عمامة من نسيج مزركش بالقصب ، وقد جلس على بساط من أجمل أبسطة عصره عليه الصور المنسوجة بالذهب ... ... وبينما هو يفكر في ذلك اذ تقدمت اليه تلك المرأة وأزاحت نقابها عن رأسها ، وأرسلت شعرها الذهبي على كتفيها وهي تنظر الى عماد الدين بعينين تكادان تنطقان بعبارات الحب وتشكيان لواعج ... ... فأمسكت بأنامله وهي تقول : " ما بالك يا عبد الجبار ؟ ألا تزال تحسب نفسك في حلم ؟ أنسيت انك شربت ماء الحياة من يد مولانا الشيخ الاكبر ؟ انك في الجنة التي لا يدخلها الا المستحقون (١) " .

ثم قوله : " ... انظر يا اخي هؤلاء هم طلاب الانضمام وانت ترى الوحشية والمريدة وسفك الدماء في ملامحهم وقد اشتهرت جماعتنا هذه بالفتك فكل من يهون عليه قتل الابرياء ويضيق به الرزق يأتي الينا ... ... (٢) " .

---

(١) جورجى زيدان ـ رواية صلاح الدين الايوبى ـ ص ١٧٤ ـ ١٧٧

(٢) جورجى زيدان ـ رواية صلاح الدين الايوبى ـ ص ١٧١

وغير ذلك من الامور الغريبة العجيبة ، والتي تجعلنا وتجعل كل قارئ يتساءل لم العناية بطائفة الحشاشين ؟ ولماذا الزعم بأن شيخهم راشد الدين كان يطلع على الوقائع قبل وصول أخبارها ، وأنه يكلم الميت فيجيبه ، ويتحدث مع الشجرة فتطلعه على السر • لم كل هذا ؟ وما علاقته بتاريخ الاسلام ؟

د) اعراض عن تصوير حروب صلاح الدين للصليبيين :

لم يعن المؤلف بالتصوير الحي لشخصية صلاح الدين على الرغم من أنه الشخصية الفذة التي سجل التاريخ بطولتها في القرن الثاني عشر للميلاد ، وعلى الرغم من أن قيام الدولة الايوبية كان مصحوبا باضطلاعها بدور مهم في الحروب الصليبية • وذلك لكي يصرف انظار شباب المسلمين عن تلك الادوار المهمة وعن المواقف التي يمكن ان يستمدوا منها النور لدربهم والخطط لمناهجهم •

صرفهم عن ذلك ليشغلهم بالحديث عن خطبة صلاح الدين لاخت الخليفة العاضد (١) وبالحديث عن مكائد الحشاشين وتهديدهم لصلاح الدين (٢) ثم بمتابعة العقبات التي كانت تعترض حب عماد الدين (صاحب صلاح الدين وجنديه المخلص) لاخت الخليفة ، والكشف عن تعلق الفتاة الشديد بعماد الدين لا صلاح الدين ، ذلك الذى جعل عماد الدين في حيرة من أمره أيستجيب لرغبة المحبوبة ولو أدى ذلك إلى اغضاب صلاح الدين ؟ أم يتنازل عن الفتاة لقائده الاعلى ؟ على الرغم من أن الفتاة لا تحبه • وقد استغرق الحديث عن هذا الجانب صفحات كثيرات •••

وكل ذلك ، بل كل المواقف الغرامية التي جاءت في رواية صلاح الدين ما هي

---

(١) جورجي زيدان ـ رواية صلاح الدين الايوبي ـ ص ٦٠ ـ ٦٦

(٢) ======== ============= ـ ص ٦٦ ـ ٧٠

الا خيال ، ولا علاقة لها بتاريخ الاسلام ، بالاضافة الى أنها لا تتناسب قط مع مكانة بطل كصلاح الدين ، اذ أن زيدان نفسه قرر فى رواية ابي مسلم الخراساني أن أصحاب الافكار العظيمة والامال الكبيرة لا ينشغلون بالنساء ، وأى أمل اكبر من آمال صلاح الدين ، تلك الآمال المرتبطة بدك معاقل الصليبيين وتحطيم حصونهم لذلك حاول زيدان صرف أنظار شباب المسلمين عنها وشغلهم بذكر المؤامرات والمخاطرات الغرامية التي شغلت جزءا كبيرا من الرواية كأنما التاريخ الاسلامي لا يتكون الا من مجموع سقطات ومؤامرات ولا يتكامل الا بذكر تلك القبحات ؟؟؟ وكأنما شخصية صلاح الدين اقفرت من الجوانب التى تستحق التسجيل ، على حين أنه كان من الممكن للكاتب ان يتخذ من شخصية صلاح الدين وأمثاله وسيلة لابراز النموذج الانساني الذى يمكن ان يحتذى شريطة ان يجعل من ذلك النموذج البطل المخلص الذى " ينتظره الناس بصبر نافد فيرفع عن كواهلهم الظلم ويرد عنهم غاشية العدو ويوزع الامر بينهم بالقسط (١) " كما جاء ذلك في الادب الشعبي عن الظاهر بيبرس وغيره من الابطال .

---

(١) عبد الحميد يونس ـ الظاهر بيبرس في القصص الشعبي ـ ص ١٩

شبهات في رواية

شجرة الدر

أ ـ تشويه وخلط لحقائق التاريخ .

ب ـ تفسير غرامي لاحداث التاريخ .

جـ ـ غمز ولمز ونقد خفي .

أ ـ تشــويه وخلط لحقائق التاريخ :

يخرج القارئ لرواية شــجرة الدر لجورجي زيدان بحقائق تاريخية مشــوهــة ومحرفــة في بعض الحالات ، ذلك لان الكاتب يرى أن شــجرة الدر لم تصل الــى الحكم الا بســبب حبها لعز الدين أيبك أتابك وأنها اضطرت للتنازل بســـبب اعتراض أمير المؤمنين ، وان ذلك الاعتراض لم يأت الا نتيجة لمؤامرات سلافــة التى ركزت على حبيبها وســخرته للاطاحة بمملكة شــجرة الدر ، وليس رد فعل لغضــب المواطنين أو اســتجابة طبيعية لما تقتضيه الظروف والملابســات كما يذهب الكاتــب أيضا الى أن أمير المؤمنين لم يعترض فقط على تولية شــجرة الدر ، بل طلب منهــا أن ترســل له مغنيتها شــوكار معللا ذلك بأن امير المؤمنين مغرم بالغناء وســائر الطرب ، قائلا ان شــوكار كانت مخطوبة لركن الدين بيبرس ، ومن ثم تحرك بيبــرس ليثأر لنفســه ـ كما يزعم زيدان ـ ولشــوكار وشــجرة الدر من عزالدين ايبك اتابك الجند ومن ســلافة المجرمة التى كانت ســببا في الاطاحة بمملكة شــجرة الدر وابعاد شــوكار ، وهكذا يحرك الاحداث ويربطها بالجانب الغرامى ربطا محكما كما ســنرى فيما بعد .

وعندما نوازن بين هذه الدعاوى الواردة فى رواية زيدان وبين الحقائــــق الواردة فى الكتب التى أرخت لتلك الفترة (١) نجد البون شــاسعا والفرق واســعــا بل نجد تشــويها وتحريفا وافتراء وتزويرا تتجلى في كل سطر من السطور ، ولتصوير هذا الفرق نثبت هنــا أهم النقــاط التي وردت في تلك الكتــب او التي يمكــــن اســتخلاصها منها وهي :

---

(١) من تلك الكتب : النجوم الزاهرة ـ لابي المحاسن ، المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والاثار ـ للمقريزى ، صبح الاعشى في صناعة الانشا ـ للقلقشندى .

١) توفى السلطان الصالح نجم الدين أيوب في أواخر سنة ١٢٤٩م ، وكانت وفاته في وقت عصيب ، اذ ان لويس التاسع ملك فرنسة قد دهم مصر على رأس الحملة الصليبية السابعة واحتل دمياط وزحف على المنصورة .

٢) عند ذاك كان توران شاه بعيدا عن مصر ، حيث كان في حصن كيفا بأطراف العراق ، فتولت شجرة الدر تصريف الامور بمعاونة اتابك الجند الامير فخر الدين بن شيخ الشيوخ .

٣) هجم الصليبيون معسكر المسلمين في فبراير سنة ١٢٥٠ م وقتل الامير فخر الدين قائد الجند واقتحم الصليبيون المنصورة ، وكاد المسلمون أن يندحروا لولا لطف الله الذى هيأ لهم خروج طائفة المماليك البحرية وفي مقدمتهم ركن الدين بيبرس .

٤) تبدلت الهزيمة الى نصر وسقط كثير من الصليبيين قتلى في أزقة المنصورة وفرّ من فر لكن المسلمين لحقوا بهم فأجهزوا عليهم وأسروا لويس التاسع وكبار امرائه وقواده .

٥) بسبب ذلك الانتصار أصبح المماليك البحرية يشعرون بأهميتهم وقوتهم في البلاد .

٦) بعدئذ جاء توران شاه الى مصر ونودى به سلطانا ، ثم ساءت العلاقة بينه وبين المماليك البحرية ، لانه لا يريد ان يرى قوة تقاسمه السلطان والنفوذ ، ولانهم كانوا يكرهونه لاحتجابه عن امرائه وتهالكه على الفساد والملذات ثم انهم يخشون غدره .

٧) كما ساءت العلاقة بين شجرة الدر وبين توران شاه على الرغم من انها صانت له حقه في الملك عقب وفاة ابيه وارسلت تستدعيه من حصن كيفا ، فبدلا من أن يحسن لها أخذ يتهمها باخفاء مال أبيه ، وقد زاد هذا التصرف غضب المماليك من توران شاه .

٨) يقال : ان الامير ركن الدين بيبرس هو الذى قتل توران شاه عند ما كان في رحلة بناحية فارسكور سنة ١٢٥٠ ، وقيل اخذ على غره ، وبعد قتله استقر رأى المماليك على تولية زوجة أبيه " شجرة الدر " التى لم تكن من سلالة بني ايوب ، واشترطوا عليها ان تتزوج من عز الدين أيبك على أن تتنازل له عن السلطة .

٩) عاد زعماء المماليك وفكروا في اقامة أحد ابناء البيت الايوبي ليسكتوا الايوبيين ومن ثم اختاروا الاشرف موسى الايوبي الذى كان في السادسة من عمره عندئذ .

١٠) خرج الناصر يوسف الايوبي لغزو مصر الا أنه اندحر لان عز الدين ايبك تمكّن من انزال الهزيمة به وبجنوده ، وبسبب هذا النصر الجديد قويت شوكة المماليك فبغوا وأنزلوا بالناس ضررا عظيما .

١١) لما كثر تعنتهم واستطالتهم ضاق بهم السلطان المعز أيبك ، لذلك حاول تصفية الموقف بطرد شريكه الصغير الاشرف موسى الايوبي من السلطنة ، ومن ثم عقد صلحا مع الناصر يوسف الايوبي صاحب الشام ، ودبر مؤامرة لقتل فارس الدين أقطاى زعيم البحرية ، ففر بقية الزعماء وأولهم ركن الدين بيبرس البندقدارى .

١٢) استاء عز الدين ايبك لفرار زعماء البحرية ولم تستقر له الامور بعد ، اذ أنه اصبح يخشى زوجه شجرة الدر .

فهذا الاستعراض التاريخي الموجز يؤكد لنا أن رواية جورجي زيدان في واد والحقائق التاريخية في واد آخر ، بل ان ما ظهر فيها من احداث كان كذبا وافتراء مشوبا بمواقف غرامية مسفة .

ب) تفسير غرامي لاحداث التاريخ :

ويتضح هذا التفسير في تصوير جورجي زيدان لنساء السلطان الصالح نجم الدين ايوب بصورة النساء اللائي يتاجرن بأعراضهن في سبيل الحصول على ما

يتطلمن اليه ، حيث جعل شجرة الدر تصادق عز الدين ايبك قبل وفاة السلطان الصالح نجم الدين ، ثم تقوى هذه الصداقة بعد الوفاة ، وبسببها يبذل عز الدين جهده ــ في نظر زيدان ــ كي ينقل الملك الى شجرة الدر ، ولكن قبل ان يهنأ بهذا الملك وقبل ان يجنيا ثمار تلك اللقاءات قلب عز الدين ظهر المجن لشجرة الدر فاضطرت الى التنازل عن الحكم بسبب اعتراضات الخليفة في بغداد حسب زعم زيدان الذى قال : ان هذه الاعتراضات قد جاءت نتيجة اتصالات اجرتها الزوجة الاخرى للسلطان صالح نجم الدين والتي اسمها سلافة ، اذ استولت الغيرة عليها فحقدت على شجرة الدر وقررت ان تستخدم التاجر البغدادى سحبان في مآربها بعد ان تفتنه بجمالها وتمنيه بتحقيق آماله . ولما تحقق لسلافة ما أرادت تحولت عن سحبان واصبحت صديقة أو خليلة لعز الدين ايبك ــ في رواية زيدان ــ بعد أن شرحت له دورها في الاطاحة بمملكة شجرة الدر ، ثم اخذت تغريه بترشيح موسى رغم صغر سنه ، على ان يكون هو الرأس المدبر والعقل المفكر لتلك المملكة (١) وتكون سلافة زوجا للملك .

ومن ثم جاء دور مؤامرات شجرة الدر وتحريكها لركن الدين بيبرس تحريكا آليا عن طريق الحب والغرام حتى اقتنع بأن " سلطنة مصر أفضل من خلافة بغداد ، وقال هل أطمع فيها ؟ نعم انى طامع فيها ولكن لو قلت ذلك للناس استجهلوني وقد أكون متطرفا في مطامعي لكنني يجب ان أسمى منذ الان (٢) " فقالت شجرة الدر " ... واعلم انى فاعلة ما يتمم عملك هنا ... اقتل المستعصم وانا اقتل عزالدين وانت السلطان صاحب الامر والنهى ... (٢) " .

---

(١) جورجي زيدان ــ رواية شجرة الدر ــ ص ٥١ ، ٥٢ ، ٥٧ ، ٥٨ ، ٦٠

(٢) ======== ======== ص ٧٥ ، ٢٨

ثم يأتي دور سلافة التي يقول عنها المؤلف انها قد طلبت ركن الدين بيبرس على عجل واجرت معه حوارا سياسيا مشوبا بالغرام والدلال كي تأسره وتفتنه ثم تلقي به في الفخ وتستخدمه في مهمة ما ، لذلك أسف ركن الدين لمجيئه الى سلافة واضطر الى أن يقول لها : " ... العفو يا سيدتي لم أكن اتوقع أن أسمع هذا التلميح وانا اعلم ان مولانا الاتابك عز الدين يتردد على هذا المكان وهو صاحبه ، فتنهدت وقالت : مولاك أو مولاى الاتابك لا يستحق هذه الحظوة ، دعه وشأنه ، ما لنا وله ؟ . فقال : هل لهذا دعوتني يا سلافة في هذا الليل ؟ فأجابته وعيناها ذابلتان قائلة : وهل هذا امر قليل الاهمية في نظرك يا حبيبي ؟ ... (١) " ثم تقول له : " ويلي منك يا رجل ويا لشقائي!! أتراني عليك واصرح لك بما في قلبي وانت تصم اذنيك عني مع علمك ان اكبر امرائكم يتمنى رضاى ... (٢) " .

ويخلص من هذا كله الى أن الجانب الغرامي هو السبب الرئيسي في تغيير مجريات الاحداث وتبديل وجه التاريخ ، وتلك فرية ليس فيها مرية .

جـ) <u>غمز ولمز ونقد خفي :</u>

يتمثل هذا الغمز في الحوار الذى أجراه المؤلف بين شجرة الدر وركن الدين بيبرس حيث قالت له : " ... ... اعني المستعصم صاحب بغداد الذى استعظم ان يتولى المسلمين امرأة ، ولم يستعظم ان يتولاهم رجل عديم المروءة ضعيف الرأى مشتغل باللهو والجوارى والقيان وسماع الغناء (٣) " .

---

(١) جورجي زيدان ـ رواية شجرة الدر ـ ص ٩١ ـ ٩٢

(٢) ======== ======== ص ٩٤

(٣) ======== ======== ص ٦٩

ولا شــك في أن هذه العبارة تتضمن نقدا خفيا للقاعدة الاسلامية الممتــازة والتي تقول : " لا أفلح قوم ولوا عليهم امرأة " مع ملاحظة ان هذه القاعدة لا تعنى قط السـكوت عن اخطاء الرجال وانحرافاتهم ، كما لا تعنى ان الرجال ـ كـــل الرجال ـ لا يخطئون ، أو أن النساء ـ كل النساء ـ لا خير فيهن ، لكنهـــا تعنى ان المرأة بطبيعة تركيبها الانثوى لا تصلح لقيادة الامم والشعوب على أنهـا تقدم للامم اعظم العباقرة ، وتعطى الشــعوب اكبر قوادها ٠ فلا داعى اذن لذلك الحوار الذى لم يكن الهدف منه سـوى النقد الخفي ، ولم تكن غايته غير الغمــز واللمز الناشـئين عن عصبية صليبية عمياء لا ترى ولا تفكر ولا تسمع بأية حال ٠

• • •

الفصل الثاني

الدوافع الفنية والعقدية لروايات جورجي زيدان

أ ـ الدوافع الفنية وآثارها :

١) بعث الحوادث التاريخية
٢) تصوير دافمية الحدث
٣) استكمال ما أغفله المؤرخون
٤) التشويق لقراءة التاريخ

ب ـ الدوافع العقدية وآثارها :

١) تحوير مواقف الشخصيات التاريخية
٢) اثارة الشكوك حول البطولات الاسلامية
٣) تعمد اغفال الحوادث التاريخية المهمة
٤) اضفاء هالات مثالية على الاديرة والرهبان
٥) العرض المسيخ والتصوير الباهت
٦) التلاعب بالمصادر والمراجع

أ ـ الدوافع الفنية ومظهرها

كل كاتب روائي ـ ولا سيما كاتب الرواية التاريخية ـ انما يهدف الى احياء التاريخ أو بعث الحوادث التاريخية ، ليفيد القراء ويمتعهم ، وليجسد لهم الدروس والعبر ، فيتيح فرصة الرجوع ـ في يسر وسهولة ـ الى شواهد التاريخ ومعالم الحضارة القديمة للاقتداء والاحتذاء .

ومن ثم نستطيع أن نحصر مظاهر الدوافع الفنية وآثارها في النقاط التالية :

١) بعث الحوادث التاريخية بالتصوير الفني .

٢) تصوير داقعية الحدث والموقف وتفسيره .

٣) استكمال ما أغفله المؤرخون .

٤) التشويق لقراءة التاريخ .

وسنتناول كل نقطة من هذه النقاط بالبيان والايضاح واليك ذلك :

(١) بعث الحوادث التاريخية :

لا يراد ببعث الحوادث التاريخية ايجادها من العدم استنادا على الخيال الجامح أو المعتدل ، اذ أن مثل هذا الايجاد انما هو ضرب من الوضع والانتحال ، ولون من التلفيق والتزوير ، ولكن يراد بذلك رجوع كاتب القصة أو الرواية الى الحوادث التاريخية في مظانها ومصادرها من كتب التاريخ لينتخب منها ما يصلح لتصميد أحداث روايته وما يفيد القارئ في الفترة التي يريد الكاتب تصوير أحداثها ، وبهذا التصوير وذاك الانتخاب يكون الكاتب قد بعث حوادث التاريخ وأحياها ، بعد أن كانت جامدة هامدة في بطون المراجع التاريخية الكبيرة التي لا تمتد اليها الا أيدى المتخصصين أو المتعمقين من الدارسين .

فالكاتب القصصي القدير هو الذى ينتخب مادته من تلك المصادر التاريخية ويعمل فيها ذهنه بالحذف والزيادة ، ثم يعيد ترتيبها وتنسيقها لتخرج صورة متميزة

عما جاء في كتب التاريخ ، ومتسمة بالاناقة والابتكار ، " ولكنه مطالب لقاء ذلك بأن يتقيد بالصدق الفني أى الصدق بالامكان والاحتمال ، وأن يلتزم حدود الحقائق الانسانية الخالدة ، فاذا أباح لنفسه أن يتمتع بالحرية المتاحة له ولم يعن بتأدية الواجبات الفنية المترتبة عليه فلنا أن نحكم على عمله بالكذب والتزوير " (١) .

هذا وقد حاول جورجي زيدان بعث حوادث التاريخ الاسلامي فأعمل خياله فيها بالحذف والزيادة ، ثم أعاد تنسيقها وترتيبها ، الا أن الصورة التي رسمها جورجي زيدان لم تتميز بالجدة والابتكار ، ولم تتسم بالجودة والجمال ، اذ أن عملية النخب والاصطفاء عنده ، لم تأت لخدمة غرض فني كالكشف عن منابع السلوك الانساني الدفين ، وكالترتيب والتنسيق البديع الذى يشوق القارئ ويدعوه الى متابعة قراءة الرواية ويحضه على الاستفادة من عبر التاريخ ودروسها التي تنبعث من خلال التصوير والتفسير ، انما كان الاصطفاء عند زيدان لغرض عجيب وهدف مريب ، لذا كان تسويفه غير مقبول في كثير من الحالات ، وكان تصويره للمواقف تصويرا بعيدا عن الواقع مجانبا للصواب في كثير من الحالات .

من أمثلة ذلك التصوير تفسيره لمواقف محمد بن أبي بكر في رواية " عذراء قريش " حيث جعله ضعيفا متهافتا ينسى واجبه ويشغل نفسه بالحب والغرام دون سواهما ، ثم يحقد على الخليفة المبشر بالجنة ويسعى الى اشعال نار الفتنة ضده ، وغير ذلك من الامور التي لا تتفق مع شخصية ابن أبي بكر .

ومنها أيضا ما جاء عن أسماء بنت مريم ـ عذراء قريش ـ حيث أضاف لها أمورا غريبة " وأعمالا كبيرة لا يتوقعها الانسان من فتاة مثلها ، وشخصيتها أقرب الى شخصيات أبطال الاساطير ..... (٢) " وغير ذلك من الامور التي بالغ المؤلف في

---

(١) محمد يوسف نجم ـ فن القصة ـ ص ١٢٩

(٢) محمد يوسف نجم ـ فن القصة ـ ص ٢٠٢

تصويرها مبالغة أفقدتها المعقولية ، وأبعدتها عن جانب الحق والصواب ، وقد انتظم ذلك التصوير المبالغ فيه جميع رواية عذراء قريش وغيرها من روايات جورجي زيدان ، وقد اتضح لنا ذلك جليا ابان تحليلنا لرواياته ، ومن خلال الشبهات والمفتريات التي قمنا بدحضها وتبيين زيفها .

(٢) تصوير دافعية الحدث :

أما تصوير دافعية الحدث فهو من صنع الكاتب القصصي الماهر الذي يمتاز بقدرته على اجراء حوار نابض بالحياة بين شخصيات رواياته ، بحيث يتضمن ذلك الحوار رأيه في المواقف والاحداث التي هو بصدد تقديمها الى القراء ، أو ينتهي الحوار الى ذلك الرأى فيدل عليه دلالة ايحائية .

وتصوير الدوافع أو الايحاء بها ثم تفسيرها هو الذي يكشف عن هدف المؤلف من روايته ، وليس من الضرورى أن يصل الى هذا الهدف بطريقة مباشرة ، ولكنه يستطيع الوصول الى ذلك الهدف بما يقوله للقراء على ألسنة الشخصيات ، وبما يوحي به أو يستثيره فيهم من انفعالات ، ثم بتحليله للنفس الانسانية ، وكشفه عن دوافع السلوك التي تصطرع في داخلها ، ولهذا نجد النقاد كثيرا ما يتساءلون عن طريقة ايحاء الكاتب وتفسيره قائلين : " كيف قال أو أوحى أو استثار وهل وجد الوسائل الفنية المجدية في ابلاغ رسالته أم لم يجد ... ... (١) " .

وقد استطاع زيدان بجلاده الضني ، ومهارته في الخبث والدهاء أن يصور دافعية حوادث التاريخ الاسلامي — من وجهة نظره — ، ذلك التصوير الذى تمّ عن طريق الحوار في المواقف المختلفة والروايات المتعددة ، وقد رجع معظم تلك الحوادث الى دافع واحد هو الحب والغرام ، ذلك الحب الذى يعتبر — في تفسير زيدان — العامل الرئيسي في تحريك حوادث التاريخ الاسلامي من أجل البعث والاحياء المزعومين .

---

(١) محمد مندور — الادب وفنونه — ص ١٢٧ — ط — معهد الدراسات العربية .

وقد أدى ذلك الدافع ـ في نظر زيدان ـ الى ارتكاب حماقات واقتراف آثام وسخافات لا يقرها العرف ، ولا يقبلها العقل ، بله الدين ، ولم تقتضيها الضرورات الفنية ، وإنما أملتها نزوات وأهواء .

من ذلك ما جاء في رواية " غادة كربلاء " ـ من توسع ومبالغة قبيحة في تصوير خبر مقتل حجر بن عدى وأتباعه ، وما ترتب على ذلك من اختراع وصية انتقام ، وابتكار شخصيات لا وجود لها في واقع الحياة ، ولا ضرورة فنية أو تاريخية الى كل ذلك .

ومنه أيضا ما جاء في رواية " غادة كربلاء " من تفسير لتصرفات عبيد الله بن زياد وعدم مبالاته بالعهد الذى أعطاه لمسلم وهانئ بأنه أمر عظيم ، ونحن نرى ان الفكرة التي بنيت على أساس هذا التفسير فكرة خاطئة وهي أن الغاية تسوغ الوسيلة ، وأن الدولة تقوم على الصولجان والجبروت والطغيان ، وان على الحكام أن يصموا آذانهم عن نداء الضمير (١) كما جاء ذلك نصا في رواية زيدان ، وبالطبع ما هكذا كانت دولة الاسلام ولا يمكن أن تكون ، لأنها لو كانت كذلك في فترة ما لكانت عند ذاك قد انسلخت عن الاسلام أو ابتعدت عنه ، وعندئذ تأخذ اسما آخر غير " دولة الاسلام " أو حينئذ تحسب على الاسلام والاسلام منها براء ، لأنها بعيدة عنه مناوئة له .

(٣) استكمال ما أغفله المؤرخون :

انتهى بنا التحليل لروايات جورجي زيدان الى أن هناك دوافع فنية وعقدية حدت به وحفزته الى تكريس جهده وقصر وقته لكتابة التاريخ الاسلامي بمختلف عصوره وتقديمه الى الشباب في شكل روايات مشوقة وأقاصيص مسلية ، وقد تمثلت تلك الدوافع الفنية في مظاهر عدة وجوانب مختلفة ـ كما ذكرنا ـ منها استكمال حلقات

---

(١) جورجي زيدان ـ رواية غادة كربلاء ـ ص ١٩٢

التاريخ المفقودة ، ذلك الاستكمال الذى يجيء عادة عن طريق التفسير والتصوير ، وعن طريق الحذف والزيادة التي لا تتعارض مع الصدق الفني ، وهو الصدق بالامكان أو الاحتمال ، فهل استطاعت روايات زيدان أن تحقق هذا الصدق الفني المنشود في كل عمل أدبي ؟ وهل استطاعت ــ الى جانب ذلك الصدق ــ ان تسدّ ثلمة وتكمل نقصا بحيث يمكننا القول بأنها قد حققت ما يصبو اليه القراء من استكمال لحلقات التاريخ المفقودة ؟ وما مدى ذلك الاستكمال ؟

الدراسة والتحليل لروايات زيدان يشيران الى أن الجانب الذى تخيله جورجي زيدان والزيادات التي أضافها لم تكن ولا يمكن أن تكون استكمالا لحلقات التاريخ المفقودة ، وذلك لان الجانب الذى أضافه زيدان كان محصورا في مواقف الحب والغرام من جانب ، وفي الاديرة والرهبان وصلبانهم من جانب آخر ، وغير ذلك من الامور التي تدهش كل قارئ ، وتجعله يحار عندما يفكر في عملية الربط بين ما قرره زيدان وبين ما جاء في التاريخ الموثوق به عن الاسلام والمسلمين .

هذا وقد أشرت فيما مضى الى العديد من المواقف التي لم يعن معظم المؤرخين بتسجيلها أو ابرازها بصورة مكبرة ، وكان حَرِيًّا بكاتب الرواية التاريخية أن يعنى بها وبتصويرها وابرازها بصورة تجعلها موحية بما فيها من دروس وعبر ، ومشوقة للقارئ كي يعود الى قراءة التاريخ بغية التزود والاستعداد الى جانب الاعجاب والاكبار .

ومن أهم تلك المواقف انتشار الاسلام واندفاعه الى العالم بأسره اندفاع الحضارة الحية في الشجرة الجرداء ، ومنها ما رواه المؤرخون من أن المسلمين في حروبهم ما كانوا يقاتلون بقوة الانسان فحسب ، بل كانوا يقاتلون بقوة الروح الدينية في المقام الاول ، حيث لا موازنة بين عدد المسلمين وعدد أعدائهم آنذاك .

ويمكن أن تضاف الى هذين الموقفين مواقف أخرى كثيرة ، وهي في مجموعها تمثل المواقف التي عجز جورجي زيدان عن بعثها واحيائها فضلا عن استكمال حلقاتها

المفقودة . وكل ذلك راجع الى أن زيدان " ما كان يبيح لخياله أن يحلق الى الاعالي ليستحضر تلك الحلقات المفقودة التي تحقق اكتمال الشخصية الانسانية على الورق كما هي مكتملة في واقع الحياة ..... " (١) .

(٤) التشويق لقراءة التاريخ :

من مظاهر الدوافع الفنية للروايات التاريخية التشويق الى قراءة التاريخ لسبر أغوار النفس الانسانية واكتناه حقائقها ، ولكي يتحقق هذا التشويق لا بد أن يعمد الكاتب الروائي الى الانتخاب والاصطفاء من حوادث التاريخ الكبيرة والصغيرة، بحيث تتجمع لديه المادة التي تمكنه من رسم التاريخ وصوره في صور مكبرة تجمع أبهى المناظر وأهم المظاهر التي يوشيها الكاتب بما يشوق القارئ الى مطالعة التاريخ واستطلاع أحوال العصر ، وبما يحضه على التعرف على عادات الامة وتقاليدها المحيطة بالوقائع والاحداث .

والتشويق بهذا المفهوم لم نجد له أثرا يذكر في روايات جورجي زيدان ،وذلك لان التشويق عند زيدان قد تجسد وتمثل في عنصرين بارزين هما : عنصر الغرام الذى أسرف زيدان فيه اسرافا شديدا أدى الى الابتعاد بحوادث التاريخ عن الصور الفنية المكبرة ، والتي تجمع أبهى المناظر وأهم المظاهر التي يوشيها الكاتب بما يشوق القارئ الى مطالعة التاريخ ، ومن ثم اتسمت حوادث التاريخ أو مواقف الشخصيات التاريخية في روايات زيدان بالاسفاف والابتذال الذى لا يمتع غابرا ولا يشوق قارئا .

والعنصر الثاني الذى ركز عليه زيدان في التشويق هو الاسرار والالغاز التي لا يفصح عنها الا بعد أن يستقطب جهد القارئ فيجعله يحس بتفاهة الوسيلة

---

(١) محمد يوسف نجم — القصة في الادب العربي — ص ١٩٦

وضعتها وبعدها عن الجانب الفني بدلا من أن يشعر بأهمية الرجوع الى التاريخ .

وكل هذا يدعونا الى القول بأن ما قد يتراءى في روايات جورجي زيدان من تشويق ليس بتشويق ، ولا علاقة له بالتشويق ، وانما هو تشويه وتمزيق ، ذلك لأن كل قارئ لمعظم روايات زيدان يحس بالنفرة مما يقرأ ومما يرى من صور قاتمة للمجتمع الاسلامي في أزهى عصوره ، وهو عصر صدر الاسلام ، الامر الذى يدعو كل قارئ الى التساؤل قائلا : ما الذى حمل الكاتب على انتحال تلك الصور القاتمة والمواقف المشوهة؟ وما الذى جعله يركز عليها دون سواها من المواقف المشرقة المشرفة ويسلط عليها الاضواء ليكبرها دون أخواتها ؟ أهو التشويق أم التمزيق ؟

نحن نعتقد ونقرر — استنادا الى الدراسة والتحليل لروايات زيدان — أنه لا مسوغ لشيء من ذلك ، ولا سيما اذا وضعنا في الاعتبار ان تلك الروايات انما كتبت لشباب ينتظر منه الاعتزاز بماضيه ، ولشباب لم ترسخ أقدامه بعد في دراسة التاريخ الاسلامي ولم يشتد ساعده بحيث يميز الخبيث من الطيب . كما نقرر أيضا عدم تمسك زيدان بجميع الدوافع الفنية التي أبرزناها وبينا أهم مظاهرها ، بل نقول انه لم يستطع أن يوفر الجانب الفني المحض لجميع رواياته ، وذلك لانه : " آثر أن يلتزم جانب التاريخ — كما يزعم — في أعماله هذه ويقدمه على جانب الفن ، فانه حين تأثر بالحوادث التاريخية وما يرافقها من أحوال وعادات وأراد ان يعبر عن كل ذلك لم يستطع السيطرة على ميله الشديد لتعليم التاريخ — كما يزعم — وتعميم معرفته ، فجعل له سيطرة كبيرة على طريقته الفنية .... (١) " ولكن كيف كان تعليمه للتاريخ ؟ نرى أنه كان على طريقة المسخ والتشويه ، وجاء في صور ضعيفة لا توحي بفكرة أو هدف سام ، ولا تدل على براعة أو مقدرة فنية ، هذا الى جانب الارتكاز والاعتماد على أضعف الروايات وأتفه البواعث والاسباب المختلف فيها اختلافا بينا .

---

(١) محمد يوسف نجم — القصة في الادب العربي الحديث — ص ١٨٠

ب ـ الدوافع العقديـة وآثـارهـا

اتضح مما مضى أن هناك عوامل ودوافع كثيرة حدت بجورجي زيدان ودعته الى تكريس جهده وتفريغ وقته لكتابة تاريخ الاسلام بمختلف عصوره في شكل روايات تاريخيه ، وتبين من دراستنا لتلك الروايات أن هذه الدوافع تنحصر في جانبين رئيسين هما :

أ ـ الدوافع الفنيـة .

ب ـ الدوافع العقدية .

وقد سبق الحديث عن الدوافع الفنية ومظاهرها ، وسنتحدث في هذا البحث عن الدوافع العقدية مبينين مظاهرها وموضحين آثارها في جورجي زيدان ، ولكن لا بد من الاشارة أولا الى أن العقيدة هنا لم تكن باعثا الى الابداع والابتكار بل كانت بمثابة الدافع الى التعصب البغيض ، لانها استغلت استغلالا سيئا فأدت الى ذلك التعصب الذى عمل بدوره على تشويه الحقائق وتمزيق الشخصيات التاريخية ، لان العقيدة التي ينتمي اليها جورجي زيدان غير العقيدة التي عني بتسجيل تاريخها واهتم بتصوير مواقف المنتمين اليها ، وقد سبق أن أشرنا الى أن تعصب زيدان لم يكن تعصبا ظاهرا سافرا انما كان متسربلا بفلسفة التاريخ ومتدثرا برداء الفن الذى كان زيدان يرسل من خلاله نفثاته ، وقد تمثلت تلك الدوافع العقدية في مظاهر عديدة وجوانب كثيرة أهمها ما يلي :

١) تحوير مواقف الشخصيات التاريخيـة .

٢) اثارة الشكوك حول البطولات الاسلامية .

٣) تعمد اغفال الحوادث التاريخية المهمة .

٤) اضفاء هالات مثالية على الاديرة والرهبان .

٥) العرض المسيخ والتصوير الباهت .

٦) التلاعب بالمصادر والمراجع .

ونخص هذه المظاهر بوجازات تلقي الاضواء على كل منها ، واليك تلك الوجازات :ـ

(١) تحوير مواقف الشخصيات التاريخية :

الدراسة لروايات زيدان تؤكد أنه قد تعمد تحوير مواقف الشخصيات التاريخية تحويرا لا يتسق مع الصدق الواقعي أو الفني ، وذلك لانه انتحل أمورا كثيرة لم يرد لها ذكر عند جميع المؤرخين ،وإنما جاءت بها قريحته ونسجتها مخيلته ، كما ذكر مواقف عديدة لم يرد لها ذكر عند ثقات المؤرخين ، لكنه انتخبها وانتقاها من أضعف الروايات التاريخية ، وهذه وتلك بعيدة الاحتمال مستعصية على التصديق .

من أمثلة المواقف التي لم يذكرها المؤرخون جميع المواقف الغرامية التي كانت حجر الزاوية في كل رواية من روايات زيدان ، وهي بعيدة الاحتمال ، لانها كثيرا ما كانت تضاف الى ابن خليفة من الخلفاء الراشدين كمحمد بن أبي بكر ، أو الى خليفة من خلفاء المسلمين كهارون الرشيد ، أو الى حاكم من حكام المسلمين كالحجاج ابن يوسف ، ولان الكاتب كثيرا ما كان يبالغ في تصوير تلك المواقف مبالغة تنبعث منها الروائح الكريهة ويشيع في جوانبها العهر والفجور بحيث تجعل بطل الموقف غير مبال بمواضعات الامة وأحكام الشرع على الرغم من أنه خليفة أو ابن خليفة أو حاكم من حكام المسلمين .

ومنها أيضا ما جاء في رواية الحجاج بن يوسف من أن خالد بن يزيد قد أحب رملة بنت الزبير وأراد الزواج بها على الرغم من الخلاف بين الامويين وابن الزبير ، الى جانب تفسير هذا الموقف برغبة ابن الزبير في كسر شوكة الامويين عن طريق هذا الحب أو تلك المصاهرة .

ومنها أيضا تحوير الخطاب الذى أرسله عبد الملك بن مروان الى الحجاج بن يوسف يعتب عليه ويؤنبه على سوء تصرفه مع انس بن مالك ،والزعم (١) بأن الغرض من هذا الخطاب انما هو العتاب بشأن سمية بنت عرفجة .

---

(١) جورجي زيدان – رواية الحجاج بن يوسف – ص ١٨٤

ومنها المبالغة في تصوير ما زعم من حب الحجاج لسمية بنت عرفجة وهيامه بها هياما أخرج الموقف من اطار الصدق الفنى فضلا عن الصدق الواقعي .

ومنها ارجاع هزيمة القوط الى مساعدة اليهود للمسلمين الى جانب الحب والغرام الذى فت في عضد القوم ، وشوّه صفحة المسلمين كما أراد زيدان (١) .

(٢) اثارة الشكوك حول البطولات الاسلامية :

ويتمثل ذلك التشكيك في جوانب عدة من روايات جورجي زيدان ، أبرزها جانب الحب الذى جعله المؤلف سببا مباشرا وعاملا هاما في هزيمة الاعداء وانتصار المسلمين أو هزيمتهم ، ومثل ذلك ما ألحقه بالصحابة الاجلاء من مطاعن ابّان الفتنة التي اندلعت نيرانها في عهد الخليفتين (عثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب) وكذلك ما حاول الحاقه ببعض الشخصيات الاسلامية كهارون الرشيد الذى قدمه في صورة رجل مستهتر ماجن أو مستبد مجرم يحرم الناس أقل الحقوق الشرعية وأيسرها ، وغير ذلك من المواقف الحساسة التي تمثل صراعا بين حزبين سياسيين . أو مذهبين فكريين ، أو كتلتين تتنازعان على النفوذ والسلطان فيركز عليهما زيدان ايما تركيز تاركا المواقف المشرقة التي تمثل مجد العرب والمسلمين .

ولا ريب في أن كل تلك المواقف من شأنها أن تجعل الصورة مهتزة متأرجحة في ذهن الشباب ، وأى تشكيك أكبر من هذا بالنسبة لشباب يراد تشويقه الى قراءة التاريخ بغية الاعتزاز والافتخار بالماضي المشرق الوضّاء ، والاستفادة من أخطاء المخطئين .

(٣) تعمد اغفال الحوادث التاريخية المهمة :

أشرنا فيما مضى الى أن هناك حلقات تاريخية مفقودة ، وكان من الممكن لكاتب الرواية التاريخية أن يستكملها ، وعرفنا هناك أن زيدان لم يوفق الى هذا الاكمال ، بل

---

(١) جورجي زيدان ــ رواية فتح الاندلس ــ ص ٢٨٧

انه قد تعمد اغفال العديد من الحوادث التاريخية المهمة ، مثل غزوات الرسول عليه الصلاة والسلام ، فهو لم يصور أيا منها تصويرا فنيا متكاملا ، فضلا عن أن يستخلص دروسها وعبرها ، كما أنه أهمل الحديث عن أثر الاسلام في الدول المجاورة لدولة الاسلام في عهد الرسول عليه الصلاة والسلام وفي عهد خلفائه الراشدين ، كما أهمل الحديث عن الفتوحات العظيمة والاعمال الجليلة التي تمت في عهد الخليفة عثمان بن عفان ، وعمد الى التركيز على حوادث الفتنة ، كما عوّل على الاخبار الضعيفة عن الشقاق والخلاف المزعوم بين صحابيين جليلين كخالد وأبي عبيدة .

ومن ثم نستطيع أن نقول ان روايات زيدان على الرغم من أنها روايات لتاريخ الاسلام - لم تعمل على تكبير وتصوير ظهور الاسلام وانتشاره ثم فتوحاته في عهد الخلفاء الراشدين . هذا باستثناء حديثه عن فتح مصر والاندلس ، وقد رأينا كيف كان تصويره لفتح مصر أو الاندلس ، بل رأينا كيف كان تصويره عامة في السلسلة التي أسماها روايات تاريخ الاسلام ، حيث عني واهتم فقط بتقديم شخصيات معينة تمثل الصراع السياسي في كل مرحلة ، ففي عهد بني أمية لم يتحدث الا عن : " عذراء قريش " و " غادة كربلاء " و " الحجاج بن يوسف " . وفي عهد بني العباس لم يتحدث الا عن : " ابي مسلم الخراساني " الذي يمثل الصراع بين العناصر العربية والفارسية وعن " العباسة اخت الرشيد " التي تمثل الصراع بين الرشيد والبرامكة ثم عن " الامين والمأمون " اللذين يمثلان الصراع بين العناصر العربية والفارسية .

هذا وقد تحدثنا فيما مضى عن الباعث الفني لروايات زيدان ، وهناك أوضحنا سر هذا الانتقاء والاختيار ، بل أكدنا عدم الضرورة الفنية الى اختيار هذه المواقف دون سواها ، فلا شيء سوى الباعث العقدي الذي استغل استغلالا غير حميد فكان تعصب وكان تشويه وتمزيق للشخصيات ثم تعمد اغفال الحوادث التاريخية المهمة .

(٤) اضفاء هالات مثالية على الاديرة والرهبان :

ما من رواية من روايات جورجي زيدان الا وفيها ربط لحوادثها وشخصياتها بالكنيسة ورهبانها ، ولم يتخذ هذا الربط وسيلة فنية لتصعيد الاحداث أو تعقيد المواقف ،وانما جعل تكأة لتسليط الاضواء الكاشفة على الاديرة والرهبان ، واتخذ طريقا للاشادة بدور الكنيسة في المواقف الحرجة وغير الحرجة ، ليكون هذا هو الجانب المشرق الوضاء في سلسلة الروايات التي كتبها زيدان وأسماها روايات تاريخ الاسلام ، بل قال : " ... يصح الاعتماد على ما يجيء في هذه الروايات من حوادث التاريخ مثل الاعتماد على أى كتاب من كتب التاريخ ... " وعندما نربط بين هذا القول وبين الصور التي جاءت في رواية فتاة غسان وعذراء قريش وفتح الاندلس عن الكنيسة نستطيع ـ عند ذاك ـ التعرف على هدف الكاتب من التصوير المشرق لمواقف الكنيسة والرهبان ، ونتمكن من حصره في الحرص على اضفاء هالات مثالية على الاديرة والرهبان ، ثم الترويج لتعاليمها ، مثل سر الاعتراف ، وغيره من الامور التي جاءت في ثنايا روايات جورجي زيدان ، وما ذلك كله الا أثرا وصدى وانعكاسا للتعصب الديني الذى هو مظهر من مظاهر البواعث العقدية .

(٥) المرض المسيخ والتصوير الباهت :

لا نستطيع القول بأن جميع روايات زيدان كانت خالية من تصوير أى موقف من مواقف المسلمين الحميدة ، أو كان خاليا من الاشارة الى أى جانب من الجوانب المشرقة في تاريخهم فذاك قول لا يأتي الا من مكابر مغالط ، ومن ثم نقرر هنا ـ احقاقا للحق وتمشيا مع المنهج العلمي ـ أن زيدان قد أشار الى العديد من تلك المواقف وصور الكثير منها ، ولكن كيف كان عرضه وتصويره ؟ أهو العرض الذى يبعث الخابر المندثر ، والتصوير الذى يكمل الحلقات ويوحي بالدروس والعظات؟ أم لا وجود لشيء من ذلك ؟

تحليلنا لروايات زيدان يؤكد أن عرضه لكثير من المواقف كان مشوبا بالمسخ والتشويه ، وان تصويره في كثير من الحالات كان تصويرا ضعيفا لا يسد ثلمة ولا يكمل نقصا ، فضلا عن أن يوحي بدرس أو عبرة ، وذلك راجع الى أن زيدان عند ما كان يكتب هذه الروايات لم يكتبها باحساس المسلم الذى يستشعر من ذاته ضرورة بعث أمجاد المسلمين أو احياء تاريخهم وتشويق شبابهم للرجوع اليه بغية الاحتذاء والاستمداد ، ولا يقبل في هذا المجال ما قد يرد من أن زيدان كان يكتب باحساس العربي الذى يعتز بقوميته ، لان تلك الامجاد ما تحققت باسم العروبة وانما كانت باسم الاسلام الذى أهدر موازين الاجناس والالوان في التفاضل وفي مناصب الدولة ، حيث أسند النبي صلى الله عليه وسلم بعض مناصب الدولة الى بعض الموالي وبعض الفرس ، فولّى بلالا المدينة وفيها جلة العرب من الانصار والمهاجرين وهو عبد حبشي ، كما أسند الى مهران الفارسي ولاية اليمن فلما مات أسندها الى ابنه ، وكان النبي صلى الله عليه وسلم يقول عن سلمان الفارسي : " سلمان منا أهل البيت وسلمان ابن الاسلام " ، ولم يقل ابن العرب أو الفرس، بل ان النبي صلى الله عليه وسلم قد جعل اسامة أميرا على أكبر جيش وكان فيه كبار الصحابة ولم يروا في ذلك بأسا .

لهذا كله لا نقبل ما قد يقال من أن زيدان كان يكتب رواياته باحساس العربي الذى يعتز بقوميته ، هذا بالاضافة الى أن مفهوم القومية العربية لم يكن قد تحدد وقت كتابة زيدان لرواياته ولم يكن قد نضج بعد ، ومن ثم نستطيع ان نقول : انه كان ينقصه الاحساس الذى يحفزه الى بعث مجد المسلمين والاشادة بمواقفهم البطولية عن طريق التصوير الفني الموحى ، لذلك جاء عرضه في رواياته عرضا مسيخا وكان تصويره تصويرا باهتا ...

(٦) التلاعب بالمصادر :

لقد درج جورجي زيدان على نقل بعض الفقرات من كتب التاريخ بحذافيرها ، أى دون مساس لها بالحذف أو الزيادة ، ولكنه كثيرا ما كان يهمل وضع ذلك النقل بين علامتي تنصيص " " ومع ذلك تراه يعطي الفقرة المنقولة رقما ، ليذكر في الحاشية اسم المصدر الذى أخذ منه تلك النقلة دون ان يذكر الجزء ورقم الصفحة ، الا في القليل النادر ، ناهيك بأن يذكر الطبعة أو الناشر ، وهذا ضرب من ضروب التلاعب بالمصادر .

كما لاحظنا عليه أنه كثيرا ما كان يأخذ فقرة صغيرة من المصدر ليوهم القارئ بأن الفكرة كلها مأخوذة من ذلك المصدر على حين أن الامر ليس كذلك .

من أمثلة ذلك ما جاء في رواية عذراء قريش (١) ، حيث أثبت الكاتب فقرتين صغيرتين بين علامتي تنصيص ، والفقرتان هما : " انه طلحة بن عبيد الله " و " هذا هو الزبير " ثم أشار في الحاشية الى أن الفقرتين مأخوذتان من كتاب أسد الغابة في معرفة الصحابة ،دون أن يذكر جزءا أو صفحة ، بالاضافة الى أن الفقرتين لا تؤكدان صحة القصة التي سردها الكاتب بعنوان (أسباب الفتنة) واسترسل في سردها من ص ٥٣ ـ ٥٥ .

ومن أمثلته أيضا النقلة التي اتهم فيها ابن ابي بكر قائلا (٢) انه أخذها من كتاب " العقد الفريد " دون ان يذكر الجزء أو الصفحة . ومنه أيضا ما جاء في رواية العباسة والامين والمأمون وفتاة غسان ، وغيرها من الروايات . حيث زعم في رواية فتاة غسان أن كتاب النبي صلى الله عليه وسلم الى هرقل كان مختوما بالطين ، وزعم بأنه قد أخذ هذا القول من كتاب الاغاني ـ الجزء السادس ـ وبعد رجوعنا الى كتاب

---

(١) جورجي زيدان ـ رواية عذراء قريش ـ ص ٥٥

(٢) جورجي زيدان ـ رواية عذراء قريش ـ ص ٧٤

الاغاني الجزء السادس ص ٣٢٥ ـ ٣٣٣ طبعة بيروت ـ دار الثقافة ، وجدنا أبا الفرج يتحدث في تلك الصفحات عن قصة ابي سفيان مع هرقل . أما الحديث عن كتاب النبي عليه الصلاة والسلام الى هرقل فقد جاء في الصفحة ٣٢٧ ـ ٣٢٨ ، حيث ذكر ابو الفرج ما رواه ابن اسحاق عن كتاب النبي عليه الصلاة والسلام الى هرقل قائلا ما نصه : " قال ابن اسحاق : فقدم عليه كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم مع دحية " بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد رسول (صلى الله عليه وسلم) الى هرقل عظيم الروم . السلام على من اتبع الهدى أما بعد ، فأسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين وان تتول فان اثم الاكابر عليك " .

ثم انتقل الى سرد ما رواه ابن شهاب عن ذلك الكتاب وأثره ، ولم يشر أثناء ذلك الى أن الكتاب كان مختوما بالطين أو بغيره .

فمن أين جاء زيدان بذلك الزعم ؟ وكيف ساغ له أن ينسبه الى صاحب الاغاني ؟ لا مسوّغ ، انما هو ضرب من التلاعب بالمصادر ونمط من انماط التشويه المديدة في روايات زيدان ، وذلك كله ثمرة ونتيجة للتعصب الديني الذى هو مظهر من مظاهر البواعث الحقدية عند أمثاله الذين اهتبلوا فرصة ضعف المسلمين ،واستظلوا بظلال الاحتلال ، فنفثوا سمومهم في كل مقال .

الفصل الثالث

القيمة الفنية والموضوعية لروايات زيدان

١) مكانة روايات زيدان وآثارها في الادب العربي الحديث
٢) القيمة الفنية لروايات جورجي زيدان
٣) القيمة الموضوعية لروايات جورجي زيدان
٤) مدى استفادة الشباب المسلم من رواياته
٥) رأي وموقف من روايات جورجي زيدان

(١) مكانة روايات زيدان وآثارها في الادب العربي الحديث

تمثل روايات جورجي زيدان مرحلة بدائية لتدرج الرواية العربية ، وذلك لانها قد مهدت لظهور الرواية الفنية بخصائصها ومميزاتها الحديثة ، اذ أن روايات زيدان هي التي نقلت الرواية العربية من طور التسلية أوالترفيه الى مرحلة التعليم والتشويق .

ومن ثم يمكننا ان نعتبر جورجي زيدان من الرواد الاوائل الذين حملوا لواء التجديد في الادب العربي الحديث ، وحاولوا الخروج به من قوالبه التقليدية ، واذا كان خليل مطران أول من دعا الى التغيير في القالب الشعرى الذى كان يعتمد على البناء التجاورى لا العضوى وطبقه في شعره فان جورجي زيدان أول من حاول التوفيق بين متطلبات البيئة من ناحية وبين تأثره بالشكل الروائي الغربي من ناحية أخرى ، وبهذا استطاع ان يضع اللبنة الاولى للرواية التعليمية وقد أشار الى هذا الهدف في مقدمة رواية الحجاج بن يوسف قائلا :

" وقد رأينا بالاختبار أن نشر التاريخ على أسلوب الرواية أفضل وسيلة لترغيب الناس في مطالعته والاستزادة منه ، وخصوصا لاننا نتوخى جهدنا أن يكون التاريخ حاكما على الرواية لا هي عليه ، كما فعل بنعض الافرنج .... " .

وقد اتضح من دراستنا لثقافة جورجي زيدان أنه كان مطلعا على الثقافات الاوربية متأثرا بها ومحاولا احتذاءها في جوانب كثيرة ، ولهذا لا غرابة اذا وجدنا فيه شبها قويا وتأثرا كبيرا بالكاتب الفرنسي الكسندر دوماس الاب ، الذى كتب سلسلة من الروايات عن التاريخ الفرنسي ترصد الاحداث والمواقف التي كانت تجد وتتجدد طيلة حقبة زمنية طويلة ، اذ أنها امتدت من عصر لويس الحادى عشر الى عودة الملكية (١) كما لا غرابة في أن يوجد فيه شبه قوى وتأثر بالكاتب الانجليزى " ولتر سكوت " الذى يعد رائدا للرواية التاريخية عند الغربيين .

ومن المرجح أن تكون كتابات " ولتر سكوت " هي التي حفزت زيدان الى هذا الاتجاه وأوحت اليه بكتابة سلسلة في التاريخ الاسلامي ، كما استفاد أيضا من الكسندر دوماس ، والدليل على ذلك هو عدم وجود هذا النوع من الروايات قبل كتابة هذين الكاتبين ولا سيما ولتر سكوت (٢)

---

(١) فانتيجم ــ الرومانتيكية ــ ترجمة بهيج شعبان ــ ص ٩٩

(٢) محمد غنيمي هلال ــ الادب المقارن ــ ص

كما أن البيئة العربية كانت خالية من هذا النوع الروائي قبل ظهور روايات جورجي زيدان ، ومن ثم تمثلت آثارها في تمهيد الطريق للكتاب الاخرين ، وفي افادة قراء الادب العربي لونا أدبيا جديدا كانت له بذور وأوليات ضعيفة ، ثم اخذت تنمو على يدى جورجي زيدان ، دون أن يكتمل النمو بين يديه ، ومن ثم كان التساؤل عن قيمتها الفنية ، ولكن قبل التعرف على تلك القيمة الفنية لروايات زيدان لا بد من الاعتراف بسبقه في هذا المجال والاشادة بهذا السبق .

هذا وقد قال عنه الدكتور محمد يوسف نجم : " حاول زيدان هذه المحاولة الضخمة في التاريخ القصصي ، تلك المحاولة التي لم يسبقه اليها سابق في أدبنا ، وهي تذكر له بالتقدير وتدل على مدى ما يصل اليه الجهد الانساني اذا نظم وبني على اسس متينة من الثقافة والاطلاع والمثابرة ...... (١) " كما أشار الى أثر روايات جورجي زيدان في مجرى الفن القصصي في الادب العربي الحديث بقوله :

" وقد أثرت قصصه في مجرى الفن القصصي في الادب العربي الحديث ، فانها برواجها وانتشارها قوّت الانتاج القصصي وحببته الى الكتاب والقراء ، ثم ان قصصه هذه كانت نقلة كبيرة وخطوة واسعة وهي الخطوة الكبيرة الثانية بعد قصص سليم البستاني ، وظل كتاب القصص التاريخي عندنا يسيرون على هديها حتى قامت المدرسة الحديثة وعالجت كتابة القصة التاريخية الرومانسية .... (١) " .

(٢) القيمة الفنية لروايات زيدان

اتضح من تحليلنا لروايات زيدان أنها قد اتسمت بضعف التحليل النفسي للشخصيات في معظم الحالات ، وتميزت بالقصور والعجز عن استكمال حلقات التاريخ المفقودة ، اذ أن الكاتب ما كان يبيح لخياله أن يحلق الى الاعالى ليستحضر تلك الحلقات ، كما تميزت بضعف التصوير الفني للحوادث والمواقف الاسلامية الحاسمة ، فعدل كاتبها عن التكبير أو التضخيم لمعارك

---

(١) محمد يوسف نجم ـ القصة في الادب العربي الحديث ـ ص ٢٠٧

الاسلام الفاصلة ، هذا الى جانب ضعف العقد وتهافتها ، حيث كان يركز على الاسرار والالغاز ، وعلى المبالغات والسخافات التي لا حصر لها ، كما رأينا ابان تحليلنا لرواياته .

وكل ذلك من شأنه ان يؤدي الى التقليل من القيمة الفنية لرواياته ، بل انها تأخذ الحكم بالرداءة والضعف والهزال اذا ما وضعت في ميزان النقد الادبي الحديث ووزنت بمعاييره ، أو قيست بمقاييسه ، ذلك لاننا كثيرا ما نرى زيدان في جميع رواياته :

" يتخلى عن القصص ويدخل في تفصيلات مملة تضعف العمل القصصي وتشل حركة الحياة الانسانية فيه . وطبيمي (١) جدا أن يضعف جانب الخيال في القصة عندما تكثر التفاصيل الدقيقة ، وهذا تخرج من بين يديه قطعة جافة من الادب الموضوعي ، حظها من الحياة قليل ...... (٢) " .

وعلى الرغم من كثرة التفاصيل في روايات زيدان ، نجد كل رواية من رواياته تأتي مضغوطة في حيز ضيق لا يتعدى به حدود الاطار التاريخي المتكون من أضعف الروايات والاخبار ، أو من الاقوال التي تستهوي زيدان ، وقد انعكس أثر هذا الضغط على الخيال وعلى الحرية الفنية فكبتهما وحبسهما في اطار الحب والغرام أو في مجال المغامرات في سبيل الحب من ناحية وفي سبيل فكرة دينية أو سياسية من ناحية أخرى ، ومن ثم فقدت وحدة التأثير واصبح النسج مخلخلا مفككا ، وربما رجع التفكك ـ أيضا ـ الى اتساع الرقعة وتوزع الحوادث واختلاف البيئات كما قرر الاستاذ يوسف نجم حيث قال :

" وكثيرا ما تكون وحدة التأثير مفقودة والنسج مخلخلا مفككا لتوزع الحوادث واتساع الرقعة واختلاف البيئات وقلة العناية بابراز الحوادث المهمة وتنسيق الاحداث الصغيرة التي جانبها تنسيقا فنيا بحيث يتدرج التأثير على شعور القارئ فيتابع العمل القصصي في صعوده نحو الذروة ، وفي انحداره عنها الى الحل أو النهاية .... (٣) " .

---

(١) كذا وهو خطأ وصوابه : طبعي . بحذف الياء .
(٢) محمد يوسف نجم ـ القصة في الادب العربي الحديث ـ ص ١٨١ ـ
(٣) محمد يوسف نجم ـ القصة في الادب العربي الحديث ـ ص ١٨٣ ـ

فالقيمة الفنية اذن لروايات زيدان لا تعد و تلك النقلة الكبيرة للروايات العربية من مرحلة التسلية والترفيه الى مرحلة التعليم والتشويق ولا تتعدى التنبيه ولفت الاذهان الى الاستفادة من الرواية الغربية التي أرسيت دعائمها واكتملت قواعدها على أيدى النابغين من أبناء الغرب ، بل يمكننا القول بأن قيمتها الفنية تكمن في أنها تجربة رائدة في مجال العمل الروائي في الادب العربي ، ولذا قال بعض النقاد لاعمال زيدان الروائية :

" ولولا الاعتبارات الزمنية لعددنا اكثر قصص زيدان اعمالا هزيلة الا أن اقدامه المبكر على هذا العمل الشاق يشفع له ويجعلنا نغض الطرف عن اخطائه الفنية الكثيرة ...(١) " .

(٣) القيمة الموضوعية لروايات زيدان

اذا كانت القيمة الفنية قليلة في روايات زيدان ، فالقيمة الموضوعية لا تكاد تذكر في تلك السلسلة الطويلة العريضة ، ذلك لان الكاتب لم يلتزم - ابان تصويره - جانب الموضوعية ، بل أطلق لعاطفته وخياله العنان ، فبدل الكثير من الحقائق ، لا ليكتمل له العمل الفني أو يستقيم أمره بين يديه ، وانتحل الكثير من المواقف المسفة لا ليمت التاريخ او يشوق القارئ العادى الى الرجوع للتاريخ ، ولكن ليشوه ويمزق ، وليشكك الشباب في مصدر اعتزازه وفخره ، فعمد الى تقديم التاريخ الاسلامي تقديما ضعيفا رديئا ، والى تصويره تصويرا مشوها قبيحا ، في الوقت الذى اشاد فيه بدور الكنيسة ورهبانها ، وأبان تصرفهم ومواقفهم مع المسلمين وغير المسلمين ، لتكون الصورة عن الكنيسة وأتباعها مشرقة وضاءة في ذهن القارئ الذى قد يكون مسلما أو مسيحيا .

فأين الموضوعية او الفنية من تحريف كهذا ومن تلفيق وتزوير لا مثيل له ؟ بل أين الموضوعية من التلاعب بالمصادر ومن السخرية بالرسالة التي بعث بها نبي الاسلام (عليه الصلاة والسلام) الى قيصر الروم حيث وصفها الكاتب بأنها مختومة بالطين ؟ واين الموضوعية من الزعم الباطل بأن ابن

(١) محمد يوسف نجم - القصة في الادب العربي الحديث - ص ١٩٤

عفان كان إمعة ينقاد للشبان وينتظر توجيها ونصحا من الفتيات ؟ وأين الموضوعية من الزعم الباطل بأن ابن ابي طالب كان يتآمر ضد ابن عفان من أجل الخلافة وان أم المؤمنين كانت سفاكة دماء ؟ بينما كانت عذراء قريش داعية سلم وسلام في رواية زيدان . ثم أين الموضوعية من الاعراض عن تصوير اثر الاسلام في الكون كله حيث أخذ ينتشر ويندفع اندفاع العصارة الحية في الشجرة الجرداء ؟ أليس هذا الانتشار جزءا من تاريخ الاسلام ؟ وجزءا يستحق الابراز والتصوير ؟

لذلك كله نستطيع أن نقرر — ونحن مطمئنون — أن القارئ لروايات جورجي زيدان لا يخرج بالفائدة التي يتوخاها أو ينتظرها كل دارس أو قارئ لصفحة من صفحات المجد والفخار عبر التاريخ الطويل . هذا على الرغم من أن طريقة عرض زيدان وتصويره كانت مبنية على العرض الموضوعي ، الا أن تلك الموضوعية كانت موضوعية مشوهة ، كما كان وصفه — ابان ذلك التصوير والعرض الموضوعي — وصفا غير وظفى .

(٤) مدى استفادة الشباب المسلم من روايات زيدان

لا ننتظر استفادة — من روايات زيدان — لشباب مسلم يريد الاعتزاز بتراثه والافتخار أو الاعتزاز حافزا الى المضي قدما في طريق الآباء والاجداد ، وداعيا الى تنمية ما توارثه الابناء عن الاجداد وذلك لان روايات جورجي زيدان لم تعن ببعث التاريخ الاسلامي واحيائه ، ولان كاتبها لم يلتزم فيها جانب الموضوعية ، بالاضافة الى التهافت الفني الذى وقع فيه الكاتب فأصبحت قراءة رواياته لا تلذ الا أنصاف المتعلمين الذين يقرأون للتسلية وشغل الفراغ ولا يبحثون عن جانب جمالي أو عن فكرة نبيلة وهدف سام ، بل ان تلك الروايات — في مجموعها — تحتقر الامة الاسلامية أمة سيئة الخصال ممزقة الاوصال ومن ثم لا توجد فائدة ترتجي من تصوير كهذا أيا كان نوعه وأيا كان مصدره .

ولا يقبل في هذا المجال ما قد يقال من أن هذه الروايات بما فيها من سهولة في التعبير وتيسير لما جاء في بطون الكتب التاريخية تفيد الشباب وتمهد لهم الطريق ليتمكنوا من

القراءة في المصادر التاريخية الكبيرة دون عناء . لا نقبل هذا الرأى ، لأن تلك الروايات قد كتبت بأسلوب يجعل القارئ بعيدا كل البعد عن طريقة المؤرخين القدامى ، ويفلت المجرى الشعورى لدى القارئ المسلم ، بل كثيرا ما يجعله ينفر ويشيح بوجهه مما يرى من مسخ وتشويه لمثل الاسلام ومواقف المسلمين البطولية . فأية فائدة ترتجى من روايات كهذه ؟ وأى شباب يقبل المسخ والتشويه لتاريخ أمته ؟

(٥) رأى وموقف من روايات زيدان

نرى أن القيمة الفنية والموضوعية لروايات زيدان ضعيفة جدا ، كما نرى أنها اشتملت على كثير من الخرافات والمغالطات ، ومزجت بكثوس من السم الزعاف الذى يفت في عضد الشباب ولا سيما ذلك النوع الذى لم يقو ساعده بعد في مجال دراسة التاريخ الاسلامي ، أو معرفة معالمه البارزة التي هي بمثابة منارات الاسترشاد .

ومن ثم لا ننصح الشباب بقراءة هذه الروايات ، سواء أكانت القراءة للتسلية والامتاع الفني ، أم للتزود بحقائق التاريخ والتعرف على مجاهله ، الا بعد توجيه وارشاد الى المطاعن التي تدثرت في تلك الروايات بفلسفة التاريخ وتسربلت برداء الفن .. ونأمل أن يكون بحثنا هذا قد حقق نوعا من ذلك الارشاد والتوجيه وكشف القناع عن تلك الغمزات واللمزات الطاعنة في الاسلام ، كما نرجو من جميع كتاب القصة المسلمين المعنية بالتاريخ الاسلامي ، واليقظة عند تسجيل أحداثه وبعث أضوائه عن طريق الفن الروائي المتكامل ، ليتمكن الشباب من التعرف الى الحقائق التي طمست ، ويجد البديل الذى يروى ظمأه ويسد حاجته في مجال الرواية التاريخية ، ولتصبح روايات زيدان غير ذات أثر في الشباب الذى يرنو الى الاعتزاز بمجد الاباء والاجداد بدلا من الامتعاض أو التضجر منه ، لأن تاريخهم صب في قوالب قاتمة وأبرز في قوالب منتنة ، تفوح منها روائح الضعة والعهر والفجور .

هذا فيما اذا قدر لاولئك الكتاب التوفيق ، وكتب لرواياتهم الذيوع والانتشار لاعتمادها على الخصائص الفنية ، ولارتفاع قيمتها الادبية والعلمية والموضوعية ، والا فسيبقى الشباب

متشبثا بروايات زيدان ، وتبقى خزعبلات زيدان وأفكاره المسمومة مسيطرة على أذهان الشباب ، ولا ينفع عندئذ النقد النظرى لروايات زيدان ، أيا كان نوع ذلك النقد وكيفما كانت صورته .

خاتمة البحث

كان لا بدّ من تذييل هذا البحث بخاتمة تحدد نتائجه وتجمع أطرافه ، وتلم شتاته ومتفرقاته ، وقد رأينا أن تكون نتائج كل باب أو فصل على حدة ، وكان ذلك كله على النحو التالي :

أولا : التمهيد

توصلنا فيه الى ما يلي :

* ضرورة رسم صورة مجملة لحياة جورجي زيدان ، لأن فصل شخصية الاديب عن عمله الادبي أمر غير مستساغ ومن ثم انتهينا الى أن جورجي زيدان علم من أعلام الادب العربي الحديث دون ريب ، شرق اسمه وغرب عبر (هلاله) الذى أهل على العالم في سبتمبر عام ١٨٩٢م .
* أقوال متضاربة وأخبار متباينة حول أصل جورجي زيدان ، لكن المحقق هو انتماؤه الى ذلك الأب الذى لا يعلم عن أرومته شيئا ، والغالب أنه من عرب حوران .
* مولد جورجي زيدان في مدينة بيروت يوم ١٤ ديسمبر عام ١٨٦١م وسط اسرة يحيط بها الفقر من كل جانب .
* حالت ظروف الاسرة بين جورجي زيدان وبين الدراسة النظامية عدا الفترة القليلة التي أمضاها في المرحلة الابتدائية .
* عصاميته ساعدته على بناء نفسه وتكوين ذاته ، لذلك حرص على ألا يتولى الا الاعمال التي توفر له ضرورياته ثم تشده الى تيار الثقافة والمعرفة .
* لم يكن مشغولا بالسياسة لكنه لم ينصرف عنها انصرافا تاما فكانت له فيها مشاركات ومحاولات .
* شغل بالتأليف الا أن مؤلفاته تكاد تنحصر في الجانب التاريخي سواء أكان تاريخا مباشرا أم عن طريق القصة والرواية أم عن طريق دراسة أطوار الظواهر اللغوية وغيرها

وغيرها من الدراسات التي تدور في فلك التاريخ وتسبح في دارته •

* زيدان واحد من الذين اعجبوا بآراء المستشرقين وأشادوا بها ، بل رددوها محاولين الترويج لها والدفاع عنها •

* لم يتتلمذ جورجي زيدان على المستشرقين تلمذة مباشرة ، لكنه اتصل بهم عن طريق الدراسة لما كتبوه وعن طريق الكنيسة التي هي معبده ، اذ أن معظم المستشرقين كانوا من القسس ، ومن ثم كان تأثره بالمستشرقين عميقا •

* الراجح أن وفاة جورجي زيدان كانت يوم الثلاثاء ٢١ يوليو ١٩١٤م •

ثانيا : الباب الاول

أ — في الفصل الاول منه توصلنا الى ما يلي :

* تحديد مفهوم القصة قديما وحديثا •

* القصة العربية الحديثة ذات صلة وثيقة بالقصة العربية القديمة ، لأن الصلة بين شواهد الحضارة وأصلها صلة ثابتة لا يماري فيها الا من كان أعمى البصيرة أو كان أسير فكر ورأي مغرض •

* الادب العربي في جملته فقير في قصصه اذا قيس بأدب الامم الاخرى التي عرفها العرب كالفرس واليونان •

* ليس معنى ذلك الفقر أن الادب العربي كان خاليا من كل لون من ألوان القصص• هذا وقد ذكرنا الادلة التي تؤكد وجود القصة عند العرب القدامى ، كما حددنا مفهوم القصة والاقصوصة والرواية •

* حددنا الاطوار التي مرت بها الرواية العربية مبينين المرحلة التي تمثلها روايات جورجي زيدان •

ب — في الفصل الثاني من الباب الاول توصلنا الى ما يلي :

* انتهينا الى أنه لا فرق يذكر بين الموقف والحدث والحكاية طالما كانت الحكاية الفنية عبارة عن مجموعة أحداث مرتبة ترتيبا سببيا تنتهي الى نتيجة طبيعية لهذه الاحداث التي تدور حول موضوع واحد ٠

* بحثنا عن الاساس الجوهرى لاختيار المواقف فانتهينا الى أن الاختيار يجب الا يقتصر على مجرد التعريف بالماضي دون بعثه واحيائه ، ودون استخلاص عبرة أو درس للايحاء به عن طريق الحوار والعقد وحلها ٠

* أهمية المواقف لا ترجع الى المواقف ذاتها بقدر ما ترجع الى تفسير سلوك الشخصيات والكشف عن سلم القيم الانسانية ٠

* طريقة زيدان في اختيار المواقف كانت على النسق الذى ارتضاه معظم النقاد ، وهو اختيار المواقف التي يُرَى فيها امتدادٌ لواقع الكاتب الا أنه لم ينجح في تفسيرها ٠

ج — في الفصل الثالث من الباب الاول توصلنا الى النتائج الاتية :

* التفسير الفني للاحداث والمواقف انما هو التفسير المنطقي الذى لا يثير شبهة ولا ينم عن خبث نية أو سوء طوية ٠

* الفرق كبير بين تفسير الحوادث التاريخية وبين تحويرها أيا كان نوع ذلك التحوير وأيا كان سببه ٠

* عدم اجماع النقاد على اعطاء الكاتب الروائي الحرية المطلقة في التصرف في احداث التاريخ ٠

* تفسير زيدان لاحداث التاريخ الاسلامي يتميز بعدم المنطقية ويتسم بالتفاهة والتعسف ثم التكلف للتعليلات التي تثير في العرب والمسلمين مشاعر السخط والكره ٠

* لا مسوغ لذلك الباعث الا الدس الرخيص والتشويه المتعمد ، لانه لا يتمشى مع المنطق العام للمواقف التاريخية التي اختار منها زيدان موضوعات رواياته ، ولا يتفق مع أيسر الحقائق الاساسية لتلك الفترة ٠

ثالثا : الباب الثاني

أ — في التمهيد له توصلنا الى ما يلي :

* الفرق كبير بين الترتيب الزمني لتأليف روايات زيدان وبين الترتيب التاريخي لاحداثها .
* لا يمكن التعرف على الترتيب الزمني لتأليف تلك الروايات الا بالرجوع الى مصادرها الاولى في مجلدات مجلة الهلال .
* للعدول عن الترتيب التاريخي للحوادث هدف مشوب بخبث ودهاء .

ب — في الفصل الاول منه توصلنا الى ما يلي :

* دراسة تحليل شامل لروايات جورجي زيدان .
* ضمنا نتائج كل دراسة في خاتمة عقب التحليل لكل رواية .

ج — في الفصل الثاني من الباب الثاني توصلنا الى ما يلي :

* للاحداث أهمية قصوى في كل رواية جديرة بالبقاء ...
* أحداث روايات زيدان كانت ترد عن طريق الوصف في صورة المقال التاريخي .
* الاهتمام بالوصف التاريخي أدى الى عدم ترابط الاحداث الروائية عند جورجي زيدان .
* محاولة استرضاء القراء وتشويقهم حدا به إلى تقديم الكثير من الحوادث الغريبة والاسرار والالغاز المجيبة دون الفطنة الى الاثار المترتبة عليها .
* غرابة الاحداث الى جانب عدم ترابطها أدى الى اضعاف الحدث الروائي عند زيدان .
* أرجعنا تفكك الاحداث في روايات زيدان الى عاملين رئيسين هما :
  1) عناية المؤلف بمزج حقائق التاريخ وتحوير أحداثه .
  2) ميل المؤلف في كثير من الحالات الى فرض معلوماته عن حضارة العصر وبث أفكاره الخاصة .

* ذكرنا مجموعة من الادلة التي تؤكد وجود الضعف والتفكك في أحداث روايات زيدان .
* عيب الوصف عند زيدان يكمن في اسرافه الشديد في الوصف الى درجة تجعل الحوادث هامدة جامدة ، وتجعل الوصف غير وظفي .
* الوصف الفني هو الذى يساعد على تفسير الاحداث ويكشف عن دوافع السلوك الكامنة خلفها ، ويزيح النقاب عن منابع هذا السلوك .
* انتهينا الى أن زيدان كثيرا ما كان يختلق الحوادث ويلفق المواقف أو يحورها في بعض الحالات ، وقد ذكرنا أمثلة لكل ذلك .
* للاحداث المختلقة آثار سيئة من الوجهات : التاريخية والفنية .
* أهم الآثار السيئة هي :

١) صد المجرى الشعورى .
٢) تشويه الموضوع الاساسي .
٣) تشويه الحقائق الفرعية عن طريق الخيال الجامح الذى يعتمد على فتنة الاستهواء وسحر التمويه .
٤) هزّ الحقائق والمسلمات في ذهن شباب المسلمين .
٥) ينبعث الامتعاض والضيق من الانتساب الى تلك الامة التي بدت سيئة الخصال ممزقة الاوصال في روايات زيدان الذى كان يعتمد على مكر الحيلة ومضاء الوسيلة .
٦) بلبلة الأفكار الشباب للابتعاد بهم عن الاشياء التي تلميهم الى أمتهم وتنسبهم الى آبائهم :

* طريقة تصوير زيدان لشخصيات رواياته تتمثل في اعتماده ــ في كل رواية ــ على تصوير شخصيتين مثاليتين في فضائلهما يقوم بينهما حب يحاولان تتويجه بالزواج كما يحاولان الدفاع عن مبدأ أو هدف لهما في الحياة ، ولكن يقف في طريقهما منافس شرير يستعين بأحط الوسائل من كيد ونفاق ودس ووشاية ليفرق بين الحبيبين أو ليحارب الفكرة التي يعملان من أجلها .

* طريقة تصوير زيدان لشخصياته طريقة غير فنية لانها لم تقم على أصول فن القصة وقواعدها ، ولم ترتكز على طريقة ابتدعتها عبقرية قصاص ماهر ، اذ أنه كان يعتمد على طريقة العرض الموضوعي المشوه في كثير من الحالات دون ان يسمو الى التحليل الانساني الكامن وراء التاريخ .

د - في الفصل الثالث من الباب الثاني توصلنا الى :

* توضيح أهمية الحوار الروائي في القصة والرواية والمسرحية .
* سمة الحوار يلصقها الكاتب القصصي بكل شخصية من شخصياته لتحديد وضعها الاجتماعي وبيان روابطها بالبيئة أو المهنة .
* رفضنا استخدام العامية أسلوبا تعبيريا في القصة أو المسرحية ، لان ذلك يعد اسفافا في التعبير وابتذالا للعمل الفني ثم اعراضا عن الارتفاع بمستوى لغة الحياة اليومية والمتكلمين بها الى المكان اللائق عن طريق المسرح والقصة والمقالة .
* انتهينا الى أن زيدان كان يفر من أسلوب الحوار ويعتمد - في أغلب الحالات - على أسلوب السرد العلمي الميسر .
* الطابع العام لحوار زيدان هو الضعف والعجز والقصور عن احياء الشخصيات ، وقد بيّنا أدلة ذلك القصور عند زيدان .
* حل العقد وانفراجها كان يعتمد على المصادفة في كثير من الحالات ، بل ان التعقيد نفسه كان يجيء وليد المصادفة .
* الخاتمة السعيدة كانت ظاهرة عامة في روايات زيدان ولهذه الظاهرة دلالتان هما :

١) حرص زيدان وميله الشديد الى الخاتمة السعيدة ولو لم تكن متفقة مع مجريات الاحداث .

٢) استسلام زيدان في بعض الحالات لتحكم الحوادث التاريخية التي تفرض عليه حلا معينا فتوجهه وجهة لا تتفق مع سياق القصة الغرامية ، أو تصبح نهاية متكلفة .

رابعا : الباب الثالث

أ — في الفصل الاول منه توصلنا الى ما يلي :

* رواية فتاة غسان كانت مليئة بالشبهات والمفتريات التي أَبْرَزُها وأَوْضَحُها ما يلي :
١) الزعم بأن محمدا صلى الله عليه وسلم قد أخذ تعاليمه عن الرهبان وتأثر بتوجيهات الراهب بحيراء •
٢) السخرية والاستخفاف بوثائق العهد النبوى •
٣) وصف حادثة شق صدره صلى الله عليه وسلم بالغرابة •
٤) اثبات قصة الغرانيق بصورة موهمة ومثيرة للشكوك •
٥) ادعاء الخصومة بين صحابيين جليلين (خالد بن الوليد وابي عبيدة) •
* أوضحنا كيفية ورود تلك الشبهات ودحضناها •
* انتهينا الى أن رواية عذراء قريش قد اشتملت على شبهات وأباطيل كثيرة ابرزها وأظهرها ما يلي :
١) اتهام السيدة عائشة رضي الله عنها بالميل الى سفك الدماء والنزوع الى الشر •
٢) تجريح الصحابة واتهام بعضهم بالحقد وتدبير المؤامرات •
٣) وصف الخليفة عثمان بأنه رجل امعة وذليل مستسلم لابن عمه •
٤) افتراء عَلَى ابْنِ أبي طالب وتفسير مغرض لاسباب الفتنة •
٥) اتهام ابن أبي طالب بالتهاون في المطالبة بدم ابن عفان •
* رددنا كل شبهة من تلك الشبهات ودحضنا كل فرية من تلك المفتريات •
* توصلنا الى أن زيدان قد نفث سمومه في رواية العباسة ، وتمثلت تلك السموم في شبهات وأباطيل أبرزها وأوضحها ما يلي :
١) اتهام الرشيد بالاستهتار والمجون والاستبداد والظلم •
٢) تفسير خاطئ ومغرض لقتل بني برمك •

٣) تشـويه وتمزيق لشـخصية العباسـة •

* بينا موطن كل شـبهة في رواية العباسـة ثم ذكرنا وجه بطلانها والباعث عليها وفـي بقية الروايات كلها •

ب ــ فـي الفصل الثاني من الباب الثالث توصلنا الى ما يلي :

* حددنا البواعث الفنية لكل روايات زيدان التاريخية وحصرنا أهمها فيما يلي :
  ١) بعث الحوادث التاريخية •
  ٢) تصوير دافعية الحوادث •
  ٣) استكمال ما أغفله المؤرخون •
  ٤) التشـويق لقراءة التاريخ •

* بينا مدى تمسك جورجي زيدان بكل باعث من تلك البواعث وانتهينا الى ما يلي :
  • لم يتمكن جورجي زيدان من بعث حوادث التاريخ الاسلامي ، لان عمليـة الانتخاب والاصطفاء عنده لم تأت لخدمة غرض فني كالكشف عن منابع السـلوك الدفين •
  • اسـتطاع زيدان بجلاده الضني ومهارته في الخبث والدهاء أن يصور دافعية حوادث التاريخ الاسلامي من وجهة نظره •
  • أرجع زيدان معظم تلك الحوادث الى دافع واحد هو الحب والغرام •
  • أدى ذلك الدافع ــ في نظر زيدان ــ الى ارتكاب حماقات واقتراف آثام وسخافات •

* الجوانب التي تخيلها زيدان لم تكن ولا يمكن أن تكون اسـتكمالا لحلقات التاريـخ الاسلامي المفقودة •

* التشويق الحقيقي في الروايات التاريخية لا يتحقق الا عن طريق رسـم التاريخ وعصـوره في صور مكبّرة تجمع أبهى المناظر وأهم المظاهر التي يوشـيها الكاتب بما يشوق القارئ الى مطالعة التاريخ في فخر واعتزاز ، وبما يحضه على التعرف على عادات الامةوتقاليدها •

* التشويق بهذا المفهوم لم نجد له أثرا يذكر في روايات زيدان •
* التشويق عند زيدان تركز في عنصرين بارزين هما :
  ١) الحب والغرام •
  ٢) الاسرار والالغاز •
* توصلنا الى حصر مظاهر البواعث المقدية لروايات زيدان فيما يلي :
  ١) تحوير مواقف الشخصيات التاريخية •
  ٢) اثارة الشكوك حول البطولات الاسلامية •
  ٣) تعمد اغفال الحوادث التاريخية المهمة •
  ٤) اضفاء هالات مثالية على الاديرة والرهبان •
  ٥) العرض المسيخ والتصوير الباهت •
  ٦) التلاعب بالمصادر والمراجع •

ج — في الفصل الثالث من الباب الثالث توصلنا الى ما يلي :

* بيان مكانة روايات زيدان في الادب العربي الحديث •
* روايات زيدان أثرت في مجرى الفن القصصي عند العرب فقوت الانتاج القصصي وحببته الى الكتاب والقراء ، بل نقلته من مرحلة الى مرحلة •
* القيمة الفنية لروايات زيدان قليلة جدا ومن ثم حكمنا عليها بالضعف والهزال لما فيها من ضعف للتحليل النفسي للشخصيات ، ومن عجز عن استكمال الحلقات ثم الاعتماد على وسيلة رخيصة في التشويق وكمهت للعيرية الفنية وحبسلها في اطار الحب والغرام •
* القيمة الموضوعية لا تكاد تذكر في روايات زيدان •
* استبعدنا احتمال استفادة الشباب المسلم من تلك الروايات •
* عدم النصح بقراءة روايات جورجي زيدان الا بعد توجيه وارشاد الى المطاعن والمزالق •

* ضرورة عناية الكتاب المسلمين ببحث التاريخ الاسلامي وتصويره تصويرا فنيا مشوقا عن طريق القصة أو الرواية .
* مثل ذلك التصوير من شأنه أن يأخذ بأيدى الشباب ويجنبهم المزالق والمخاطر .

* * * * *
* * *
*

فهرست الاعلام

أ

ج

ح

خ

د

ر

ز

س

ش

ط

ع

غ

ف

ق

ك

ل

م

و

ى

• • •

فهرست أســماء الأماكن والبلــدان

أ

ب

ح

خ

د

س

ش

ص

ط

ع

غ

ق

ك

ل

م

و

• • •

فهرست المصادر والمراجع

أ

ابو الفرج الاصفهاني	كتاب الاغاني	طبعة بيروت
(ابن مسكويه) احمد بن محمد بن يعقوب / تجارب الامم		طبعة مصر
(ابن خلكان) احمد بن محمد بن ابراهيم	وفيات الاعيان	طبعة مصر
الزيات (احمد حسن الزيات)	تاريخ الادب العربي	طبعة مصر
(ابن حنبل) احمد بن احنبل	مسند الامام احمد	طبعة مصر
(شوقي) احمد شوقي	الشوقيات	طبعة مصر
(البلاذ ري) احمد بن يحيى البلاذ ري	فتوح البلدان	طبعة مصر
احمد بن يحيى البلاذ ري	انساب الاشراف	طبعة مصر
احمد أمين	ضحى الاسلام	طبعة مصر
(المقدسي) انيس المقدسي	الاتجاهات الادبية الحديثة	طبعة بيروت

ب

بهيج شعبان	الرمانتيكية (مترجم)	طبعة مصر

ت

توفيق الحكيم	تحت شمس الفكر	طبعة مصر

ج

(زيدان) جورجي زيدان	مذاكرات جورجي زيدان	طبعة مصر
جورجي زيدان	تراجم مشاهير الشرق	طبعة مصر
جورجي زيدان	تاريخ آداب اللغة العربية	طبعة مصر

(زيدان)	جورجى زيدان	تاريخ التمدن الاسلامى	طبعة مصر
	جورجى زيدان	المملوك الشارد	طبعة بيروت
	جورجى زيدان	استبداد المماليك	طبعة بيروت
	جورجى زيدان	فتاة غسان	طبعة بيروت
	جورجى زيدان	١٧ رمضان	طبعة بيروت
	جورجى زيدان	الحجاج بن يوسف	طبعة مصر
	جورجى زيدان	شارل وعبد الرحمن	طبعة مصر
	جورجى زيدان	العباسة اخت الرشيد	طبعة مصر
	جورجى زيدان	عروس فرغانه	طبعة مصر
	جورجى زيدان	عبد الرحمن الناصر	طبعة مصر
	جورجى زيدان	فتاة القيروان	طبعة مصر
	جورجى زيدان	شجرة الدر	طبعة مصر
	جورجى زيدان	أسير المتمهدى	طبعة مصر
	جورجى زيدان	أرمانوسة المصرية	طبعة مصر
	جورجى زيدان	عذراء قريش	طبعة مصر
	جورجى زيدان	غادة كربلاء	طبعة مصر
	جورجى زيدان	فتح الاندلس	طبعة مصر
	جورجى زيدان	أبو مسلم الخراسانى	طبعة مصر
	جورجى زيدان	الامين والمأمون	طبعة مصر
	جورجى زيدان	احمد بن طولون	طبعة مصر
	جورجى زيدان	الانقلاب العثمانى	طبعة مصر
	جورجى زيدان	صلاح الدين الايوبي	طبعة مصر

ح

حافظ ابراهيم	ديوان حافظ	طبعة مصر
(أبو نواس) الحسن بن هانئ	ديوان أبي نواس	طبعة بيروت
حسين مؤنس	فجر الاندلس	طبعة مصر

ز

زكي مبارك	التصوف الاسلامي في الادب والاخلاق / طبعة مصر	
زكي مبارك	النثر الفني	طبعة مصر

ط

طه حسين واحمد امين	التوجيه الادبي	طبعة مصر
طه عبد الباقي سرور	محى الدين بن عربى	طبعة مصر

ع

(النابلسى) عبد الغنى النابلسى	شرح جواهر النصوص في حل كلمات الفصوص / ط. مصر	
(الجومرد) عبد الجبار الجومرد	هارون الرشيد	طبعة بيروت
عبد الجبار الجومرد	ابو جعفر المنصور	طبعة بيروت
(ابن هشام) ابو محمد عبد الملك بن هشام بن ايوب / السيرة النبوية		طبعة مصر
(ابن خلدون) عبد الرحمن بن محمد بن خلدون / مقدمة ابن خلدون		طبعة مصر
(البشرى) عبد العزيز البشرى	المختار	طبعة مصر
عبد الحميد يونس	الظاهر بيبرس في القصص الشعبى	طبعة مصر

المؤلف	الكتاب	الطبعة
(سرحان) عبد السلام سرحان	مختارات من روائع الادب	طبعة مصر
عبد المحسن طه بدر	تطور الرواية العربية	طبعة مصر
(العقاد) عباس محمود العقاد	تمييز في الميزان	طبعة مصر
عباس محمود العقاد	العبقريات الاسلامية	طبعة بيروت
عباس محمود العقاد	ساعات بين الكتب والناس	طبعة بيروت
عباس محمود العقاد	مراجعات في الادب والفنون	طبعة بيروت
(ابن الاثير) على بن محمد بن الشيبانى	كتاب الكامل في التاريخ	طبعة بيروت
(فروخ) عمر فروخ	العرب والاسلام في الحوض الغربي من البحر الابيض المتوسط	طبعة بيروت
عمر فروخ	التصوف في الاسلام	طبعة بيروت
عمر فروخ	تاريخ الفكر العربي الى أيام ابن خلدون	ط ٠بيروت
(الجارم) على الجارم	قصة العرب في أسبانيا (ترجمه)	طبعة مصر
(الدسوقى) عمر الدسوقي	في الادب الحديث	طبعة مصر

م

(الطبرى)ابوجعفر محمد بن جرير الطبرى /تاريخ الطبرى (تاريخ الرسل والملوك/ط ٠بيروت

المؤلف	الكتاب	الطبعة
محمد عبد الغني حسن	جورجى زيدان	طبعة مصر
(الشوباشي)محمد مفيد الشوباشي	القصة العربية القديمة	طبعة مصر
(تيمور) محمود تيمور	نشوء القصة وتطورها	طبعة مصر
محمود تيمور	دراسات في القصة والمسرح	طبعة مصر
(غنيمى) محمد غنيمى هلال	النقد الادبي الحديث	طبعة مصر
محمد غنيمي هلال	الادب المقارن	طبعة مصر
(مندور) محمد مندور	الادب وفنونه	طبعة مصر

(مندور) محمد مندور	في الميزان الجديد	طبعة مصر
محمد مندور	محاضرات في القصة	طبعة مصر
(نجم) محمد يوسف نجم	القصة في الادب العربي الحديث	طبعة بيروت
محمد يوسف نجمم	فن القصة	طبعة بيروت
شوكت) محمد حامد شوكت	الفن القصصي	طبعة مصر
محمد مصطفى حلمى	ابن الفارض سلطان العاشقين	طبعة مصر
محمد مصطفى حلمى	ابن الفارض والحب الالهى	طبعة مصر
محمد حميد الله	الوثائق السياسية للعهد النبوى والخلافة الراشدة	طبعة بيروت
(هيكل) محمد حسين هيكل	حياة محمد	طبعة مصر
أبو شهبة) محمد ابو شهبة	السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة /ط ٠مصر	
(الشافعي) محمد بن ادريس الشافعى	تهذيب التهذيب	طبعة مصر
(شاكر) محمود محمد شاكر	أباطيل وأسمار	طبعة مصر
الرافعى) مصطفى صادق الرافعى	وحى القلم	طبعة مصر

الدوريات

(١) مجلة المقتطف — (٢) جريدة الزمان

(٣) مجلة الهلال — (٤) مجلة الاداب البيروتية

(٥) مجلة الرسالة (القديمة) — (٦) مجلة الثقافة (القديمة)

• • •

فهرست الموضوعات

<u>تحليل رواية فتح الانــدلس :</u>

الفصل الثانـــــــــــي

الدوافع الفنية والمقدية لروايات جورجي زيدان

(أ) الدوافع الفنية وآثارها :

(ب) الدوافع المقديـة وآثارهـا

الفصـل الثالـــث

القيمة الفنية والموضوعية لروايات زيدان

• • • • •

• • •

••